الإسلام والسلام وحوار الحضارات

الدكتور/ علي سعد محمد آل زحيفة، ١٤٣٧هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

آل زحيفة، علي سعد محمد
الإسلام والسلام وحوار الحضارات. / علي سعد محمد آل زحيفة
خميس شهران، ١٤٣٧هـ
مج ١: ٥٢٧ ص؛ ١٧×٢٤سم
ردمك: ٧-٠٨٨٠-٠٢-٦٠٣-٢٩٤
رقم الإيداع: ١٤٣٧/٤٣٠٢
١- الإسلام والحضارة. ٢- حوار الحضارات.
أ - العنوان: ديوي ٢٤١,٩٠١٩

عنوان الكتاب: الإسلام والسلام وحوار الحضارات
تأليف: الدكتور/ علي سعد محمد آل زحيفة
تاريخ الطبع: الطبعة الأولى ١٤٤٤ هـ/ ٢٠٢٣م
رقم الإيداع : ٢٠٢٢/٢٩٠٤٥م
الترقيم الدولي : ٠ -٨-٨٦٤٢٧ -٩٧٧ -٩٧٨

الناشر

مركز ليفانت للدراسات الثقافية والنشر



٤٤، شارع سوتير، أمام كلية حقوق الإسكندرية، بنار فودافون، دور٣
موبايل: ٠١٠٣٠٠٣٦٤٩١ هاتف: ٠٣٤٨٣٠٩٠٣ ـ ٠٠٢
بريد إلكترونيَ: levantegsy@gmail.com موقع إلكترونيَ: www.levantcenter.net
سوق إلكترونيَ: https://shop.levantcenter.net

الإسلام والسلام وحوار الحضارات

ومبادرة ولي العهد السعودي
الأمير/ محمد بن سلمان
للعفو والتسامح لعام ١٤٢٨هـ

إهداء لخادم الحرمين الشريفين
الملك/ سلمان بن عبد العزيز آل سعود
حفظه الله تعالى

تأليف
د. علي بن سعد آل زحيفة الشهراني

٢٠٢٣م ــ ١٤٤٤هـ





خادم الحرمين الشريفين

الملك / سلمان بن عبد العزيز – حفظه الله



إهـداء

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد.

إنه لا يسعني وأنا أعيش في ظل قيادة خادم الحرمين الشريفين – الملك سلمان بن عبد العزيز آل سعود – قائد عاصفة الحزم والعزم والنصر إن شاء الله، إلَّا أنْ أقدم عملًا مهمًا وحقيقة ملحَّة – رمزًا للمحبة والعطاء الذي أكِنُّه لخادم الحرمين الشريفين، وما يكنه غيري أيضًا في كل بلاد العالم من محبة وتقدير لرجل نحسبه –والله حسيبه– صمام الأمان بعد الله سبحانه وتعالى لبلاده وللعرب والمسلمين، وإنَّ جهوده لهي معروفة على الملأ بما قام به داخل البلاد وخارجها، وأهم ذلك هو إحقاق الحق وإرجاع المظالم، وتحقيق العدل والمساواة بين أفراد الشعب، والتواضع الجم وأداء الرسالة التي قد منحه الله إياها، وقد أقسم بها على الكتاب وطبقها بالأقوال والأفعال، وقد قام بأكبر عمل إنساني؛ وهو نصرة إخواننا المكلومين المظلومين في اليمن، ودفاعه الشريف الحازم عن بلادنا ودول الخليج في تصديه للحوثي الإيراني وعلي صالح ومن معه، وهذه أبياتٌ قلتها وهو لها أبو أحمد ومحمد:

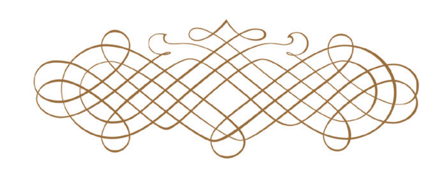
يزهو بك الشعبُ، حقًّا أنتَ حاكمه ... بك استراحَ، فلا يدنو له التعب
ويهتدي الناسُ بالجوزاء أو بحكمتكم ... في ظلمة الليل والأمواجُ تضطربُ
وضعتَ بالأمنِ دربًا أنتَ حارسهُ ... وصنتَ أرضك والأهـوالُ تقتربُ
سلمانُ، تسلم من قول ومن عملٍ ... يزهو بك الشعبُ، بل يسمو بك العربُ

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المؤلف

الدكتور/ علي بن سعد آل زحيفة الشهراني

السعودية – خميس شهران



اللهم أنت السلام، ومنك السلام
فحيّنا ربنا بالسلام وأدخلنا الجنة دار السلام،
تباركتَ وتعاليتَ يا ذا الجلال والإكرام.

قال تعالى:

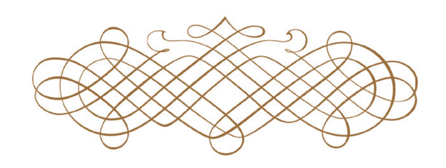
﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ ﴾

[العنكبوت، الآية ٤٦].

قال تعالى:

﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾

[آل عمران، الآية ٦٤].



مقدمــــة

أيها القارئ الكريم قبل أن تبدأ في تصفح هذا الكتاب أقدم بكلمة بسيطة ونصيحة من محب لكم: أن تطلب العلم وتتعب من أجله وتدفع الغالي والثمين في طلبه، فبالعلم تؤرخ الحضارات، وبالعلم تتقدم الأمم، وبالعلم تتسيد الدول، وبالعلم يحتاجك الغير ويأتي إليك، العلم قوة ونور وطاعة لله ورسوله، وبالعلم تضمن حياة سعيدة. أما الجهل فهو ظلام وتخلف ومصائب وفقر. والعالم ينقسم إلى طبقات من حيث العلم والجهل، فنري العالم الأول والعالم الثاني والثالث، وعالم لا يذكر، العالم بالعلم فقط والعلم هو العلم الشرعي الديني ثم العلم الوضعي، والعلم هو صمام الأمن والأمانة ومفتاح الرخاء، وقد خلق الله سبحانه وتعالى في أول خلقٍ خلقَه القلمَ للعلم لحفظه جيلًا بعد جيل، ثم أنزل أول سورة هي (اقرأ) وحث النبي ﷺ على طلب العلم، أن نفخر بديننا القويم، وقال ﷺ في الحديث الحسن الذي رواه أنس بن مالك: «طلب العلم فريضة على كل مسلم، وواضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلِّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللُّؤْلُؤَ وَالذَّهَبَ»(١).

قال سفيان بن عيينة: طلب العلم والجهاد فريضة على جماعتهم، ويجزئ فيه بعضهم عن بعض، وقرأ: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة، الآية ١٢٢].

والمسلم أيها الإخوان ينبغي أن يكون في هذه الدنيا بين حالتين اثنتين: عالم ومتعلم، ولا ثالث لهما. فعن أبي هريرة قال: قال الرسول ﷺ: «الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلَّا ذكر الله وما والاه، أو عالمًا أو متعلّمًا»(٢). وفي الأثر عن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إن استطعت فكن عالمًا، فإن لم تستطع فكن متعلمًا، وإن لم تستطع

(١) سنن ابن ماجة، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ١/ ١٥١.

(٢) سنن ابن ماجه، ٥/ ٢٣١.

فأحبَّهم، وإن لم تستطع فلا تَبغضهم»[١].

وعن عبد الله بن مسعود أنه قال: «اغد عالمًا أو متعلمًا ولا تغد إمَّعة بين ذلك»[٢]. ويروىٰ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال:

الناس من جهة التمثيل أكْفَاء ... أبوهم آدم والأم حواءُ
نفسٌ كنفسٍ وأرواحٌ مشاكِلة ... وأعظُمٌ خُلقت فيها وأعضاءُ
فإن يكن لهم من أصلهم شرف ... يفاخرون به فالطين والماءُ
ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ ... على الهدى لمن استهدى أدلاءُ
وقدر كل امرئ ما كان يحسنه ... وللرجال على الأفعال أسماءُ
وضد كل امرئ ما كان يجهله ... والجاهلون لأهل العلم أعداءُ
ففز بعلم ولا تطلب به بدلًا ... فالناس موتى وأهل العلم أحياءُ

العلم أيها القارئ الكريم هو الطريق الممهد إلىٰ الجنة، لم يسلكه طالب العلم بإخلاص ونية إلا أكرمه الله في الدنيا، ونعَّمه به في الآخرة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «ما من رجل يسلك طريقا يلتمس فيها علمًا، إلا سهل الله له طريقًا إلىٰ الجنة، ومن أبطأ به عمله لم يسرع به حسبه»[٣].

انظروا كيف عبر رسول الله ﷺ بلفظة (علم)، التي جاءت نكرة غير معرفة لتعطي معنىٰ العموم والشمول، أيّ علم (شرعيًّا كان أو دنيويًّا) يصب في خدمة الإسلام ورفعة المسلمين فمأمور به المسلم ومدفوع إليه، ولا ينبغي أن يتركه لغير المسلم بل سيجازي الله طالبه جنته ورضوانه.

أخي لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، ١/ ١٤٢.
(٢) جامع بيان العلم وفضله، ١/ ١٤٣.
(٣) جامع بيان العلم وفضله، ١/ ٦٣.

ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغة وصحبة أستاذ، وطول زمان

والإعلام الإسلامي -أخي القارئ- نوره يضيء العالم عبر هذه الشاشات التي ملأت أرجاء المعمورة، وأصبح وجوده ضروريًّا لنشر الدعوة والتعريف الحقيقي بالإسلام والارتقاء بحضارة أمَّتنا إلىٰ مصاف الحضارات العظمىٰ، والإعلام الإسلامي يجب أن يضطلع برسالة سامية، يشاركه في تحملها العالِم والمتعلِّم، ولا سيما أن مداه يصل إلىٰ العامة والخاصة، ويؤثر في العقول والوجدانات في اللحظة نفسها، وبإمكان الإعلام الإسلامي علاج التشوهات التي مرت لها الأمة وتمر بها في الوقت الراهن، والرد علىٰ الشبهات القديمة الجديدة التي يلصقها الغرب بالإسلام ويبثها في وسائل إعلامه وآلته الإعلامية الجبَّارة؛ مسموعة ومرئية ومقروءة، وأيضًا من خلال وسائل التواصل الاجتماعي المختلفة. ولذلك فإنه يتعين علىٰ الإعلام الإسلامي الاهتمام بهذه القضايا وتبنّيها ضمن استراتيجيته، ومعالجتها، وأن يخصص في برامجه برامج يقومها علماء يتكفَّلون بالرد علىٰ الشبهات وتفنيدها ودَحْضها، ونشر مفاهيم الإسلام الحقيقي، ونبين أنه دين الرحمة والعدل والتآخي علىٰ هذا الكوكب العظيم الذي جعلنا الله سبحانه خلقًا عليه واختار نبينا محمد ﷺ آخر الأنبياء والمرسلين لهذا الكوكب وأرسله لجميع خلقه من الإنس والجن.

والجهل ظلام وضعف وإهانةٌ، قال الشاعر:

يا أيهذا المدعي علمًا بلا شيخٍ لبست على الضلال ضلالا
الجهلُ جهلٌ، وهو ممن يدعي جهلان: حكم لايريد جدالا

يبدأ هذا الكتاب بتمهيد يتضمن نظرة علىٰ حوار الإسلام مع الآخرين، والحوار بين أهل الحضارات، ثم ينقسم الكتاب إلىٰ عدة محاور أولها الإسلامُ مِن الجوار إلىٰ الحوار، ويتضمن عناصر الإسلام ومُقوّمات الحوار، ثم مَبادئُ الإسلامِ وخصائصه، ومنها الربانية، والإنسانية، والشمول، والوسطية، والواقعية والوضوح، والجمع بين الثبات والمرونة، ثم منهج الأنبياء والرسل في الدعوة

إلى الله تعالى، ثم قبول الآخر في الإسلام (مكانة غير المسلمين في الحضارة الإسلامية)، ثم دراسة في محاسن الإسلام، ثم بعض ما قيل عن الإسلام، أما المحور الثاني فجاء عنوانه (كنا وأصبحنا)، ويتضمن موضوعات منها، العالمُ قبلَ الإسلامِ، و العربُ قبل الإسلامِ، وأثرُ الحضارةِ العربية على أوربا الحديثة، وكيف أصبحَ المسلمون ولماذا؟ ثَم المحور الثالث: شُبهاتٌ وردودٌ، ويتضمن موضوعات منها: الرد على الشبهات، والمرأة في الإسلام ووجهة نظر الآخر، ثم الرد على شبهات تخص المرأة، ثم يعرض الفصل نماذج مشرقة من نساء الإسلام، المحور الرابع: مِن لسانِك وليس لساني، فيتضمن موضوعات عن حديث هرقل، وآراء بعض المستشرقين، ومقالاتهم عن الإسلام والمسلمين، وكذلك يعرض هذا المحور نماذج من أعلام دخلوا الإسلام وشهدوا له.



توطئة

باسم من اسمه السلام...

باسم من له الصفات العُلىٰ، والأسماء الحسنىٰ...

باسم الخالق العظيم العليم؛ الذي خلق البشر من طين، وجعل أباهم آدم وأُمَّهم حواء.

وباسم من كوّن الكونَ، وجعل له نظامًا إلهيًّا عظيمًا. باسمه تبارك وتعالىٰ وتقدس أفتتحُ، وبه أختتمُ. الحمد لله الذي أحسن كلَّ شيءٍ خلقَه، ثم جعل نسله من سلالة مِن ماء مهين.

وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنه سبحانه أرسل رسله وأنبياءه عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لهداية البشر إلىٰ الطريق المستقيم، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ختمهم بمحمد المبعوث رحمة للعالمين.

وأثني بالصلاة والسلام علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه، وعلىٰ جميع الأنبياء والمرسلين، وعلىٰ عباد الله الصالحين. ثم أما بعد:

فإن الله تعالىٰ قد خلق الخلقَ في هذه الأرض لغاية عُظمىٰ، وهدف أسمىٰ، وسخر لهم كل ما في الأرض، وجعل لهم منهجًا أمرهم بإتباعه، وطريقًا أمرهم بسلوكه، وقد بين ربنا تبارك وتعالىٰ الحكمة من ذلك:

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ **[الذاريات، الآيات ٥٦ -٥٨]**.

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾ [آل عمران، الآية ١٦٤].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ [النساء، الآية ١٠٥].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [التوبة، الآية ٣٣].

والعبادة المقصودة هنا هي العبادة بمعناها العام، ومقصودها الشامل، وهو: السير علىٰ ما أمرنا الله به، واتباع تعاليمه، وتطبيق أوامره، وعلىٰ أنْ نكون مسلمين لا نشرك به شيئًا. فجميع الأنبياء والرسل بعثهم الله لعباده مبشرين ومنذرين أن يعبدوه وحده لا شريك له، فمن آدم عليه السلام حتىٰ آخر الأنبياء والرسل محمد ﷺ، كلهم يدعون إلىٰ الإسلام وقد قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ۚ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج، الآية ٧٨].

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل، الآيتان ٣٠ – ٣١].

قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [النمل، الآية ٨١].

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلۡبَلۡدَةِ ٱلَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَيۡءٖۖ وَأُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩١ ﴾ [النمل، الآية ٩١].

قال تعالى: ﴿ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾ [البقرة، الآية ١٢٨].

قال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ ﴾ [يونس: الآية ٨٤].

قال تعالى: ﴿ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٢ ﴾ [الحجر، الآية ٢].

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلِهِۦ مُسۡلِمِينَ ٥٣ ﴾ [القصص، الآية ٥٣].

قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ﴾ [الزخرف، الآية ٦٩].

قال تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ ﴾ [البقرة، الآية ١٣٢].

قال تعالى: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ ﴾ [البقرة، الآية ١٣٣].

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢ ﴾ [آل عمران، الآية ١٠٢].

قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٨].

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [العنكبوت، الآية ٤٦].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلۡعُمۡيِ عَن ضَلَٰلَتِهِمۡۖ إِن تُسۡمِعُ إِلَّا مَن يُؤۡمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسۡلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الروم، الآية ٥٣].

ثم إن الله تعالى قد خلق الناس جميعًا من أبٍ واحد، وهو آدم، وخلق أمَّنا حواء منه: قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ ﴾ [النساء، الآية ١].

وكما جاء في الحديث الشريف: « أنتم بنو آدم وآدم من تراب»[1].

وجعل الله تعالى الناس – بعد ذلك – شعوبًا متفرقة، وقبائل متعددة؛ وكل هذا لغاية عظيمة، وحكمة جليلة.

قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴾ [الحجرات، الآية ١٣].

فالتقارب بين الشعوب، والتعارف، والتآلف، والتعاون، والتعايش؛ كل هذا مطلوب ومرغوب؛ لتعيش البشرية كلها بسلام ووئام.

والله تعالى لم يترك الناس هملًا بلا إرشاد وتعليم وإنذار؛ ومن أجل هذا أرسل إليهم رسلًا وأنبياءَ كرامًا مبشرين ومنذرين؛ قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ

---

(١) سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ٤/ ٣٣١ رقم الحديث (٥١١٦).

﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا ١٦٤ رُّسُلٗا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٦٥﴾ [النساء، الآيات ١٦٣ - ١٦٥].

فالحمد لله سبحانه، ثم الحمد له والشكر علىٰ فضله ونعمه.

ثم إنَّ الله ﷻ ختمَ الرسالات كلها برسالة الإسلام، الذي بعث به نبيه محمدًا النبي الأمي العربي الحجازي من سلالة سيدنا إسماعيل عليه السلام.

قال تعالىٰ: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡمَلِكِ ٱلۡقُدُّوسِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢﴾ [الجمعة: الآيتان ١ - ٢].

ولقد كان بعضُ العرب -في جاهليتهم- في ظلام دامس؛ يعبدون الأصنام.. ويشربون الخمور.. وينتشر بينهم الجهل وكانوا يمارسون كثيرًا من العادات السيئة مثل: وأد البنات، واستحلال أموال الغير، واستعباد الناس بالبيع والشراء، والزنىٰ جهارًا، فقد كان هناك من يعرفن بـ«صاحبات الرايات الحُمر».

وكانت تقوم بينهم الحروب والغزوات. وتنتشر لديهم الأوهام والخرافات. وتنخر في بيئتهم الفرقة والعصبيات؛ فيغزو بعضهم بعضًا، ويسطو قويُّهم علىٰ ضعيفهم.

لا هدف لهم.. ولا دين يجمعهم.. ولا قانون يَسُوسهم.. ولا مستقبل ينتظرهم. وكان لهم مع ذلك بعضُ السجايا ومكارم الأخلاق، التي امتازوا بها عن غيرهم من الأمم، وعُرِفوا بها بين شعوب الأرض، فمن ذلك: الكرم والشجاعة والوفاء بالعهد ونجدة الملهوف والصبر علىٰ الشدائد والصدق والذَّود عن الجار وحفظ حرمته.

فامتن الله تعالىٰ عليهم بنبي الرحمة ﷺ، الذي ختم الله به الرسالات، وأرسله رحمة للعالمين. قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾ [التوبة، الآية ١٢٨]، وقد أنزل اللهُ القرآنَ بلغة العرب - لغة قريش - علىٰ محمد ﷺ،

وهو كتاب الله القرآن حبل الله الممدود، وعهده المعهود، وظله العميم، وصراطه المستقيم، وحجته الكبرىٰ، ومحجته الوسطىٰ. وهو الواضح سبيله، الراشد دليله، الذي مَن استضاء بمصابيحه أبصرَ ونجَا، ومَن أعرض عنه ضلَّ وهوىٰ. ففضائلُ القرآن لا تستقصىٰ في ألف وخمسمائة قرن، فهو حجة الله وعهده، ووعده ووعيده، به يعلم الجاهل، ويعمل العامل، ويتنبه الساهي، ويتذكر اللاهي، بشير الثواب، ونذير العقاب، وشفاء الصدور، وجلاء الأمور، من فضائله أنه يُقرأ دائمًا، ويُكتب ويُملىٰ ولا يُمَلُّ. ما أهون الدنيا علىٰ من جعل القرآن إمامه، وتصوّر الموت أمامه، طوبىٰ لمن جعل القرآن مصباح قلبه، ومفتاح لبِّه. من حق القرآن ترتيله، وتدبره، والعمل به.

والقرآن الكريم هو كتابُ اللهِ المُعْجِز، ووحيُه المنزّل علىٰ قلب محمدٍ ﷺ، بلسان عربي مبين. تحدّىٰ به أمةً كان دَيْدَنها البيان، وسجالها في الشعر، وميدان عراكها فنون الكلام.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٢﴾ [يوسف، الآية ٢].

وقال تباركت أسماؤه متحديًا الإنس والجن: ﴿وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ [البقرة، الآية ٢٣]، وقال تقدست أسماؤه: ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣﴾ [هود، الآية ١٣].

ثم قطعَ الطريق أمامهم وقرَّرَ بين أيديهم وأمامَ أعينهم أنهم لن يستطيعوا أنْ ينسجوا علىٰ منواله، أو أنْ يأتوا بشيءٍ يسير من مثاله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا، قال تعالي: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا ٨٨﴾ [الإسراء، الآية ٨٨].

نسخت فصاحتُه كلَّ الفصاحات، وبزّت بلاغتُه كل البلاغات، وعلا بيانه علىٰ كل بيان، وذهل أمامه البُلغاء، وحارت ألباب العقلاء، وخرست ألسنة الفصحاء،

وعجزوا عن مجاراته أو النسج على منواله، وأذعنوا الإعجازه، وخضعت رقابهم لسلطانه، ولسان حالهم. يقول: ﴿ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢ ﴾ [فصلت: الآيتان ٤١ – ٤٢].

والقرآن الكريم هو آخرُ الكتب السماوية، ومحمدﷺ هو آخر الأنبياء والرسل، أُرْسِلَ إلى الإنس والجن وإلى البشر كافة على وجه الأرض: عَجَمٍ وعَرَبٍ، أبيضَ وأسودَ، وإلى جميع مَن أشرقت عليه الشمس، وغرب عليه البدر. والآن نأتي إلى حوار أهل الحضارات.

نظرة على حوار الإسلام مع الآخرين

الحمد لله والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن والاه أما بعد:

فقد أرسل الله رسله جميعًا بالإسلام، فأمروا قومهم أن يوحدوا الله ولا يشركوا به شيئًا، وأن يكفروا بما عداه من المعبودات الباطلة، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [سورة النحل الآية (٣٦)] فدين الأنبياء واحد لا خلاف في ذلك بنصوص القران والآيات التي لا جدال فيها وهي واضحة وضوح الشمس في كبد السماء، فقد قال تعالىٰ ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩] قال تعالىٰ عن جميع الأنبياء: ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٤ - ٨٥]. وقال تعالىٰ: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المائدة: ٤٨]. وقال رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم :(الأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد) رواه البخاري.

ومما لا شك فيه أن دين الله تعالىٰ واحد من لدن آدم عليه السلام مرورا بجميع الأنبياء والمرسلين هذا وقد أخذ الله الميثاق علىٰ جميع الأنبياء بتصديق النبي محمد صلىٰ الله عليه وسلم، قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ

ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكْمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِيۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَاۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾ [آل عمران: ٨١].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [النساء: ٤٧].

فقد روىٰ مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلىٰ الله عليه وسلم أنه قال: «والذي نفس محمد بيده، لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار».

وعن جابر، قال رسول اللّه صلىٰ اللّه عليه وسلم: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه واللّه لو كان موسىٰ حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني) وفي بعض الأحاديث: (لو كان موسىٰ وعيسىٰ حيين لما وسعهما إلا اتباعي).

وأن الأصل في هذه الدنيا هو التسليم لله، والإسلام له، ولهذا نقرأ في الآية: «ووصىٰ بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفىٰ لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون»، وهو ما يفهم منه أن إبراهيم عليه السلام كان علىٰ الدين الإسلامي.

وتتخذ الشرائع الإسلامية أن النبي إبراهيم أصلا لها وترىٰ فيه أبا لجميع الأنبياء، وما دام أن إبراهيم عليه السلام كان مسلما فالذي يترتب علىٰ ذلك أن الأنبياء جميعهم كانوا كذلك. ونرىٰ في هذه الآية إطلاق وصف «الدين» علىٰ ما كان عليه إبراهيم عليه السلام الإسلام وذلك قبل أن تنزل رسالة النبي محمد ﷺ بقرون عدة، ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُۗ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩].

فإذن لا خلاف في أن الدين واحد وغير متعدد وإن الذهاب إلىٰ القول بصحة الأديان جميعها باطل، وتساويها في المصدر، يقودنا إلىٰ السقوط في عقيدة البداء، وهي عقيدة يهودية شهيرة، مضمونها أن الله قد يفعل أمرا ثم يبدو له أمرٌ آخر فيما بعد، أي إنه أنزل اليهودية ثم بدا له أن ينزل المسيحية... وهكذا. كما أنها تقودنا بالضرورة إلىٰ القول بتعدد الآلهة والأديان حسب طلبهم، إذ لا يستقيم في المنطق أن ينزل رب واحد ثلاثة أديان مختلفة فيما بينها في عقائد جوهرية؛ وهذان الأمران باطل. والصحيح أن الشريعة السمحة هي الإسلام، ثم كان الإسلام آخر الشرائع السماوية غير صحيح لأن الله هو من تعهد هذه المرة بالحفاظ علىٰ الكتاب من التحريف، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩ ﴾ [الحجر: ٩]. حتىٰ لا يتكرر التحريف مرة أخرىٰ، إن الأمر هنا لا يتعلق بنسخ الأديان أو أديان مختلفة لأن الدين واحد، فالإسلام لم ينسخ الأديان السابقة؛ لأنَّها غير موجودة والإسلام واحد ولكن الشرائع جميعها تهدف للإسلام والإسلام نسخ الشرائع السابقة عليه.

وأما علىٰ التفصيل فقد قال تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ٨٤ ﴾ [يونس: ٨٤]. وقال تعالىٰ علىٰ لسان عيسىٰ عليه السلام: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٥٢ ﴾ [آل عمران: ٥٢]. هذا ومما يدل أيضا أن المسمّىٰ المعتمد عند الله الحق هو الإسلام كما في قوله تعالىٰ في سورة الحج: ﴿ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ ٧٨ ﴾ [الحج: ٧٨]. أما قول بقية الأنبياء والمرسلين فقد جاء القرآن بالأقوال والآيات التي توضح أن جميعهم يدينون بدين الإسلام ومنهم فرعون من قوم موسىٰ عليه السلام حينما عذبه الله بالغرق، قال تعالىٰ حاكيًا عن فرعون: ﴿ ۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ

ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس: ٩٠].

قول سيدنا إبراهيم عليه السلام في القران الكريم: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٣٥ - ١٣٦]. وقوله تعالىٰ: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

سيدنا يعقوب عليه السلام: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [آل عمران: ٦٧].

سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [البقرة: ١٢٧ - ١٢٨].

سيدنا نوح عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [يونس: ٧٢].

سيدنا يوسف عليه السلام: قال تعالىٰ: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ [يوسف: ١٠١]. سيدنا سليمان عليه السلام وملكة سبأ:

﴿ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ [النمل: ٢٩ - ٣١].

قال سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ٣٨﴾ [النمل: ٣٨].

سيدنا لوط عليه السلام:

﴿فَأَخۡرَجۡنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٣٥ فَمَا وَجَدۡنَا فِيهَا غَيۡرَ بَيۡتٖ مِّنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٣٦﴾ [الذاريات: ٣٥ – ٣٦].

مما تقدم يتضح الآتي:

أولًا: أن دين الإسلام هو دين الله سبحانه وتعالىٰ.

ثانيًا: أن جميع الرسل والأنبياء من لدن آدم عليه السلام إلىٰ سيدنا محمد صلىٰ الله عليه وسلم كانوا مسلمين.

ثالثًا: دين الإسلام دين واحد ولكن الاختلاف في الشرائع مثل كيفية الصلاة وكيفية الصيام وكيفية سائر العبادات.

رابعًا: أن الكتب السماوية والتي نزلت إنما هي خرجت من مشكاة واحدة ولكن معظم هذه الكتب قد حرفت بفعل النفوس الضعيفة من البشر أما القرآن الكريم فقد تكفل الله بحفظة وهو في صدور المؤمنين إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها.

خامسًا وأخيراً: الدليل القاطع علىٰ أن جميع الأنبياء والمرسلين جاءوا بالدين الإسلامي هو قول الله عز وجل: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨١﴾ [آل عمران: ٨١].

فالله هو خير الشاهدين وهو خير الحافظين.

حوار أهل الحضارات

١- المؤتمر العالمي للحوار من ١٦ - ١٨ / ٧ / ٢٠٠٨م:

لقد صدرت كتبٌ عدّة بالتعاون مع رابطة العالم الإسلامي، منها كتاب: «الحوار بين أتباع الأديان[1] رؤىً عالمية»؛ وذلك لحل المشاكل التي يمكن أن تحل بالحوار. ولقد أشاد معالي الأستاذ الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي الأمين العام لرابطة العالم الإسلامي سابقا بذلك؛ مِن أجل وضع الحقائق المهمة في موقع الإصلاح الفردي والجماعي والإقليمي والدولي.



صورة من المؤتمر العالمي للحوار

---

(١) من الواجب أن يكون العنوان (الحوار بين أتباع الحضارات رؤىً عالمية)، قال تعالى ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٥]

وهذه النزاعات وتلك الصراعات لم تكن ناشئةً من رسالات الله الحقَّة، وإن تلبّست دوافعُها الاستعمارية بلبوس الدين أو الثقافة؛ بغية تحقيق قدر أكبر من المصالح الاستعمارية والنزاعات الأنانية التي يدفع إليها الشعور العنصري بالتفوق والاستعلاء العرقي. والإسلامُ بريءٌ من هذه الظاهرة الإرهابية التي لا تنتمي إلىٰ أي عِرقٍ أو عقيدة، بل هي نتاجٌ لممارسات خاطئة وانعكاسٌ لظلال كئيبة من النزاعات والممارسات السياسية الدولية التي تركت جروحًا غائرة في ذهنية الأجيال ومخيلتها، والتي لم تفرق بين الدين والتوظيف السياسي له في اللعبة الدولية، التي أثّر الإعلامُ فيها سلبًا بإشاعة الصور النمطية التي رسّخت سوء الفهم والاحتقان والتشنج الاجتماعي.

وقد دعا عقلاء العالم، وفي مقدمتهم خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ حوار الحضارات، وهي دعوةٌ صادقةٌ تفتح صفحةً جديدة لتعاون جميع الأمم لما فيه مصلحة الجميع لتحقيق السلام؛ ولوضع استراتيجية موحّدة له ومتابعة شؤونه وتنشيطه، والتنسيق والتعاون في ذلك مع مختلف الجهات المعنية.

كما انبثق عن هذا المؤتمر الدعوة لإنشاء (مركز الملك عبد الله بن عبد العزيز الدولي للتواصل بين الحضارات)؛ حيث يهدف المركز إلىٰ إشاعة ثقافة الحوار. وهذا وحده رمزٌ عالمي ودعوة إلىٰ السلام والحوار مع الآخرين، ومنها تصدر ـ إن شاء الله ـ جائزة الملك عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ للحوار الحضاري.

وكذلك نتج عن ذلك الدعوة إلىٰ مؤتمر عالمي لأتباع الحضارات والأديان بمكة المكرمة، وقد عُقِدَ مؤتمر بمدريد وحضرَه ممثلون عن دول كثيرة، وطالبوا الجمعية العامة للأمم المتحدة تأييدَ النتائج في تعزيز الحوار بين الأديان والحضارات الثقافية. وقد نتج عن هذه الفكرة طلبٌ عالميٌّ وحضورٌ دائم وإنشاء لجنة دائمة لتولي مسئولية الحوار.

وكانت لمبادرة خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ للحوار أثرها في إشاعة القيم الإنسانية؛ لتزداد الأصداءُ الإيجابية لهذه المبادرة التاريخية، ولتتضاعف المسئولية التي نستشعرها في رابطة العالم الإسلامي، التي تشرَّفَت بتنفيذ هذه المبادرة، والسهر على تطويرها لتحقق الآمال والأهداف التي رسمها خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في خطابَيْه في مؤتمريْ: «مكة المكرمة، ومدريد».

٢- الإسلام والحوار مع الآخر:

تعمل هذه المبادرة بإذن الله تعالى على تصحيح المسار ودفع الشبهة أو غير ذلك، دون تجريح أو تعنيف، فهي طريقُ معالجة الأخطاء والاعوجاج، والوصول إلى الحق المنشود على أيدي الأكْفاء من العلماء وأهل الخبرة. ومعالجة نقص الخبرة والمعرفة لدى الآخرين، وينتج عن ذلك علاج الغضب المكبوت، ورفع الغضب المتبادل الناجم عن النزاعات السابقة، وتجنب وقوعها في المستقبل، وردع السياسيين عديمي الضمير الذين اتخذوا الدينَ وسيلةً للحراكِ السياسيِّ لتحقيق أهداف سيئة.

وديننا الإسلاميُّ يدعو للحوار والاعتدال، وعدم التصرف بما يسيء للآخرين دون وجه حق، وقد قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ [البقرة، الآية ١٤٣]. وهكذا؛ فإن الحوار في شريعة الإسلام، وفي مفهوم الفكر الإسلامي، هو الحوار الذي ينزع منزعَ الوسطيّةِ والاعتدال، فهو حوارٌ بالكلمةِ الراقية، وبالمنهج السوي؛ يُسهم في تعميق وعي الإنسان، ويُثير فيه القابلية للاقتناع بشكل تدريجي بعيدٍ عن الانفعال، معترفًا بالآخرين وبحقّهم في التفكير بطريقتهم. وبهذا يوجد المجتمع الإسلامي المتوازن الذي يقود الآخرين معه إلى تنمية جوانب الخير والقيم الإنسانية المشتركة، ويعظم التمسك بمكارم الأخلاق، ليرتكز الجميع على الحق.

وإننا إذ نعيش في هذا الزمن وهذا العصر لفي أشد الحاجة لكل ما يُؤلِّفُ بين البشر، ولكلِّ ما يُزيل أسباب الوحشة والتناحر والبغضاء بينهم، فنطلب من الله أنْ يُؤلّفَ بين قلوبنا ويجعلنا جميعًا مسلمين له.

وتجاوبًا مع مَا قام به خادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ عندما قام وسارع بإطفاء الفِتَنِ التي أشعلها الجاهلون، وتهدئة الأوضاع التي أثارها الحاقدون، فقد قام رَحِمَهُ ٱللَّهُ ونادىٰ بأمم العالم كلها، مُعلنًا بالسلام وداعيًا إلىٰ إجراء «حوار الحضارات». وكان من الدعاة للتعاون والتكامل بين الحضارات، رافضًا بشدة فكرةَ تصادمها. وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ مُطبِّقًا في هذا القرآن العظيم، ومتخذًا آياتِه منهجًا وسلوكًا، وذلك في قول الله تعالىٰ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ٦٤].

ثم إنَّ خادم الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ دعا الجميعَ لما فيه الخير لهم، وذلك بالتسامح والتعايش، وصون كرامة الإنسان أيًّا كان دينه ومعتقده. جبر اللهُ به صدعَ الدين، ولمَّ به شعثَ المسلمين، وأوضحَ به سبلَ الحقِّ المبين، وأخمدَ به شُهب الباطل.

أقول: تجاوبًا مع هذه الدعوة الخيرة أردتُ أن يكون لي حظٌّ ونصيبٌ – ولو كان يسيرًا – فأدليتُ بدلوي، وساهمتُ بجهدي في هذا التوجه النبيل، فكان ثمرة هذا الجهد هو هذا الكتاب.

فإن أكن وفِّقت للصواب فمن الله تعالىٰ وفضله، وإن كان غير ذلك فمن نفسي.

وكتابي هذا إنما هو تعريف بسيط جدًّا عن الإسلام والسلام وحوار الحضارات الأخرىٰ، بالحكمة والموعظة الحسنة.

وعلى كل مسلم أن يكونَ داعية للحقِّ، يؤدي الرسالة كما قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل، الآية ١٢٥].

وكما قال رسول الله ﷺ: «بلّغُوا عَنّي ولو آية وَحَدِّثُوا عَنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلاَ حَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا، فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»(١).

ومن أراد -بعد ذلك- ما أراد؛ فله الخيار، والبراءةُ قد حصلت، والتبليغُ قد تَمّ.

قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٢٥٦].

قال تعالى: ﴿ إِنَّا خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٍ أَمۡشَاجٖ نَّبۡتَلِيهِ فَجَعَلۡنَٰهُ سَمِيعَۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيۡنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرٗا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: الآيتان ٢ - ٣]،

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٩٨].

ونحن المسلمين نؤمن بما جاء في جميع الكتب السماوية، مِن: توراة، وإنجيل، وزبور، وآخرها الفرقان (القرآن)، ونؤمنُ بجميع الأنبياءِ والرّسل، ونحبُّهم أكثر من أنفسنا وأولادنا، وهم جميعًا جذورهم وأصولهم من الجزيرة العربية وما حولها من العراق والشام ومصر، وفيها وُلدوا، ومنها بُعِثوا، وفيها دُفنوا، ومنها رُفِعَ بعضهم إلى السماء مثل عيسى ابن مريم عليه السلام. قال تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٢٨٥].

---

(١) صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ج٤/ ١٧٠، رقم الحديث ٣٤٦١.

ربما تقرأ كتابي هذا وترىٰ -للوهلة الأولىٰ - أنني أستميلُك إلىٰ أنْ تعتنقَ الإسلام، لكنني - هنا- أطرح معك حوارًا هادئًا يتّسم بالموضوعية، حوارًا بنّاءً نخرج في نهايتِه بمحصّلةٍ جديدةٍ لكلينا.

وستندرج تحت حواري هذا عدة نقاط:

السلام في القرآن الكريم:

عمَّق القرآنُ الكريم مفهومَ السلام، وحثَّ المسلمين عليه؛ وذلك مِن خلال ذكره وتنبيهه علىٰ كلِّ مَا اشتُقَّ من الأصل: (سلم). فنراه يذكر ألفاظ مثل: (الإسلام-مسلمون-مسلمات-السِّلْم-السَّلَم-سالمون-سلامٌ-سليم).

فالله ﷻ هو السلام: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الحشر، الآية ٢٣].

والجنّةُ دارُ كرامته التي يُكرم بها عبادَه الصالحين هي دار السلام: ﴿لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأنعام، الآية ١٢٧]. ﴿وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [يونس، آية ٢٥]. وقد جعل تحيّةَ المؤمنين بعضهم لبعض هي السلام: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس، الآية ١٠].

ويأمرُ الله تعالىٰ نبيَّه الخاتم بالأخذ في الأسباب المؤدية إلىٰ السلام، فيقول: ﴿وَإِن جَنَحُوا۟ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال، الآية ٦١].

بل ويأمر الله تعالىٰ كلَّ عبادِه المؤمنين بالدخول في السلام كافةً، فيقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٠٨].

وجعلَ اللهُ تعالىٰ سمةَ عباده الصالحين إذا خاطبهم السفهاء هي السلام، قالَ تعالىٰ: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان، الآية ٦٣].

وغير ذلك مِن آياتٍ ومعانٍ مختلفة خصَّ به اللهﷻ دينه الحنيف، ويكفي أن نقول: إن لفظة (السلام) وحدها وردت في النص القرآني (٤٢) مرة. وهذا ما لم يرد في نصٍّ ديني آخر غيره، وهو أحد أسماء الله التسعة والتسعين جل شأنه وتقدست أسماؤه وصفاته.

٢- السلام في السنة النبوية:

إنَّ السُّنَّةَ النبويّةَ متمِّمة لتعاليم النص القرآني الذي يدعو للسلام ومكمّلة لها أيضًا، ظهر ذلك في عدة ملامح، منها:

حينما أراد رسول اللهﷺ إرسال الرُّسل إلىٰ الملوك والقياصرة والعظماء، يدعوهم فيها إلىٰ الإسلام، فإنه ﷺ لم يبدأ رسائلَه إليهم بالوعيد والنذير والتكبُّر عليهم بصفته رسول الإنسانية الخاتم؛ بل إنه بدأها بإعلان السلام، فكان يقول: «سلامٌ علىٰ مَنِ اتبعَ الهُدىٰ».

وهذا نصُّ كتابٍ أرسلَه إلىٰ النجاشيِّ عظيم الحبشة، قالَ فيه: «هذا كتابٌ مِن النبيِّ محمد إلىٰ النجاشيِّ الأصحم، عظيم الحبشة، سَلامٌ علىٰ مَنِ اتّبعَ الهدىٰ، وآمنَ بالله ورسولِه، وشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، ولم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه. أدعوكَ بدعايةِ الله، فإنّي أنا رسولُه، فأَسْلِمْ تَسْلَمْ: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [آل عمران، الآية ٦٤].

فإنْ أبيتَ فعليكَ إثمَ النصارىٰ مِن قومِك»[1]. وقد اسلم النجاشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ

(١) سبل الهدىٰ والرشاد، محمد بن يوسف الصالحي، تحقيق مجموعة من العلماء، المجلس

وتوفي وهو في طريقه لمقابلة النبيﷺ وصلىٰ عليه الرسولﷺ والصحابةرضي الله عنهم صلاة الغائب.



صورة نادرة لخادم الحرمين الشريفين الملك عبد الله بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ
وهو يستقبل أحد القساوسة ويصافحه

وجاءت السُّنّة ـ أيضًا ـ منبّهةً علىٰ أنَّ أفضلَ الناس مَن سلم الناسُ مِن أذاه، سواء باللسان أو اليدِ، بل نبّهت علىٰ أنَّ المسلمَ لا يُعَدُّ كاملَ الإسلامِ إلا إذا سلم المسلمون من أذاه.

قالَ رسول اللهﷺ: «المسلمُ مَنْ سَلِمَ المسلمونَ مِن لسانِه ويدِه»[1].

وحثّت السُّنةُ أيضًا علىٰ إفشاء السلام (تحيّةً وعملًا) علىٰ الناسِ كافة، وجُعل ذلك أحد الأسباب المؤدية إلىٰ دخول الجنّةِ.

قالَ رسول اللهﷺ: «يا أَيُّهَا النَّاسُ! أَفْشُوا السَّلَامَ، وصِلُوا الْأَرْحَامَ، وأَطْعِمُوا

الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة ط١، ١٩٩٧م، ج١٢، ص٣٧٠.

(١) صحيح البخاري، ١ / ١١، رقم ١٠. صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، ١ / ٦٥، حديث رقم ٤١.

اَلطَّعَامَ، وصَلُّوا بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِسَلَامٍ»[١]، حتىٰ السلام علىٰ الموتىٰ مطلوب حينما ترىٰ مقبرةً للمسلمين تقول: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين أنتم السابقون وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون، أسأل الله لنا ولكم العافية»[٢].

وهكذا فإنَّ السلامَ هو الهدفُ الذي يسعىٰ الإسلامُ إلىٰ تحقيقِه مِن خلال البشرِ؛ فالإسلامُ يُقصد به التسليمُ وإسلامُ الوجه لله، كما أنَّ تحيةَ المسلم لأخيه المسلم هي (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)، وحينما يدخلُ المسلمُ في صلاتِه فإنّه يُسلِّمُ علىٰ رسولِ الله ﷺ وعلىٰ كلِّ عبادِ الله الصالحين، يقول: «السلام عليك أيها النبيُّ، السلام علينا وعلىٰ عباد الله الصالحين». حتىٰ إنَّ المسلمَ يختتمُ صلاتَه بالسلام يَمْنةً ويَسْرةً، ولعل في ذلك معنىٰ خفيًّا يشير إلىٰ ابتغاء السلام في المشرقِ والمغربِ.

ويؤكد المفكر الإسلامي محمد عمارة[٣] أن أصل الإسلام يبدأ بالمصافحة[٤]، والمصافحة باليد تحديدًا تعطي معنىٰ الأمن بين كُلٍّ مِن المتصافحَيْنِ. ويستطرد قائلًا: إن الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ أشار قائلًا: «إن الإسلام مأخوذ من اسم الله عَزَّ وَجَلَّ وهو (السلام)، والذي معناه: (الذي يُطَمْئِنُ عبادَه من الخوف ويؤمّنهم مِن كل شرٍّ). وقال النبي ﷺ: «أتاكم أهل اليمن، هم أرق قلوبًا منكم، وألين أفئدة، وهم أول من جاء بالمصافحة»[٥].

وقد قال نبينا الكريم محمد ﷺ لأصحابه: «إذا دخلتم قريةً أو بلدةً فلا تقتلوا الشيوخ ولا النساء ولا الغلمان، ومن أمَّنكم علىٰ ماله وعِرْضه فأمِّنوه، ومَن شهد شهادة الإسلام فقد أَمِنَ علىٰ ماله وولده وعرضه، وكل ما يملك، ومَن لم يشهد فلا تقتلوه إلا أن يقاتلكم». والأمان والسلام مطلوب حتىٰ في الحروب فهذه

---

(١) سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد، ٤ / ٢٣٣، رقم الحديث ٢٤٨٥.

(٢) صحيح مسلم، ١/ ٢١٨، رقم الحديث ٢٤٩.

(٣) محمد عمارة: هذا هو الإسلام، دار النهضة العربية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٨، ص ٣٠-٣١.

(٤) المعلوم أن أول من جاء بالمصافحة هم أهل اليمن، وقد أقرهم الرسول ﷺ علىٰ ذلك.

(٥) صحيح البخاري، ٥ / ١٧٣، رقم الحديث ٤٣٨٨. صحيح مسلم، ١ / ٧٢، رقم الحديث ٥٢.

صفات نبيلة اتصف بها نبينا محمدﷺ، وهذه الصفات يجب أن يتصف بها كل مسلم في معاملاته مع الناس ومع أهله.

فعن جُبير بن مُطْعِمٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماءً: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر، الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب، الذي ليس بعده أحدٌ، وقد سماه الله: رؤوفًا رحيمًا»[(١)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها[(٢)].

وفي رواية: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئًا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادمًا، إلَّا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله، فينتقم لله عز وجل[(٣)].

وعن علي رضي الله عنه قال: لقد رأيتنا يوم بدر، ونحن نلوذ برسول الله ﷺ، وهو أقربنا إلي العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسًا[(٤)].

وعن عثمان رضي الله عنه قال: إنا والله قد صَحِبْنا رسول الله ﷺ في السفر والحضر، وكان يعود مرضانا، ويتبع جنائزنا، ويغزو معنا ويواسينا بالقليل والكثير، وإنّ ناسًا يُعلّموني به، عسى أن لا يكون أحدُهم رآه قطّ[(٥)].

وعن علي رضي الله عنه قال: مرت على رسول الله ﷺ إبل الصدقة، فأخذ وبرة من ظهر بعير، فقال: «وما أنا بأحقَّ بهذه الوبرة من رجل من المسلمين»[(٦)].

---

(١) صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ٤/ ١٨٢٨، حديث رقم ٢٣٥٤.

(٢) صحيح البخاري، تحقيق: محمد زهير الناصر، ٤/ ١٨٩، حديث رقم ٣٥٦٠.

(٣) صحيح مسلم، ٤/ ١٨١٤، حديث رقم ٢٣٢٨.

(٤) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ٢/ ٨١، رقم الحديث ٦٥٤.

(٥) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١/ ٥٣٢، رقم الحديث ٥٠٤.

(٦) مسند أبي يعلى الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، ١/ ٣٥٨.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تُطْروني كما أطْرَتِ النصارىٰ عيسي ابنَ مريم؛ فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١).

وعن عبد الله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: انطلقت في وفد بني عامر إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيد الله تبارك وتعالي» قلنا: وأفضلنا فضلًا، وأعظمنا طَوْلًا». فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرِيَنّكم الشيطان»(٢).

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: ما كان شخص أحبَّ إليهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وكانوا إذا رأوه لم يقوموا؛ لما يعلمون من كراهيته لذلك(٣).

عن أبي مسعود البدري رضي الله عنه قال: أتي النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ فكلمه، فجعل ترعد فرائصُه، فقال له: «هَوِّنْ عليك؛ فإني لست بمَلِك، إنما أنا ابن امرأة تأكل القَديد»(٤).

عن أبي موسي الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث أحدًا من أصحابه في بعض أمره قال: «بَشِّروا، ولا تُنفِّروا، ويَسِّروا، ولا تُعسِّروا»(٥).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أنا أولي الناس بعيسي ابن مريم في الأولىٰ والآخرة». قالوا: كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من عَلَّاتٍ، أمهاتهم شتىٰ، ودينهم واحد، فليس بيننا نبي»(٦).

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبىٰ» قالوا: يا رسول الله، ومن يأبىٰ؟! قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني

---

(١) صحيح البخاري، ٤/ ١٦٧، رقم الحديث ٣٤٤٥.

(٢) سنن أبي داود، ٧/ ١٨٤، رقم الحديث ٤٨٠٦.

(٣) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ج١٩/ ٣٥٠، رقم الحديث ١٢٣٤٥.

(٤) صحيح ابن ماجه، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، ٤/ ٤٣٠، رقم الحديث ٣٣١٢.

(٥) صحيح مسلم ٣/ ١٣٥٨، حديث رقم ١٧٣٢.

(٦) مسند الإمام أحمد بن حنبل، ١٦/ ١٨٠، رقم الحديث ١٠٢٥٨.

فقد أبىٰ »(١).

وفي الحقيقة إذا نظرنا يا أخي إلىٰ الإسلام والسلام فإننا سنجدهما وجهين لهدف واحد.

(فالإسلام): هو الدين الذي أُرسل به محمدٌ ﷺ إلىٰ العالمين كافة الإنس والجن، ورسالته آخر الرسالات السماوية، فكل رسولٍ أُرسل إلىٰ قومه إلا محمدًا فإنه أُرسل للعالمين الإنس والجن، وإلىٰ البشر كافة علىٰ وجه الأرض.

وهذا الإسلام منبعه مكة المكرمة المسجد المعروف للعالم الواقع في منطقة الحجاز التِّهامية موقع قبر سيد البشر آدم عليه السلام ونشأة سيدنا إسماعيل عليه السلام ونبينا محمد ﷺ، وهذا المكان هو الجزء الجنوبي الغربي من جزيرة العرب أو شبه الجزيرة العربية. وهذه الأرض الطاهرة مليئةٌ بمواطن عمرت بالوحي والتنزيل، وتردد بها جبريل وميكائيل، وعرجت منها الملائكة والرُّوح، وضجّت عرصاتُها بالتقديس والتسبيح، واشتملت تربتُها علىٰ جسد سيد البشر، وانتشر عنها مِن دين الله وسُنّةِ رسله ما انتشر، مدارس آيات، ومساجد وصلوات، ومشاهد الفضائل والخيرات، ومعاهد البراهين والمعجزات، ومناسك الدين، ومشاعر المسلمين، ومواقف سيد المرسلين، ومُتبَوَّأُ خاتم النبيين، حيث انفجرت النبوة، وأين فاض عبابها، ومواطن مهبط الرسالة، وأول أرض مس جلد المصطفىٰ ترابها.. جديرة أن تعظم عرصاتها، وتُتنسَّم نفحاتها.

و(السلام): هو اسم من أسماء الله سبحانه وتعالىٰ الذي يختص بها.

ورغم اختلاف أصل كل من الكلمتين في اللغات الأوروبية عن الأخرىٰ؛ إلا أن أصلهما في لغتنا العربية واحدٌ، فالإسلام والسلام من مادة: (سلم)، والتي تعني: الاستسلام والأمن والأمان والخضوع والطمأنينة.

وربما تستغرق السطور التالية ـ في قراءتك لهذا الكتاب، حول نشأة هاتين

---

(١) صحيح البخاري، ٩/ ٩٢، حديث رقم ٧٢٨٠.

الكلمتين وأصلهما منك بعض الوقت؛ فالرجاء منك أن تَعِيشَ معي حول أصل هاتين الكلمتين.

لقد عرَّف علماء فقه اللغة؛ كلمة (السلام) بأنها:

«هي كل ما يتمناه الإنسان من إخوته من البشر»(١).

بل هي الغاية التي يسعىٰ إليها ومن أجلها يُضَحّىٰ بالكثير.

ولذا يشير عالم اللغويات القديمة الأثري سير آلن جاردنر(٢) إلىٰ كلمة (السلام) وأصلها ونشأتها، قائلًا: «إن كلمة (السلام): بالرغم من قلة حروفها، إلا أنها مطلب كل إنسان في الوجود (العالم)، وبدونها يصبح هذا الوجود مستنقعًا من الرذائل والفساد؛ وعلىٰ هذا فإنني أشير إلىٰ أن كلمة (السلام) وصلت إلينا من الأصل اللاتيني سَلاَم: سِلْم safety peace، security، والذي يعني: أمن، وطمأنينة، وحفظ. بل وأقرب معنىٰ لها عندهم هو المصافحة باليد».

ويستطرد سير آلن جاردنر قائلًا:

«وإنَّ السلام في حقيقته يتطلب أمرين: الأمن والحفظ، وهما اللذان عبر عنهما هذا المعنىٰ؛ فالأمر الأول الذي يتطلبه السلام (الأمن)، وهو أمن الروح وعدم الخوف من الآخرين، والأمر الثاني هو (الحفظ)، وهو حفظ الإنسان لما يملك من الأشياء، وأهم ما يملك هذا الإنسان روحه ومقتنياته التي ادخرها لنفسه وأهله وأولاده.

وعلىٰ هذا فإن أفضل الاصطلاحات التي تعطي معنىٰ «السلام» هو الأصل اللاتيني: سَلاَم: سِلْم peace، وهي التي تعني: أَمْن، أمَان safety، security».

وإذا نظرنا بعين الموضوعية إلىٰ هذا المفهوم الغربي لمعنىٰ «السلام»، فإننا نجده في حقيقة الأمر متأصلًا في حضارتنا الإسلامية، وإليك دليلنا علىٰ هذا:

---

(١) محمد بهجت القبيسي، فقه اللهجات العربيات، دار شمال، سوريا، ط١، ص ١٤٠

(2) Gardiner، (A. H). Egyptian Grammar، Oxford، (1965), p. 30-31.

وهذا القول عزيزي القارئ يرجعني مرة أخرىٰ إلىٰ المعنىٰ الأصلي للكلمة، فعلىٰ لسان أشهر علماء اللغة في العالم الغربي كله، وهو العالم الإنجليزي الشهير ولس بادج، لما سُئل عن معنىٰ كلمة «السلام» في المؤتمر الذي عقد في النمسا عام ١٨٧٥م، أجاب قائلًا:

«إذا نظرنا إلىٰ أصل كلمة peace (السلام) سنجد أنَّ معناه مأخوذٌ مِن اللاتينية: سَلَم: سَلاَم، سِلْم peace، وهو المصافحة باليد. ولكني أقول ويجب علينا أن نقول بكل شجاعة، وأن نجرد عواطفنا من الأهواء الدينية ونكون موضوعيين: إنَّ أصل هذه الكلمة يظهر في لغة العرب، وهي مرتبطة أساسًا بالكلمة التي تعبر عن اسم دين الإسلام، وهي من مادة (سَلَمَ)، وهي عندنا تترجم إلىٰ (أَسْلَمَ: تَدَيَّنَ بِالإِسْلام) to embrace Islam، profess Islam، become a Moslem

أَسْلَمَ أَمْرَهُ (أو نَفْسَهُ) إلىٰ الله, to resign oneself to (the will of) God, commit oneself to God, recommend one's soul to God, submit to God أَسْلَمَ: خَضَعَ، اِنْقَادَ - انظر: اِسْتَسْلَمَ، أَسْلَمَ (إلىٰ) to betray، sell out; to desert، forsake وأَسْلَمَ الرُّوحَ: to give up the ghost

وتعنىٰ التحية والسَّلاَم: تَحِيّة greeting، salutation، salute أَبْلِغْهُ سَلاَمِي، بَلِّغْهُ سَلاَمِي سَلَم (نبات) acacia، وإن أقرب مَن يُطَبّق هذه الكلمة بجميع جوانبها، وبكل ما تحمله معانيه مِن الأمن والطمأنينة هم المسلمون، ونبيهم الذي عاش فيهم وعلمهم مبادئ هذا الدين».

وإن هذه الشهادة الكبيرة -عزيزي القارئ- هي لواحدٍ من أكبر علماء اللغة في العالم في القرن التاسع عشر لهي خيرُ دليل علىٰ عظمة الإسلام، وهذا ما شجعني أكثر أن أكتب هذا الكتاب: «الإسلام والسلام وحوار الحضارات».

والآن اسمح لي أنْ أبدأ معك هذا الحوار الهادئ، حوارًا مع الآخر الذي ألقيتُ عنه كلمة في (تورنتو) بكندا عن أهداف الإسلام والسلام وأهداف الملك عبد الله بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الأمر الذي انتظرته الشعوب لعدة

سنوات، وهو حوار الحضارات بين الأمم. وعليه فقد اشتمل كتابنا هذا علىٰ أربعة محاور رئيسية، هي:

المحور الأول:

وعنوانه: «الإسلام من الحوار إلىٰ الجوار»، وقد تحدثتُ فيه عن الإسلام، ومقومات الحوار، وعن القواسم المشتركة، وعن التعدد والاختلاف. وأوضحت فيه أنَّ الحوارَ سبيلُ التعريفِ بالإسلام، كما نبّهتُ فيه إلىٰ أنَّ التسامح لا يعني الذوبان في الآخر، بالإضافة إلىٰ أنني أشرت إلىٰ مبادئ الإسلام وخصائصه ومحاسنه. وختمتُ هذا المحور بإبراز قبول الإسلام لدىٰ الآخر، وذكرت عددًا من مظاهر ذلك القبول.

المحور الثاني:

وعنوانه: «كنا وأصبحنا»، وفيه تكلمتُ عن وضع العالم قبل الإسلام بشكل عام، ثم وضع العرب قبل الإسلام بشكل خاص. وقد أبرزتُ في هذا المحور أثرَ الحضارة الإسلامية علىٰ أوروبا الحديثة في: الترجمة، والطب، والكيمياء، والرياضيات، والفلك، والطيران، والجغرافيا.

ثُمَّ أشرتُ إلىٰ: كيف أصبح المسلمون؟ وعلّلْتُ ذلك، ثُم قدمت نظرة فاحصة لعصر النهضة، ولم أغفل الإشارة إلىٰ أسباب تخلّفِ المسلمين، وأوضحت -بما لا يدع مجالًا للشكِّ- أن الإسلامَ ليس مسئولًا عن تخلّفهم، بل المسؤولية تقع عليهم بتركهم مبادئ هذا الدين الذي يدعوهم إلىٰ العلم، والعمل، والتطوير، والاختراع، والابتكار، كلُّ ذلك علىٰ هدي من الشريعة الإسلامية.

المحور الثالث:

وعنوانه: «شبهاتٌ وردودٌ»، وفيه رددتُ علىٰ ما أثاره أعداء الإسلام من: انتشار الإسلام بالسيف، ولم أكتف بذكر نصوص الشريعة وحكايات التاريخ، بل ذكرت شهادات العقلاء من غير المسلمين. كما رددت علىٰ شبهاتهم حول

المرأة، ولم أكتف ببيان إنصاف الإسلام المرأة، وإنما أبرزت النظرة المأساوية التي ينظر بها اليهود والنصارىٰ إلىٰ المرأة؛ حيث إنهم يقررون أن المرأة هي المسئولة عن الخطيئة البشرية الأولىٰ، وأنها ترثُ ذنب حواء، كما أنها مجلبة للعار، وبالتالي لا حق لها في التعليم، بالإضافة إلىٰ أن الحائض تُدَنِّسُ ما حولها. كما أجبتُ عن شُبههم حول تعدد الزوجات والطلاق، والتفريق بين المرأة والرجل في بعض الأحكام، والحجاب وعدم العمل، وتوقفت عند السيدة العذراء مريم وولدها سيدنا عيسىٰ عليه السلام.

المحور الرابع:

وعنوانه: «من لسانك وليس لساني»، وفيه ذكرت آراء المستشرقين المنصفين في حق الإسلام، ثم أتبعت ذلك بذكرِ عددٍ من النماذج للذين أسلموا، وسبب إسلامهم واعتناقهم لهذا الدين.

الخاتمة: وعنونتها بعنوان «بالحوار يتحقق السلام».

وبهذا أكون قد بدأت بالسلام وأنهيت بالسلام، وهو المقصودُ من الحوار، وقد استدعىٰ الاستطرادُ الإشارة إلىٰ بعض آداب الحوار.

أتمنىٰ أنْ أكون قد أسهمتُ ولو بجهدٍ متواضع في هذا الجانب المهم والخطير، وأسأل اللهَ تعالىٰ أن يجعلَ هذا العمل خالصًا لوجهه، مقربًا إلىٰ مرضاته سببًا للسلامة في يوم لا ينفع فيه لا مال ولا بنون إلا من أتىٰ الله بقلب سليم.

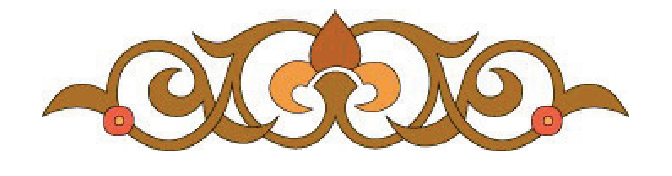
سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

المؤلف

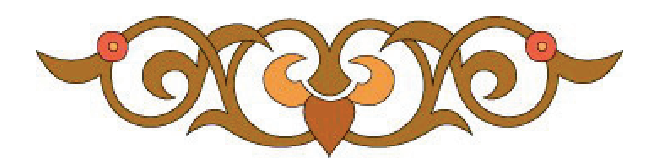
الدكتور/ علي بن سعد آل زحيفة الشهراني

السعودية - خميس شهران



المحورُ الأوّلُ

الإسلامُ مِنَ الحوارِ إلى الجوَارِ



المحورُ الأوّلُ

الإسلامُ مِنَ الحوارِ إلى الجوَارِ

الإسلامُ ومقوّماتُ الحوارِ:

لعلَّ مِن الأمور البدهيّة أن نقولَ: إنَّ الإنسانَ لم يأتِ إلى هذه الدُّنيا ليعيشَ بمفردِه، مستغنيًا بنفسِه عن «الآخر». فثمّة عَالَـمٌ حولَه هو محتاجٌ إلى طَرْقِه والتعرّف إليه، كما أنَّ هذا العالم يحتاجُ إلى تفاعلِه معه، ويأبى أن يكونَ فيه عضوًا سلبيًّا.

كذلك لم يحدد الإسلامُ للمسلم فئةً بعينِها يمكنه أن يتواصلَ معها في حياتِه تلك، بل إنّه عمّمَ هذا التعارف إلى البشريةِ كلِّها؛ قال الله تعالى في قرآنِه العزيز: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟﴾ [الحجرات، من الآية ١٣].

أي: يا أيها الناس إنَّا خلقناكم من أب واحد هو آدم، وأُمٍّ واحدةٍ هي حواء، فلا تفاضلَ بينكم في النَّسب، وجعلناكم بالتناسل شعوبًا وقبائل متعددة؛ ليعرف بعضكم بعضًا.

فالإنسان لا يعيشُ في هذه الدُّنيا بمفردِه، بل هناك الآخر. وهذا الآخرُ إمّا أنْ يكونَ مسيحيًّا، أو يهوديًّا، أو ذا ملة أخرى، أو لا دينَ له. وهو مع ذلك مُطالَبٌ بضرورةِ التعرُّفِ إليه وفهمه فهمًا جيّدًا. فضلًا عن أنَّ هذا التعارف والفهم للآخر هو «الفرصةُ التي تتيحُ للمرء المجالَ إلى ترسيخ جذورِه ترسيخًا أكثر عمقًا؛ عن طريق الاعترافِ بواقع الاختلاف بين البشر الّذين جعلهم الله شعوبًا وقبائل مع بذل الجهودِ الصادقة لفَهم الآخرين»[(١)].

وإذا كانَ المُسْلِمُ مطالبًا بهذا التعارف والحوار مع الآخر، فإن ثمّة منطلقاتٍ إسلاميّةً مدعِّمةً لهذا الحوار، وكافيةً لإنجاحِه، وهي[(٢)]:

(١) الإسلام وقضايا الحوار: محمود حمدي زقزوق. القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م. ص١٤.

(٢) لمزيدٍ مِن التفصيل يُنظر: السيد محمّد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار. القاهرة: دار الأمين، ط١. ٢٠٠١م. ص١٠ وما بعدها.

١- يؤمنُ المسلم بصدقِ نبوّة الأنبياء الذين تلقّوا الوحيَ الإلهي، فهو يؤمن بنبوّة: إبراهيم، وموسىٰ، وعيسىٰ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ثم خاتم الأنبياء محمّد ﷺ. وكذلك يؤمن بصدقِ أصولِ رسالاتهم السماوية. ومِن هُنا لا يجوزُ للمسلمين ولا لغيرهم أنْ يُفرّقوا بين الرُّسل: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ﴾ [البقرة، من الآية ٢٨٥].

٢- يُلبّي الإسلامُ جميعَ جوانب الحياة الإنسانية: المادية والعقلية والروحية، بدرجاتٍ متوازية. كما أنّه يقدم للإنسان منهجًا حياتيًّا متكاملًا يقوم علىٰ الترابط الكامل بين الإيمانِ والقولِ والعملِ، ولا يعترف بما يُهمَل فيه أحد هذه الأركان.

٣- يَعُدُّ الإسلامُ كلَّ عملٍ نافع في الدنيا لا ينتج عنه أي ضرر لفاعلِه أو لغيرِه مِن البشر جزءًا مِن عبادة الله. كما لا يُسْأَلُ إنسانٌ إلا عمّا يفعلُ. وإذا أخطأ دون قصدٍ أو عمدٍ أو بقصدٍ وعمدٍ ثُمَّ تابَ عن ذلك الخطأِ، فإن رحمةَ الله قد وسعت كلَّ شيءٍ حتىٰ من ارتكب الكبائر، فإن الله تعالىٰ يغفر له إذا صدق في توبته، ولم يستثن الله من الغفران شيئًا غير الشرك.

٤- يُقدِّمُ الإسلامُ للإنسانِ نظامًا اجتماعيًّا متكاملًا، يضمُّ في تناسقٍ تام المصلحة العامة والمصلحة الخاصة، الدينية والدنيوية، كما أنّه يرفضُ رفضًا باتًّا الفصلَ بين الدنيا والدين. ولعلَّ هذا مستمدٌّ مِن التعاليم والآيات الواردة في القرآن الكريم، والتطبيق الواقعي لهذه التعاليم في عصر النبوة؛ حيث كان رسولُنا الكريم نبيًّا وحاكمًا لأول دولةٍ إسلامية أسَّسَها في المدينة المنوّرة، وكتبَ لها دستورها الذي تضمّنَ تنظيمًا دقيقًا لكلِّ ما احتاجته مِن مؤسّسات وقوانين عُرِفت في كتبِ السيرة بـ (صحيفة المدينة)، وهي تُعَدُّ بحقٍّ أولَ دستور إسلامي يُقرّرُ حريّةَ العقيدةِ، وحرية الرأي، وحرمة الحياة وحرمة المال، وتحريم الجريمة.

٥- الإسلام يجعلُ طلب العلم فريضةً علىٰ كُلِّ قادرٍ، ولم يُحاربه كما يدّعي البعض،

ويكفي أنّ أول خمس آياتٍ أنزلت في القرآنِ تأمرُ بالقراءةِ وطلب العلم؛ قال تعالىٰ في كتابه الكريم: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ [العلق، الآيات ١-٥]. بل ذهب الإسلامُ إلىٰ أبعد مِن ذلك في تكريم العلماء، فيقول رسولُنا الكريم ﷺ ضمن حديث له: «. . . وإنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وإنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا ولاَ دِرْهَمًا، وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١).

٦- تتفقُ الحقائقُ العلميّةُ الثابتة التي تَوَصَّلَ إليها العلمُ في العصر الحديث مع تفسير النصوصِ القرآنية الواردة في تلك المجالات قبل أربعة عشر قرنًا؛ كما يفسّر لنا ذلك سبب التقدم العلمي الهائل الذي تميزت به الحضارة الإسلامية في عصور قوتها.

٧- أثبتَ الإسلامُ قُدْرَتَهُ علىٰ التعاملِ مع كل المستجدّاتِ والمتغيّراتِ الاجتماعية التي تطرأُ علىٰ الحياةِ بفعل تغيُّر الزمان والمكان؛ وذلك بواسطة المنهج الفقهيِّ المَرِنِ للإسلام؛ حيث يحتلُّ العقلُ السليمُ الموضعَ اللائقَ به بصفتِه مناط التكليف في الإسلام، ويأتي في المرتبة التالية بعد مصدري التشريع (القرآن والسُّنّة)؛ لكونِه أساس الاجتهادِ والطريق الرئيس لاستنباط الأدلة الكُلّية.

٨- كفلَ الإسلامُ للإنسانِ الحريّةَ السياسيّةَ المتمثّلة في حُريّة التعبير عن الرأي والمشاركة في الحكم، وقد نصّت الآيات القرآنية علىٰ ذلك. وطُبّقت في السُّنّة النبوية وسُنّة الخلفاء الراشدين. وقد أرسىٰ الإسلامُ بذلك القواعد الأولىٰ للنظام (الديمقراطي)، والذي تتعددُ فيه المؤسسات والاختصاصات، ويأتي علىٰ قمتها مجلس الشورىٰ أو مجلس (أهل الحل والعقد) علىٰ حسب التعبير الإسلامي.

٩- كان الإسلامُ وما يزالُ منفتحًا أمامَ الثقافاتِ والحضارات الأخرىٰ، ينقلُ عنها كلَّ ما هو مفيدٌ وصالحٌ للبشريَّة، ويترك غير ذلك دونَ خوفٍ علىٰ هُويّتِهم

(١) رواه أبو داود في سننه، تحقيق شعيب الأرنؤوط. دار الرسالة العلمية، ط ١، ١٤٣٠هـ، ٥/ ٤٨٥.

الإسلامية؛ عملًا بأنَّ: «الكلمة الحكمة ضالّةُ المؤمنِ، فحيثُ وجدَهَا فهو أحقُّ بهَا»(١).

١٠- يُشكِّلُ الإسلامُ نظامًا كَاملًا للحياة الإنسانية؛ فهو يقودُ البشـرَ إلىٰ أن يعيشوا في أُمّةٍ واحدةٍ تنعمُ بالأمنِ والسلام، ويسودها العدلُ. فهو يُرشِّدُ سلوكَ الإنسانِ مع نفسِه ومع غيرِه ومع ربِّه.

فانطلاقًا مِن هذه الثوابت التي يقفُ عليها المسلم المعاصر، يمكنُ له الحوار مع الآخر، علىٰ أساسٍ قويٍّ يدعمُه العقلُ المستنيرُ والحُجّةُ الساطعةُ: حوارٌ هدفُه التواصل والألفة، والسعي الحثيث للوصولِ إلىٰ الحقيقةِ، بعيدًا عن التعصُّب، وتطبيقًا للقاعدة القائلة: (استدل ثُمَّ اعتقد، لا أنْ تعتقدَ ثُمَّ تلوي أعناقَ النصوصِ إلىٰ مَا يُوافق اعتقادك).

حوارٌ هدفُه الوصولُ إلىٰ الحقيقةِ لاعتناقِهَا، والوصولُ إلىٰ الطريق الصحيح لسلوكِه، والوصولُ إلىٰ التواصلِ المثمر واحترامِ الآخر، وعدم قذفِه باتهاماتٍ ينقلُها أعداؤه عنه.

حوارٌ يَدَعُ الفرصةَ للعقل أنْ يعملَ، وللقلبِ أَنْ يستضيءَ بنور الحقيقة التي طالما تعمَّدَ الآخرون إخفاءَها عَنَّا. لماذا نسير تابعين لأفكارِ البعضِ ومعتقداته دونَ إعمالٍ لعقولِنَا وبصائرِنا ونحنُ مطالبون بإعمالِها؟! يقولُ الله تعالىٰ في قرآنه الكريم: ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦۖ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَاۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ١٠٤﴾ [الأنعام، الآية ١٠٤].

إنَّ هناكَ جملةً مِن القواسمِ المشتركة بين الإسلام و«الآخر» تحثُّ الجميع علىٰ إمكانية دخول الحوارِ وقبوله، وليس غريبًا إذا عرفنَا أنَّ تلكَ القواسم المشتركة تفوق بكثيرٍ ما يفصلُ بينَها، وهي تتمثل في:

١- تشتركُ الشرائع السماوية في الإيمانِ بالإله الواحدِ خالق كلِّ شيءٍ، الذي دعا الناسَ إلىٰ الإيمانِ به، وإلىٰ العملِ الصالحِ، كما دعاهم جميعًا إلىٰ الإسلام دار السلامِ.

---

(١) سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد، باب ما جاء في فضل الفقه علىٰ العبادة، ٤/ ٣٤٨، رقم الحديث ٢٦٨٧.

٢- يشتركُ الإسلام مع أهل الحضارات الأخرىٰ وذلك في سعيِها الدؤوب نحو إقامةِ السلام، وتحقيق موازين العدل؛ ومِن ثَمَّ فلا يجوزُ أنْ تشغلَ نفسَها بالتنافس مِن أجلَ السُّلطة الدنيوية، بل يجب عليها العمل مِن أجل خير الناسِ ونفعهم، كما يقولُ الله تعالىٰ في قرآنِه الكريم: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ ﴾ [المائدة، من الآية ٤٨].

٣- تتطابق الكتب السماوية الأربع؛ التوراة والإنجيل والزبور والقرآن جميعها في تأكيدِ الرحمةِ الإلهية التي تعلو علىٰ كُلِّ القوانين والتشريعات. وهذه الرحمة وتلك الإنسانية مطالبٌ بها الإنسان (خليفة الله) في تعاملِه مع الآخر أيًّا كان نوعُه أو جنسه أو صفته أو عقيدته. وهي أنموذجٌ واضحٌ في الإسلام، تجسَّدَ أوّلَ ما تجسَّدَ في رسول الإنسانية والإسلام، فحينما مرّت عليه جنازةٌ لرجل يهوديٍّ نهض واقفًا تعبيرًا عن احترامِه للميّت، فلمَّا قيل له: إنها جنازة يهوديٍّ، قالَ في أبلغِ تعبيرٍ عن الإنسانية: «أليست نفسًا؟»(١).

٤- تشتركُ الشرائع السماوية في مسئولية الإنسانِ عَن هذا العالمِ، فالإنسان هو خليفةُ الله في الأرض. وبذلك أصبحت له السيادةُ علىٰ العالمِ، ولكنّه في الوقت نفسِه مسئولٌ عنه.

٥- تؤكّدُ الكتب السماوية الثلاثة علىٰ اعتبار السلوكِ الأخلاقي شرطًا ضروريًّا لنموِّ الإنسانِ الفردِ ونمو المجتمعاتِ البشريّة، وكتاب الله «التوارة» الذي أنزله الله علىٰ كليمه موسىٰ عليه السلام ببلاد مصر والشام وفيه حُكْمُ الله وهدىٰ ونور ورحمة؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِن كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ

(١) صحيح البخاري، باب مَن قام لجنازة يهودي، ٢/ ٨٥، رقم الحديث ١٣١٢.

وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

[المائدة، الآيات ٤٣ – ٤٥].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأنعام، الآيتان ١٥٤ – ١٥٥].

وقال تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾ [آل عمران، الآيتان ٣ – ٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف، الآية ٦].

وقال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران، الآيات ٤٨ – ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ

﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [المائدة، الآيات ٦٦ – ٦٨].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [الأعراف، الآية ١٥٧].

وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة، الآية ٥].

ومِن الأُسسِ المُشتركة التي تُعِينُ على بدء الحوارِ مع الآخر أنَّ التوراةَ جاءت مُبشِّرةً بميلادِ خَاتم النبوّة ﷺ، بل وردَ فيها ذكره الشّريفُ؛ فعن عطاء بن يسار قال: لَقِيتُ عبدَ الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنهما، قلتُ: أَخْبِرْنِي عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة. قال: أجل، والله إنّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يَا أَيُّها النبي، إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا للأُمّيين، أنت عبدي ورسولي، سميتُك المتوكّل، ليس بفظٍّ، ولا غليظٍ، ولا سخّابٍ في الأسواقِ، ولا يدفعُ بالسيئة السيئةَ، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضَه اللهُ حتى يقيمَ به الملّةَ العوجاءَ؛ بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله. ويفتح بها أعينًا عُميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلفًا»[1].

إنّه ينبغي علينَا أنْ ننطلقَ مِن تلك القواسم المشتركةِ لنبدأَ حوارًا هادئًا بعيدًا عن التعصُّبِ والانحياز، يهدفُ أوّلَ ما يهدفُ إلى الوصولِ إلى الحقيقةِ لاتباعِهَا، واجتناب الزائف والباطل.

ولكن ثمّةَ سؤالٌ قد يدورُ الآن في عقولِ البعضِ، وهو: طالما أنَّ كلًّا منَّا له عقيدته ومذهبه الذي يميل إليه، وهو بذلك قانعٌ مستقرٌّ، لماذا إذن الحوار، ومحاولة البحث والتقصّي عمّا يوجد عِندَ الآخر؟!

---

(١) صحيح البخاري، ٣/ ٦٦، حديث رقم ٢١٢٥.

والإجابةُ عن هذا السؤالِ أمرٌ سهلٌ ويسيرٌ، ومركّبٌ وموسَّعٌ في الوقتِ ذاتِه. أمَّا الإجابة السهلة اليسيرة فتتمثل في الردِّ علىٰ هذا السؤالِ بسؤالٍ آخر هو: لماذا لا تتحاورُ مع الآخر الذي يَظنُّ أنّه وحدَهُ علىٰ الحقِّ وأنتَ علىٰ الباطل؟ ألَيسَ مِنَ الممكن أنْ يكونَ بالفعل علىٰ حقٍّ ويكونَ غيرُه علىٰ الباطل؟ أليس مِن الممكنِ أنْ تكونَ أنتَ علىٰ الحقِّ وهو علىٰ الباطل؟ أليس مِن الممكن أن تكونا معًا علىٰ الحقِّ ولا يوجد باطلٌ؟ أسئلةٌ تدعوك للحوارِ مِن أجل الكشف عن النفس والآخر.

وكتاب الله «الزَّبور» أنزله علىٰ سيدنا داود عليه السلام يدعو لعبادة الله وحده، وأذكار ومواعظ، ولأن كتاب الله» التوراة « نزل قبله علىٰ سيدنا موسىٰ عليه السلام فهو مكمل لإتباع الشريعة الموسوية (شريعة سيدنا موسىٰ عليه السلام).

والحمد لله رب العالمين جاءت الكتب السماوية مبينة جميعها للإسلام وتدعوا له والعلاقات بين البشر ما عدا «الزَّبور» فقد جاء كتاب في أسرار الخلق في المادة والطاقة... وأنقل لك هذا البحث الموضح لكتاب «الزَّبور»:

إن الله تعالىٰ قد أعطىٰ داود كتابًا سماويًّا متفردًا في إعجازه. سماه الله تعالىٰ «الزبور» وجعله متميزًا عن بقية الكتب السماوية الأخرىٰ؛ إذ ذكره منفردًا متفردًا عنها فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ٥٥﴾ [الإسراء، الآية ٥٥].

والمستفاد تفرد النبي داود بنوعية مختلفة من الكتب السماوية، استلزمت هذا التنويه. وهذا «الزَّبور» أخبر الله تعالىٰ فيه ببعض غيب المستقبل، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ ١٠٥﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٥].

ويلاحظ أيضا تميز النبي داود عليه السلام بخصائص من الآيات والمعجزات لم يمنحها الله تعالى – حسب علمنا– لبشر من قبل، منها تسخير الجبال له والطير ومطاوعة الحديد له ليصنع منه ما يشاء، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ ﴾ [سبأ، الآيتان ١٠ – ١١].

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص، الآيات ١٧ – ٢٠].

قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [الأنبياء، الآيتان ٧٩ – ٨٠].

الواضح هنا أن العلم أو الكتاب الذي تلقاه داود عليه السلام وثيق الصلة بتلك الآيات والمعجزات. أي أنه كتاب علمي علمه الله تعالى له، وبه يستطيع به نبي الله داود التحكم في بعض ظواهر الطبيعة كالجبال، وبه يستطيع تطويع الحدي وفك رموز لغة الطير. وذلك ما لم يصل إليه علمنا الحديث بعد...

و«الإنجيل» هو الكتاب المقدس، وهو أحد الكتب السماوية، أنزله الله على النبي المسيح عيسى ابن مريم بالقدس وهو مذكور في القرآن في آيات كثيرة، منها قال تعالى: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [المائدة، الآية ٤٦]، وقال تعالى: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة، الآية ٤٧].

ويؤمن المسلمون أن الإنجيل الموجود بين أيدي الناس ليس هو الإنجيل المنزَّل على المسيح عليه السلام، ولكنه محرّف، وقد تم تغييره وتحريفه.

وإجابةٌ أخرىٰ تُحتِّم علىٰ الجميعِ ضرورة الحوار مع الآخر، ولكن لا بدَّ من الاعترافِ مقدّمًا بحقيقتَينِ، هما: التعدّد والاختلاف.

فالآخرُ قد يكونُ فردًا وقد يكون جماعةً، وفي الحالتين قد يكونُ مؤمنًا، وقد يكونُ كتابيًّا، وقد يكونُ كافرًا. أمّا الآخر المؤمن فهو للمؤمنِ كالبُنيانِ المرصوص يشدُّ بعضُه بعضًا، وأمَّا الآخرُ الكتابيّ في المجتمع الإسلامي فهو في ذمّة المسلمين والرسول؛ بقوله ﷺ: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا»(١).

وأمَّا الآخرُ الكافرُ فالعلاقةُ معه مبنيّةٌ علىٰ قاعدة: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة، من الآية ٢٥٦].

ومِن الجانبِ الآخر لا يُعَدُّ الحوار مع الآخر حوارًا إلا إذا كان ثمة اختلاف يجبُ الاعترافُ به، وإلا فمن العبثِ إلغاء هذا الاختلاف في أذهاننا عند الحوار مع الآخر. وقد أشارَ ربُّ العزة في قرآنه إلىٰ هذا الاختلاف، وأنّه لحكمةٍ إلهيةٍ أرادها تعالىٰ. يقول تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ١١٨ ﴾ [هود، الآية ١١٨].

إنَّ قضيّةَ الحوار قد أصبحت تُشكِّلُ في عالمِ اليوم ضرورةً مِن ضروراتِ العصـرِ للتغلّبِ علىٰ العديدِ مِن المشكلاتِ الحياتية علىٰ جميعِ المستوياتِ.

إنَّ حوارَ المسلمِ معَ «الآخرِ» هو السبيلُ الأمثل للتعريفِ بالإسلام ـ الذي هو دينُ السَّلامِ ـ وشرح قضاياه، وإبراز الوجه الحضاري لهذا الدين الذي لا يعرفُ الإرهابَ أو التطرف. فالإرهابُ ما هو إلا ظاهرةٌ عالمية موجودةٌ في تاريخِ كلِّ الحضاراتِ، وليس صناعةً إسلاميّةً. بل إنَّ المسلمين أنفسَهم ضحايا للإرهابِ، لا كما يقول كثيرٌ من المغرضين أصحاب الأهواء ويصورونَهُ في عقولِ الكثيرِ من الناس وما رآه أناس لهم ثقافتهم الدينية في انحياز عظيم لدول مع دول ضد دول صغيرة أخرىٰ سقط حقها وليس للمسلمين أو للإسلام أية

(١) صحيح البخاري، باب إثم من قتل ذميًا بغير جرم، ٩ / ١٢، حديث رقم ٦٩١٤.

صلة بذلك. قال الشاعر:

وجُرْم جَرَّهُ سفهاءُ قوم حَلَّ على غير فاعله العقابُ

ويحضرني في ذلك كلمةُ حقٍّ تفوَّهَ بها عالمُ الأديان المعروف -حسب ما نصب نفسه عن الأديان- الأستاذ Kueng، حولَ مَا يُقَالُ عن الإسلام، حيثُ يقول: «إنَّ مَا يمكنُ أنْ يسمعَهُ المرءُ أو يقرأهُ عن الإسلامِ في وسائلَ الإعلام (الغربية) المختلفة، ومَا يقولُه المثقفون عنه أمرٌ مزعجٌ ومخيفٌ. إنّه مزعجٌ بمعنىً مزدوج: أولًا بسبب الاعوجاجِ والأحكام المغلوطةِ التي تتكشّف في هذه الأفهام، وثانيًا بسبب الطريقة المخيفة والشِّريرة التي تُلْقَىٰ بها الأحكام عن الإسلام»[1].

ولقد تنبّه الغربُ إلىٰ ضرورةِ فهم الإسلام فهمًا صحيحًا، والتعرُّف إلىٰ إمكانياتِه، وأنّه لا يجوزُ أنْ يفهمَ المرءُ الإسلامَ أخذًا مِن أقوالِ الآخرين وما كتبوه عنه في مؤلَّفاتِهم، بل إنّه ينبغي أنْ يرىٰ بعينيه لا بعيونِ الآخرين. ومِن جانبٍ آخر نجد صوتًا مرتفعًا يُنادي بضرورة التعرّف إلىٰ الإسلام ومعرفة إمكاناتِه، ليس لهدفٍ إلا لأنّه -مِن وجهةِ نظرِهم- يُعتبر الدين المنافس الخطير للمسيحية وللإنسانية[2]!!

وفي هذا التصوّر تناقضٌ واضحٌ؛ فكيفَ يمكنُ للآخر أنْ يفهمَ الإسلامَ وقد استقرَّ في ذهنِه مسبقًا أنّه عدوٌّ للمسيحية أو غيرها أو الإنسانية؟! وكيف يُتصوّر أنّ الإسلامَ ضدّ الإنسانية وهو الدينُ الخاتمُ للإنسانية؟! قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١١١ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١١٢﴾ [البقرة، الآيتان ١١١ - ١١٢].

(١) الإسلام وقضايا الحوار، تأليف محمود حمدي زقزوق القاهرة، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، ٢٠٠٢م ص١٥. نقلًا عن: (Josef Van Ess) kueng، p. 31.

(2) M. W. Watt: What is Islam? London، 1979. P. 216.

إنَّ مَنْ يُرِيدُ أن يفهمَ الإسلامَ ينبغي له أنْ ينظرَ إليه عند الحوار نظرةً موضوعيّة، بعيدةً عن أيِّ تصوّرٍ سابقٍ أو نظرةٍ غير صحيحةٍ. وحينئذٍ تظهرُ له حقيقةُ الإسلام السمحة، بعيدًا عن الملذات الدنيوية والنزعاتِ الماديّة. تمامًا كما ظهرت للمفكر الألماني المسلم لي جاي إيتون (Le Gai Eaton) حين ذهب إلىٰ القول: «إنَّ عالمَنَا الذي يحيطُ به اليأسُ مِن كلِّ جانبٍ في أشدِّ الحاجةِ إلىٰ الأمل الإسلامي؛ فالأمة الإسلاميةُ هي شاهدةٌ علىٰ هذا الأملِ الذي يمكنُ أنْ يؤديَ إلىٰ النَّجاةِ مِن الطريقِ المسدود الذي يسير فيه العالمِ الحديث، وذلك لأنَّ الله يُمثِّل بالنسبةِ للأمة الإسلاميّة محورَ حياتِهَا، وليس النزعة المادية أو النزعة المغرقة في الملذات والتكنولوجيا». ومِن ثَمَّ فإنّه يقرّرُ أنَّ «الإنسانَ المعاصر إذا استطاعَ أنْ يفهمَ المسلمَ ربما استطاع أنْ يبدأَ في فهمِ نفسِه قبل أن يمضيَ إلىٰ تدميرِ ذاته»[1]. وهي دعوة عامّة للحوار البنّاء الذي يهدفُ أولاً لفهم الذات والوصولِ إلىٰ الحقيقةِ.

وإذا كانت الكتب السَّماوية جميعُها تدعو إلىٰ الإسلام والسَّلام والمحبّةِ بين البشـريّةِ جميعها، فإنَّ الحوارَ بينها هو السبيل الوحيدُ الذي يمكنُ أنْ يقفَ أمامَ كثيرٍ مِن الظواهر السلبيّة في عصـرنا الحاضر، كالإلحادِ، والانحلال، والإدمان، والإيدز، والتعصُّب، والتطرُّف في الفكر أو في السُّلوك، ومنع تلك الحروب العبثية التي لا طائلَ مِن ورائها.

تنبيهٌ لا بُدَّ منه: لا ينبغي أن يُفْهَمُ هذا التسامح الإنساني الذي جعله الإسلام أساسًا راسخًا لعلاقة المسلم مع غير المسلم، وهذا الحوار البنّاء مع الآخر مِن أجل الوصول إلىٰ الحقيقةِ. أقول: لا يمكن أنْ يفهم ذلك علىٰ أنه انفلاتٌ أو استعدادٌ للذوبان في أي كيان من الكيانات التي لا تتفق مع جوهر هذا الدين. فهذا التسامح وهذا الحوار لا يلغيان أبدًا الفوارق والاختلافات، ولكنه يؤسِّسُ للعلاقات الإنسانية التي يريد الإسلام أن تسود حياة الناس، فالتأكيد علىٰ الخصوصيات العقائدية والحضارية والثقافية لا سبيل إلىٰ إلغائه، كما

(1) Le Gai Eaton، Ch. Der Islamﷺnd die Bestimmung des Menschen، Kolen 1987، P. 56، 58.

أن الإسلام لا يريد لهذه الخصوصيات أن تمنع التفاعل الحضاري بين الأمم والشعوب والتعاون فيما بينها[(١)].

وختامًا؛ إنَّ الحوارَ الدائمَ المنفتح والمتفتح مع الآخر في عصر أصبحَ فيه العالمُ كالقريةِ الصغيرة، يُعدُّ ركنًا رئيسًا مِن أركانِ الوحدةِ والاستقرار في العالم.

مبادئُ الإسلامِ وخصائصُه

ممَّا لا شَكَّ فيه أنَّ الناظرَ ببصيرتِه إلىٰ مَا حولَهُ مِن شرائعَ ومِلَلٍ ومذاهب مختلفة، قد يشعرُ بكثيرٍ مِن الاختلافات التي قد تؤدي به إلىٰ الزهد والعزوف عن اتباع الحقِّ. فيرىٰ أنَّ أصحابَ كلِّ ملّةٍ إنما يدعونَ النَّاس إليها، مؤمنين أنَّهم علىٰ الحق وحدَهم دون غيرِهم، وكذلك أصحاب المذاهب الشتّىٰ؛ يرونَ أنهم علىٰ الجادَّة دون غيرِهم، فيدعون الناسَ إلىٰ الإيمان بصاحبِ مذهبِهم وتعظيمِه.

أمَّا الإسلام فهو دين الله الخالد في الأرض إلىٰ قيام الساعة؛ وهو الدين الواحد الذي ارتضاهُ الله لعباده، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ ﴾ [آل عمران: من الآية ١٩]. قال تعالىٰ: ﴿ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ ﴾ [البقرة، الآيات من ١٢٦ - ١٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ ﴾ [البقرة، الآيات ١٣١ - ١٣٣].

---

(١) انظر حول هذا الموضوع: توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم (عالم صنعه القرآن). القاهرة: دار المنار، ٢/ ٢٥٥. د. ت.

لذا كان من الطبيعي أن يحمل هذا الدين مقومات البقاء والحيوية فيه، وقد توفر ذلك لمصادره الأساسية: القرآن والسنة، ففي القرآن الكريم الشفاء والرحمة للمؤمنين به، قال تعالىٰ: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [الإسراء، الآية ٨٢].

والكتاب الكريم هو تبيان لكل شيء، قال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل، الآية ٨٩].

لقد اتصف هذا الدين باليسر والتخفيف ومراعاة الواقع؛ لأنه دين الحياة قال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾ [البقرة: من الآية١٨٥]، وقال تعالىٰ: ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَـٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [النساء، الآية٢٨].

فسبحان الله الذي أنزل الكتب هدىٰ ورحمة ونورًا وشفاءً، فكان الرسل فيما مضىٰ يُبعثون إلىٰ أقوامهم خاصة، ويستحفظون كتبهم؛ فلذلك اندثرت كتبهم، وحُرفت وبُدلت شرائعهم؛ لأنها أُنزلت لأمم محددة، في فترة محددة.

ثم اختص الله نبيه محمدًا ﷺ بأن جعله خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب، من الآية٤٠]. وأكرمه بخير كتاب أُنزل، وهو القرآن العظيم، وتكفل سبحانه بحفظه، ولم يترك حفظه لخلقه، فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر، الآية٩]، وجعل شريعته باقية إلىٰ قيام الساعة. وبَيَّنَ سبحانه أَنَّ مِنْ لوازم بقاء شريعته الإيمان بها، والدعوة إليها، والصبر عليها، فكان منهج محمد ﷺ ومنهج أتباعه من بعده الدعوة إلىٰ الله علىٰ بصيرة؛ قال تعالىٰ موضحًا هذا المنهج: ﴿ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف، الآية١٠٨]، وأمره بالصبر علىٰ الأذىٰ في سبيل الله، فقال تعالىٰ: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف، من الآية ٣٥].

ولا تجعل للشيطان عليك طريقًا، فليس له طريق على أهل الجزيرة العربية إلا في التحرش بينهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحرش بينهم»(١).

ولقد بُعِثَ رسول الله ﷺ بالحنيفية السمحاء، ليلها كنهارها، وهذا هو شأن الحق يعلن عنه وضوحه ويسره:

فعَنْ غَاضِرَةَ بْنِ عُرْوَةَ الْفُقَيْمِيِّ، أَخْبَرَنِي أَبِي، قال: أَتَيْتُ الْمَدِينَةَ، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، والنَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلاَةَ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَجُلٌ يَقْطِرُ رَأْسُهُ مِنْ وُضُوءٍ تَوَضَّأَهُ أَوْ غُسْلٍ اغْتَسَلَهُ فَصَلَّى بِنَا، فَلَمَّا صَلَّيْنَا جَعَلَ النَّاسُ يَقُومُونَ إِلَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُونَ: يَا رَسُولَ الله، أَرَأَيْتَ كَذَا، أَرَأَيْتَ كَذَا، يُرَدِّدُهَا مَرَّاتٍ. فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ دِينَ الله فِي يُسْرٍ، يَأَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ دِينَ الله فِي يُسْرٍ»(٢).

وعن ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عَلِّمُوا ويَسِّرُوا، ولا تعسروا، إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ، إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْكُتْ»(٣).

الإسلام والسلام

الإسلام والسلام هما الطمأنينة، من اتبع عقيدته سلمَ من الانحراف والضلال والوثنية والإلحاد، ورأى الطريق المستقيم السليم الحق، فلا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. أمَّا غيرُ المسلمِ فلا يُهْضَم حقُّه في كنفِ الإسلام كما سنرى في المبحث الثالث من هذا المحور بل له حقوقٌ وواجباتٌ يفرضُها الإسلامُ له ويقرّرها. والإسلام والسلام متلازمان لا يفرِّق بينهما شيء مثل يدي الإنسان من جسده.

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص٢١٦٦، رقم الحديث ٢٨١٢.

(٢) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة: البوصيري، تحقيق عادل سعد والسيد محمود، مكتبة الرشد، الرياض ط١، ١٩٩٨م - (١/ ١١٤).

(٣) مسند الإمام أحمد، ٤ / ٣٩، رقم الحديث ٢١٣٦.

فالمؤمن يحيا أبدًا حياة طيبة، قال تعالىٰ: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل، الآية ٩٧].

وفي الآخرة له دار السلام لا يجوع فيها ولا يَعْرَىٰ، ولا يظمأ فيها ولا يشقىٰ، يجد فيها جزاء ما قدم من خير للفرد والمجتمع.

العلم في الإسلام

أمرَ الإسلامُ بالعلم؛ قال تعالىٰ: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾ [طه، من الآية ١١٤]، وكرم الله أولي العلم حيث شفعَ ذكرَهم في الشهادة علىٰ وحدانيته بعد شهادة الملائكة؛ قال تعالىٰ: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران، الآية ١٨].

كما أنّه لم يُسَوّ بين العلماء والجهلاء، قال تعالىٰ: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر، من الآية ٩].

ويكفي أنَّ أوّلَ آيةٍ نزلت علىٰ النبيِّ الخاتم محمّد ﷺ كانت تحثُّ علىٰ طلب العلم؛ قال الله تعالىٰ مخاطبًا إيّاه: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴾ [العلق، الآية ١]. يقول الأستاذ محمود الشرقاوي: «والعلمُ هو نورُ البصر والبصيرة، بينما الجهل هو الظلمة بل والعمىٰ»(١).

علوُّ الإسلام وعالميتُه:

إن الإسلام دين الله ﷻ، وهو دين الأنبياء والمرسلين، وهو دين الفطرة ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم، الآية ٣٠]. قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِۦمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ

(١) الإسلام وأثره في الثقافة العالمية أ محمود الشرقاوي ص ٩.

إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ ﴾ [البقرة، الآيتان ١٣٥ - ١٣٦]. وقال تعالى: ﴿ أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ ﴾ [البقرة، الآية ١٤٠].

ولقد خاطب اللهُ تعالى الناسَ جميعًا في القرآن، وخاطب أهلَ الكتابِ، وأرسل النبيَّ محمدًا ﷺ للثقلين: الإنس والجن، فهو دينُ الله عز وجل الذي أرسل به المرسلين، وأوحى به للأنبياء، مِن لدن آدم وحتى خاتم الأنبياء محمّد ﷺ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡ ﴾ [آل عمران، من الآية ١٩].

لذا كان أمرًا طبيعيًّا أنْ يأمر الله في الكتاب الخاتم (القرآن) بالجدال الحسن بيننا نحن المسلمين وبين أهل الكتاب؛ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾ [العنكبوت، الآية ٤٦].

نخلص من هذه التوطئة إلى أمرين:

أولهما: عالمية الإسلام.

والآخر: الجدال بالحسنى.

* * * * *

وأما مبادئ الإسلام وخصائصه فهي عديدة، لكننا نذكر منها:

١- الربانية.

٢- الإنسانية.

٣- الشمول: ونعني به شمول الزمان والمكان والإنسان، وهو بذلك يضم خصائص ثلاثًا، هي: (**الخلود، العالمية، الاستيعاب**).

٤- الوسطية أو التوازن.

٥- الواقعية.

٦- الوضوح.

٧- الجمع بين الثبات والمرونة.

٨- المثالية والواقعية.

أولًا: الربّانية

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ٧٩].

إنَّ الإسلام دينٌ من الربِّ الواحد، وليس محمّديًا من صنع بشر، كما أنَّ غايتَه هي الصلة بالله وعبادته وحده لا شريك له؛ لذا فإنّه مِن الخطأِ بمكانٍ أنْ يُقالَ: إنَّ الله هو إلهُ المحمديين(١)، أو أنْ يُوصفَ الإسلامُ بأنّه المذهبُ المحمّدي(٢).

يقول د. يوسف القرضاوي: «والمراد من الربانية هنا أمران:

١- ربانية الغاية والوجهة ٢- ربانية المصدر والمنهج.

* فأما ربانية الغاية والوجهة فنعني بها أن الإسلام يجعل غايته الأخيرة وهدفه البعيد هو حسن الصلة بالله تبارك وتعالى والحصول على مرضاته، فهذه هي غاية الإسلام، وبالتالي هي غاية الإنسان، ووجهة الإنسان، ومنتهى أمله وسعيه وكدحه في الحياة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾ [الانشقاق: الآية ٦]، ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النجم، الآية ٤٢].

ولا جدال في أن للإسلام غاياتٍ وأهدافًا أخرى إنسانية واجتماعية، ولكن عند التأمل نجد هذه الأهداف في الحقيقة خادمة للهدف الأكبر، وهو مرضاة الله تعالى ...

فمن ثمرات هذه الربانية في النفس والحياة:

(١) انظر على سبيل المثال قاموس: Duen، Fremdwoerterbuch.

(٢) أقرب مثال على ذلك ما ورد في صحيفة دي فلت الألمانية بتاريخ ١/ ٩/ ١٩٩٠م في مقال كتبه هانز بيتر أوسفالد عن رحلة البابا يوحنا بولس الثاني إلى إفريقيا.

أولًا: معرفة غاية الوجود الإنساني:

قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة، الآية ٢١٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات، الآية ٥٦].

ثانيًا: الاهتداء إلى الفطرة

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم، الآية ٣٠]، وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء، الآية ٤٤].

فإذا لم يجد الإنسان ربه وهو أقرب إليه من حبل الوريد، فما أشقى حياته وما أتعس حظه، وما أخيب سعيه !!

إنه لن يجد السعادة، ولن يجد السكينة، ولن يجد الحقيقة... لن يجد نفسه ذاتها: قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر، الآية ١٩].

ثالثًا: سلامة النفس من التمزق والصراع

من ثمرات هذه الربانية ربانية الغاية والوجهة سلامةُ النفس البشرية من التمزق والصراع الداخلي، والتوزع والانقسام بين مختلف الغايات وشتى الاتجاهات... قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [آل عمران، من الآية١٠١]. ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الزمر، الآية٢٩].

وقال يوسف عليه السلام لرفيقيه في سجن عزيز مصر، وقد كانا كقومهم ممن يعبدون

مع الله آلهة أخرى: قال تعالى: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠ ﴾ [يوسف، الآيتان ٣٩ - ٤٠].

رابعًا: التحرر من العبودية للأنانية والشهوات:

من ثمرات هذه الربانية أنها حين تستقر في أعماق النفس تُحرِّرُ الإنسان من العبودية لأنانيته وشهوات نفسه، ولذات حسِّه، ومن الخضوع والاستسلام لمطالبه المادية ورغباته الشخصية.

ذلك أن الإنسان الرباني يوقفه إيمانه بالله وباليوم الآخر موقف الموازنة بين رغبات نفسه ومتطلبات دينه، بين ما تدفعه إليه شهوته وما يأمر به ربه... فليس الإنسان الرباني هو الإنسان الملاك الذي لا يقع في خطيئةٍ ولا خطأ، فهذا لا وجود له إلا في عالم الخيال أو المثال، إنما هو ذلك الإنسانُ الأوّابُ الذي يشعر بالتقصير كلما زَلّ، يرجع إلى الله كلما أذنب، قال تعالى: ﴿ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ٢٥ ﴾ [الإسراء، الآية ٢٥]، ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾ [آل عمران، الآية ١٣٥]، ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٢٣ ﴾ [الأعراف، الآية ٢٣].

ولقد عصى آدمُ وعصى إبليسُ، فغُفِرَ لآدم ولم يُغْفَرْ لإبليس؛ لأن معصية آدم كان سببها الضعف والنسيان: قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥ ﴾ [طه، الآية ١١٥]، ثم أعقبتها توبةٌ نصوح تمحو أثرَ الذنب كما تمحو إشراقةُ الصُّبحِ ظلمةَ الليل، ﴿ ثُمَّ ٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيۡهِ وَهَدَىٰ ١٢٢ ﴾ [طه، الآية ١٢٢].

أما معصية إبليس فكان سببها الكِبْر والتمرُّد علىٰ أمر الله، ﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ ﴾ [ص: الآية ٧٦]، ولم يعقبها إلا الإصرار علىٰ الضلال والإضلال؛ ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾ ﴾ **[الأعراف، الآيتان ١٦ – ١٧]**.

* وأمّا ربانية المصدر والمنهج فنعني بها أنَّ هذا المنهج الذي رسمه الإسلام للوصول إلىٰ غاياته وأهدافه إنما هو منهجٌ رباني خالص؛ لأن مصدره وحي الله تعالىٰ إلىٰ خاتم رسله محمد ﷺ، فلم يأتِ نتيجةً لإرادة فرد أو حزب أو شعب، إنما جاء نتيجة لإرادة الله أراد به الهدىٰ والنور كما قال تعالىٰ يخاطب الناس: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾ **[النساء، الآية ١٧٤]**.

فإن مصدر الإسلام، ومشرع أحكامه ومناهجه هو الله تعالىٰ، فهو وحيه إلىٰ رسوله الكريم ﷺ باللفظ والمعنىٰ (القرآن الكريم)، وبالمعنىٰ دون اللفظ (السنة النبوية).

فالإسلام بهذه الخصيصة يختلف اختلافًا جوهريًّا عن جميع الشرائع الوضعية التي مصدرها الإنسان، أما الإسلام فمصدره ربُّ الإنسان. إن هذا الفرق الهائل بين الإسلام وغيره لا يجوز إغفاله مطلقًا ولا التقليل من أهميته(١). ولهذا فإن من ركائز العقيدة الإسلامية الإيمان بالقرآن وما جاء به والإيمان بالغيب انطلاقًا من الإيمان بالله وحده الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد وبملائكته وكتبه ورسله جميعًا من آدم عليه السلام إلىٰ محمد ﷺ، والإيمان بأن أبانا آدم وأمنا حواء، والإيمان بجميع الكتب السماوية والتصديق بأن الشيطان عدو للإنسان وهو مضل مبين.

ثانيًا: الإنسانية

من خصائص الإسلام العامة بعد الربانية: الإنسانية، فالإسلامُ مع ربّانيتِه في غايتِه ووجهته هو إنسانيٌّ أيضًا في الغاية والوجهة، ومن هنا نقول: إن للإنسان

(١) يوسف القرضاوي: الخصائص العامة للإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٣م، ص ٧ وما بعدها.

مكانًا أيّ مكانٍ في غايات الإسلام العليا وأهدافه الكبرىٰ، مع تقرير غايته وإبرازها وتثبيتها.

ومن المقرر أن القرآن الكريم نزل علىٰ قلب سيد البشر الإنسان الكامل سيدنا محمد ﷺ، وخوطب الإنسانُ في هذا الكتاب من قبل ربه عز وجل، والرسل الكرام عليهم الصلاة وأزكىٰ السلام هم أفضل الأناسي، وبعثوا لهداية الإنسان. والإسلام خاطب الروح والجسد وزكَّاهما عن الأدران والوثنية بجميع ألوانها.

ويعتقد الكثير أنّ ثمةَ تعارضًا بين إيجابية الإنسانية في الإسلام والقدَر الإلهي، والحقيقة أنْ لا تعارض بينهما؛ فإنّ إثبات القدر الإلهي لا ينفي إيجابية الإنسان ودوره في هذا الكون، فالله الذي خلق الإنسان هو الذي منحه العقل والإرادة فهو قادر بقدرة الله ويريد بإرادة الله؛ ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ٣٠﴾ [الإنسان، الآية٣٠]، فالإنسان يشاء لأن الله شاء له أن يشاء. وعلىٰ هذا الأساس أمرَ الله الإنسان ونهاه، وبعث له الرسل، وأنزل عليه الكتب، ووضع نصب عينيه الثواب والعقاب.

فالإنسان مخلوقٌ مكلّفٌ مسئولٌ، عليه أن يكدح حتىٰ يلقىٰ ربه، فيجزيه خيرًا إذا كان كدحه خيرًا، وشرًّا إذا كان شرًّا؛ ولهذا قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق، الآية ٦].

ومن ثمرات الإنسانية في الإسلام:

- الإخاء: البشرُ جميعًا في نظر الإسلام أبناء رجلٍ واحد هو «آدم»، وامرأة واحدة هي «حواء»، فقد ضمتهم جميعًا هذه الرّحم الواصلة؛ ولهذا قالَ سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءًۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ١﴾ [النساء، الآية ١].
- الحرية: لقد حرّر الإسلامُ الإنسانَ مِن وصمةِ التلوّث التي يُولَد عليها كُلُّ إنسانٍ، كما هي دعوة المسيحية التي تزعمُ أنَّ خطيئة آدم حينما أكل

من الشجرة وُرّثت لبنيه ذكورًا وإناثًا، فلا يُولد مولودٌ إلّا وفي عنقه هذه الخطيئة، وهذا يجانب الصواب.

كذلك كفل الإسلامُ للإنسانِ حرية التديّن والاعتقاد، ففي الإسلام لا يجوز الإكراه على الدخول في الدين؛ لأن الدين ليس مجرد مظاهر خارجية وحركات ظاهرية يؤديها المرء، بل هو حقيقة يجب أن تستقر في أعماق كل من أراد الدخول في هذا الدين، حيث يقول الله تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ ﴾ [البقرة، من الآية ٢٥٦].

- المساواة: أما مبدأ المساواة الذي قرره الإسلام ونادى به، فأساسه أن الإسلامَ يحترم الإنسان ويكرمه من حيث كونه إنسانًا، مسقطًا بذلك كل أنواع التفرقة القبَلية والعنصرية والقومية واللونية، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات، الآية ١٣]، فقد يختلف الناس في أجناسهم وعناصرهم وفي أنسابهم وثرواتهم ولكن هذا الاختلاف لا يجعل لواحد منهم قيمة إنسانية أكبر من قيمة الآخر الذي هو أقل منه، بل إن قيمة الإنسانية واحدة للجميع.

ثالثًا: الشُّمول

إن الشمولَ من خصائص الإسلام الكبرى، وهو شمولٌ بكل ما تعني الكلمة من معانٍ؛ فهو يشمل الزمان والمكان، ويستوعب جوانب الحياة كلها، والإنسان كله والأجيال والأجناس والأعمار، كذلك فهو يستوعب علاقة الإنسان بربه عَزَّ وَجَلَّ ونبيه ﷺ، وبأخيه الإنسان. بل علاقته بالكون برًّا وبحرًا وجوًّا؛ فالله عَزَّ وَجَلَّ نهى عن الفساد في الأرض، فقال: ﴿ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا وَٱدۡعُوهُ خَوۡفٗا وَطَمَعًاۚ إِنَّ رَحۡمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ مِّنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦ ﴾ [الأعراف، الآية ٥٦]. ﴿ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾ [الأعراف، الآية ٨٥].

إنَّ رسالة الإسلام امتدت طولا حتى شملت آباد الزمان. . . وامتدت عرضًا حتى انتظمت آفاق الأمم. . . وامتدت عمقًا حتى استوعبت شئون الدنيا والآخرة. . . وشملت جميع جوانب الحياة المعيشية، والجوانب الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وهو شمول في العقيدة الإسلامية والعبادة والأخلاق والتشريع والالتزام بجميع الدين، فلا يجوز أن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾﴾ [البقرة، من الآية ٨٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران، الآية ١٩ – ٢٠] .

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران، الآية ٦٧].

وسيظلُّ الإسلامُ منتشرًا كالشمس إلى قيام الساعة، فعن المقداد بن الأسود، قالَ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يبقى على الأرض بيتُ مدر ولا وبر إلا أدخله الله الإسلام بعزِّ عزيزٍ أو بذلِّ ذليل»(١).

أما نبيُّنا محمد ﷺ فهو خاتم النبيين والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه، ورسالته رسالة الخلود، وهو مبشر به من قِبَل سيدنا إبراهيم عليه السلام؛ ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة، الآية ١٢٩]. وبشرت التوراة بمن يأتي بعد موسى عليه السلام، وبشر الإنجيل بمن يأتي بعد المسيح عيسى ابن مريم، وهو سيدنا

---

(١) ابن حبان في صحيحه بترتيب الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي المسمَّى (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان) تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار باوزير، جدة، ط١، ٢٠٠٣م، ١٥/ ٩٣. حديث رقم .

محمد ﷺ، ويسمىٰ في التوراة بـ (الفارقليط)، الذي سيبين كلمة الحق ولا يتكلم من عند نفسه، وذكر الله بشارة سيدنا عيسىٰ عليه السلام بسيدنا محمد ﷺ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ٦﴾ [الصف، الآية ٦].

والقرآنُ الكريمُ كتابُ الله، مُصدّقٌ لما بين يديه من كتب، ومُهَيمنٌ علىٰ سائر الكتب التي سبقته، وهو شامل لما كان فيها ولم تمسه يد التحريف ولن تمسه كما حدث من ذي قبل.

إنَّ شُموليّة التعاليم الإسلامية تتجلّىٰ في مناحٍ شتّىٰ؛ فهي تتجلىٰ في شمولية العقيدة التي لا تُجزّئ الإنسانَ بين إلهين اثنين: إله الخير، وإله الشر والظلمة كما في المجوسية.

كما أنَّ العقيدة شاملة؛ لأنها لا تعتمد في إثباتِها علىٰ الشعور والوجدان وحدهما كما هو شأن المسيحية التي ترفض تدخل العقل في العقيدة رفضًا تامًّا ـ كما لا تعتمد في إثباتها علىٰ العقل وحده كما هو شأنِ جلّ الفلسفات البشرية المتهدمة، وإنما تشمل في إثباتها الشعور والوجدان والعقل، فالإيمان الإنسانيّ هو الذي ينبعث مِن ضياء العقل، وحرارة القلب ووجدانه.

كذلك تتجلىٰ شمولية الإسلام في العبادة التي تستوعب الكيانَ البشريَّ كلّه دون تفريقٍ، فضلًا عن أنّ المسلم لا يعبدُ اللهَ بلسانِه فحسب، بل هو يعبده بلسانه ذاكرًا داعيًا، وبجسده مصليًا صائمًا مجاهدًا، وبقلبه خائفًا راجيًا، وبعقله متفكرًا متدبرًا.

وأيضًا فإن شمولية الإسلام تتجلىٰ في تلكم الأخلاقِ التي أرسَاها، فإنّه لم يترك خلقًا ممدوحًا إلا نبّه عليه وشجّع المسلم علىٰ الإتيان به، والإثابة عليه بعد ذلك مِن رب العالمين. ولم يترك خلقًا مذمومًا إلا حذّر منه ومن الإتيانِ به، ونوّه علىٰ عقوبتِه يوم القيامة مِن رب العالمين.

رابعًا: الوسطية

هي التعادلية والتوازن والقسطاس المستقيم: ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ ﴾ [الإسراء، الآية ٣٥]. ﴿ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴾ [الشعراء، الآية ١٨٢].

فوسطية الإسلام إنما تعني الموازنة بين الروح والجسد، والفردية والجماعية، والواقعية والمثالية، والثبات والتغير.

وهي تعني - أيضًا - العدلَ والاستقامةَ والخيرَ، ولا بُدَّ من الوسطية في الاعتقاد، فلا غلوَّ ولا تفريطَ، ولا إفراطَ ولا تنطُّعَ، بل لا بُدَّ من الوسطية في الشعائر والعبادات والأخلاقيات جميعها.

ووسطية الأمة الإسلامية مستمدّةٌ من وسطية منهجها ونظامها، فهو منهج الأمة الوسط ومنهج الاعتدال والتوازن، السالم من التفريط والإفراط، ومن الغلو والتقصير ومن الإرجاء.

مزايا الوسطية الإسلامية وفوائدها:

إن الله ﷻ من حكمته أن جعلنا نحن المسلمين أمة وسطًا، وجعلنا شهداء على الناس، وجعل نبينا ﷺ شهيدًا علينا، ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة، الآية ١٤٣].

واختار ربُّنا ﷻ الوسطية أو التوازن شعارًا مميزًا لهذه الأمة التي هي آخر الأمم، ولهذه الرسالة التي ختم بها الرسالات الإلهية، وبعث بها خاتم النبيين والمرسلين ورحمة الله للعالمين، وهذه وسطيتنا كما خلقنا بها الله سبحانه وتعالى ولكن إيماننا به أرسخ من الجبال في الأرض وأكبر منها في صدورنا.

أ- الوسطية أليق بالرسالة الخالدة:

إن الموازنة بين المادة والروح مزية من مزايا الإسلام، وللوسطية الإسلامية معان عدة، منها العدل الذي هو ضرورة لقبول شهادة الشاهد. فلابد للمسلم أن يكون عدلًا، فيكون مرضيًّا بين الناس.

وتفسير «الوسط» في الآية القرآنية الآنفة الذكر هو العدل، وهذا العدل في الحقيقة توسط بين الطرفين المتنازعين أو الأطراف المتنازعة، دون ميلٍ أو تحيّزٍ إلى أي أحد، وهو موازنة بين هذه الأطراف بحيث يُعْطَى كل منها حقه دون بخسٍ ولا جورٍ.

ب – الوسطية تعني الاستقامة:

هي استقامة المنهج والبعد عن الميل والانحراف عن الجادة، فالمنهج المستقيم كما أمر ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة، الآيتان ٦ – ٧]. بمعنى الطريق السوي الواقع وسط الطرق الجائرة عن القصد إلى الجوانب، فإذا فرضنا خطوطًا كثيرة واصلة بين نقطتين متقابلتين، فالخط المستقيم إنما هو الخط الواقع في وسط تلك الخطوط المنحنية، ومن ضرورة كونه وسطًا بين الطرق الجائرة أن تكون الأمة المهدية إليه وسطًا بين الأمم السالكة إلى تلك الطرق الزائغة(١).

ج – الوسطية دليل الخيرية:

هي دليل الخيرية ومظهر الفضل والتمييز في الماديات والمعنويات؛ ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة، الآية ١٤٣].

فالوسط هاهنا الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسبًا ودارًا، أي: خيرها. وكان رسول الله ﷺ وسطًا في قومه، أي: أشرفهم نسبًا، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات»(٢) وقد اصطفى من البشر أنبياء ورسل، فقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝٣٣ ﴾ [آل عمران، الآية ٣٣]؛ إذ جعل فيهم النبوة والهداية للمتقدمين والمتأخرين.

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود العمادي (إرشاد العقل السليم). الرياض: مكتبة الرياض الحديثة. د. ت. ١/ ٢٧٦.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي محمد سلامة. الرياض: دار طيبة. ط٢. ١٩٩٩م. ١/ ٤٥٤.

ثم إن الله تعالىٰ اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفىٰ سيد ولد آدم من بني هاشم، فكان آل إسماعيل أفضل الأولين والآخرين، كما كان بنو إسحاق أفضل المتوسطين، إذ كانت هداية الأنبياء من بني إسحاق وغيرهم خاصة، وهداية هذا النبي من آل إسماعيل عامة، فيه أكمل الله تعالىٰ الدين، وأتم نعمته علىٰ العالمين، كما اقتضته سنته تعالىٰ في النشوء والارتقاء التي كانت في البشر أظهر منها في سائر الأحياء وهذا الاصطفاء من الأمة العربية أي من الجزيرة العربية وما حولها من بلاد الشام والعراق ومصر.

خامسًا: الواقعية

يُقصد بها مراعاة واقع الكون من حيث هو حقيقة واقعة ووجود مُشَاهَد، ولكنه يدل علىٰ حقيقة أكبر منه ووجود أسبق وأبقىٰ من وجوده، وهو وجود الواجب لذاته، وهو وجود الله عَزَّوَجَلَّ الذي خلق كل شيء؛ ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الفرقان، الآية ٢].

وهو مراعاة واقع الحياة من حيث هي مرحلة حافلة بالخير والشر، تنتهي بالموت وتمهد لحياة أخرىٰ بعد الموت، ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٨١]، وتخلد فيما عملت بعد رحمة الله وعفوه وكرمه ومنِّه.

وهو أيضًا مراعاة واقع الإنسان من حيث هو مخلوق مزدوج الطبيعة؛ فهو روح من أمر ربه عَزَّوَجَلَّ، وبدن أصله الطين ثم سلالة من ماء مهين، ومن حيث نوعه من ذكر وأنثىٰ. ولكل نوع أحاسيسه ومشاعره وتركيبه الفسيولوجي ومطالبه وغرائزه ونزعاته ووظيفته وأطواره العمرية، وهو متغير الأحوال والأزمان والأماكن، وهو اجتماعي بطبعه.

فراعىٰ الإسلام دور كل فرد في هذا المجتمع، وعلم الله تبارك وتعالىٰ أن الإنسان توجد فيه خصلتان، هما: الأثرة والإيثار، ومتناقصات بين طبائع البشر،

فعالج السلبيات الخلقية، ومدح الخصال الذميمة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ [الملك، الآية ١٤].

ومما لا ريب فيه أن هناك في التشريع متغيرًا يناسب متغيرات العصر، وهناك أيضًا فتاوىٰ تتغير من زمن لزمن، ومن مكان لمكان، ومن شخص لشخص. فهناك واقعية في التشريع والعقيدة والعبادات والأخلاق والسلوكيات؛ لأنه دين للبشر، وواقعية الإسلام مبنية علىٰ الفطرة والمثالية الصادقة، والتطلع للترقي، والتشوف إلىٰ المثل العليا.

سادسًا: الوضوح

يعتبر وضوحُ الأصول والقواعد الإسلامية أولَ مظاهر الوضوح في الإسلام؛ إذ إن أصوله ودعائمه الكبرىٰ واضحة بينة لا لزعمائه وقادة الفكر والدعوة إليه فقط، ولا لخاصة المثقفين من أتباعه وأنصاره فحسب، بل لجمهرة المؤمنين به أيًّا كانوا. تستوي في ذلك الأصول الاعتقادية والشعائر التعبدية، وأمهات الفضائل الخلقية والأحكام التشريعية. وكما قيل: لا كهنوت في الإسلام، وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ [المائدة، الآيتان ١٥-١٦].

وقال تعالىٰ: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة، الآية ٣].

وضوح الأصول العقدية:

العقيدةُ اصطلاحًا كما يعرّفها الدكتور عبد اللطيف العبد هي «جزم القلب بشيء ما وانطواؤه عليه، وإذا عرفنا العقيدة الإسلامية عموما قلنا: إنها هي جزم القلب بما جاء به رسولنُا ﷺ من الإيمان بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، ويجب أن نتعلمَ أن معطيات العلوم الحديثة اليوم ليست إلا دعمًا لمبادئ التوحيد»[1]. وأن نؤمن بالكتب السماوية جميعها. وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ ﴾ [النساء، الآية ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ [المائدة، الآيتان ١٨ – ١٩].

وهذا التعريفُ إنما هو مستقىً مِن حديث رسول الله ﷺ الجامع، الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ النَّبِيّ ﷺ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ، فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ، فَقَالَ: «مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّـهِ، ومَلَائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، وبِلِقَائِهِ، ورُسُلِهِ، وتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ. قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّـهَ ولَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وتَصُومَ رَمَضَانَ. قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَّ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ. قَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ، وسَأُخْبِرُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتْ الْأَمَةُ رَبَّهَا، وإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الْإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ فِي خَمْسٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّـه. ثُمَّ تَلَا النَّبِيّ ﷺ: (إِنَّ اللهَّ عِنْدَهُ

---

(١) عبد اللطيف محمد العبد: رد مزاعم المبطلين عن أصول الدين، دار الثقافة العربية بالقاهرة، ط١. ١٤١٦هـ، ص٧.

عِلْمُ السَّاعَةِ...) الْآيَةَ. ثُمَّ أَدْبَرَ، فَقَالَ: «رُدُّوهُ». فَلَمْ يَرَوْا شَيْئًا، فَقَالَ: «هَذَا جِبْرِيلُ، جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ». قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: جَعَلَ ذَلِكَ كُلَّهُ مِنَ الْإِيمَانِ[1].

ويقول الشيخ أبو بكر الجزائري في كتابه: «العقيدة هي: مجموعة من قضايا الحق البديهية المسلمة بالعقل والسمع والفطرة، يعقد عليها الإنسان قلبه، ويثني عليها صدره، جازمًا بصحتها، قاطعًا بوجودها وثبوتها، لا يرىٰ خلافها أنه يصح، أو يكون أبدًا»[2].

وضوح الشعائر التعبدية:

ومن مظاهر الوضوح في الإسلام ـ أيضًا ـ أنَّ أركانه العملية، وشعائره التعبدية، واضحةٌ للخاص والعام:

- فالشهادةُ لله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، وهذه أول أركان الإسلام، وهي الباب الأول لدخول الإسلام.
- والصلاةُ هي الركن الثاني والفريضة اليومية معروفة بعددها ومواقيتها وأعداد ركعاتها وأركانها.
- والزكاةُ هي العبادة المالية الاجتماعية، معروفة إجماليًّا للمسلمين كافة، فهي تؤخذ من أغنيائهم لتردَّ علىٰ فقرائهم.
- وصيامُ رمضان هو الفريضة السنوية الدورية، فهو معلوم لكل الأمة الإسلامية؛ صوم عن الرفث والفسوق والعصيان والأكل والشرب.
- وحجُّ البيت هو فريضة العمر، واضحة معلومة إجمالًا لجماهير المسلمين لَمن استطاع إليه سبيلًا.

وعدمُ قتل الإنسان وحرمةُ سفك دمه واضحة أيضًا؛ قال تعالىٰ: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ

(١) صحيح البخاري، باب سؤال جبريل النبي e عن الإيمان والإسلام والإحسان، ١/ ١٩، حديث رقم.

(٢) أبو بكر الجزائري: عقيدة المؤمن، ص٢٣.

جَمِيعًاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [المائدة، الآية ٣٢].

قال تعالى: ﴿ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [المائدة، الآيات ٤٣ - ٤٥].

فهذه الفرائض الدينية، والأمور الشرعية واضحة تمام الوضوح في ذهن المسلم، يتلقّاها مِن صفحات الكتب وسؤال أهل الذكر، وقبل ذلك كله لا يجهل مسلم أنَّ العبادة - بمفهومها العام - هي المهمة الأولى للإنسان في الحياة، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات، الآية ٥٦].

سابعًا: الجمع بين الثبات والمرونة

يكاد الذين يكتبون عن الإسلام ورسالته في عصرنا الحالي ينقسمون إلى فئتين متقابلتين:

١ - فئة تبرز جانب المرونة والتطور في أحكام الإسلام حتى تحسبها عجينة لينة.

٢ - فئة تبرز جانب الثبات والخلود في تشريعه وتوجيهه حتى تحسبها صخرةً صلدةً.

وقليل من الكُتّابِ كانت رؤيته واضحة لهذا المنهج الإلهي الفريد.

ومن أبرز ما يميز مجتمع الإسلام عن سائر المجتمعات الأخرىٰ ذلك التوازن أو الوسطية، والتي تحدثنا عنها فيما سبق.

وإنَّ مِن أجلىٰ مظاهر التوازن والوسطية التي يتميز بها نظام الإسلام هو التوازن بين الثبات والتطور، فهو يجمع بينهما في تناسق مبدعٍ، واضعًا كلًّا منهما في موضعه الصحيح.

وهذه الخصيصة البارزة لرسالة الإسلام لا توجد في شريعة سماوية ولا وضعية، فالسماوية تمثل عادة الثبات والجمود، والوضعية تمثل عادة المرونة المطلقة.

ولكن الإسلام الذي فتح الله به الشرائع والرسالات السماوية أودعَ الله فيه عنصر الثبات والخلود وعنصر المرونة والتطور. وهذا من روائع الإعجاز في هذا الدين وصلاحيته في كل زمان ومكان.

ونستطيع أن نحدد مجال الثبات ومجال المرونة في شريعة الإسلام، فنقول: إنه:

١ - الثبات علىٰ الأهداف والغايات، والمرونة في الوسائل والأساليب.

٢ - الثبات علىٰ الأصول والكليات، والمرونة في الفروع والجزئيات.

وهو موجود في الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة الثابتة، فالثبات والتطور دليل علىٰ صلاحية الإسلام لجميع الأزمان والأماكن، ومن دخل فيه نجا من النار إن شاء الله.

ونستطيع القول إن:

- الثبات يكون في العقيدة والأهداف والغايات.
- والمرونة في الوسائل والأساليب.
- والثبات في الأصول والكليات.

- والمرونة في الفروع والجزئيات.
- والثبات في القيم الدينية والخُلقية.
- والمرونة في الشئون الدنيوية والعلمية.
- والثبات في المصادر الأصلية والنصوص القطعية الثبوت، والتشريعية من حلال وحرام.
- القرآن الكريم والسنة النبوية ثابتان، لا تغيير ولا تبديل ولا تحريف ولا تعطيل فيهما.

وتتجلى هذه المرونة في المصادر الاجتهادية التي اختلف فيها الفقهاء في الفروع، مثل بعض مسائل الفقه. واختلفوا في مدى الاحتجاج بها، أي: بالمصادر الاجتهادية؛ فبين مُوَسِّع ومُضَيِّقٍ، ومُقِلٍّ ومكثرٍ، مثل مسائل: الإجماع، والقياس، والاستحسان، والمصالح المرسلة، وأقوال الصحابة وآرائهم الاجتهادية في فهم بعض النصوص الشرعية.

ونجد الثبات واضحًا في العقائد الأساسية الخمس، ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة، الآية ١٧٧].

كذلك فإنَّ الثباتَ واضحٌ في الأركان العملية الخمسة، فعَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسَةٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وأن محمدًا رسول الله، وإِقَامِ الصَّلَاةِ، وإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وصَوْمِ رَمَضَانَ، وحَجِّ الْبَيْتِ لمن استطاع إليه سبيلًا»(١).

(١) إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، البوصيري، ١/ ٧٢. ولفظه في الصَّحِيحَيْنِ، والتِّرْمِذِيِّ، والنَّسَائِيِّ: «بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَىٰ خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله. . . »

موقف المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرى:

علىٰ ضوء ما ذكرناه في الجمع بين الثبات الذي يمنحه الاستقرار، فلا يتحول عن أصوله، وبين المرونة التي يواجه بها سير الزمن وسنة التطوير، فيمكننا القول: إنَّ موقف المجتمع المسلم من المجتمعات الأخرىٰ المخالفة له في العقيدة والوجهة موقفًا وسطًا؛ فإنه لا يذوب فيها ولا يتبع أهوائها ولا يقلدها بما فيما هو من خصائصها، وهذه هي التبعية التي يرفضها الإسلام لأمته. ومع هذا لا ينعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات، بل يستطيع أن يقتبس وينتفع منها بما لديه من معارف وخبرات ومهارات.

فعنصر الثبات يتجلىٰ في رفض المجتمع المسلم للعقائد والمبادئ والأفكار التي تقوم عليها المجتمعات الأخرىٰ غير المسلمة، وفي مقابل هذا الثبات نجد مرونة وسماحة من الناحية العملية والتطبيقية في الحياة، مما يتصل بالطرائق والأساليب لا بالمبادئ والأهداف.

ثامنًا: المثالية والواقعية

من خصائص الإسلام أنه يحرص علىٰ بلوغ الإنسان أعلىٰ مستوىٰ ممكن من الكمال، وهذه هي مثالية الإسلام.

ولكنه لا يغفل ـ في الوقت ذاتِه ـ عن طبيعة الإنسان وواقعه، وهذه هي واقعية الإسلام. فلا بدَّ مِن الكلام عن هاتين الناحيتين في مطلبين متتاليين:

المطلب الأول: المثالية في الإسلام:

يحرص الإسلامُ دومًا علىٰ إبلاغ الإنسان الكمالَ المقدور له، وهذا يكون بجعل تصرفاته وأقواله وأفعاله وأفكاره وميوله وفق المناهج والأوضاع والكيفيات التي جاء بها الإسلام، وقد تحقق ذلك كله في رسول الله ﷺ؛ ولذلك أمرنا الله تعالىٰ بالتأسي به؛ ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب: الآية ٢١].

وقوام هذه المثالية الاعتدال والشمول.

أولًا: الاعتدال:

نقصد بالاعتدال عدم الإفراط والتفريط في أي شيء، وإعطاء كل ذي حق حقه. يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ﴾ [الفرقان، الآية ٦٧]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ ﴾ [الإسراء، الآية ٢٩].

والاعتدال مطلوب حتى في العبادات، فلا ينبغي للمسلم أن يرهق نفسه أو يؤذي جسده في عبادة يبالغ فيها ولم نُؤمر بها، يدل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه، قال: جاء ثلاثةُ رهطٍ إلى بيوت أزواج رسول الله ﷺ يسألون عن عبادته. فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، قالوا: أين نحن مِن رسول الله ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؟! قال أحدهم: أمَّا أنا فأصلي الليل أبدًا، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال الآخر: وأنا أعتزل النساء ولا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أَمَا والله إنِّي لأخشاكم لله وأتقاكم له، ولكني أصومُ وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»[1]. وتعذيب الجسد وتحميله ما لا يطيق ليس من مناهج الإسلام ووسائله لبلوغ الكمال المنشود؛ إذ ليس من لوازم هذا الكمال أو مقتضياته فعل ذلك، ولا من مقاصد الإسلام تعذيب الجسد، لا قصد الغايات ولا قصد الوسائل.

ومن ظن ذلك فهو واهم؛ فإن مثالية الإسلام يمكن بلوغها بنهج معتدل وسير مريح، وإنَّ الخروج عن هذا النهج يضعف الجسد ويقعد به عن أداء الفرائض فضلاً عن النوافل، ومن خرج عن هذا النهج وجب ردُّه إليه. جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ رأى رجلًا قائمًا في الشمس، فسأل عنه فقالوا: يا رسول الله، إنه نذر أن يقوم في الشمس ولا يقعد ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم. فقال ﷺ: «مُروه

(١) صحيح البخاري، باب الترغيب في النكاح، ٧ / ٢، حديث رقم ٥٠٦٣.

فليتكلَّم، ولْيقعدْ، ولْيتمَّ صومه»(١) فالصوم مطلوب، ولكن الوقوف في الشمس حيث يمكن الوقوف في الظل غير مطلوب ولا معنىٰ فيه، وكذلك الصمت الدائم طيلة النهار لا داعي منه ولا فائدة فيه.

وحرمان الإنسان نفسه أو جسده من الطيبات والمتع الحلال ليس من منهاج الإسلام في بلوغ الكمال، وإنما منهاجه في الاعتدال، فإذا وجد الإنسان أو تيسَّرَ له شيءٌ من الطيبات بطريق الحلال أخذه وتناوله ولا يقدح ذلك في تعلقه بمثالية الإسلام، وإذا لم يجده لم ييأس عليه؛ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [المائدة، الآيتان ٨٧ – ٨٨]. فالمطلوب لبلوغ الكمال تقوىٰ الله وليس تحريم الطيبات وحرمان الجسد أو النفس منها.

ومع هذا فقد يسوغ أو يندب أخذ الإنسان نفسه بالشدة وخشونة العيش ورضاه بالضيق إذا كان ذلك لغرض مشروع أو مقصد نبيل أو لسبب مقبول، كما لو كان المسلم في مقام القدوة، أو بسبب إيثار الغير علىٰ نفسه، أو بسبب امتناعه عما لا يجوز له فتعرض إلىٰ ما ذكرنا، وكما جاء في القرآن جاء في الكتب السماوية الأولىٰ، فالتقوىٰ مطلوبة وإتباع ما جاء في الكتب السماوية مطلوب.

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ﴿٦٦﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَسۡتُمۡ عَلَىٰ شَيۡءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۖ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [المائدة، الآيات ٦٥ – ٦٨].

(١) جامع الأصول في أحاديث الرسول، مبارك بن محمد بن الأثير، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، مكتبة الحلواني ط١ ١٩٦٩م، ١١ / ٥٤٣.

ثانيا: الشمول:

والمثالية في الإسلام تتصف بالشمول؛ لأن الإسلام يريد مِن المسلم أن يبلغَ الكمالَ المقدورَ له بتناسق وفي جميع شئونه، فلا يقبل علىٰ جانب واحد أو عدة جوانب ويبلغ فيها المستوىٰ العالي من الكمال، بينما يهمل الجوانب الأخرىٰ حتىٰ ينزل فيها إلىٰ دون المستوىٰ المطلوب.

إن مثلَه في ذلك مثل مَن يُقوِّي يديه ويترك سائر أعضائه رخوة هزيلة ضعيفة، وعلىٰ هذا الأساس فَهِمَ الصّحابةُ الكرامُ مثاليّةَ الإسلامِ، فلم تَأسِرْهم عبادة ولم تقيدهم عادة، وإنما تقلَّبُوا في جميع العبادات والأحوال، وبَلغوا فيها المستوىٰ العالي من الكمال، فلم يحبسوا نفوسهم في مكان بعينِه، ولا علىٰ نوع من العبادة ولا علىٰ نمط معين من الأعمال، وإنما باشروا الجميع. فعند الصلاة كانوا في المسجد يصلون، وفي حلقات العلم يجلسون معلمين أو متعلمين، وعند الجهاد يقاتلون، وعند الشدائد والمصائب يواسون ويساعدون، وهكذا كان شأنهم في جميع الأحوال.

المطلب الثاني: الواقعية في الإسلام:

لا يغفل الإسلامُ طبيعةَ الإنسانِ وتفاوتَ الناس في مدىٰ استعدادهم لبلوغ المستوىٰ الرفيع الذي يرسمه لهم، وفي ضوء هذا النظر الواقعي جعل الإسلام حَدًّا أدنىٰ أو مستوًىٰ أدنىٰ من الكمال لا يجوز الهبوط عنه؛ لأن هذا المستوىٰ ضروريٌّ لتكوين شخصية المسلم علىٰ نحو معقول، ولأنه أقل ما يمكن قبوله من المسلم ليكون في عداد المسلمين، ولأنه وضع علىٰ نحو يستطيع بلوغه أقل الناس قدرة علىٰ الارتفاع إلىٰ مستوىٰ الكمال، وكذلك أهل الكتاب يعرفون ما نزل في الكتب السماوية ولكن البعض لم يَرْقَ إلىٰ المستوىٰ المطلوب في الدين، قال تعالىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [الأنعام، الآية ٢٠]، قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ
بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟
عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ

﴿إِذۡ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمۡۚ قَالَ أَلَيۡسَ هَٰذَا بِٱلۡحَقِّۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَاۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٠﴾ [الأنعام، الآيات ٢٧ – ٣٠].

إن هذا المستوىٰ الأدنىٰ يتكوّنُ من جملة معانٍ يجب القيام بها، وهي المسماة بـ (الفرائض)، كما يشمل جملة معان يجب هجرها، وهي المسماة بـ(المحرمات). فهذه الفرائض والمحرمات جُعِلت بقدرِ طاقةِ أقلِّ الناس استعدادًا لفعل الخير وابتعادًا عن الشر؛ ومن ثم يستطيع كلُّ واحد الوفاء بمقتضاه، ولا يعذر في التخلف عنها.

ولكن بجانب هذا المستوىٰ الإلزامي الواجب بلوغه علىٰ كل مسلم، وضعت الشريعة مستوىٰ آخر أرفع منه وأوسع منه، وحببت إلىٰ الناس بلوغ هذا المستوىٰ العالي، وإنَّ إلزامهم به إرهاق لهم وحرج شديد، والحرج في شرع الإسلام مرفوع؛ لأنه يخالف نظرة الإسلام الواقعية، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ [الحج، الآية ٧٨]، وقال تعالىٰ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا﴾ [البقرة، الآية ٢٨٦]. وهذا المستوىٰ العالي يشمل المندوبات التي ترغِّب الشريعة في القيام بها، والمكروهات التي ترغب الشـريعة في ترك المسلم لها.

وهذان المستويان الأدنىٰ والأعلىٰ موجودان في تشريعات الإسلام، نذكر منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر ما يأتي:

أولًا: الصلاة: منها ما هو فرض، ومنها ما هو مندوب، فالأول يدخل في معاني المستوىٰ الأدنىٰ، والثاني يدخل في معاني المستوىٰ الأعلىٰ، والصلاة هي عمود الإسلام ولا قبول لعمل ديني إلا بالصلاة، فإذا صلحت صلح العمل كله، وإذا فسدت فسد العمل كله؛ لأنها الصلة بين العبد وربه، وفيها جاء قول رسول الله ﷺ: «مَا مِن عبدٍ مسلم يصلي لله تعالىٰ في كل يوم اثنتي عشرة ركعة تطوّعًا غير الفريضة إلّا بنىٰ الله له بيتًا في الجنة»(١).

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ١٠٣﴾ [النساء، الآية ١٠٣].

---

(١) صحيح ابن حبان بتحقيق الأرنؤوط، ٦/ ٢٠٤.

ثانيًا: الصيام: هو الركن الرابع الفرض منه صيام شهر رمضان، وهذا من معاني الحد الأدنىٰ المطلوب، وصيام ست من شوال، والأيام البِيض من كل شهر، وصوم الاثنين والخميس ويوم عاشوراء مع يوم قبله أو بعده ويوم عرفة من معاني المستوىٰ الأعلىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ [البقرة، الآية ١٨٣].

ثالثًا: الحج: الركن الخامس فرضه مرة في العمر، وما زاد فتطوع. قال تعالىٰ: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج، الآية ٢٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ ٩٧﴾ [آل عمران، الآية ٩٧].

منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله تعالى

دعوة الأنبياء والرسل

من آدم عليه السلام وحتى نبينا محمد ﷺ

إن الله تبارك وتعالىٰ أمرنا باتباع رسوله، والدّعوة إلىٰ سبيله، وبما أنَّ الدعوة إلىٰ الله هي سبيل جميع الأنبياء والمرسلين من لدن نوح عليه السلام إلىٰ خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، لذلك فقد قصَّ علينا القرآن الكريم، قصصًا كثيرة من قصص دعوة الأنبياء لقومهم، ومنهجهم في دعوة قومهم وتحمُّلهم الأذىٰ في سبيل دعوتهم، ولقد وصف الله تعالىٰ كتابه الكريم بأنه الحق الذي لا شك فيه ولا ريبة، ووصف القرآن هذا القصص بأنه أحسن القصص.

قال تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ [البقرة، الآية ١٣٦].

قال تعالىٰ: ﴿ ۞فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ ﴾ [آل عمران، آية ٥٢].

قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤ ﴾ [آل عمران، الآية ٦٤].

قال تعالىٰ: ﴿ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤ ﴾ [آل عمران، الآية ٨٤].

وإذا تدبرنا حجم القصص في القرآن الكريم لوجدناه يمثل جزءًا غير يسير من كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ فيقترب من ثلث القرآن الكريم، وذلك لأهمية القصص القرآني وتعدد فوائده وهو من أهم الوسائل الدعوية؛ لذلك كان علينا أن نتعلم من هذا القصص ونتدبر معانيه وما هو وجه الاستفادة من هذا القصص فقد قال تعالى: ﴿ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[الأعراف، الآية ١٧٦]. والله تعالى أمرنا أن نقتدي بمن سبقنا من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين في صبرهم، وثباتهم، ومجاهدتهم، ولذلك كان القصص عبرةً لأولي الألباب ومنهاجًا للدعوة إلى الله تعالى من سياق دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وتسليمه إلى أقوامهم. فما من نبي ولا رسول إلا قام بدعوة قومه دون أن يمل أو يفتر من دعوته فقد قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤ ﴾ [إبراهيم، الآية ٤].

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥ ﴾[الأنبياء، الآية ٢٥].

وعن قتادة، قال: أُرسلت الرسل بالإخلاص والتوحيد، قال أبو جعفر: أظنه قال: لا يُقبل منهم عمل حتى يقولوه ويقروا به؛ والشرائع مختلفة، في التوراة شريعة، وفي الإنجيل شريعة، وفي القرآن شريعة حلال وحرام. وهذا كله في الإخلاص لله والتوحيد له.(١)

ولهذا كان ذكر قصص دعوة الرسل في القرآن وصبرهم على أذى قومهم، لذلك فقد أمر الله تبارك وتعالى رسولنا ﷺ أن يصبر كصبرهم، قال تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ۝٣٥ ﴾ [الأحقاف، الآية ٣٥].

والدعوة إلى الله تعالى هي مهنة الأنبياء والرسل، وسوف أقوم بسرد صور

---

(١) تفسير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١. ٢٠٠٠م، ١٨/ ٤٢٧.

مبسطة من دعوتهم إلىٰ قومهم، فقد قمت بتخصيص هذا الفصل عن دعوة الأنبياء والرسل وعن حياتهم الدعوية، ونبذة بسيطة عن ما لاقوه في طريق دعوتهم وما هي المصائب التي أصابتهم من جراء دعوتهم إلىٰ الله العلام الخالق العليم ونبدأ بنبي الله آدم عليه السلام والعقائد المستخلصة من قصته، وهؤلاء أنبياء الله ورسله في أرضه وقد أرسلهم الله تعالىٰ إلىٰ خلقه ولعامة البشر، وكل نبي أو رسول يخاطبهم بما كانت حالتهم عليه، وهؤلاء الأنبياء والرسل مبشرون بالجنة ومنذرون للأمة بعدم الوقوع في النار، فمنهم من أطاع الرسل، ومنهم من أبىٰ، ومن أبىٰ فقد كفر، ومن كفر دخل النار، وقد وضحت هذا لكي يتم أخذ العبر من الأقوام السابقة التي عاشت في زمن الأنبياء والرسل، وقد تم تبليغهم بالدعوة إلىٰ الله وتوحيده في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته، وإنذارهم بالوعيد الشديد، ولكن بعض الأمم ظلت في ضلالها، ولك أن تنظر بعينك أيها القارئ لتري كيف تم عذابهم، ونحن والحمد لله أمة محمد ﷺ وهي خير الأمم آمنا بالله وآمنا برسله وآمنا بكتبه، وعرفنا أن الأنبياء حق وأن الساعة حق، وأن سيدنا محمد ﷺ حق وصدق، وهو آخر الأنبياء والمرسلين وله الشفاعة العظمىٰ يوم القيامة، وهو سيد الأنبياء والرسل وسيد الأمة؛ لأن دعوته بلغت ما بلغ الليل والنهار وهذا بفضل الله تعالىٰ وتم نشر الدين بفضل الله ثم بفضل رجالٍ عملوا بعد رسولنا محمد ﷺ علىٰ نشر الدعوة من الجزيرة العربية والبلاد الأخرىٰ إلىٰ العالم بأكمله.

سنبين فيما يلي أن الإسلام هو دين الله الخالد، الذي لا يقبل الله سواه، وأن هذا الدين هو الدين الذي فرضه الله علىٰ البشر منذ خلقهم، جاء به آدم، وإدريس، ونوح، وإبراهيم وآل إبراهيم وآل عمران عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ ، وأنه تم برسالة خاتم النبيين ﷺ، وأن هذا الدين جاء به النبيون؛ لأنه هو الدين الوحيد الذي يدعو إلىٰ الوحدانية الخالصة التي لا يشوبها أدنىٰ شرك، وهو الدين الذي يشمل العقائد الصحيحة والأحكام العامة التي لا تتغير بتغير الزمان أو المكان أو بتغير أحوال الناس في سلسلة حياتهم الإنسانية علىٰ وجه الأرض، مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم

ولغاتهم وبيئاتهم، ومهما تغيرت مِهَنهم وحرفهم وثقافتهم في الحياة الدنيا، فهنالك أديان وضعية يعتقد معتنقوها أنها تناسب بيئتهم الخاصة، وتلائم عقول أفراد مجتمعهم المحدود، فإذا ما تغيرت بيئتهم ونزحوا بعيدًا عن مجتمعهم، وتَعسَّرت عليهم الحياة، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ووجدوا أنفسهم عاجزين عن الاندماج في المجتمع الإنساني، وكأنهم غرباء عن هذا العالم، كعبَدة التماثيل، وعبَدة النار، وعبَدة الجن وغيرهم من ذوي المعتقدات الباطلة التي لا تتفق مع الفطرة والطبع الإنساني السليم، من الخرافات والأوهام والأباطيل.

وسنبين أيضًا أن جميع النبيين قد بعثهم الله بعقيدة الإسلام، التي كانت تتلاءم مع البشرية والإنسانية على مر القرون والعصور، مع اختلاف البيئات، وبالرغم من تقلبات الزمان، وتغير عقليات الناس قرنًا بعد قرن وجيلًا بعد جيل.

وسنبين كذلك، كيف أن الله تعالى بفضله ورحمته وكرمه، لم يشأ أن يترك خلقه في ظلمات الجهل، تعبث بهم الأهواء، وتضلهم المطامع والشهوات، وتخلو بهم الشياطين، ويسيطر عليهم ذووا المطامع والأغراض، فأرسل إليهم الأنبياء والمرسلين، على توالي القرون والعصور، يبينون لهم سبيل الرشاد، ويمدونهم بالتعاليم التي تقوي عزيمتهم، ويزودونهم بالأفكار الصالحة التي يستطيعون أن يهتدوا بهديها، والتي تساعدهم على التمييز بين الظلام والنور، وبين الهدى والضلال، وبين الطريق المستقيم والطريق المعوج الذي يؤدي إلى الهلاك والفشل والدمار.

ومن نعم الله على البشر أن أرسل إليهم الرسل عبر التاريخ الإنساني متعاقبين، ومتواترين، يحملون رسالة الإسلام، كما قدمنا، ويذكرونهم بدينهم قرنًا بعد قرن، وجيلًا بعد جيل؛ ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥ ﴾ [النساء، الآية ١٦٥]، ويذكر الله لنا هؤلاء الرسل في قوله: ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن

نَشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ
وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ
وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلٌّ مِّنَ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ
﴿٨٦﴾ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ
﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾ [الأنعام، الآيات ٨٣-٨٨]

مع ذلك لم يؤمن بالرسل إلَّا القليل من بني آدم، وممن آمن بالرسل من غيَّروا وبدَّلوا في دينهم، وانحرفوا عن الصراط المستقيم، وأشركوا مع الله آلهة أخرىٰ نسجتها لهم خيالاتهم، وجسَّمتها لهم أوهامهم، قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤۡمِنُ أَكۡثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشۡرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٦].

المبحث الأول

آدمُ عليه السلام (١) والعقائد المستخلصة من قصته

آدم عليه السلام هو أول مخلوق إنساني خلقه الله، وهو أول الجنس البشري، ومنه ومن زوجه خلق الله بنيه الذين عَمَّرُوا الأرض من بعده، وهو أول اسم ذكره الله فيمن اصطفاهم على العالمين، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [آل عمران، الآيتان ٣٣ – ٣٤]. أي إنه خليفة الله في إمضاء أحكامه وأوامره (٢).

• آدم عليه السلام نبي مُرْسل:

ومن المعتقد أن آدم عليه السلام كان أول نبي، وقد روي عن أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلًا قال: يا رسول الله، أنبيًّا كان آدم؟ قال: «نعم، مُكَلَّمٌ»(٣)، وفي حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أنبيًّا كان مرسلًا؟ قال: «نعم»(٤)

وتُبين قصة آدم عليه السلام أن هنالك حياة بَرْزَخِيّة(٥) يلقاها الإنسان بعد الموت حتى نهاية الحياة الدنيا، وأن الله سوف يبعث من في القبور، فيخلقهم من التُّراب مرة أخرى، وأن الناس سوف تحشر جميعًا ليوم الحساب، ويوم الدين.

وكل من الحياة البرزخية والبعث يستدل عليه من قوله تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، تحقيق: مصطفى عبد الواحد. القاهرة: دار الكتب الحديثة، ط١. ١٩٦٨م، ١/ ١؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي د. محمد وصفي ص ٧.

(٢) تفسير القرطبي ١/ ٢٦٣.

(٣) البداية والنهاية ١/ ١٠١.

(٤) الحاكم ٢/ ٢٦٢، وأحمد ٥/ ١٧٨.

(٥) اصطلح المسلمون على تسمية هذه الحياة بالحياة البرزخية من الاسم الذي أطلقه الله عليها في قوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون، الآيتان ٩٩ – ١٠٠].

لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [طه، الآيات من ١٢٤ - ١٢٦].

والمعيشة الضنك: هي تلك الحياة التي يقضيها الإنسان بعد الموت إذا مات وهو معْرِض عن ذكر الله، وهي عذاب القبر(١)، والدليل على أنها تشير إلى الحياة البرزخية، لا إلى هذه الحياة التي نحياها اليوم، أو إلى جهنم كما ذهبت بعض الآراء(٢) أن من الكفار والمعرضين عن ذكر الله من يعيشون في هذه الحياة الدنيا عيشة ليست ضنكًا.

المبحث الثاني(٣)
شيث وإدريس عليهما السلام

إن آدم عليه السلام ولد له شيث، وإن شيثًا كان نبيًّا في عصر آدم، ونحن لا نريد أن ننفي هذا الخبر نفيًا، فقد يكون صحيحًا، إذْ قد يكون من الرسل الذين لم يذكرهم الله في كتابه، في قوله جل شأنه: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ . . ﴿٧٨﴾ ﴾ [غافر، الآية ٧٨]، وقوله: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ . . . ﴿١٦٤﴾ ﴾ [النساء، الآية ١٦٤]، ولذلك لا نرى بأسًا أن نذكر ما قيل في شأنه، بدون جزم منا بصحة تفصيلاته.

وروى عن أبي ذرّ رضي الله عنه في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله أنزل مائة صحيفة وأربع صحف، على شيث خمسين صحيفة»(٤).

---

(١) روى الطبري هذا التفسير بسنده عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وأبي صالح، والسدي وعبد الله. جامع البيان (١٦/ ١٦٤- ١٦٥).

(٢) روى الطبري بسنده عن الحسن، وابن زيد، وقتادة: أن المعيشة الضنك في النار، وروى عن عكرمة، وأبي حازم، والضحاك: أن المعيشة الضنك في الدنيا»، «جامع البيان» (١٦/ ١٦٣- ١٦٤).

(٣) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٦٧، ٧١؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٤٥.

(٤) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ٩٨.

الأسماء	حياتهم عند ولادة البكر			حياتهم بعد ولادة البكر			طول حياتهم		
	عبرانية	سامرية	سبعينية	عبرانية	سامرية	سبعينية	عبرانية	سامرية	سبعينية
آدم	١٣٠	١٣٠	٢٣٠	٨٠٠	٨٠٠	٧٠٠	٩٣٠	٩٣٠	٩٣٠
شيث	١٠٥	١٠٥	٢٠٥	٨٠٧	٨٠٧	٧٠٧	٩١٢	٩١٢	٩١٢
أنوش	٩٠	٩٠	١٩٠	٨١٥	٨١٥	٧١٥	٩٠٥	٩٠٥	٩٠٥
قينان	٧٠	٧٠	١٧٠	٨٤٠	٨٤٠	٨٤٠	٩١٠	٩١٠	٩١٠
مهلائيل	٦٥	٦٥	١٦٥	٨٣٠	٨٣٠	٨٣٠	٨٩٥	٨٩٥	٨٩٥
يارد	١٦٢	٦٢	١٦٢	٨٠٠	٨٧٥	٨٠٠	٩٦٢	٨٤٧	٩٦٢
أخنوخ	٦٥	٦٥	١٦٥	٣٠٠	٣٠٠	٢٠٠	٣٦٥	٣٦٥	٣٦٥
متوشلَّح	١٨٧	٦٧	١٨٧	٧٨٢	٦٥٣	٧٨٢	٩٦٩	٧٢٠	٩٦٩
لامك	١٨٢	٥٣	١٨٨	٥٩٥	٦٠٠	٥٩٥	٧٧٧	٦٥٣	٧٨٣
نوح	٦٠٠	٦٠٠	٦٠٠	٣٥٠	٣٥٠	٣٥٠	٩٥٠	٩٥٠	٩٥٠(١)

المبحث الثالث (١)

نوح عليه السلام والعقائد الدينيّة

أرسل الله بعد إدريس نوحًا عليهما السلام، وقد كانت الفترة بين إدريس ونوح كافية لاتساع عمل الشيطان، وإغوائه للناس، وصرفهم عن توحيد الله، وإضلالهم عن العقائد الدينية الصحيحة التي نادىٰ بها إدريس من قبل، وسنحاول هنا تحديد الزمن الذي بعث فيه نوح وما أعلنه لقومه من عقائد الإسلام، وسنبدأ بذكر ما جاء في القرآن مما له صلة برسالته:

* هذا الرقم لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم عن سن نوح عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾﴾ [العنكبوت، الآية ١٤].

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٧٥؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٥٥.

• نوح عليه السلام ورسالته في كتاب الله:

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣ ﴾ [آل عمران، الآية ٣٣].

وقال لرسوله الكريم ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ إِلَىٰٓ ١٦٣ ﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

اتخذ القوم لأنفسهم آلهة يعبدونها من دون الله، وعبدوا وَدًّا، وسُواعًا، ويَغُوث، ويَعوق، ونَسْرًا، وقد قيل: إن هذه كانت أسماء أقوام صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورنا هم كانوا أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا جاء آخرون، فتقرب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، وبهم يسقطون المطر فعبدوهم[(١)] وقد كانت هذه العبادات وهذه الضلالات في بلاد الرافدين بالعراق.

وقيل: إن هذه الأسماء ظلت معروفة حتى عهد الجاهلية، فكان (ود) لكلاب بدُومة الجَنْدَل بالبلاد السعودية حاليًّا، وكان له صورة رجل، وكان سواع لهذيل برباط بمكة، وكان له صورة امرأة، وكان يغوث لبنى غطيف من مرادٍ بالجرف من سبأ باليمن.

وقيل: هو صنم لمذحج وبعض قبائل اليمن، وكان له صورة أسد، وكان يعوق لهمدان ببلخع، وكان له صورة فرس، وكان نسر لذي كلاع من حمير باليمن، وكان له صورة نسر.[(٢)]

لقد كان نوح عليه السلام رسولا يوحى إليه، وهو رسول ونبي، وهو من أولي العزم من الرسل من الرسل كما جاء في قوله جل شأنه: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ إِلَىٰٓ . . ١٦٣ ﴾ [النساء، الآية ١٦٣]. وفي قوله: ﴿ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا لَقَٰدِرُونَ . . ٢٧ ﴾ [المؤمنون، الآية ٢٧].

---

(١) ذكره الطبري بسنده عن محمد بن قيس. « جامع البيان » ٢٩/ ٦٢.

(٢) جامع البيان ٢٩/ ٦٢.

وكان أول شيء أرسل به نوح عليه السلام هو الدعوة والتبليغ بتوحيد الخالق، والتعريف بالله، وأنه هو الذي تجب له العبادة دون سواه، وترك عبادة غيره مما يتخذونه للعبادة مثل التماثيل والأوثان والأصنام، وما ترمز إليه من المخلوقات أيًّا كانت هذه المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المؤمنون، الآية ٢٣].

وأخذ نوح عليه السلام يعدد لهم نعم الله عليهم، وبيَّن لهم أن ربهم هو الله الذي بيده وحده أن ينزل الماء من السماء، هذا الماء الذي يشربون منه، ويسقون به أنعامهم ويحي الله لهم به أرضهم بعد موتها، وأنه هو الذي يعطيهم بكل ما هم في حاجة إليه من أرزاق ونعم مختلفة، وأنه هو الذي يرزقهم بالأولاد حسب القانون الإلهي الذي سنَّهُ الله في الزواج، فيزداد بذلك عددهم، فيزدادون قوة وتفتح لهم أبواب الأمل في الحياة وقد قام قومه بإنكار رسالته وقام بدعوتهم تسعمائة وخمسين عامًا ولكن لم يؤمن معه إلَّا قليل، قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [هود، الآيتان ٣٢ – ٣٣].

وقد استمر في دعوته ولكنهم كذبوه فعذبهم الله، وقد قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يونس، الآية ٧٣].

ويمكن أن نلخص قصة سيدنا نوح عليه السلام والطوفان العظيم والسفينة في النقاط التالية:

- طلب منهم أن يعبدوا الله وحده لا شريك له ويخلصوا له الأعمال. وأن الله سبحانه سيعفو عنهم ويغفر لهم.
- دعاهم ليلًا ونهارًا، ولكنهم وضعوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارًا.

- طلب منهم أن يستغفروا الله ربهم، وأنه سبحانه سيغفر لهم ويمطرهم مطرًا غزيرًا ويرزقهم الأموال والأولاد والحياة الطيبة.
- أخبر الله سبحانه وتعالىٰ نبيه نوح عليه السلام بأن هؤلاء القوم لن يؤمنوا إلا الذين آمنوا به لذلك أوحىٰ إليه الله أن يصنع السفينة، وكان المشركون إذا مروا به سخروا منه.
- عندما انتهىٰ سيدنا نوح من بناء السفينة أمره الله أن يحمل فيها من كل زوجين اثنين والذين آمنوا به، قال تعالىٰ: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [هود، الآية ٤٠].
- وأمر الله الأرض أن تبتلع ماءها وكذلك السماء لا تمطر، فاستوت السفينة علىٰ جبل الجودي، ونجَّىٰ الله نبيه نوح والمؤمنين من قومه، وأعطىٰ الله الفرصة للبشرية أن تبدأ حياة جديدة.

المبحث الرابع(١)

هُودُ عليه السلام والعَقَائِد الدِّينيَّة

• هود عليه السلام وَرِسَالَته في كِتَابِ اللّهِ:

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ
إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ
ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾
قَالُوا۟ يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟
أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ١٢٠؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٨١.

﴿عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٥٧ وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَنَجَّيۡنَٰهُم مِّنۡ عَذَابٍ غَلِيظٖ ٥٨ وَتِلۡكَ عَادٞۖ جَحَدُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ وَعَصَوۡاْ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَمۡرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ٥٩ وَأُتۡبِعُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا لَعۡنَةٗ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ عَادٗا كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّعَادٖ قَوۡمِ هُودٖ ٦٠﴾ [هود، الآيات ٥٠ - ٦٠].

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتۡ عَادٞ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ١٨ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِي يَوۡمِ نَحۡسٖ مُّسۡتَمِرّٖ ١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٖ مُّنقَعِرٖ ٢٠ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ٢١﴾ [القمر، الآيات ١٨ - ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ ٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ٤٢﴾ [الذاريات، الآيتان ٤١ - ٤٢].

- **نسبه:**

هود عليه السلام - بحسب رواية المؤرخين المسلمين - من ولد سام بن نوح، ولكنهم اختلفوا في سلسلة النَّسب بينه وبين سام، فقال بعضهم: إن هودًا هو ابن عبد الله بن رباح بن الجارود بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح، فبينه وبين نوح سبعة آباء ومن سلالته قحطان[١] واقتصر بعضهم على أنه ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح[٢].

- **العَقَائِد في رِسَالة هُود عليه السلام**

- التَّوحيد والرِّسَالَة:

إن أول ما دعا إليه هود عليه السلام في قومه، هو أن يعبدوا الله وحده، ولا يشركوا به شيئًا، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٦٥﴾ [الأعراف، الآية ٦٥].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٢٢٦. والبداية والنهاية ١/ ١٢٠.
(٢) البداية والنهاية ١/ ١٢٠.

وقوم هود ﷺ هم أصحاب الأحقاف باليمن وأصحاب الرمال المتحركة، وقد دعاهم إلى التوحيد وعبادة الله تعالى ولكنهم عصوه وأنكروا دعوته فعذبهم الله تعالى وأرسل عليهم ريحًا صرصرًا في أيامٍ نَحِساتٍ ليذيقهم الذي عملوا.

المبحث الخامس(١)

صَالِحُ ﷺ والعَقَائِدُ الدِّينِيَّة

• صَالحُ ﷺ ورسالته في كتاب الله:

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْىِ يَوْمِئِذٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾﴾ [هود، الآيات ٦١-٦٨].

• صالحُ ﷺ وزَمَن رسالته، وموْطنه:

أرسل الله صالحًا ﷺ في قومه بعد هلاك عاد، وبعد موت هود ﷺ، وقد بيّن الله تعالى ذلك في قوله على لسان صالح يدعو قومه: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ .. ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف، الآية ٧٤].

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ١٤٥؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي د. محمد وصفي ٩٣.

وقيل: إن صالحًا عليه السلام هو ابن عبد بن ماسح بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح[(١)]: أي أنه يجتمع مع هود في جد واحد هو إرم.

ولكن هنالك بعض اختلاف في الأسماء بين صالح وثمود في رواية أخرىٰ، فقيل: إنه صالح بن عبيد بن آسف بن كاشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود[(٢)] وقيل: إن ثمود أخو جديس وطسم[(٣)]، وقيل: أخو جديس وقيل: إن ثمود قبيلة مشهورة باسم جدهم ثمود، أخي جديس، وكانوا عربًا من العربة يسكنون الحجر الذي بين الحجاز وتبوك، وكانوا يعبدون الأصنام، فبعث الله فيهم رجلاً منهم، هو عبد الله ورسوله صالح عليه السلام[(٤)].

وقيل: سميت ثمود لقلة مائها من الثَّمد، وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحجر بين الحجاز والشام إلىٰ وادي القرىٰ، وقيل: إن ثمود كانوا اثني عشر ألف قبيلة في كل قبيلة اثنا عشر ألف مقاتل، ونرىٰ أن هذا العدد مبالغ فيه إلىٰ حد كبير.

• العقائد في رسالة صالح عليه السلام

ـ التوحيد والرسالة:

وقد بينت عقيدة الإيمان بالرسل جميعًا في قصة صالح، كما جاء في قصتي نوح وهود (عليهما الصلاة والسلام) كذلك، بقوله تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾[الشعراء، الآيات ١٤١ - ١٤٣].

ولهذا نرىٰ صالحًا يذكر قومه بأسلافهم الذين بعث فيهم هود، وهو قوله: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ قُصُورًا . . ﴿٧٤﴾﴾[الأعراف، الآية ٧٤].

- القارعة والإيمان بأن الله ينزل عقابه علىٰ العاصين

(١) البداية والنهاية، ١/ ١٣٠، ١٣١.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٧/ ٢٣٨.
(٣) تفسير غريب القرآن، ٨/ ١٤٦.
(٤) البداية والنهاية، ١/ ١٣٠.

لقد جاء ذكر الساعة في رسالة صالح عليه السلام، كما جاء ذكرها من قبل في رسالة هود عليه السلام، وقد أنذر صالح قومه بالساعة، فكذبوه: قال تعالى: ﴿ فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الأعراف، الآيتان ٧٧ - ٧٨]. وهذه نهاية التكذيب بدعوة الأنبياء والرسل.

المبحث السادس

إِبْرَاهِيمُ عليه السلام وَالعَقَائِدُ الدِّينِيَّة[(١)]

نبي الله إبراهيم عليه السلام هو من أعظم الشخصيات الرائعة في التاريخ الديني والأخلاقي وفي الحياة الاجتماعية وكذلك أبوته.

هو في الحقيقة أبو الأنبياء؛ لأن الله سبحانه وتعالى اختار كثيرًا من الرسل من ذريته كإسحق ويعقوب وأبنائهم، وسيدنا إسماعيل، ومن نسله خاتم الأنبياء سيدنا محمد عليهم الصلاة والسلام جميعًا.

وذكر سيدنا إبراهيم عليه السلام في سور عديدة بالقرآن، وكذلك سيرته وأعماله ذكرت في عدة مواضع من القرآن الكريم.

فكر سيدنا إبراهيم عليه السلام في وحدانية الخالق سبحانه منذ كان شابًّا صغيرًا، ودخل في مناقشات وحوارات جادة مع الرهبان داحضًا ورافضًا ميلهم إلى عبادة الأصنام والنجوم والنار.

وقد أخبرهم بأن هذه الأصنام وهذه الحجارة لا تضر ولا تنفع، ولذلك أرادوا أن يحرِّقوا سيدنا إبراهيم حيًّا ولكن الله سبحانه نجاه من النار.

لقد كان خليل الله إبراهيم مثلًا في الأب وفي الابن، وهذه لمحات عن حياته ذكرت في القرآن:

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ١٦٧؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٠١.

❁ قد كان إبراهيم عليه السلام ابنًا غاية في البر والحلم والعطف على أبيه الكافر.

❁ إن الله سبحانه وتعالى أراه ملكوت السماوات والأرض، وذلك ليكون من الموقنين والمتقين.

❁ وقد تحاور مع قومه بأن الآلهة التي يعبدونها لا تضر ولا تنفع وأنه لا يمكنه عبادتها أبدًا وأنه بريء مما يشركون وقد كسر الأصنام التي يعبدونها.

قال تعالى: ﴿ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الأنبياء، الآيتان ٥٧ – ٥٨].

- وقد ذكر الله نبيه وخليله إبراهيم في القرآن وذكر قصته.
- قد أعطاه الله سبحانه الحكمة والقدرة على التأثير في الآخرين، فآتاه الرد القاطع والحاسم على ادعاءات قومه.
- إِبْرَاهِيم عليه السلام ورسالته في كتاب الله:

ـ ما جاء عن إبراهيم عليه السلام خاصة:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ ﴾ [مريم، الآيات ٤١ – ٤٨]، وقد كانت دعوة إبراهيم عليه السلام ببيداء بالعراق، وحينما أرادوا حرقه كان في هذه البلاد وهي بداية دعوة قومه إلى الله العلَّام.

قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ ﴾ [التوبة، الآية ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ [العنكبوت، الآيتان ١٦ – ١٧]

• علاقة إبراهيم بإسماعيل وإسحاق ويعقوب عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ .

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِى وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾ ﴾ [إبراهيم، الآيات ٣٥ – ٤١].

• علاقة إبراهيم عليه السلام بمحمد خاتم النبيين ﷺ وأمته.

قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ [آل عمران، الآيتان ٦٧ – ٦٨].

• إبراهيم عليه السلام وزمن رسالته عبر تاريخ الرسل والنبيين:

روى أنَّ أبا إبراهيم كان من أهل حران، فأصابته سنة فأتى هرمزجرد ومعه

امرأة أم إبراهيم، واسمها نونا بنت كرنيا بن كوثىٰ من بني أرفخشد بن سام بن نوح[(١)]

وقيل: إن اسم أمه أبيونا، من ولد افرايم بن أرغوا بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وقيل: نهر كونىٰ كراه كرنيا جد إبراهيم من قبل أمه، وكان أبوه علىٰ أصنام الملك نمرود، فولد إبراهيم بهرمزجرد، وكان اسمه إبراهيم، ثم انتقل إلىٰ كوثىٰ من أرض بابل، فلما بلغ إبراهيم وخالف قومه، ودعاهم إلىٰ الله بلغ ذلك الملك نمرود، فحبسه في السجن سبع سنين، ثم بنىٰ له الحير بحصىٰ وأوقده بالحطب الجزل وألقىٰ إبراهيم عليه السلام فيه، فقال: حسبي الله ونعم الوكيل! فخرج منها سليمًا لا يكلم، قيل: وهاجر إبراهيم من بابل إلىٰ الشام فجاءته سارة فوهبت له نفسها، فتزوجها وخرجت معه وهو يومئذ ابن سبع وثلاثين سنة، فأتىٰ حران فأقام بها زمانًا، ثم أتىٰ الأردن فأقام بها زمانًا، ثم خرج إلىٰ مصر فأقام بها زمانًا، ثم رجع إلىٰ الشام فنزل السبع، أرضًا بين إيلياء وفلسطين، وأوذي هنالك فتحول إلىٰ منزل بين الرملة وإيليا، قيل: ومات إبراهيم بالشام وهو ابن مائتي سنة[(٢)].

وقيل: إن إبراهيم هو بن تارح بن ناحور بن ساروغ بن أرغوا بن فالغ ابن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح [(٣)]

وهذا النسب يوافق النسختين العبرانية والسامرية من العهد القديم، إلا أنَّ النسخة اليونانية زادت بين «شالخ» و«أرفخشذ» اسم «قينان»، وذكر ابن سعد عن وهب أن بين نوح وإبراهيم ألفًا ومائتين وأربعين سنة (١٢٤٠).

وقيل: إن ملوك عجم الجزيرة كلهم كانوا علىٰ ملة إبراهيم عليه السلام، وجميع من

---

(١) رواه ابن سعد بسنده عن محمد بن السائب الكلبي عن أبيه. الطبقات الكبرىٰ ١/ ٤٦.

(٢) رواه ابن سعد عن هشام بن محمد عن أبيه. الطبقات الكبرىٰ ١-٤٦/ ٤٧. وفي (العهد القديم): وهذه أيام سنىٰ حياة إبراهيم التي عاشها مائة وخمس وسبعون سنة. (تكون ٧: ٢٥).

(٣) ابن سعد عن محمد بن السائت الكلبي عن أبيه. « الطبقات الكبرىٰ « ١/ ٤٥. والمعارف، ص١٥. وذكر ابن قتيبة اسم «أشرع «بدل «ساروغ».

كان في زمان كل واحد منهم من الرعايا في البلاد على أديان ملوكهم، وكان لملوكهم مرجع هو موبذ موبذان(١).

وبيّن إبراهيم لقومه مغبة عبادة الشيطان، ومصير إبليس وجنوده وجميع من استجاب لغواياته، وهو قوله تعالى: ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الشعراء، الآيات ٩١ – ٩٥].

المبحث السابع(٢)

لوط عليه السلام والعقائد الدينيّة

لقد أرسل الله لوطًا عليه السلام إلى قومه، في زمن إبراهيم عليه السلام، وكان معاصرًا له، وكان مؤمنًا برسالة إبراهيم كما سيأتي بعد، وسنذكر هنا ما جاء عن لوط في كتاب الله.

- **لوط عليه السلام ورسالته في كتاب الله**

قال الله تعالى بعد أن ذكر في سورة العنكبوت قصة إبراهيم عليه السلام: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت، الآية ٢٦].

ثم قال جل شأنه: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ

(١) الملل والنحل ٢/ ٥٧.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٢٥٤؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٢٣.

أَن جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗاۖ وَقَالُواْ لَا تَخَفۡ وَلَا تَحۡزَنۡ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهۡلَكَ إِلَّا ٱمۡرَأَتَكَ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٣ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٣٤ وَلَقَد تَّرَكۡنَا مِنۡهَآ ءَايَةَۢ بَيِّنَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٣٥﴾ [العنكبوت، الآيات ٢٨ - ٣٥].

• لوط عليه السلام زمنه ونسبه

كان لوط معاصرًا لإبراهيم عليهما السلام، فقد ذكر الله تعالىٰ أن الملائكة الذين أمروا أن يبشروا إبراهيم وامرأته بمولود يلدانه علىٰ الكبر، كانوا مأمورين في الوقت نفسه بالذِّهاب إلىٰ لوط لإهلاك قومه الذين كانوا يعملون السيئات، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَآ إِبۡرَٰهِيمَ بِٱلۡبُشۡرَىٰ قَالُوٓاْ إِنَّا مُهۡلِكُوٓاْ أَهۡلِ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِۖ إِنَّ أَهۡلَهَا كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٣١ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطٗاۚ قَالُواْ نَحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَن فِيهَاۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهۡلَهُۥٓ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ كَانَتۡ مِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ٣٢﴾ [العنكبوت، الآيتان ٣١ - ٣٢].

وفي المصادر اليهودية التي نقل عنها بعض المؤرخين المسلمين: أن لوطًا هو ابن هاران بن تارح، وهو ابن أخي إبراهيم، وإبراهيم عمه، وكان لوط قد هاجر مع عمه إبراهيم إلىٰ الشام، نزل إبراهيم أرض فلسطين، ونزل لوط الأردن، أرسله الله إلىٰ أهل سدوم يدعوهم ويبلغهم بتوحيد الله تعالىٰ وعبادته وعدم الإشراك به.

وفي (العهد القديم): ولد تارح إبراهيم وناحور وهاران، وولد هاران لوطًا، ومات هاران قبل تارح أبيه في أرض ميلاده في أور الكلدانيين، واتخذ أبرام وناحور لنفسيهما امرأتين، اسم امرأة أبرام ساراىٰ، واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة، وكانت ساراىٰ عاقرًا ليس لها ولد، وأخذ تارح أبرام ابنه ولوطا بن هاران ابن ابنه، وساراىٰ كنته امرأة أبرام ابنه، فخرجوا معًا من أرض الكلدانيين، ليذهبوا إلىٰ أرض كنعان، فأتوا إلىٰ حاران وأقاموا هناك، وكانت أيام تارح مائتين وخمس سنين، ومات تارح في حاران[1]

(١) سفر التكوين (١١/ ٢٧-٣٢).

قال تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [الشعراء، الآيتان ١٠٥ – ١٠٦].

قال تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾[الشعراء، الآيتان ١٢٣ – ١٢٤].

قال تعالىٰ: ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الشعراء، الآيتان ١٤١ – ١٤٢].

قال تعالىٰ: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ ﴾ [الشعراء، الآيتان ١٦٠ – ١٦١].

المبحث الثامن[1]

إسماعيل وإسحاق عليهما السلام

أما إسماعيل وإسحاق فهما ولدا إبراهيم، وإسماعيل هو ابن إبراهيم البكر، وأمه تسمىٰ هاجر، قبطية من مصر من قرية أمام الفرمىٰ قريب من فسطاط مصر، وقيل إن إسماعيل ولد لإبراهيم وهو بن تسعين سنة.

أما إسحاق، فقيل: إنه ولد بعد إسماعيل بثلاثين سنة، وإبراهيم يومئذ بن عشرين ومائة سنة، وقيل: إن سارة أمه هي بنت بتوئيل بن ناحور بن ساروغ بن أرغوا بن فالخ بن عابر بن شالح بن أرفخشد بن سام بن نوح، وقيل: إن إسحاق مات وهو بن مائة وثمانين سنة[2].

وقد ولد كل من إسماعيل وإسحاق لإبراهيم علىٰ كبر سنِّه، ولهذا يقول جل شأنه علىٰ لسان إبراهيم: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ ﴾ [إبراهيم، الآية ٣٩]. ولقد اصطفىٰ الله كلًّا منهما لرسالته.

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٢٩٢؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي د. محمد وصفي ص ١٣١.

(٢) سفر التكوين (٣٥: ٢٨)

المبحث الثامن

إسماعيل وإسحاق عليهما السلام

• ذكره في القرآن

ذكر الله إسماعيل عليه السلام في القرآن الكريم في قوله لرسوله الكريم خاتم النبيين ﷺ ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا ٥٥ ﴾ [مريم، الآيتان ٥٤ -٥٥]. ولم يذكر إسماعيل في آية من آيات الكتاب منفردًا إلا في هذه الآية.

وذكر الله إسماعيل مضمومًا إلى أبيه إبراهيم عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ عند ذكر رفع القواعد من الكعبة في قوله: ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦ وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ ﴾ [البقرة، الآيات ١٢٥ - ١٣٢].

• العقائد في رسالة إسماعيل عليه السلام

ـ الوحي:

طبيعي كذلك أن يدعو إسماعيل عليه السلام قومه إلى الإيمان بالله والاعتقاد بالوحي، وعبادة الله وحده وعدم الشرك به والحج إلى بيت الله الحرام، وإسماعيل عليه السلام هو

أول من صاهر القبائل القحطانية وهي قبيلة جُرْهُم القحطانية حيث تزوج منهم الأولى والثانية وقد تعلم العربية من هذه القبائل وكانت لغته العبرية وكانت دعوته مثل دعوة أبيه إبراهيم عليه السلام هي الدعوة إلى الإسلام وتوحيد الله في ربوبيته وأسمائه وصفاته، وقصة إسماعيل عليه السلام طويلة جدًا، ومنها قصة الذبح تنفيذًا لرؤية والده إبراهيم عليه السلام، ولكن الله فداه بكبش عظيم. وقال الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

إسحاق عليه السلام(١)

• ذكره في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ نَافِلَةٗۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا صَٰلِحِينَ ٧٢ وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَئِمَّةٗ يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِمۡ فِعۡلَ ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِۖ وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ ٧٣﴾ [الأنبياء، الآيتان ٧٢ - ٧٣].

قال تعالى: ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت، الآية ٢٧].

• العقائد في رسالة إسحاق عليه السلام

لا تختلف العقائد في رسالة إسحاق عليه السلام عنها في رسالة أخيه رسول الله عليه السلام، أو أبيه رسول الله إبراهيم عليه السلام، فمن العقائد التي جاءت في رسالته حسب ما جاء في قصته في القرآن: الوحي والإلوهية والرسالة، أما الوحي فيؤخذ من قوله تعالى لخاتم النبيين ﷺ: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ١٦٣﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٢١٨، ٢٩٧؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د/ محمد وصفي ص١٣٦.

وأما الوحدانية فتؤخذ من قوله تعالىٰ: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [البقرة، الآية ١٣٣].

والدليل علىٰ أن دعوة إسحاق تشمل الرسالة، هو قوله تعالىٰ: ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾[الأنبياء، الآيتان٧٢ - ٧٣]، والمفروض بداهة أن يبين إسحاق عليه السلام لقومه العقائد الدينية الصحيحة.

المبحث التاسع[1]

يعقوب ويوسف عليهما السلام والعقائد الدينية

• زمن يعقوب عليه السلام ونسبه

يعقوب هو ابن إسحاق بن إبراهيم، ويسمىٰ كذلك إسرائيل وإليه ينسب بنو إسرائيل.

وذكرت كتب اليهود أن زوج إسحاق[2] وهي رفقة بنت بتوئيل الآرامي، كانت عاقرًا، فسأل إسحاق ربه أن يرزقه بالولد، فحملت توأمًا ووضعتهما، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر، فدعوا اسمه «عيسو»، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعي اسمه «يعقوب»، وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما[3].

وعاش يعقوب مائة وسبعًا وأربعين سنة، ومات في مصر بعد وصوله إليها

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٢٩٧، ٣٠٦. وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي د. محمد وصفي، ص١٣٩.

(٢) تزوج إسحاق رفقة في حياة أبيه إبراهيم، وكان عمر إسحاق يوم زواجه أربعين سنة. والبحر الزاخر ١/ ٢١.

(٣) سفر التكوين (٢٥/ ٢٥، ٢٦).

بسبع عشرة سنة، وحمل يوسف جثته إلىٰ فلسطين في أرض كنعان، وفي (العهد القديم): حمله بنوه إلىٰ أرض كنعان، ودفنوه في مغارة حقل المُكْفِيلة التي اشتراها إبراهيم مع الحقل ملك قَبْرٍ مِنْ عِفْرُون الحِثّى أَمَامَ مَمْرَا[1]

وطبيعي أن العقائد التي جاءت في رسالة إبراهيم وإسماعيل وإسحاق هي عين العقائد التي جاءت في رسالة يعقوب، وإن لم تذكر جميعها صراحة في قصة كل منهم، وفي قصة لوط عليه السلام، إذ إنهم كانوا جميعًا في عصر واحد، وفي بقعة واحدة من الأرض تقريبًا، وأهل بيت واحد، وأن الله اصطفاهم جميعًا وكرمهم بالنبوة.

يوسف عليه السلام

• ذكره في القرآن:

قال الله تعالىٰ في مقام ذكر قصة موسىٰ عليه السلام ورسالته: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ **[غافر، الآية ٣٤]**.

• نسب يوسف عليه السلام وزمنه:

ذكرنا أن يوسف هو ابن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل: إن يوسف ولد ليعقوب من راحيل ابنة خاله لا بان، ولا بان هو أخو (رفقة) زوجة إسحاق.

وقيل: إنه ولد ليوسف في أرض مصر منسىٰ وأفرايم اللذان ولدتهما له أسنات بنت قوطي فارع كاهن أون[2] كبير قسس هليوبوليس المسماة بالمطرية أوعين شمس، وقيل: ثم مات يوسف وهو ابن مائة وعشر سنين، فحنطوه ووضع في تابوت في مصر[3].

(١) ((سفر التكوين (٥٠/ ١٣).
(٢) سفر التكوين ٤٦-٢٠.
(٣) سفر ال تكوين ٥٠ / ٢٦.

ونرىٰ أنه مما لا شك فيه أن يوسف بيع في مصر، وقضىٰ حياته فيها في أثناء حكم الهكسوس الذين يطلق عليهم اسم (الملوك الرعاة) أو (أمراء الصحارىٰ)، وهو الاسم الذي يقال: إنه أنسب في ترجمة لفظ «الهكسوس» وهم قبائل سامية اجتاحت مصر من ناحية الشمال الشرقي في مستهل القرن الثامن عشر قبل الميلاد ن وقد احتفظوا بسيادتهم علىٰ مصر حوالي قرنين[1].

وقيل: إنهم حكموا مصر من سنة ١٥٨٠ إلىٰ سنة ١٧٨٨ ق.م، وكانوا يؤلفون الأسرة الثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة، والأسرة السابعة عشرة التي استقل بالحكم فيها فرع من ملوك طيبة في أيام آخر ملوك الهكسوس، وقد انتهىٰ حكم الهكسوس بتولي أحمس الحكم في مصر، وهو الذي أسس الأسرة الثامنة عشرة.

وقيل: إن الذي فسر يوسف عليه السلام له الرؤيا، هو أحد ملوك الهكسوس المسمىٰ (أبو فيس) أو (أبيبىٰ)[2].

• العقائد في رسالة يوسف عليه السلام

لقد ذكرنا أن يوسف عليه السلام كان رسولاً إلىٰ قومه، فقد أرسله الله بالبينات كسائر النبيين، حكىٰ تعالىٰ قول الذي آمن من قوم فرعون أيام موسىٰ عليه السلام؛ إذ قال لقومه: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر، الآية ٣٤].

ويمكن استخلاص العقائد التي جاءت في قصة يوسف عليه السلام في القرآن الكريم فيما يلي:

(١) تاريخ العالم، ٢/ ١٠٧.
(٢) البحر الزاخر، ١/ ٢٧.

- الإلوهية والوحدانية

حسبنا دليلًا على وجود عقيدة الألوهية والوحدانية في رسالة يوسف عليه السلام قوله للفتيين اللذين دخلا معه السجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلۡطَٰنٍۚ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۚ أَمَرَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٠﴾ [يوسف، الآيتان ٣٩ – ٤٠].

ـ الآخرة

لا شك أن يوسف عليه السلام كان يدعو قومه إلى الإيمان بالآخرة وما فيها من حساب وجنة ونار، ولا شك أنه أخبرهم عن البعث، وأن الله سوف يعيد خلقهم مرة أخرى بعد أن يصيروا ترابًا، وإننا لنستنتج هذا كله من قوله للفتيين اللذين دخلا معه السجن: ﴿قَالَ لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓۚ إِنِّي تَرَكۡتُ مِلَّةَ قَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف، الآية ٣٧].

فالمؤمنون بالآخرة هم الذين يؤمنون: بالساعة، والحياة البرزخية، والقيامة، والبعث، والحساب، والجنة، والنار والخلود فيها، على ما جاء في رسالات جميع الأنبياء السابقين، وعلى وجه الخصوص في رسالة آباء يوسف، وفي قول يوسف لربه: ﴿وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾ [يوسف: ١٠١]، فيه دليل على أن الصالحين سوف يبعثون وسوف يحيون في الآخرة حياة طيبة في الجنة.

المبحث العاشر[1]

الأسْبَاطُ

سنحاول في هذا المبحث أن نلقى ضوءًا على الأسباط الذين جمع الله بينهم وبين الرسل والنبيين في كتابه، ونحاول أن نستنبط ما عساه يكون في رسالتهم من العقائد.

• ذكر الأسباط في القرآن

قال تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [آل عمران، الآية ٨٤].

• قول المؤرخين المسلمين في الأسباط:

روي الطبري أن الأسباط هم الأنبياء من ولد يعقوب، وهم اثنا عشر رجلًا، ولد كل منهم أمة من الناس فسُمُّوا أسباطًا، وروىٰ عن السُّدىٰ أنهم: يوسف، وبنيامين، وروبيل، ويهوذا، وشمعون، ولاوي، ودان، وقهات، ولم يذكر سوىٰ هؤلاء الثمانية، ولكنه روىٰ هن محمد بن إسحاق أن يعقوب بن إسحاق نكح ابنة خاله ليا، ابنة لبان بن توبيل بن إلياس فولدت له روبيل بن يعقوب وكان أكبر ولده، وشمعون بن يعقوب، ولاوىٰ بن يعقوب، ويهوذا بن يعقوب، وزبالون بن يعقوب، ويشجر بن يعقوب، ودينة بنت يعقوب، ثم توفيت ليا بنت لبان، فخلف يعقوب على أختها راحيل بيت لبان بن توبيل ابن إلياس، فولدت له يوسف بن يعقوب، وبنيامين، وهو بالعربية أسد، وولد له من سريتين له اسم إحداهما زلفة واسم الأخرىٰ بلهة أربعة نفر: دان بن يعقوب، ونفتلى بن يعقوب، وجاد بن يعقوب، وأشرب بن يعقوب، فكان بنو يعقوب اثنا عشر رجلًا، نشر الله منهم اثني

(١) كتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٥٣ .

عشر سبطًا لا يحصى عددهم ولا يعلم أنسابهم ألا الله، قال تعالى: ﴿ وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ٱضْرِب . . ﴿١٦٠﴾ ﴾ [الأعراف: ١٦٠].

وقيل: إن الأسباط من بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، وقيل: السبط الحافد، وكان الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا سبطي النبي ﷺ، فهم حفدة يعقوب ذراري أبنائه الاثني عشر(١). وقيل: الأسباط ولد يعقوب، وهم اثنا عشر ولدًا، ولكل واحد منهم أمة من الناس، وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع(٢).

وقال الألوسي: إن الأسباط جمع سبط، وهم أولاد إسرائيل، وقيل: هم أولاد إسحاق، قال: واختلف الناس في الأسباط أولاد يعقوب هل كانوا كلهم أنبياء أم لا؟ قال: والذي صح عندي الثاني، وهو المروي عن جعفر الصادق رضي الله عنه، وإليه ذهب الإمام السيوطي، وألف فيه؛ لأن ما وقع منهم مع يوسف عليه السلام ينافي النبوة قطعًا، وكونه قبل البلوغ غير مسلّم، لأنَّ فيه أفعالًا لا يقدر عليها إلا البالغون، وعلى تقدير التسليم لا يجدي نفعًا على ما هو القول الصحيح في شأن الأنبياء، وكم كبيرة تضمن ذلك الفعل، وليس في القرآن ما يدل على نبوتهم(٣).

• قول المصادر الإسرائيلية في أولاد يعقوب عليه السلام الأسباط:

نعني بـ «المصادر الإسرائيلية»: الإسرائيليين العرب الذين هم من الجزيرة العربية وليسوا هؤلاء الدخلاء الذين أتوا من أوروبا وأمريكا وأفريقيا وغيرها من البلدان وقالوا: نحن إسرائيليون.

ومن الظاهر أن المؤرخين المسلمين نقلوا بعض رواياتهم عن المصادر الإسرائيلية، وقد ذكرت اليهود في (العهد القديم) أسماء بني يعقوب فقالوا: وكان بنو يعقوب اثني عشر، بنو ليئة: رأوبين بكر يعقوب، وشمعون، ولاوي، ويهوذا،

---

(١) تفسير غرائب القرآن ١/ ٤٣٨.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، ٢/ ١٤١.
(٣) روح المعاني، ١/ ٣٢١.

ويساكر، وزبولون. وابنا راحيل: يوسف، وبنيامين. وابنا بلهة جارية راحيل: دان ونفتالي. وابنا زلفة جارية ليئة: جاد وأشير. هؤلاء بنو يعقوب الذين ولدوا له في فدان آرام(١).

وقالوا: إن يعقوب عليه السلام حين حضرته الوفاة في مصر جمع أولاده لينبئكم بما يصيبهم في آخر الزمان، قالوا: ودعا يعقوب بنيه وقال: اجتمعوا لأنبئكم بما يصيبكم في آخر الأيام، اجتمعوا واسمعوا يا بني يعقوب واصغوا إلى إسرائيل أبيكم، رأوبين أنت بِكْري قوتي وأول قدرتي فضل الرفعة، وفضل العز، فاترًا كالماء لا تتفضل، لأنك صعدت على مضجع أبيك، حينئذ دنسته، على فراشي صعد.

شمعون ولاوي أخوان آلات ظلم سيوفهما، في مجلسهما لا تدخل نفسي، بمجمعهما لا تتخذ كرامتي، لأنهما في غضبهما قتلا إنسانًا، وفي رضاهما عرقبا ثورًا، ملعون غضبهما فإنه شديد، وسخطهما فإنه قاس، أقسمهما في يعقوب، وأفرقهما في إسرائيل.

يهوذا إياك يحمد إخوتك، يدك على قفا أعداءك، يسجد لك بنو أبيك، يهوذا جرو أسد من فريسة صعدت يا بني، جثا وربض كأسد وكلبؤة، من ينهضه، لا يزول قضيب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتي شيلون وله يكون خضوع شعوب(٢).

---

(١) سفر التكوين (٣٥/ ٣٢-٢٦).

(٢) لهذه المناسبة، نذكر أن هذه الجملة، بغض النظر عن ما سواها، تعد من البشارات التي تبشر في (العهد القديم) بخاتم النبيين صلى الله عليه وآله، ومعناها: أنه لا يزول ولا سنقضي ملك يهوذا المنتظر أن يكون مبنيًا على شريعة موسى عليه السلام الحقيقية، ولا يزول مشترع، أي صاحب شريعة وهو عيسى عليه السلام من بين رجلي يهوذا، أي من نسله أو صلبه، حتى يأتي شيلون [تكوين ٣٤/ ٢٨] ولفظ: « وله يكون خضوع شعوب » ينطبق كذلك على خاتم النبيين صلى الله عليه وآله، فالمعروف أنه مر على الإسلام أقل من مائة عام، منذ مبدأ الدعوة الإسلامية، حتى خضعت للمسلمين جميع شعوب الدولة الرومانية الشرقية، ودولة فارس بأسرها، وملكوا ما بين الصين والمحيط الأطلنطي.

ولفظ: «حتى» في الجملة «حتى يأتي شيلون» يبين أن المبشر به لا يكون من نسل يهوذا. وينطبق هذا على الرسول الكريم صلى الله عليه وآله إذ إنه من نسل إسماعيل عليه السلام.

ولا تنطبق هذه البشارة كذلك على المسيح عليه السلام، لأنه ظل طول حياته في حكم الرمان، وظل=

- رأينا في الأسباط:

نحن نرى أن الأسباط هم أولاد يعقوب الاثني عشر للأسباب الآتية:

أولًا: في الآيتين الرابعة والخامسة المذكورتين في أول هذا البحث عد الله الرسل والنبيين البارزين الذين يجب علينا أن نؤمن بهم، وأن يؤمن الرسول الكريم وخاتم النبيين ﷺ بهم، ولم يذكر فيهم يوسف من الأسباط الاثني عشر، وإلَّا لذكر اسمه، قال تعالى: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ [البقرة، الآية ١٣٦].

ثانيًا: حين حضر يعقوب عليه السلام الموت وصى بنيه جميعًا بما فيهم يوسف ألا يعبدوا إلا الله وحده لا شريك له، وهو قوله تعالى: ﴿ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣ ﴾ [البقرة، الآية ١٣٣]. وبهذا سوى بينهم جميعًا في الوصية.

ثالثًا: لما كانت الأسباط لم توجد إلَّا قبل عهد موسى عليه السلام، ولما كان الزمن بين موت يعقوب وميلاد موسى محدودًا، إذ إن موسى ولد سنة (١٥٧١ ق. م)، كما سنبين بعد، ولما كانت ذرية يعقوب لم تخرج من مصر إلا في زمن موسى، ولما كان من الثابت أنه لم يرو في التاريخ أو في القرآن الكريم أو في أي كتاب آخر أن هنالك اثني عشر نبيًّا كانوا يدعون إلى الله في مصر، تواتروا في الزمن بين يوسف وموسى، وجاء أحدهم بعد الآخر، مع العلم بأن الزمن من موت يوسف إلى ولادة موسى هو ٦٤ سنة[1]، لذلك لا نستطيع أن نزعم أن هنالك أسباطًا غير أولاد يعقوب الاثني عشر.

=قومه من بعده خاضعين للدولة الرومانية كذلك حتى أوائل القرن الرابع بعد الميلاد، بل وظلت الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد ذلك مجرد استمرار الإمبراطورية وثنية سالفة، وظل البابا مجرد رئيس للقساوسة، لا شأن له بأمور الإمبراطورية، واقتصرت وظيفته على غفران خطايا المذنبين.

(١) مرشد الطالبين، ص٦٩.

المبحث الحادي عشر(١)

أَيُّوبُ عليه السلام

• أيوب عليه السلام وذكره في القرآن

وقال الله تعالى يذكر أيوب عليه السلام مع غيره من الرسل والنبيين: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ . . . ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

وقال: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلًّا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحًا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام، الآيتان ٨٣ - ٨٤].

• أَيُّوب عليه السلام نسبه وزمنه

قال ابن إسحاق: كان أيوب عليه السلام رجلًا من الروم، وهو أيوب بن موص بن روح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل.

وقال غيره: هو أيوب بن موص بن رعويل بن العيص بن إسحاق بن يعقوب، وقيل: هو ابن موص بن روح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، وحكى ابن عساكر أن أمه بنت لوت، وقيل: كان أبوه ممن آمن بإبراهيم يوم ألقي في النار فلم تحرقه، والمشهور الأول؛ لأنه من ذرية إبراهيم(٢)، لقوله تعالى عن إبراهيم: ﴿. . . وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام، الآية ٨٤]. فالضمير في (ذُرِّيَّتِهِ) يعود إلى إبراهيم دون نوح.

وذكرت المصادر أن موطن أيوب كان: أرض عوص التي يظن أنها كانت جزءًا

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٣٦٠؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٦٥.

(٢) البداية والنهاية، ١/ ٢٢٠. وجامع علوم البيان ٧/ ١٧٢.

من جبل سعير، وبلاد آدم[١]، الواقعة بين اليهودية جنوبًا وبلاد العرب شمالاً[٢]، وقيل: إنه هو يوباب بن حفيد عسير، وأنه عاش بعض سنوات قبل موسىٰ أو بالقرب منه.

وذكرت المصادر اليهودية أن الله بعد أن رد إلىٰ يعقوب أهله أنه عاش بعد هذا مائة وأربعين سنة ورأىٰ بني بنيه إلىٰ أربعة أجيال. ثم مات أيوب شيخًا وشبعان الأيام[٣].

• عقائده

لقد تبين من الآيات الكريمة التي ذكرناها في صدر هذا المبحث، أن الله تعالىٰ لم يذكر أيوب إلَّا في مواضع قليلة من كتابه.

ومع ذلك نستطيع أن نستخلص من هذه الآيات أن أيوب عليه السلام كان من النبيين الموحىٰ إليهم كما جاء في الآية الثالثة والستين بعد المائة من سورة النساء، ومما يستنبط منه أنه دعا قومه إلىٰ الإيمان بالوحي والرسالة، ولا شك أنه كان مرسلًا إلىٰ قومه؛ لقوله تعالىٰ: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰبِدِينَ ٨٤﴾ [الأنبياء، الآية ٨٤].

وجاء في قصة أيوب عليه السلام ما يتبين منه أن الشيطان عدو للإنسان، وأنه مسلَّط عليه لإغوائه، والوسوسة في صدره، لإضلاله وصدّه عن سبيل الله، وجاء في القصة مثال عملي للفتنة ووجوب مقاومتها.

وما دام أيوب من النبيين الموحىٰ إليهم، وما دام من ذرية إسحاق وإبراهيم، ومادام من حفدة إسماعيل (إن صح أن عيسو تزوج بنت إسماعيل)، فلا بد أنه جاء بالعقائد التي أتىٰ بها هؤلاء غير منقوصة، وأنه هدىٰ أهله وقومه إلىٰ حقائق الدين القيم الصحيح ودعاهم إلىٰ توحيد الله عليه السلام وعدم الإشراك به.

---

(١) قيل سكن عيسو في جبل سعير وعيسو هو أدوم (تكوين ٣٦: ٨، ١٠).
(٢) مرشد الطالبين، ص ١١٩.
(٣) أيوب ٤٢/ ١٦، ١٧.

المبحث الثاني عشر(١)

ذو الكفل عليه السلام

• ذكره في القرآن:

قال تعالى: ﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ ﴾ [ص، الآية ٤٨].

وقال تعالى: ﴿ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَـٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾ [الأنبياء، الآيتان ٨٥ - ٨٦].

ولم يذكر الله تعالى ذا الكفل إلَّا في هذين الموضعين من القرآن الكريم.

• نسبه وزمنه

ذكر بعضهم أن ذا الكفل عليه السلام هو ابن أيوب(٢)، وقال الطبري: إنَّ ذا الكفل رجل تكفل من بعض الناس، إمَّا من نبي، وإما من ملك من صالحي الملوك بعمل من الأعمال، فقام بهم نبعده، فأثنى الله عليه حسن وفائه بما تكفل به، وجعله من المعدودين في عبادة، مع من حمد صبره على طاعة الله. وروى الطبري وغيره في شأن ذي الكفل أخبارًا إسرائيلية لا أراها صالحة للنقل في مثل هذا المؤلف، وروى عن مجاهد أن ذا الكفل رجل صالح غير نبي تكفل لنبي قومه أن يكفيه أمر قومه، ويقيمه، لهم، ويقضي بينهم بالعدل ويدعوهم إلى عبادة الله تعالى ففعل ذلك، فسمى ذا الكفل. وقال الحسن والأكثرون: إنه من الأنبياء، وهذا أقرب؛ لأنه معطوف عليهم معدود فيما بينهم.

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٣٧٠؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٧١.

(٢) البداية والنهاية، ١/ ٢٢٥.

• عقائده

لا شك أن ذا الكفل، كان كغيره من النبيين، داعيًا إلى الله وإلى الوحدانية، مذكِّرًا الناس: بالموت، والحياة البرزخية، والبعث، والقيامة، والحساب، والعقاب، والثواب وغيرها من العقائد التي أوحى بها إلى النبيين لإرشاد أقوامهم وتعليمهم الناسَ ما غاب عنهم من حقائق الدين، ودعوتهم إلى الإيمان بالغيب.

المبحث الثالث عشر(١)

شُعَيْبُ عليه السلام

• ذكره في القرآن

قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت، الآيتان ٣٦ – ٣٧].

• نسبه وزمنه

من المقطوع به أن شعيبًا عليه السلام جاء بعد زمن لوط عليه السلام، فقد كان شعيب يقول: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود، الآية ٨٩]. وأما عن نسب شعيب عليه السلام فقد قال عطاء وابن إسحاق وغيرهما: إن شعيبًا هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم، وكان اسمه بالسريانية (بيروت)، وأمه ميكائيل بنت لوط، وقيل: إنه ابن عيفاء بن يوبب ابن مدين بن إبراهيم، وقيل: إنه ابن جزى بن يشجر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وقيل: هو شعيب بن صفوان بن عيفاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم(٢).

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ١/ ٢٧٢. وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٧٣.

(٢) الجامع لأحكام القران٧/ ٢٤٧– ٢٤٨. وجامع البيان ٨/ ١٦٦.

وقد لاحظنا أن بعض هذه الأسماء في نسب شعيب غير موجودة في المصادر الإسرائيلية، ولعل السبب في ذلك أن اليهود لم يهتموا إلا بسلسلة النسب التي تتصل بتاريخهم وحدهم ومن وجهة نظرهم الخاصة.

وقد بقي شعيب في قومه الذين وجد بينهم، وأرسله الله إليهم ليبلغهم رسالات ربهم وينصح لهم، ويدعوهم إلى الإيمان وطاعة الله. بعث شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة من شجر ملتفٍّ، فلما أراد الله أن يعذبهم بعث عليهم حرًّا شديدًا، ورفع لهم العذاب كأنه سحابة، فلما دنت منهم خرجوا إليها، وجاء بردها، فلما كانوا تحتها مطرت عليهم نارًا وهو قوله تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [الشعراء، الآية ١٨٩].

وقيل: بعث الله عليهم ومضًا وحرًّا شديدًا فأخذ بأنفسهم فدخلوا البيوت، فدخل عليهم أجواف البيوت، فأخذ بأنفاسهم فخرجوا من البيوت هربًا إلى البرية، فبعث الله عليهم سحابة فأظلَّتهم من الشمس فوجدوا لها بردًا ولذة، فنادى بعضهم بعضًا حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسلها الله عليهم نارًا[1].

- **العقائد في رسالة شعيب عليه السلام[2].**

ـ الإيمان بالله ووحدانيته:

كان أساس دعوة شعيب عليه السلام الإيمان بالله وحده لا شريك له، وهو نفس الأساس الذي بنيت عليه دعوة النبيين من قبله كما بينا، بل هو الأساس الذي بنيت عليه دعوات النبيين والرسل من بعده، حتى وصلت الدعوة إلى محمد رسول الله ﷺ وخاتم النبيين، ولك أن تقارن دعوة شعيب عليه السلام إلى التوحيد بدعوات الرسل جميعًا إلى الإقرار بتلك الوحدانية، بمراجعة قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأعراف، الآية ٥٩].

(١) جامع البيان، ١٩/ ٦٧.

(٢) تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ١٨٠.

وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف، الآية ٦٥].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴿٧٣﴾﴾[الأعراف، الآية ٧٣].

وقال: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴿٨٥﴾﴾[الأعراف، الآية ٨٥].

وقوله تعالى لخاتم النبيين ﷺ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء، الآية ٢٥].

دعا شعيب عليه السلام قومه إلى الإيمان بالله ووحدانيته وقال لهم: ﴿..ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف، الآية ٨٥].

• الوحي والرسالة

ما من شك أن شعيبًا كان يوحىٰ إليه كسائر الرسل الذين قصَّهم الله تعالىٰ علىٰ خاتم النبيين ﷺ في القرآن، في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّۦنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

وبذلك كان ممَّا دعا إليه شعيب قومه أن يؤمنوا بالوحي، وأن يؤمنوا -تبعًا لذلك- بصدق رسالته، قال تعالىٰ علىٰ لسان شعيب عليه السلام: ﴿وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف، الآية ٩٣].

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء، الآيات ١٢٣ - ١٢٥].

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾﴾ [الشعراء، الآيات ١٤١-١٤٣].

فما كان منهم إلا أن: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء، الآيات ١٨٥ - ١٨٩].

﴿فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف، الآية ٩٣].

المبحث الرابع عشر

موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

موسى عليه السلام هو نبي الله والقائد الذي نجا من قتل فرعون - عليه لعنة الله - وهو ليس إشارة فقط إلى اليهودية والنصرانية ولكن أيضًا إلى الإسلام. وقد ذكر نبي الله موسى عليه السلام في القرآن. فهو أكثر الأنبياء ذكرًا في القرآن فقد ذكر صريحًا باسمه ١٣٦ مرة في القرآن وفي ٣٤ سورة منه. وقد وردت فيه أقوال موثقة عن النبي محمد ﷺ.

فميلاد نبي الله موسى عليه السلام ودخوله قصر فرعون، ورحلته إلى مدين واختياره للنبوة والرسالة، وإرساله إلى فرعون لإنقاذه بني إسرائيل.

وصراعه مع فرعون ونزوح بني إسرائيل من مصر، وتلقي الأوامر الإلهية على جبل سيناء، وقيادته بني إسرائيل، كل هذا ذكر في القرآن الكريم.

وقد اختاره الله سبحانه من بين قومه للرسالة، وتحدث القرآن عن ذلك أيضًا، وربَّاه الله سبحانه، وكل ذلك يشير إلى إعداد نبي الله موسى عليه السلام لتلقي الرسالة.

ويصور القرآن نبي الله موسى الذي يبشر بقدوم نبي الله محمد ﷺ. ويخبرنا القرآن أيضًا عن مجيء سيدنا محمد في العهد القديم، ويلقب نبي الله موسى في الإسلام بـ»كليم الله»؛ لأن الله كلَّمه وأوحى إليه الآيات مباشرة.

• نسب موسى وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ[(١)]

تذكر لنا المصادر الإسرائيلية والنصرانية أن موسىٰ هو ابن عمرام بن قهات بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وأن أم موسىٰ هي يوكابد أخت قهات، وعمة عمرام، وقد أنجبت يوكابد لعمرام مريم وهارون، ثم موسىٰ[(٢)]، وأن موسىٰ عاش ١٢٠ سنة[(٣)]، ونستطيع أن نضع هذا النسب علىٰ هذا النحو تقريبًا إلىٰ الذهن:

- إبراهيم عاش ١٧٥ سنة.
- إسحاق عاش ١٨٠ سنة.
- يعقوب عاش ١٤٧ سنة.
- لاوي عاش ١٣٧ سنة.
- قهات عاش ١٣٣ سنة.
- عمرام عاش ١٣٧ سنة
- يوسف عاش ١١٠ سنة.

وهارون هو أخو موسىٰ، فقوله: ﴿يَا ٱبْنَ أُمَّ﴾ فيه دليل علىٰ أن أمهما واحدة، أما أختهما التي يقول اليهود: إن اسمها مريم وأنها كانت نبية[(٤)]، فهي التي ذكرها الله تعالىٰ في قوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص، الآيتان ١٠ - ١١].

• تاريخ ميلاد موسى عليه السلام وزمنه عند المؤرخين

يكاد عامة المؤرخين أن يجمعوا أن ولادة موسىٰ عليه السلام كانت في عهد الأسرة

---

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٣. وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ١٨٧.
(٢) خروج ٦: ١٦، ٢٠.
(٣) سفر التكوين ٢٥: ٧، ٣٥: ٢٨، ٤٧: ٢٨، وخروج ٦: ١٦، ١٨، ٢٠، وتثنية ٣٤: ٧.
(٤) خروج ١٥ / ٢٠.

المصرية التاسعة عشرة (١٣٥٠-١٢٠٥ ق.م) على اختلاف بينهم في اسم الفرعون الذي ولد في زمنه موسى.

ويقول د. تيودور. هـ. روبنسن: فإذا ما صدقنا تفاصيل الاضطهادات التي جاء بها الإصحاح الأول من سفر الخروج؛ فإن فرعون الذي سام بني إسرائيل الخَسْفَ لا بد أن يكون رمسيس الثاني (١٣٠٠-١٢٢٥ ق.م).

تاريخ الملوك والفراعنة الذين حكموا مصر من زمن يوسف إلى موت موسى		تواريخ خاصة بيوسف وموسى
أسماء الملوك والفراعنة	تاريخ الحكم قبل الميلاد	
ملوك الهكسوس من الأسرة ١٣-١٦	١٥٨٠-١٧٨٨	ميلاد يوسف سنة
سكنن رع الأول (الأسرة ١٧)	١٦١٥-١٦٣٥	١٧٤٥ ق.م
سكنن رع الثاني (١٧)	١٦٠٥-١٦١٥	
سكنن رع الثالث (١٧)	١٥٩١-١٦٠٥	وفاة يوسف سنة
وزخبرع كاموزا (١٧)	١٥٧١-١٥٩١	١٦٣٥ ق.م
سنحت ان رع (١٧)	١٥٨٠-١٥٨١	
أحمس (مؤسس الأسرة ١٨)	١٥٥٧-١٥٨٠	ولادة موسى سنة
أمنحت الأول (١٨)	١٥٤١-١٥٥٧	١٥٧١ ق.م
تحوتمس الأول (١٨)	١٥٠١-١٥٤٠	خروج موسى
تحتمس الثانى (١٨)	١٤٧٩-١٥٠١	١٥٠١ ق.م
حتشبسوت (ملوكة) (١٨)	١٤٧٩-١٥٠١	
تحتمس الثالث (١٨)	١٤٤٧-١٤٧٩	
أمنحتب الثانى (١٨)	١٤٢٠-١٤٤٧	وفاة موسى
تحتمس الرابع (١٨)	١٤١١-١٤٢٠	١٤٥١ ق.م
أمنحتب الثالث (١٨)	١٣٧٥-١٤١١	
أخناتون (١٨)	١٣٥٨-١٣٧٥	

تاريخ الملوك والفراعنة الذين حكموا مصر من زمن يوسف إلى موت موسى		تواريخ خاصة بيوسف وموسى
أسماء الملوك والفراعنة	تاريخ الحكم قبل الميلاد	
سمنكارع (١٨)	١٣٥٨	
توت عنخ آمنون (١٨)	١٣٥٣-١٣٥٨	
آي (١٨)	١٣٥٠-١٣٥٣	
الأسرة التاسعة عشر		سنة متأخرة عن
حرمحب	١٣٢١-١٣٥٠	ولادة موسى سنة
رمسيس الأول	١٣٢٠-١٣٢١	متأخرة عن
سيتي الأول	١٣٠٠-١٣٢٠	خروج موسى
رمسيس الثاني	١٢٢٥-١٣٠٠	
مرنبتاح	١٢١٥-١٢٢٥	
أمن سيس	١٢١٥	
سابتاح	١٢٠٩-١٢١٥	
سيتي الثاني	١٢٠٥-١٢٠٩	

١- بلغ موسى أشده واستوى، وهو يبلغ من العمر نحو ٦٠ سنة.

٢- لبث في أرض مدين في خدمة شيخها في مقابل زواج ابنته نحو (٨ سنوات).

٣- الرجوع إلى مصر بالرسالة وإظهار المعجزات حتى الخروج نحو (سنة واحدة).

والسن الذي بلغ فيه موسى عليه السلام أشده كان في الوقت الذي قتل فيه المصري في مدينة عين شمس، والآيات المفصلات الأخرى التي ذكرها الله في قوله: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ (١٣٣) ﴾ [الأعراف، الآية ١٣٣].

أمر الله موسىٰ وهارون أن يبلغا فرعون بأنه قد أوحىٰ إليهما أن العذاب لمن كذب وتولىٰ، قال لهما جل شأنه: ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ [طه، الآيتان ٤٧ – ٤٨].

وهكذا بلغ موسىٰ وهارون عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ الرسالة، وطلبا من فرعون وآله وقومه أن يؤمنوا بهذه الرسالة، وقد جاء موسىٰ ببينة علىٰ صدق رسالتها، ومع ذلك اتهم الملأ من قوم فرعون موسىٰ وهارون بالسحر، فبعد أن ألقىٰ موسىٰ: ﴿ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ ﴾ [الأعراف، الآيات ١٠٧ – ١٠٩].

بل ولقد كذبوا بالرسل جميعًا كما فعلت الأمم التي أهلكها الله من قبل، واستبعدوا أن يرسل الله رسلاً من البشر: ﴿ فَقَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [المؤمنون، الآيتان ٤٧ – ٤٨].

وجاء ذكر الشيطان كذلك في قصة موسىٰ وفتاه، في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الكهف، الآيات ٦٠ – ٦٣].

وذكْر الشيطان علىٰ هذه الصورة في قصة موسىٰ عليه السلام يبين لنا أن موسىٰ لا بد وأنه أظهر الشيطان في دعوته علىٰ حقيقته، فوصفه بأنه عدو مضلٌّ مبين، وأنه يستولي علىٰ ذاكرة الإنسان فربما أنساه شيئًا من أوامر الله أو جَنَح به عن عبادته.

ويلاحظ أن الآية الأولىٰ نزلت في حادثة حصلت لموسىٰ قبل النبوة والرسالة، وأن الآية الثانية نزلت بعد الرسالة، وأن الذي نسىٰ الحوت في الأصل هو فتىٰ موسىٰ، وهو الذي كان مكلفًا بحفظه، وأن النسيان ما نسب إلىٰ موسىٰ ضمنًا إلا علىٰ سبيل الصحبة، وأن النسيان لم يكن نسيانًا لشيء من فروض الدين.

وكون الشيطان عدو الإنسان، والموسوسَ له، والعاملَ على إضلاله وإغوائه كما تقدم في قصة آدم، وكما جاء في قصص الرسل السابقين لموسى، بل والرسل من بعده عقيدة إسلامية تخالف عقائد الكفار الذي يعبدون الشيطان كما قدمنا.

وضرب الله مثلًا للبعث في قصة البقرة[1]، حكى الله عنها فقال: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَٱدَّٰرَْٰٔتُمْ فِيهَا ۖ وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [البقرة، الآيات من ٦٧ - ٧٣][2].

وهكذا بيّن الله لبني إسرائيل، على يدي موسى، أن الله قادر على أن يحيي الموتى، حتى لا يكفروا باليوم الآخر والبعث، وحتى لا يشكُّوا في رسالة موسى ولا يكذبوه في إخبارهم عن القيامة.

والدليل على أن هذه المعجزة كان من أهم أسبابها إثبات النشور، قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ [البقرة، الآية ٧٣]. وهذا خطاب من الله تعالى لعباده المؤمنين، واحتجاج منه على المشركين المكذبين بالبعث، فهو يقول لهم: اعتبروا أيها المكذبون بالبعث بعد الموت بإحيائي هذا القتيل بعد مماته، فإني كما أحييته في الدنيا،

---

(١) ذكر الله تعالى هذه القصة لرسوله احتجاجًا على من لم يؤمن بالبعث من قريش (الجامع لأحكام القرآن ٤٠٤).

(٢) وقيل: قتل قتيل من بني إسرائيل فطرح في سبط من الأسباط، فأتي أهل ذلك القتيل إلى ذلك السبط فقالوا: انتم والله قتلتم صاحبنا. قالوا. لا والله. فأتوا موسى فقالوا: هذا قتيلنا بين أظهرهم وهم والله قتلوه فقالوا: لا والله يا نبي الله طرح علينا. فقال لهم موسى: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة فقالوا: أتستهزئ بنا؟ فقال: أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. فلما اهتدوا إلى البقرة وذبحوها أمرهم موسى أن يضربوا القتيل بجزء منها، فرجع إليه الروح وقالوا: من قتلك؟ فسمى القاتل ثم عاد إلى ميتته (جامع البيان ١ / ٢٧٠-٢٨٥).

فكذلك أحيي الموتى بعد مماتهم، فأبعثهم يوم البعث. وقد ذكر الله تلك القصة لرسوله الكريمﷺ للاحتجاج بها على مشركي العرب، وكان من بني إسرائيل يومئذ من يعلم هذه القصة[1]

وقال جل شأنه: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة، الآية ٥٤].

وغضب موسى عليه السلام عندما رأى بني إسرائيل يعبدون العجل الجسد من دون الله، وتبرأ مما فعله قومه ولجأ إلى الله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[الأعراف: ١٥١].

هكذا يتبين لنا أن الله تعالى سن لنا الاستغفار والتوبة، وأنه يشترط في الاستغفار الإيمان بالله تعالى، وأن الله يتوب على التائبين إذا كانوا صادقين في رجوعهم إلى الله، واتبعوا الطريق السوي الذي رسمه لهم المرسلون، ويشترط كذلك أن يُكفِّر التائب عن الجرم الذي اقترفه حسب التعاليم الإلهية، ولقد ذكر الله لنا أنه كان من شروط قبول توبة عبدة العجل من بني إسرائيل أن يقتلوا أنفسهم كما تقدم.

والتوبة كما قدمنا يشترط فيها أن تكون عقب الجُرْم، ولا تكون عند الموت والتأكد من الهلاك، كتوبة فرعون، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس، الآيات ٩٠ – ٩٢].

(١) جامع البيان، ١/ ٢٨٦.

المبحث الخامس عشر

داود عليه السلام

كان داود عليه السلام طاهر القلب نقي النفس، وهو الذي قتل جالوت المتكبر، وقد أحبه بنو إسرائيل ومالوا إليه. أعطاه الله الملك والنبوة واجتمع له هذان الأمران قال تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٥١].

وقد أعطى الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام تصنيع الحديد فقد ليَّنه الله له ليعمل به دروعًا تحمي المقاتلين من جنوده من الأعداء، وأرشده إلى صناعتها وكيفيتها فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ، الآيتان ١٠ - ١١].

وقد منحه الله سبحانه وتعالى هذه الخاصية أن يلين له الحديد في يده ولا يحتاج إلى نار أو مِطْرقة، وكان يأكل من عمل يده ويبيع الدروع من صنعه، وقد ثبت ذلك في الحديث:

«ما أكَلَ أحدٌ مِن بني آدم طعامًا خيرًا له مِن أنْ يأكل مِن عمل يدِه، وإنَّ نبيَّ الله داود عليه السلام كان يأكل مِن كسب يده»(١). وقد قلت هذه الأبيات في يوم المهنة بصنعاء عم ١٤٣٣هـ:

لـو كـان كـل مهنة عيبًا لصاحبهـا ما كـان داود حـــدادًا وهو نبي ونوحًا الذي نرجو من الله شفاعته خير من دق بالقدوم في الخشب وقد قال تعالى حين أرشده إلى صناعتها: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾ [سبأ، الآية ١١].

وقد أعطاه الله القوة وفقهه في الإسلام وقد ثبت في «الصحيحين» أن أفضل

(١) أخرجه أبو بكر البيهقي في الأربعين الصغرى، تحقيق: أبي إسحاق الحويني. بيروت: دار الكتاب العربي، ط١. ١٤٠٨هـ، ص١٠٢.

صلاة هي صلاة نبي الله داود، وأفضل صيام هو صيام نبي الله داود، قال تعالى: ﴿ٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾ وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص، الآيات من ١٧ - ٢٠].

قال ابن عباس، ومجاهد: الأيد: القوة في الطاعة، يعني: ذا قوة في العبادة والعمل الصالح.

قال قتادة: أُعطي قوة في العبادة، وفقهًا في الإسلام.

قال: وقد ذكر لنا أنه كان يقوم الليل، ويصوم نصف الدهر.

وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أَحَبُّ الصلاة إلى الله صلاة داود، وأَحَبُّ الصيام إلى الله صيام داود: كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا، ولا يفر إذا لاقى»(١).

وقوله: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿١٩﴾﴾ [ص، الآيتان ١٨-١٩]، كما قال: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ﴾ [سبأ، الآية ١٠]. أي: سَبِّحي معه.

وقد أعطاه الله الصوت العظيم ما لم يُعْطِه سواه.

قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص: ١٨].

أي: عند آخر النهار وأوله. وذلك أن الله تعالى قد وهبه من الصوت العظيم ما لم يُعطه أحدًا، بحيث إنه كان إذا ترنَّم بقراءة كتابه يقف الطير في الهواء، يُرجِّع بترجيعه، ويسبح بتسبيحه، وكذلك الجبال تجيبه وتسبح معه، كلما سبح بُكْرَةً وعَشِيًّا، صلوات الله وسلامه عليه.

وقال الأوزاعي: حدثني عبد الله بن عامر قال: أعطي داود من حُسن الصوت ما لم يُعْطَ أحد قط، حتى أن كان الطير والوحش ينعكف حوله، حتى يموت عطشًا وجوعًا، وحتى إن الأنهار لتقف.

---

(١) صحيح البخاري، باب من نام عند السحر، ٢ / ٥٠، رقم الحديث .

وقال وهب بن منبِّه: كان لا يسمعه أحد إلا حَجَل كهيئة الرقص، وكان يقرأ «الزَّبور» بصوت لم تسمع الآذان بمثله، فيعكف الجن والإنس والطير والدواب على صوته، حتى يهلك بعضها جوعًا.

عن عائشة قالت: سمع رسول الله ﷺ صوت أبي موسى الأشعري وهو يقرأ فقال: «لقد أوتي أبو موسى من مزامير آل داود»(١).

وقد كان داود عليه السلام مع هذا الصوت الرَّخيم، سريع القراءة لكتابه «الزَّبور» كما قال الإمام أحمد: عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القراءة، فكان يأمر بدوابه فتسرج، فكان يقرأ القرآن قبل أن تسرج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يديه»(٢).

والمراد بالقرآن ههنا الزبور: الذي أنزله الله عليه، وأوحاه إليه.

وقد كان مَلِكًا له أتباع، فكان يقرأ الزبور بمقدار ما تسرج الدواب، وهذا أمر سريع مع التدبر والترنم والتغني به على وجه التخشُّع، صلوات الله وسلامه عليه.

وقد قال الله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

والزبور: كتاب مشهور، أنزل في شهر رمضان، وفيه من المواعظ والحِكَم ما هو معروف لمن نظر فيه.

وقوله: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾﴾ [ص، الآية ٢٠]، أي: أعطيناه ملكًا عظيمًا، وحكمًا نافذًا.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن أحب الناس إلى الله يوم القيامة وأقربهم منه مجلسًا إمام عادل، وإن أبغض الناس إلى الله يوم القيامة وأشدهم عذابًا إمام جائر»(٣).

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا جعفر بن سليمان، سمعت مالك بن دينار في قوله: ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص، الآية ٢٥]، قال: يقوم

(١) صحيح البخاري، باب حسن الصوت بالقراءة للقرآن، ٦ / ١٩٥، رقم الحديث .
(٢) صحيح البخاري، ٤ / ١٦٠، رقم الحديث .
(٣) سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد، ٣ / ١٠، حديث رقم.

داود عليه السلام يوم القيامة عند ساق العرش، فيقول الله: يا داود، مجّدني اليوم بذلك الصوت الحسن الرخيم، الذي كنت تمجدني به في الدنيا.

فيقول: وكيف وقد سلبته؟ فيقول: إني أردّه عليك اليوم.

قال: فيرفع داود بصوت يستفرغ نعيم أهل الجنان.

قال تعالى: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص، الآية ٢٦].

هذا خطاب من الله تعالى مع داود، والمراد ولاة الأمور، وحكّام الناس، وأمرهم بالعدل، وإتباع الحق المنزل من الله لا ما سواه من الآراء والأهواء، وتوعد من سلك غير ذلك، وحكم بغير ذلك.

• ذكره في القرآن[١]

قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

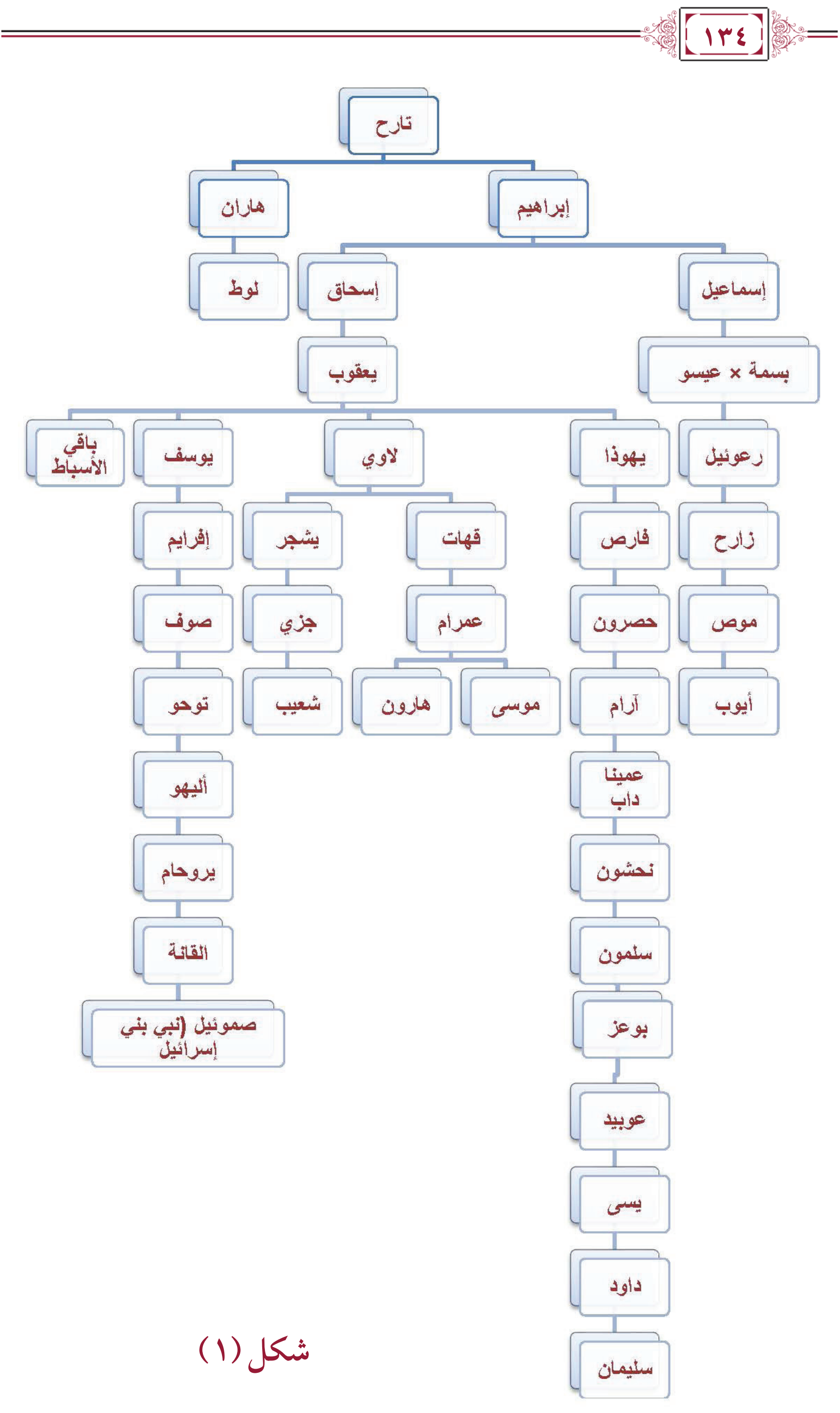
وقال تعالى: ﴿. . وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء، الآية ٥٥].

• نسبه وزمنه:

ذكر في إنجيل متى ولوقا أن داود هو ابن يسى بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عمينا داب بن أرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم[٢]. وذكرت المصادر التاريخية الإسرائيلية والنصرانية أنه تولى

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٢٦٥؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٢٩.

(٢) متى ١/ ١ – ٦، ولوقا ٣/ ٣١ – ٣٤.



تارح
إبراهيم
هاران
إسماعيل
إسحاق
لوط
بسمة × عيسو
يعقوب
رعوئيل
يهوذا
لاوي
يوسف
باقي الأسباط
زارح
فارص
قهات
يشجر
إفرايم
موص
حصرون
عمرام
جزي
صوف
أيوب
آرام
موسى
هارون
شعيب
توحو
عميناداب
أليهو
نحشون
يروحام
سلمون
القانة
بوعز
صموئيل (نبي بني إسرائيل
عوبيد
يسى
داود
سليمان

شكل (١)

الملك سنة (١٠٥٥ ق. م[١])، وقالوا: كان داود ابن ثلاثين سنة حين ملك، وملك أربعين سنة، في حبرون ملك على يهوذا سبع سنين وستة أشهر، وفي أورشليم ملك ثلاثًا وثلاثين سنة على جميع إسرائيل ويهوذا[٢]. وسوف نبين ذلك فيما يلي في شكل قد يساعد على أخذ فكرة عن نسب داود عليه السلام وزمنه وعلاقته ببعض أقربائه من الرسل والنبيين، حسب المراجع الإسرائيلية التي قد يكون فيها أثر من الحقيقة، وحسب ما جاء في قول بعض المؤرخين من المسلمين:

• العقائد في شريعته:

ـ الزبور:

قيل: إن زبور داود عليه السلام عبارة عن دعاء علمه داود، تحميد وتمجيد ليس فيه حلال ولا حرام ولا فرائض ولا حدود[٣]، وقيل: إن معنى قوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء، الآية ١٦٣]، أي: آتينا داود الكتاب المسمى زبورًا، كما سمى الكتاب الذي أوتيه موسى التوراة، والذي أوتيه عيسى الإنجيل، والذي أوتيه محمد ﷺ الفرقان، لأن ذلك هو الاسم المعروف به ما أوتي داود[٤]. ونحن نرى أن الزبور كتاب سماوي أوحى إلى داود كسائر الكتب التي أوحى بها إلى الرسل، فيه فرائض وحدود وأحكام، وغير ذلك مما أتى به الرسل، لقد جعل الله داود خليفة في الأرض وأمره أن يحكم بين الناس بالحق، فكيف يكون خليفة من غير علم؟ وكيف يحكم بين الناس من غير أحكام أنزلت إليه يحكم في نطاقها، وفي حدودها؟ وكيف يميز بين الأحكام الباطلة والأحكام الصالحة التي ترضى الله، ألم يقل له الله جل شأنه: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [ص، الآية ٢٦].

---

(١) مرشد الطالبين ص ١٠٢.
(٢) (٢ صموائيل ٥ / ٤، ٥).
(٣) جامع البيان ١٥ / ٧١، والجامع لأحكام القرآن ٦ / ١٧ ونهاية الأرب ١٤ / ٥٥.
(٤) جامع البيان ٦ / ٢٠.

ألم يؤته الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء؟ ألم يقل له الله تعالىٰ: ﴿...وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ... ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٥١].

إن الذين زعموا أن الزبور الذي أنزل علىٰ داود عليه السلام محض تمجيد وتحميد، قد تأثروا بسفر المزامير الذي جاء في (العهد القديم)، وظنوا أن ما أنزل علىٰ داود كان كله علىٰ هذا النحو، مع العلم بأن المسيحيين أنفسهم لم يستطيعوا الادعاء بأن المزامير التي وردت في كتبهم كلها خاصة بداود، ولم يملكوا إلا القول بأن داود نظم أكثرها، وأما الباقي من سفر المزامير، فقد نظم بعضه موسىٰ عليه السلام وبعضه هامان، وكذلك آساف وبدوثون وأنبياء آخرون كانوا في مدة الأسْر البابلي، وبعضهم بقي إلىٰ ما بعده، وقالوا: فثلاثة وسبعون مزمورًا منه منسوبة صريحًا إلىٰ داود، وكذلك المزمور التسعون إلىٰ موسىٰ، ويظهر من مضامين بعض المزمورات أنها كتبت في وقت السَّبْي، وبعضها في وقت الرجوع، وأنه يوجد مزمورات كثيرة لم يتفق المفسرون علىٰ كاتبيها ولا علىٰ تاريخ كتابتها... إلخ [1]، ويبلغ عداد المزامير مائة وخمسين مزمورًا، علىٰ ما زعم أهل الكتاب.

- **الربوبية، والألوهية، والوحدانية، والوحي:**

لاشك أن الله كان يوحىٰ إلىٰ داود الزبور كما أوحىٰ لسائر الرسل الكتب المنزلة، كما جاء في الآية (١٦٣) من سورة النساء، وبدهي أن داود أخبر قومه بأمر الوحي، ولقد كان في بني إسرائيل بقية يؤمنون بالربوبية والإلوهية والوحدانية، فلم يك حال داود مع قومه كحال الرسل الذين أرسلوا إلىٰ أقوام يقل فيهم من عنده استعداد للإيمان والهداية وإتباع سبيل الرشاد، ولذلك لم يأت القرآن الكريم بآيات صريحة في بيان تلك العقائد في دين داود ورسالته، فقد كان بينهم بقية من المؤمنين بشريعة موسىٰ وعقائده، وكان فيهم نبي بني إسرائيل وطالوت، ولم يكن من داود إلا أنه وصل لهم القول لعلهم يتقون.

---

(١) مرشد الطالبين ص ١٢٦ وما بعدها.

• الرسالة:

طبيعي أن داود عليه السلام أبلغ قومه وعشيرته أنه رسول الله إليهم، وكان المعروف عند بني إسرائيل أنه مرسل بعد نبي بني إسرائيل، وكان أمر الرسل من قبله معروفا كذلك في ذلك الزمن، وكان من الشائع حينذاك إرسال الرسل من بني إسرائيل، الواحد بعد الآخر، ولم يكن هذا أمرًا مستغربًا، وكان من وظيفة رسل بني إسرائيل أن يدعوا الناس إلى الإيمان بأن الله يرسل رسله لهداية الناس ودعوتهم إلى عبادة الله الذي لا إله غيره.

• الإيمان بالمعجزات:

من المعجزات التي أعطاها الله لداود تسخير الجبال معه يسبحن والطير، قال تعالى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء، الآية ٧٩]. وقال: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص، الآيتان ١٨-١٩].

ولقد كانت المعجزات التي أجراها الله على يد الرسل جميعًا والنبيين، من دلائل صدق النبوة، ومن دلائل الربوبية والألوهية وقدر الله وقوته وإبداعه وخلقه، وأنه لا إله إلَّا هو.

• الابتلاء والفتنة:

من العقائد الدينية ابتلاء الله لعباده فتنة لهم، وقد فتن الله داود عليه السلام حتى يكون مثلًا لقومه ولغيرهم، قال الله تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾﴾ [ص، الآية ٢٤].

المبحث السادس عشر[١]

سليمان عليه السلام

• ذكره في القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ، الآيات ١٢ - ١٤].

• نسب سليمان عليه السلام وزمنه:

سليمان رسول الله هو ابن داود رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ ﴿١٦﴾﴾ [النمل، الآية ٦١]، وكانت توليته الملك سنة (١٠١٥ ق.م) وقيل: وكانت الأيام التي ملك فيها سليمان في أورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة[٢]

• العقائد في دين سليمان عليه السلام:

ــــ الوحي، والرسالة، والوحدانية:

كان يوحى إلى سليمان عليه السلام كما جاء في آية سورة النساء كما يوحى إلى جميع النبيين، وخلف أباه داود عليه السلام في الرسالة، ومن أدلة ذلك أنه بعث إلى ملكة سبأ، يدعوها إلى الإيمان بالله وإتباع الدين الإسلامي

وقال الهدهد لسليمان عليه السلام: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٢٨٥؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٣٩.

(٢) (١ملوك ١١/ ١٣).

يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل، الآيات ٢٢ - ٢٦].

فكانت الدعوة إلى الإيمان بالوحدانية هي أساس دعوة سليمان، ولقد أشرنا من قبل إلى أن الدعوة إلى التوحيد في دعوة أنبياء بني إسرائيل كان ذكرها مقتضبًا في كتاب الله؛ لأن هؤلاء الأنبياء لم يأتوا بشرائع مستقلة عن شريعة موسى، وأن العقائد المبينة في التوراة الحقيقية، هي عين العقائد التي ذكرها أنبياء بني إسرائيل لأقوامهم ودعوا إليها المؤمنين بالله كأهل سبأ، كما قدمنا.

والمفروض كذلك أن جميع الرسل من أنبياء بني إسرائيل في بلاد العرب كرروا الدعوة كغيرهم من النبيين إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وقدرته وخشيته ولتوكل عليه، وغير ذلك من صفات الله وصفات أفعاله وكل ما يتصل بالعقائد التي كُلِّف بتعليمها المرسلون، مما يظهر في الآيات الكريمة التي تروى أعمالهم ووعظهم وقصصهم وسِيرهم، وتمسكهم بتبليغ رسالات ربهم.

الشياطين وإغواؤهم الناس:

لاشك أن رسالة سليمان عليه السلام هي أبرز الرسالات التي وضحت فيها عقيدة وجود الشياطين وضوحًا تامًّا، فقد كان سليمان يستخدم الشياطين استخدامًا ظاهرًا، يحس الناس بأثره، ويرون بأعينهم ما لا يمكن إنكاره أو مجرد الشك فيه، من أعمالهم وصناعاتهم المختلفة، قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعۡمَلُونَ عَمَلٗا دُونَ ذَٰلِكَۖ وَكُنَّا لَهُمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾ [الأنبياء، الآية ٨٢].

وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلۡجِنِّ مَن يَعۡمَلُ بَيۡنَ يَدَيۡهِ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَمَن يَزِغۡ مِنۡهُمۡ عَنۡ أَمۡرِنَا نُذِقۡهُ مِنۡ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ، الآيتان ١٢ - ١٣].

الجزاء:

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [البقرة، الآية ١٠٣].

أي لو أنهم آمنوا بالتوراة التي حرمت مزاولة السحر، واتقوا المعاصيَ التي حكيت عنهم، لأثيبوا مثوبة من عند الله خيرًا مما شروا به أنفسهم، أي إن شيئًا قليلًا من ثواب الله تعالىٰ في الآخرة الدائمة، خير من ثواب كثير في الدنيا الفانية، فكيف وثواب الله تعالىٰ كثير دائم[1]

المبحث السابع عَشَر[2]

إلياس عليه السلام

• ذكره في القرآن

قال تعالىٰ: ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الأنعام، الآية ٨٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾ [الصافات، الآيات ١٢٣-١٣٢].

---

(١) روح المعاني ١/ ٢٨٤.

(٢) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٢٤١. وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٤٩.

• نسبه، وزمنه، والتعريف به

ـــ قول المؤرخين من المسلمين:

عن ابن إسحاق: أن إلياس هو ابن يسىٰ بن فنحاص بن العيزار بن هارون أخيٰ موسىٰ(١)، وقال ابن قتيبة: هو من سبط يوشع بن نون، بعثه الله إلىٰ أهل بعلبك، وكانوا يعبدون صنمًا يقال له: بعل، وملكهم اسمه أحب، وامرأته أزبيل، وكان يستخلفها علىٰ ملكه إذا غاب فتحكم بين الناس، وكانت قتَّالة الأنبياء قد قتلت منهم بشرًا، وهيٰ بنت ملك صيدا، وعُمِّرت عمرًا طويلًا، وتزوجها سبعة من ملوك بني إسرائيل، ومامن ملك إلا وتقتله، وهيٰ التي قتلت يحيىٰ بن زكريا(٢).

وعن ابن سعد: أن إلياس هو ابن تشبين بن ألعازر بن هارون بن عمران ابن قاهث بن لاوي بن يعقوب(٣).

وهذه الأقوال مستقاة من المصادر الإسرائيلية، غير أننا لم نجد فيها أن فنحاس (فنحاص) ولد ولدًا يسمىٰ «يسىٰ»، حسب قول ابن سعد، فقد ذكر ولد لاوي إلىٰ فينحاس، وذرية فينحاس في سفر «أخبار الأيام الأول» في الإصحاح السادس، وجاء فيها أن فينحاس ولد أبيشوع وأبيشوع ولد «بقىٰ»(٤)، ويكون نسب إلياس حسب المصادر الثلاثة كما يلي، مع العلم بأن إلياس لم يأت في المصدر اليهودي أنه من ولد أليعازار:

ويلاحظ أن ابن قتيبة أخرج إلياس من نسل لاوي، وجعله من سبط يوشع بن نون، أي من ولد أفرايم بن يوسف بن يعقوب، غير أنه ذكر ما يستفاد منه أنه هو «إيليا» نفسه الذي جاء ذكره في «العهد القديم»، أما ابن سعد فقد ذكر أنه ابن تشبين، وفعل ذلك لأن سفر الملوك سماه: إيليا التشبىٰ(٥).

---

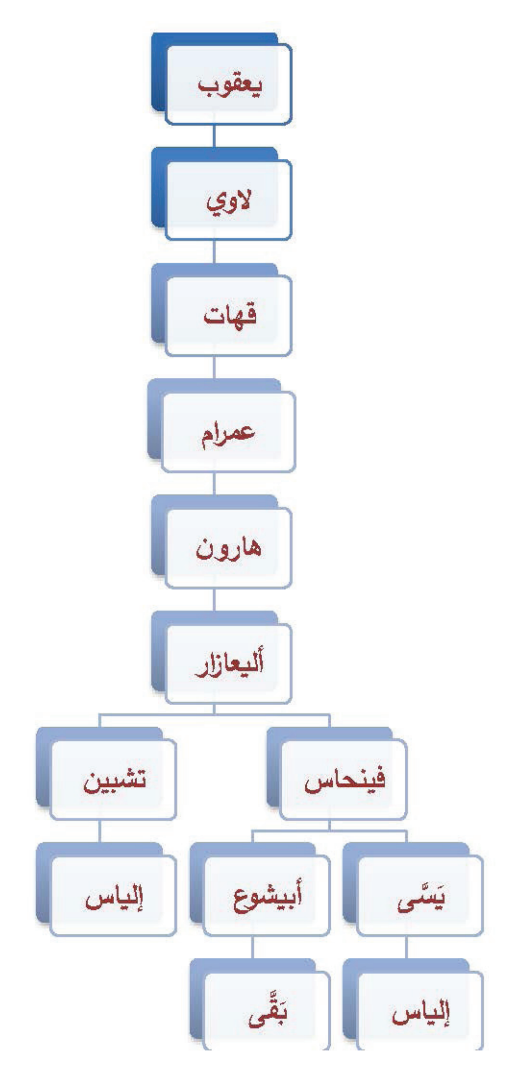
(١) جامع البيان ١/ ١٧٢. وراجع نهاية الأرب ١٤/ ٩.

(٢) المعارف ص٢٣، ٢٤، ويلاحظ أن الفقرة الأخيرة تخالف الترتيب الزمني.

(٣) الطبقات الكبرىٰ ١/ ٥٥.

(٤) أخبار الأيام الأول ٦/ ٤، ٥.

(٥) الملوك الأول ٢١/ ١٧.



شكل (٢)

قول المصادر الإسرائيلية:

أرسل إلياس عليه السلام في عهد آخاب بن عمري كما قدمنا، وقد تولى آخاب الملك سنة (٩١٨ق.م)، وهو الملك السابع ملوك إسرائيل الذين تولَّوا ملك إسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام سنة (٩٧٥ق. م) وبعد انقسام مملكة سليمان إلى مملكتين حكم

أحداهما ملوك يهوذا، وحكم الأخرىٰ ملوك إسرائيل(١).

• العقائد في رسالة إلياس عليه السلام(٢)

مع قلة عدد الآيات التي أنزلها الله تعالىٰ في إلياس، فإن فيهما ما يمكن الاستدلال به علىٰ رسالته، وما اشتملت عليه من العقائد الأساسية التي جاء بها سائر النبيين.

الرسالة والمعجزة

ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الصافات، الآيتان ١٢٣ - ١٢٤].

يفهم منه أن إلياس لا بد أنه أعلم قومه بما ذكره الله تعالىٰ من أنه من المرسلين، وأن الله تعالىٰ يرسل رسله للناس من جنسهم ليبينوا لهم سبيل الخير وطريق الرشاد، ولم تكن هذه العقيدة مستغربة في بني إسرائيل في ذلك الزمان، وكانوا يكذبون الرسول المرسل إليهم لمجرد العناد والكبر، وتغلُّب الأوهام علىٰ عقولهم، وتسلُّطها علىٰ أذهانهم، ولقد كان منهم من يؤمن بالرسالة نفسها، خاصة أن بني إسرائيل كان الله يرسل إليهم وقتئذ الرسل متتابعين متواترين.

وإن صح ما جاء في رواية اليهود أن إلياس عليه السلام أتاهم بمعجزة القربان الذي تأكله النار، فإن رسالته تكون قد شملت وجوب الإيمان بالمعجزات التي تأتي علىٰ يد الرسل من الله جل شأنه، لإثبات رسالتهم، ولتحدىٰ المارقين عن الدين، ولبيان

(١) ذكرت المصادر الإسرائيلية أن ملوك إسرائيل الذين تولوا ملك إسرائيل بعد وفاة سليمان (عليه السلام) كانوا أشرارًا، فأولهم بريعام بن نباط ملك ٢٢ سنة وكان شريرًا، عمل عجلي ذهب، واحدًا في بيت إيل، والآخر في دان، ومنع الشعب من الصعود إلىٰ أورشليم للعبادة. والملك الثاني هوناداب بن بريعم، تولىٰ سنة (٩٥٤ ق. م)، وقد سار في طريق أبيه وفي خطيئته، وتولىٰ بعده بعشا بن أخسا سنة (٩٥٣ ق. م)، وكان علىٰ دين بريعام كذلك وسار في طريقه وخطيئته، وملك ابنه أسلة سنة (٩٣٠ ق. م) وكان مثل أسلافه، فقتله عبده زمري وهو يسكر، وتولىٰ بعده زمري سنة (٩٢٩ ق. م)، وملك سبعة أيام وانتحر حرقًا، وتولىٰ بعده عمري سنة (٩٢٩ ق. م) وسار كذلك في خطيئة بريعام، وكان أشر جميع الذين قبله، وتولىٰ بعده ابنه أخاب الذي ظهر في زمنه إلياس. «مرشد الطالبين»، (ص١٠٣، ١٠٤).

(٢) تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٥٥.

قدرة الله وعظمته وإبداعه، وقدرته بصفة خاصة على أن يهلك المكذبين بالدين ويخزيهم في الحياة الدنيا.

الربوبية والوحدانية:

قد شملت رسالة إلياس إلياس عليه السلام الدعوة إلى الإيمان بأن الله رب كل شيء، وأنه لا إله إلا هو، لقوله لقومه: ﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ **[الصافات، الآيتان ١٢٥-١٢٦]**.

أتعبدون «بعلًا» الذي لا يستطيع أن يخلق شيئًا، وتتركون عبادة أحسن من قيل له خالق، وهو الله معبودكم أيها الناس، الذي يستحق عليكم العبادة، ربكم الذي خلقكم، ورب آبائكم الماضين قبلكم، لا الصنم الذي لا يخلق شيئًا، ولا يضر ولا ينفع (١)، فالله هو الخالق الوحيد ولا إله إلاَّ هو، فليس يشاركه في خلقه وملكه «بَعْل» الذي زعمتم أنه ربكم.

الآخرة:

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ **[الصافات، الآيتان ١٢٧ -١٢٨]**.

ولا شك عندنا أن ما قاله الله تعالى من أنهم ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ بسبب تكذيبهم الرسول، وعدم الاستماع له، قد بينه إلياس لقومه، وأنه حذرهم من عذاب الآخرة، إذا هم أصروا على تكذيبهم رسالته، خاصة أننا ما وجدنا من رسول إلَّا وقد حذر قومه من الآخرة، وليس بمعقول لدينا أن لا يذكر إلياس قومه بما جاء به النبيون من قبله من كل ما يتصل باليوم الآخر من بعث وحساب وجنة ونار، بما لا بد أن يفسِّر به لفظ: ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾.

والآية الكريمة: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾ يفهم منها كذلك أن الكفار كذبوا إلياس عليه السلام في أنهم محضَرون، فذكر الله وأكد القول بأنهم ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾، وبذلك

(١) جامع البيان ١/ ٢٣-٦١.

يكون إلياس قد حوت رسالته عقيدة الآخرة وكل ما يتصل بها من قيام الساعة، والبعث، والحساب، والجنة والنار والخلود فيهما.

- **التقوى**

إن لفظ: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ الذي جاء في رسالة إلياس عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ - لفظ شامل جامع لجميع العقائد التي ينتظر أن يكون إلياس قد دعا قومه إلى الإيمان بها، من الإيمان بالله ووحدانيته وخشيته، وإطاعة أوامره، والتوبة، والفتنة، والذنب، والجزاء، وغيرها؛ ولهذا جاء هذا اللفظ أو معناه في رسالة النبيين، كما قدمنا من قبل، وذكرنا من أمثلة تكذيب المخاطبين بالرسالات للرسل والأنبياء.

المبحث الثامن عشر(١)

اليسع عليه السلام

• ذكره في القرآن

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾ [ص، الآية ٤٨].

وقال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام، الآية ٨٦].

• نسبه، وزمنه، والتعريف به:

قول المؤرخين المسلمين:

ذكر ابن سعد أن اليسع جاء بعد إلياس، وأنه اليسع بن عزى بن نشوتلخ بن فرام بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق(٢).

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٢٥٢؛ وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٥٩.

(٢) الطبقات الكبرى، ١/ ٥٥.

وقيل: كان بعد إلياس اليسع، فمكث ما شاء الله أن يمكث يدعوهم إلىٰ الله مستمسكًا بمنهاج إلياس وشريعته حتىٰ قبضه الله عزّ وجلَّ إليه.

وعن محمد بن إسحاق: هو اليسع بن أخطوب.

وقال الحافظ أبو القاسم بن عساكر في تاريخه: اليسع، وهو الأسباط بن إبراهيم، ويقال: هو ابن عم إلياس النبي، ويقال: كان مستخفيًا معه بجبل قاسِيُونَ من ملك بعلبك، ثم ذهب معه إليها، فلما رُفع إلياس خلفه اليسع في قومه، ونبَّاه الله بعده، ذكر ذلك عبد المنعم بن إدريس عن أبيه عن وهب بن منبه، قال: قال غيره: كان ببانياس[١]، وقيل: اليسع هو ابن أخطوب بن الصخوز[٢]

وقال بعضهم: إن اليسع كان موجودًا قبل الملك شاول (طالوت).

ويذكر كل من الطبري والثعلبي آراء بعض من ذهبوا إلىٰ أن اليسع هو الخَضِر، بينما يذكر خوندمير الرأي القائل بأن اليسع هو ذو الكفل، مع تقريره بأنه من نسل أفرايم بن يوسف، هذا مع قول آخرين بأن اليسع خلفه ذو الكفل[٣].

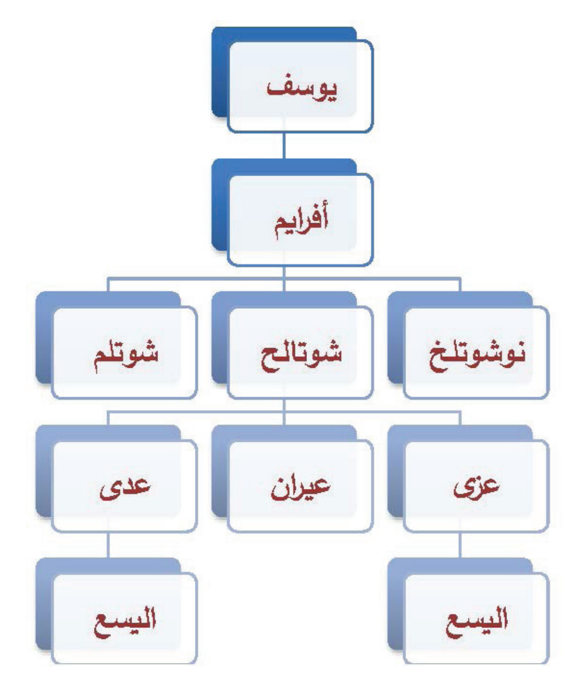
والرأي السائد بين المؤرخين المسلمين أن اليسع من نسل أفرايم بن يوسف، مع اختلاف قد يكون سببه تصحيف في اسم «شوتالح بن يوسف» الذي جاء ذكره في كتب اليهود (عدد ٢٦: ٣٥، ٣٦)، ويلاحظ أن كتب اليهود ذكرت أن «شوتالح» ولد «عيران»، ولم تذكر اسم اليسع من نسله، ويلاحظ كذلك أنه اختلف في والد اليسع، هل هو (عزىٰ) أو (عدىٰ) علىٰ هذا النحو:

---

(١) البداية والنهاية، ٢/ ٤.

(٢) جامع البيان، ٧/ ١٧٣.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ٢/ ٦٠٩، ٦١٠.



الشكل رقم (٣)

ونرىٰ أن النسب الذي ذكره المؤرخون المسلمون يجعل اليسع في زمن يسبق الزمن الذي حددته كتب اليهود بمراحل طويلة، إذ جعلوه في الجيل الثالث بعد أفرايم، أي في جيل يقع في مستوىٰ الجيل الذي جاء فيه موسىٰ وهارون تقريبًا، وهذا في رأينا يختلف عما نحن مضطرون للأخذ به حسبما جاء في تاريخ اليهود، وفي حدود معينة.

• العقائد في رسالته

مادام اليسع قد جاء عقب إلياس عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فلا بد أنه سار علىٰ منهجه، وأن تكون رسالته قد تضمنت العقائد التي دعا إلياس قومه إلىٰ الإيمان بها، خصوصًا أنه من أنبياء بني إسرائيل المتعاقبين الذين أرسلوا مذكِّرين بشريعة موسىٰ عليه السلام، التي لا نستطيع أن نقول أنها أهملت إهمالًا تامًّا في جميع أفراد أمم الأسباط، ولا بد أن يكون اليسع ذكر قومه بوجوب الرجوع إلىٰ كتاب موسىٰ

وتعاليمه والإيمان بما جاءت به العقائد الصحيحة التي يسلم بها المؤمنون، ولا بد أن يكون اليسع قد حذرهم من عقاب الآخرة، وذكرهم بما ذكره المرسلون من أهوال الموقف، وأخبرهم بأن المتقين أعد الله لهم الجنة خالدين فيها، وأن العاصين لهم النار خالدين فيها.

وطبيعي أن أساس دعوة اليسع كانت إلىٰ ترك عبادة الأوثان والأصنام والتماثيل، ولا شك أنه دعا قومه إلىٰ الإيمان بالله وتوحيده، وأنه جاء بالمعجزات التي تثبت صدق رسالته وصدق رسالة جميع الرسل قبله، وأنه دعاهم إلىٰ الإيمان بالوحي، وبأن ما يخبرهم به إنما هو من عند الله، يوحىٰ إليه بما يريد منهم أن يفعلوه ويؤمنوا به.

المبحث التاسع عشر[١]

يُونس عليه السلام

- **ذكره في القرآن**

قال تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾ ﴾ [الصافات، الآيات ١٣٩-١٤٨].

- **نسبه، وزمنه، والتعريف به**

قول المؤرخين المسلمين:

أجمع المؤرخون المسلمون أن يونس عليه السلام هو ابن متىٰ. وقال ابن قتيبة: إن الله أرسله من بعد إلياس إلىٰ أهل نينوىٰ[٢]. وقيل: الْتَقَمَه الحوت حتىٰ مرَّ به علىٰ

(١) قصص الأنبياء لابن كثير، ج١/٣٩٦؛ وكتاب تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي د. محمد وصفي ص ٢٦٥.

(٢) المعارف، ص٢٤، ونينوىٰ: مدينة علىٰ دجلة، كانت قصبة آشور، وموقعها بالقرب من

الأيلة، ثم انطلق به حتىٰ مر به علىٰ دجلة، ثم انطلق به حتىٰ ألقاه في نينوىٰ من أرض الموصل، وكانت رسالته بعدما نبذه الحوت(١).

ويمكن تلخيص رسالة يونس عليه السلام وقصته كما جاءت في (العهد القديم) علىٰ هذا النحو: أوحىٰ الله إلىٰ يونس أن يذهب إلىٰ نينوىٰ ليهديهم، حيث إن معاصيهم وشرورهم قد تكاثرت، فذهب يونس ليهرب إلىٰ ترشِيشَ، فنزل يافا، وركب سفينة كانت متوجهة إلىٰ ترشِيشَ فرارًا من الله فأرسل الله ريحًا شديدة إلىٰ البحر فهاج، وأوشكت المركب علىٰ الغرق، وكان يونس نائمًا، فجاء إليه رئيس النُّوتية وطلب منه أن يدعو الله لينقذهم، واقترح بعضهم عمل قرعة، فاقترعوا ووقعت القرعة علىٰ يونس، وظنوا أن هذه المصيبة التي حلت بهم هي بسبب يونس، فسألوه عن حاله، فأخبرهم أنه عبرانىٰ، وأنه خائف من الرب إله السماء الذي صنع البحر والبر، فتشاءموا منه وسألوه ماذا يصنعون ليسكن البحر، قال لهم: خذوني واطرحوني في البحر فيسكن البحر عنكم، لأنني عالم أنه بسببي حدث هذا النوء العظيم، وطرحوا يونس في البحر فسكن البحر وأرسل الله حوتًا فابتلع يونس فمكث في بطنه ثلاثة أيام وثلاث ليالي.

فصلىٰ يونان إلىٰ الرب إلهه من جوف الحوت، ودعاه بدعاء مذكور في سفر يونان، فأمر الله الحوت فقذفه في البر.

وأوحىٰ الله إلىٰ يونس عليه السلام مرة أخرىٰ أن يذهب إلىٰ نينوىٰ، ويبلغهم الرسالة التي يوحيها إليه، وعند بدء دخوله المدينة قال: بعد أربعين يومًا تنقلب نينوىٰ، فآمن أهل نينوىٰ بالله وصاموا جميعًا، ولبسوا مسوحًا من كبيرهم إلىٰ صغيرهم، وآمن ملك نينوىٰ وقام عن كرسيه وخلع رداءه عنه، وتغطَّىٰ بمَسْحٍ كسائر أهل نينوىٰ، وجلس علىٰ الرماد، وأمر الملك وعظماء مملكته أن يجأر جميع الناس إلىٰ الله بشدة، ويرجعوا كل واحد عن طريقه، فرضي الله عنهم.

الموصل، وهي الآن خراب.

(١) جامع البيان، ٧/ ١٧٣، و٣٧/ ٦٥.

• العقائد في رسالة يونس عليه السلام

ذكر الله في القرآن الكريم أن يونس رسوله عليه السلام، وأنه أوحىٰ إليه كما جاء في آية سورة النساء قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ ﴾ [النساء، الآية ١٦٣].

وأنه نادىٰ بالتوحيد ربه قائلًا: ﴿ . . . لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ ﴾ [الأنبياء، الآية ٨٧].

وتدل قصته في كتاب الله علىٰ أنه تاب عن ذنبه، وأنه استغفر ربه، وأن الله سمع له وتاب عليه، مما يدل علىٰ وجود عقائد الذنب والتوبة والاستغفار في رسالته.

واستقرار يونس عليه السلام في بطن الحوت سالمًا يدل علىٰ وجود عقيدة المعجزة في رسالته. وفي قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [الصافات، الآية ١٣٩]، فيه تصريح بوجوب الإيمان برسالة الرسل. وطبيعي أن يونس حكىٰ لقومه ما أخبرنا به الله من أنه سبَّح ربه وهو في جوف الحوت، وأنه لولا ذلك للبث في بطنه إلىٰ يوم يبعثون، وهو ما يدل علىٰ أنه حمل في رسالته عقيدة البعث والحساب واليوم الآخر. وإلقاء يونس في الماء والتقام الحوت له يشير إلىٰ عقيدة الابتلاء والامتحان والفتنة. وإنبات شجرة اليقطين يشير إلىٰ قدرة الله وخلقه.

وذكر الله أن قوم يونس آمنوا، أي آمنوا بوحدانية الله، وبجميع العقائد التي ذكرناها، بما فيها قدرة الله علىٰ تعذيب العاصين وإهلاكهم، كما أهلك أممًا قبلهم عصوا ربهم، وأنه لا يخزي المؤمنين، وهو قول الله تعالىٰ: ﴿ فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾ ﴾ [يونس، الآية ٩٨].

وقرب الزمن نسبيًّا بين رسل بني إسرائيل يشعرنا بأن الدعوة كانت وكأنها جاءت في زمن متصل الطرفين، خاصة أنها جاءت في بقعة محددة من الأرض، وبين قوم يمثلون ذرية رجل واحد هو إسرائيل، ويتبعون كتابًا واحدًا هو التوراة،

كتاب موسىٰ عليه السلام، وأن العقائد الصحيحة كانت تتردد بينهم بوساطة الرسل والمؤمنين منهم، ونعتقد أن إرسال رسل بني إسرائيل علىٰ التواتر، كان هدفه الأول تثبيت إيمان المؤمنين، والمحافظة علىٰ العقائد الصحيحة التي توارثوها عن الصالحين منهم، ومحاولة تقوية ناحية الإيمان في قلوب مزعزعي الإيمان والمترددين، والضرب علىٰ أيدي أئمة الكفر والإلحاد والمارقين الذين لا يرجىٰ إصلاحهم والذين طبع الله علىٰ قلوبهم فهم لا يفقهون.

المبحث العشرون[١]

زكريا ويحيىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ

• ذكرهما في القرآن

قال تعالىٰ: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنعام، الآية ٨٥].

• نسب زكريا وزمنه

نسبه وزمنه عند الكتّاب المسلمين

قيل: إن زكريا هو زكريا بن أزن بن بركيا[٢]، وقيل: هو ابن أزن، وكان هو وعمران بن ماتان بن يعاقيم من ولد داود النبي؛ من سبط يهوذا بن يعقوب، وكانا في زمان واحد، فتزوج زكريا إيساع ابنة عمران أختًا لمريم ابنة عمران، واسم أم مريم حَنَّة، وكان يحيىٰ وعيسىٰ ابني خالة، وكان زكريا نجارًا، وأشاعت اليهود أنه ارتكب مع مريم الفاحشة وقتلوه في جرف شجرة قطعوها وقطعوه معها[٣]. وقيل: هو ابن بسوىٰ من بني يهوذا بن يعقوب[٤].

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٣٤٧. وتاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٧١.
(٢) جامع البيان ٧/ ١٧٢.
(٣) المعارف، ص٢٤، وراجع روح المعاني ١/ ٥٦١.
(٤) الطبقات الكبرىٰ ١/ ٥٥.

وقيل: إن زكريا هو أبو يحيىٰ، وهو ابن بَرِّخِيا من ولد يهوذا، وقيل: من ولد سليمان، أرسله الله تعالىٰ إلىٰ بني إسرائيل بعد أن عادوا من أَسْر بابل وانغمسوا في المعاصي، وكانت زوجته إيشاع بنت فاقود أخت حنة زوجة عمران بن ماثان. وقيل: إن زوجة زكريا اسمها إيشاع، وأنه زوج خالة مريم[١] وليس زوج أختها، كما قال ابن قتيبة.

- **زكريا عليه السلام المذكور في (العهد القديم):**

نرىٰ ضرورة ذكر شيء عن زكريا المذكور في (العهد القديم)، لنفرق بينه وبين زكريا الذي ذكره الله تعالىٰ في كتابه القرآن، ولقد دعانا إلىٰ هذا ما رأيناه من خلط بعض الكتّاب بينهما، فالقول بأن زكريا أرسله الله إلىٰ بني إسرائيل بعد أن عادوا من أسر بابل، وأنه ابن برخيا، يوجه الفكر إلىٰ زكريا بن بَرِّخيا ابن عِدُّو، الذي نزح مع جده من بابل إلىٰ أورشليم مع زر بابل بن شألتيئيل، وعِزّرا وغيرهم من زعماء اليهود[٢].

- **زكريا عليه السلام المذكور في كتب النصارىٰ:**

جاء في إنجيل لوقا[٣] ما يلي: كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة أبيا، وامرأته من بنات هارون واسمها الْيَصابات، وكانا كلاهما بارَّيْن أمام الله، سالكَيْن في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم، ولم يكن لهما ولد، إذ كانت اليصابات عاقرًا، وكانا كلاهما متقدمين في أيامهما.

ثم ذكروا أن زكريا دخل الهيكل، فظهر له ملاك الرب، وبشَّرهُ بأن امرأته ستلد له ولدًا تسميه «يوحنا»، وأن هذا المولود سوف يهدىٰ كثيرين من بني إسرائيل إلىٰ

(١) التسهيل ١/ ١٠٥، و٣/ ٣٢.

(٢) (نحميا ١: ١٢، ٤، ١٦).

(٣) ذكرت المصادر النصرانية أن إنجيل لوقا كتب سنة ٦٣ ميلادية في بلاد الروم، وأن لوقا لم يكن من الحواريين الاثني عشر. مرشد الطالبين ص٢٢٣، ٢٢٤، وهذا الإنجيل عبارة عن خطاب أرسله لوقا إلىٰ صديقه ثاوفيلس كما ذكر في مقدمته.

الله، فقال زكريا للملاك: كيف أعلم هذا لأني أنا شيخ وامرأتي متقدمة في أيامها، فأجاب الملاك وقال له: أنا جبريل الواقف قدام الله، وأُرسلت لأكلمك وأُبشرك بهذا، وها أنت تكون صامتًا ولا تقدر أن تتكلم إلىٰ اليوم الذي يكون فيه هذا؛ لأنك لم تصدق كلامي الذي سيتم في وقته(١).

وعلىٰ هذا يكون زكريا قد أرسل إلىٰ بني إسرائيل قبل ولادة المسيح، وبعد إلياس واليسع بنحو سبعمائة سنة حسب التواريخ التي ذكرناها من قبل، وربما يكون فد تخللت هذا الزمن رسالات لم يذكرها الله تعالىٰ(٢).

- **القرآن حدد زمن زكريا** عليه السلام

لقد حدد لنا القرآن الكريم الزمن الذي وجد فيه زكريا، فقد عاصر مريم أم المسيح، وكان كفيلها، قال الله تعالىٰ: ﴿ . . وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا . . . ﴾ **[آل عمران، الآية ٣٧]**، فكانت رسالته بذلك قبيل ولادة عيسىٰ ابن مريم.

• نسب يحيى عليه السلام وزمنه

يحيىٰ هو ابن زكريا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ وكان معاصرًا لعيسىٰ ابن مريم كما يدل علىٰ ذلك سياق الآيات الكريمة، إذ إنه في أثناء كفالة زكريا لمريم سأل الله الولد.

- العقائد في رسالتي زكريا ويحيىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ :

لا شك أن كلاًّ من زكريا ويحيىٰ كان من أنبياء بني إسرائيل الذين أوحىٰ الله إليهم أن يدعوا قومهم إلىٰ الإيمان به وإتباع رسله واعتناق العقائد الصحيحة واجتناب عبادة الآباء والأجداد، وحثَّهم علىٰ عبادة الله وحده لا شريك له.

---

(١) لوقا ١/ ١٨-٢٠)

(٢) قال الله تعالىٰ: (وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا) [سورة النساء، الآية ١٦٤]، وقال: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ. . .) [سورة غافر، الآية ٧٨].

- **الربوبية والوحدانية**

إن مناداة زكريا عليه السلام ربه في لفظ: (رَبِّ) دل على إيمانه بالربوبية التي دعا إليها قومه.

قال تعالى: ﴿ وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الأنبياء، الآية ٨٩].

وقال: ﴿ هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ٣٨].

وقال ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ٤٠].

وقال: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم، الآية ١٠].

وطبيعي أن الدعوة إلى الإيمان برب العالمين شملت الدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله الذي وصفه زكريا بأنه: ﴿ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴾، وبأنه: (..سَمِيعُ الدُّعَاء..)، ولو كان زكريا يؤمن بغيره لدعاه دونه.

- **المعجزات:**

تشمل دعوة زكريا الإيمان بالمعجزات، وبأن الله قادر على كل شيء، وإلا لما قال: ﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً ﴿٣٨﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ٣٨].

وهو يعلم كل العلم أنه بلغ من السن مبلغًا ينقطع فيه النسل، وتنعدم فيه الوظيفة التناسلية انعدامًا كليًّا؛ بل وخاصة أنه يعلم أن امرأته عاقر لا تحمل، وأن أعضاءها التناسلية غير قابلة للتلقيح والحمل.

لقد دعا زكريا ربه أن يهب له ولدًا، وهو على يقين من أنه هو وزوجه غير قابلين للتناسل، ولكنه يؤمن بالله وبقدرته وبأنه يفعل ما يشاء، وأنه خلقه وزوجه، وخلق كل الخلق من العدم، فلا يصعب عليه أن يرزقه بولد مهما بلغ هو وزوجه

درجة اليأس من التلقيح والولد، ولهذا قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ ﴾ [مريم، الآيات ٤ – ٦].

وما كان تعجب زكريا عليه السلام عندما أخبر بأنه وزوجه سيلدان، إلا من فرط الدهشة، وهو انفعال إنساني عادي، فهو لم يشك مطلقًا في قدرة الله على الإتيان بالمعجزة، ولكن المفاجأة التي دعته إلى التساؤل هي: كيف يرجع إلى حالة الصبا والشباب مرة أخرى، ولقد حدث لزكريا ما حدث لإبراهيم وزوجه من قبل؛ إذ قالت: ﴿ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ ﴾ [هود، الآية ٧٢].

إن المعجزة التي حدثت لزكريا وزوجه لو أنها لم تحدث مصحوبة بتحدي المعاندين أو غير المصدقين بنبوة زكريا، إلا أنها حدثت أمامهم وتحت سمعهم وبصرهم، وسارت على أي حال دليلًا على أن زكريا مرضي عنه من ربه وأنه قريب منه، وأن في الاستماع له استماع لأوامر الله، والاهتداء به اهتداء بهدي الله، خصوصًا أن هذه المعجزة اقترنت بآية، وهي ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلاّ رمزًا[1]: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ ﴾ [مريم، الآية ١٠].

- **الرسالة والكتب المنزلة[2]**

طبيعي أن يدعو زكريا الناس إلى الإيمان برسالة الرسل جميعًا، وهو إذ يفعل

(١) نحن نعتقد أن لفظ: (لا) هنا للنفي، أي إن زكريا فقد النطق ثلاث ليال سويًّا، فكما أن أعضاءه الجنسية رجعت إليها وظيفتها إلى وقت ما، فكذلك جهاز النطق عنده فقد وظيفته إلى فترة معينة، وبذلك تكون هذه آية لزكريا يستطيع ملاحظتها كل الناس، وهذه الآية تؤكد الآية الأصلية، وتعمل على لفت أنظار الناس إليها، وتوجيههم إلى التفكير في الله الذي بيده كل شيء.

(٢) تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٢٨٠.

ذلك فإنما يفعل ما يؤمن به، فهو يؤمن بيعقوب والأسباط وبأنبياء بني إسرائيل، والدليل على هذا قوله له: ﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ۝٦﴾ [مريم، الآيتان ٥ - ٦].

بل لقد كان زكريا يؤمن بنبوة ابنه قبل أن يولد، قال الله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ۝٣٩﴾ [آل عمران، الآية ٣٩].

ولقد بينت هذه الآية الكريمة كذلك أن يحيى يؤمن بالمسيح قبل أن يراه، وهو قوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ ۝٣٩﴾ [آل عمران، الآية ٣٩].

والمسيح هو هذه الكلمة، فقد قال الله له: كن فكان، قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۝١٧١﴾ [النساء، الآية ١٧١].

- **العصيان وخشية الله عز وجل**

قال الله تعالى في مناسبة استجابته لدعاء زكريا: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء، الآية ٩٠].

وفي هذا دليل على أن المؤمن يجب أن يخشى الله وأن يرهب من عذابه وانتقامه وبطشه، وأن يعمل الصالحات ابتغاء ثوابه ورحمته، فالمؤمن هو الذي يؤمن بالثواب والعقاب، ويؤمن بأن العصيان سيئ المغبة، وأن الذي يريد الله به الخير يجنبه المعاصي كما جاء في قوله تعالى عن يحيى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝١٤﴾ [مريم، الآية ١٤].

ولقد بين الله تعالى أن زكريا دعا قومه إلى تجنب المعاصي، والتسلح بذكر الله، وأن يفعلوا ما يفعله هو امتثالاً لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ۝٤١﴾ [آل عمران، الآية ٤١].

وقال: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنَ ٱلۡمِحۡرَابِ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ أَن سَبِّحُواْ بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا ١١﴾ [مريم، الآية ١١].

المبحث الحادي والعشرون

المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام[١]

رسول الله عيسى عليه السلام، أرسله الله سبحانه لهداية بني إسرائيل ومعه الإنجيل الكتاب المقدس، ولم يكن بينه وبين الرسول صلى الله عليه وسلم أحدٌ من الأنبياء، قال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الأولى والآخرة». قالوا كيف يا رسول الله؟ قال: «الأنبياء إخوة من عَلَّات وأمهاتهم شتى ودينهم واحد، فليس بيننا نبي»[٢].

يبين القرآن الكريم حمل السيدة مريم بعيسى عليه السلام دون أن يمسسها بشر، وهذه معجزة حدثت من عند الله عز وجل.

وقد ذكر القرآن هذه القصة عندما اتخذت مكانًا شرقيًا بعيدًا عن قومها، فأرسل الله إليها الملك جبريل عليه السلام فتمثل لها بشرًا سويًّا فاستعاذت بالله منه، فقال لها: إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلامًا زكيًّا، فردت عليه: كيف يكون لي ولد ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا؟ قال لها: كذلك قال ربك وهو عليه هين، وليجعله آية للناس ورحمة من عنده، وكان أمرًا مقضيًا.

وقد منحه الله سبحانه دعمًا لرسالته ودعوته معجزات كثيرة بإذن الله عز وجل. وحسْب ما جاء في النصوص القرآنية فإن سيدنا عيسى عليه السلام لم يقتل ولم يصلب بل شُبِّه لهم ورفعه الله إليه حيًّا في السماء، وحسب ما روي في الأحاديث الإسلامية بأنه سوف يعود إلى الأرض قبل يوم القيامة ليقيم العدل ويقتل الدجال.

وكبقية الرسل في الإسلام فقد كان عيسى عليه السلام مسلمًا يدعو الناس إلى الإسلام والسير على الطريق المستقيم، وهكذا كانت دعوته إلى الله عز وجل. وقد نبذ الإسلام

(١) انظر: قصص الأنبياء لابن كثير، ٢/ ٣٦٧ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، ١٥/ ١١٩.

القول بأن عيسىٰ هو الرب أو هو ابن الله ورفض ذلك، وبين أنه بشر عادي مثل باقي الرسل، وأن الله اختاره لرسالته والدعوة إلىٰ عبادة الله وحده.

وفي الإسلام أن الله سبحانه واحدٌ لا شريك له مؤكدًا علىٰ وحدانية الله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في القرآن بألقاب مثل المسيح، علىٰ الرغم من أنه لا يتفق مع اعتقاد النصارىٰ بأنه ابن مريم وعبد الله. وقد بشر عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمجيء محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف، الآية ٦].

لمحة بسيطة عن عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ ووالدته

هذه لمحة بسيطة عن عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وعن والدته الصِّديقة فلا خلاف في أن والدة عيسىٰ -السيدة مريم- هي من سلالة نبي الله داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأبوها هو (عمران) صاحب سراة بني إسرائيل في زمانه وأمها هي (حَنَّة بنت فاقود) ابن قابيل وهي من العابدات الزاهدات، وكان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ نبي زمانه، هو زوج أخت مريم «أشياع» وفي قول الجمهور أنه زوج خالتها، ولكن اسمها المتفق عليه هو «أشياع»، وقد كانت أم مريم لا تحبل أو امرأة عقيمًا، فرأت يومًا طائرًا ومعه فرخٌ فاشتهت أن يكون لها ولد، فنذرت لله عَزَّوَجَلَّ أنها إذا حملت لتجعلن ولدها محررًا أي حبيسًا خادمًا في بيت المقدس، ومن بعدها حاضت ووقع عليها بعلها فحملت بمريم عليها السلام، ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران، الآية ٣٦]، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس وَضْع أحد أبنائهم لخدمته؛ ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران، الآية ٣٦]، وقد تقبل الله منها ذلك النذر واستجاب لدعوتها.

عن أبي هريرة، أن النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخًا من مسِّ الشيطان إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن

شئتم ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾[1]، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٖ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنٗا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ﴾ [آل عمران، الآية ٣٧].

ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفتها في خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلمتها إلى العبَّاد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم، فتنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها -على القولين. فطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران، الآية ٤٤].

وذلك أن كلاًّ منهم ألقى قلمه معروفًا به، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلامًا لم يبلغ الحِنْث فأخرج واحدًا منها وظهر قلم زكريا عليه السلام.

فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن ألقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه على خلاف جرية الماء فهو الغالب، ففعلوا فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء، ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعدًا فهو الغالب ففعلوا فكان زكريا هو الغالب، لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعًا وقدرًا.

قال تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران، الآية ٣٧].

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكانًا شريفًا من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت إذا جاءت نوبتها، وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى صارت يضرب بعبادتها المثل في بني إسرائيل، واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى إنه كان نبي الله زكريا

(١) صحيح البخاري، ٦/ ٣٤، حديث رقم.

كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقًا غريبًا في غير أوانه. فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي: رزق رزقنيه الله، ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فعند ذلك وهنالك طمع زكريا في وجود ولد له من صلبه وإن كان قد أسنَّ وكبر ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران، الآية ٣٨]، قال بعضهم: قال: يا من يرزق مريم الثمر في غير أوانه هب لي ولدًا وإن كان في غير أوانه. فاستجاب الله له ذلك.

بشارة الملائكة لمريم

قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران، الآيتان ٤٢-٤٣].

يذكر تعالىٰ أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب، وبُشرت بأن يكون نبيًّا شريفًا ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾[آل عمران، الآية ٤٦]. أي في صغره يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وكذلك في حال كهولته، فدل علىٰ أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلىٰ الله فيها، وأُمرت بكثرة العبادة والقنوت والسجود والركوع؛ لتكون أهلًا لهذه الكرامة ولتقوم بشكر هذه النعمة، فيقال إنها كانت تقوم في الصلاة حتىٰ تفطرت قدماها رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا ورحمها ورحم أمها وأباها.

عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون»(١).

(١) صحيح الترمذي، ٦/ ١٨٦، حديث رقم ٣٨٧٨.

قصة حمل مريم بعيسى عليه السلام

لما خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها، وبأنه سيهب لها ولدًا زكيًّا يكون نبيًّا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيّدا بالمعجزات، فتعجبت من وجود ولد من غير والد؛ لأنها لا زوج لها، ولا هي ممن تتزوج فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضىٰ أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه؛ لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل. قال تعالىٰ: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ٤٥].

وكانت إنما تخرج من المسجد في زمن حيضها أو لحاجة ضرورة لابد منها من استقاء ماء أو تحصيل غذاء، فبينما هي يومًا قد خرجت لبعض شؤونها و﴿ ٱنتَبَذَتْ ﴾، أي: انفردت وحدها شرقي المسجد الأقصىٰ إذ بعث الله إليها الروح الأمين جبريل عليه السلام ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم، الآية ١٧] فلما رأته ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ [مريم، الآية ١٨]. والتقي هو ذو نهية. ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ ﴾ [مريم، الآية ١٩]، أي خاطبها الملك قائلًا: لست ببشر ولكني ملك بعثني الله إليك لأهب لك ولدًا زكيًّا. ﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾ [مريم، الآية ٢٠]. أي كيف يكون لي غلام أو يوجد لي ولد ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ [مريم، الآية ٢٠]. ﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [آل عمران، الآيتان ٤٧ – ٤٨]. أي: ولست ذات زوج، وما أنا ممن يفعل الفاحشة؟ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ [مريم، الآية ٢١]. فأجابها الملك عن تعجبها من وجود ولد منها قائلًا: إنه وعدُ الله أنه سيخلق منك غلامًا ولستِ بذاتِ بعل ولا تكونين ممن تبغين، وهذه آية من آيات الله في أرضه. ﴿ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ﴾ أي: وهذا أسهل عليه ويسير لديه، فإنه على ما يشاء قدير.

وقوله: ﴿ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [مريم، الآية ٢١]، أي: ولنجعل خلقه -والحالة هذه -دليلًا على كمال قدرتنا على أنواع الخلق، فإنه تعالى خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، وخلق بقية الخلق من ذكر وأنثى. قال تعالى: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾ [التحريم، الآية ١٢].

ذكر غير واحد من السلف أن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها فنزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها كما تحمل المرأة عند جماع بعلها والنفخ في جيب درعها أنها أعطت جبريل عليه السلام جزءًا من جيب يدها اليمنى.

ولما نفخ فيها الروح لم يواجه المَلَكُ الفرجَ بل نفخ في جيبها فنزلت النفخة إلى فرجها فانسلكت فيه، كما قال تعالى: ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ ﴾ [مريم، الآية ٢٢].

وذلك لأن مريم عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ لما حملت ضاقت به ذرعًا، وعلمت أن كثيرًا من الناس سيكون منهم كلام في حقها، فذكر غير واحد من السلف أنها لما ظهرت عليها مخايل الحمل كان أول من فطن لذلك رجل من عُبَّاد بني إسرائيل يقال له يوسف بن يعقوب النجار، وكان ابن خالها، فجعل يتعجب من ذلك عجبًا شديدًا، وذلك لما يعلم من ديانتها ونزاهتها وعبادتها وهو مع ذلك يراها حُبْلَى وليس لها زوج، فعرَّض لها ذات يوم في الكلام فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟

قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول.

ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى.

قال لها: فأخبريني خبرك.

فقالت: إن الله بشّرني ﴿ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴾ [آل عمران، الآيتان ٤٥-٤٦].

ويروىٰ مثل هذا عن زكريا عليه السلام أنه سألها فأجابته بمثل هذا. والله أعلم.

وروي عن مجاهد قال: قالت مريم كنت إذا خلوت حدثني وكلمني، وإذا كنت بين الناس سبح في بطني.

قال محمد بن إسحاق: شاع واشتهر في بني إسرائيل أنها حامل، فما دخل علىٰ أهل بيت ما دخل علىٰ آل بيت زكريا.

قال: واتهمها بعض الزنادقة بيوسف الذي كان يتعبد معها في المسجد، وتوارت عنهم مريم واعتزلتهم وانتبذت مكانًا قصيًّا.

ولادة عيسى عليه السلام

قال تعالىٰ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ٢٣﴾ [مريم، الآية ٢٣]، أي فألجأها واضطرها الطلق إلىٰ جذع النخلة، ببيت لحم فتمنت الموت؛ وذلك لأنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام علىٰ يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد المنقطعات إليه المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو لم تخلق بالكلية.

﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ﴾؛ وفي تفسير ذلك قولان: أحدهما أنه جبريل وفي رواية: هو ابنها عيسىٰ. ﴿أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ [مريم، الآية ٢٤]. قيل: النهر. ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ [مريم، الآية ٢٥]، فذكر الطعام الشراب، ولهذا قال: ﴿فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم، الآية ٢٦].

قيل: كان جذع النخلة يابسًا، وقيل: كانت نخلة مثمرة. فالله أعلم. ويحتمل أنها كانت نخلة، لكنها لم تكن مثمرة إذ ذاك؛ لأن ميلاده كان في زمن الشتاء وليس ذاك وقت ثمر. وقد يفهم ذلك من قوله تعالىٰ علىٰ سبيل الامتنان: ﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ٢٥﴾ ليس شيء أجود للنفساء من التمر والرطب. ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ

﴿ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [مريم، الآية ٢٦].

فإن رأيت أحدًا من الناس فقولي له بلسان الحال والإشارة: إني نذرت للرحمن صومًا، أي صمتًا، وكان من صومهم في شريعتهم ترك الكلام والطعام. ﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ ﴾ [مريم، الآيتان ٢٧، ٢٨]. والمقصود أنهم لما رأوها تحمل معها ولدها قالوا: ﴿ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴾. والفِرْية هي الفَعْلة المنكَرة العظيمة، ثم قالوا لها: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾. وقد ورد الحديث الصحيح الدال على أنه قد كان لها أخ اسمه هارون وليس في ذكر قصة ولادتها وتحرير أمها لها ما يدل على أنها ليس لها أخ سواها. والله أعلم.

عن المغيرة بن شعبة قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا: أرأيت ما تقرؤون: ﴿ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال: فَرُحْتُ فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم».

عيسى عليه السلام يتكلم في المهد

فلما ضاق الحال بمريم ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾، أي: أنْ خاطبوه وكلِّموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه.

فعند ذلك قالوا: ﴿ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ [مريم، الآية ٢٩]، أي كيف تحيلين في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو رضيع في مهده ولا يميز، وما هذا منك إلَّا على سبيل التهكُّم بنا والاستهزاء والتنقُّص لنا والازدراء.

فعندها ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا

﴿٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم، الآيات ٣٠ - ٣٣].

هذا أول كلام تفوَّه به عيسىٰ ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾،اعترف لربه تعالىٰ بالعبودية وأن الله ربه، فنزه جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله.

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٣٠ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٣١﴾ [التوبة، الآيتان ٣٠- ٣١]، بل هو عبده ورسوله وابن أمَتِه.

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران، الآية ٥١]

قال تعالىٰ: ﴿لَقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ وَقَالَ ٱلۡمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡۖ إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢ لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمۡ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٧٣﴾ [المائدة، الآيتان ٧٢ – ٧٣].

قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا

﴿لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء، الآيتان ١٧١ – ١٧٢].

ثم برأ أمّه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورمَوْها بسببه، بقوله: ﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ قال تعالى: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران، الآيتان ٤٩ – ٥٠].

فإن الله لا يعطي النبوة من هو كما زعموا لعنهم الله، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء، الآية ١٥٦].

وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا إنها حملت به من زنى في زمن الحيض، لعنهم الله، فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبيًا مرسلًا، أحد أولي العزم الخمسة الكبار، قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة، الآية ٧٥].

ثم قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، أي: وجعلني برًّا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه إذ لا والد له سواها، فسبحان من خلق الخليقة وبراها وأعطى كل نفس هداها [تفسير ابن كثير] وخلق آدم وحواء بدون أبوين وخلق عيسى عليه السلام بدون أب ونُسب إلى أمه، فإذا كنت تؤمن بالكتب السماوية فجميع ما ذكرناه في القرآن المنزل وهو آخر الكتب السماوية، فسلامنا على عيسى وسلامنا على جميع الأنبياء والرسل، وهذا عيسى ابن مريم عليه السلام خلقه الله تعالى بدون أب وهو ليس ابن الله كما تزعمون وخلقه كما خلق آدم بدون أب ولا أم.

نزول عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام نبي من أنبياء الله عليهم السلام من أولي العزم المقربين، أختصه الله عز وجل بأن يولد من أم دون أب، وكانت مريم أم عيسى عليه السلام معروفة بصلاحها، وتتعبد في المحراب، والله عز وجل يرزقها؛ قال الله عز وجل ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران، الآية ٣٧].

بشارة الملائكة لمريم، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران، الآية ٤٢].

يذكر عز وجل أن الملائكة بشرت مريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء زمانها، بأن اختارها لإيجاد ولد منها من غير أب، وبشرت بأن يكون نبيًّا شريفًا؛ ﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران، الآية ٤٦]، أي في صغره يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له وكذلك في حالة كهولته، فدل على أنه يبلغ الكهولة ويدعو إلى الله فيها.

مدة مكوث عيسى عليه السلام في الأرض بعد نزوله

يمكث عيسى عليه السلام ٤٠ سنة يعيش الناس فيها برخاء وسلم وعدل يدل عليه ما تقدم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأنبياء إخوة لعلات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي. . .»، إلى أن قال: «فيمكث – أي عيسى – أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»: [رواه أحمد والحاكم].

وقال أبو هريرة رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف، الآية ٦١]، قال «خروج عيسى، يمكث في الأرض أربعين سنة، تكون تلك الأربعون كأربع سنين، يحج ويعتمر»[1].

---

(١) التويجري، حمود، إتحاف الجماعة بما جاء في الفتن والملاحم وأشراط الساعة، ٣/ ٩٥.

حج عيسى عليه السلام

عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده ليهلَّنَّ ابن مريم بفجِّ الرَّوحاء حاجًا أو معتمرًا أو ليثنيهما»[1].

أي إن عيسى عليه السلام سيهل بالحج من فج الروحاء، وهو طريق بين مكة والمدينة وسيكون إحرامه إما متمتعًا بالعمرة إلى الحج فيفصل بين العمرة والحج بالتحلل بينهما، أو يثنيهما: أي يكون قارنًا بينهما.

قتل المسيح الدجال:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الأنبياء إخوة لعلّات؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه رجلًا مربوعًا إلى الحمرة والبياض، عليه ثوبان ممصران، كأن رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، فيدقُّ الصليب، ويقتل الخِنْزير، ويضع الجِزْية. . . ويدعوا الناس إلى الإسلام؛ فيَهْلِك الله في زمانه المِلل كلها إلا الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال؛ وتقع الأمنة على الأرض حتى تَرْتَع الأُسودُ مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات، لا تضرهم، فيمكث أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون»[2].

تعريف الإنجيل

الإنجيل أو الكتاب المقدس، يعرف لدى المسيحيين بأنه مجموع الكتب الموحاة من الله والمتعلقة بخلق العالم وفدائه وتقديسه، وتاريخ معاملة الله لشعبه، ومجموع النبوءات عما سيكون حتى المنتهى، والنصائح الدينية والأدبية التي تناسب جميع بني البشر في كل الأزمنة.

---

(١) صحيح مسلم، ٢/ ٩١٥، رقم الحديث ١٢٥٢.

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، ١٥/ ١٥٣، رقم الحديث ٩٢٧٠، مؤسسة الرسالة، ط١، ١٤٢١.

والإنجيل كلمة يونانية معناها البشارة. أي الخبر المفرح.

نظرة الإسلام للإنجيل.

الإنجيل في الإسلام هو أحد الكتب السماوية، أنزله الله على النبي المسيح عيسى بن مريم، وهو مذكور في القرآن في آيات كثيرة، منها: ﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [المائدة، الآيتان ٤٦، ٤٧].

ويؤمن المسلمون أن الإنجيل الموجود بين الناس ليس هو الإنجيل المنزل على المسيح عليه السلام، ولكنه محرف، وقد تم تغييره.

ذكره في القرآن(١):

قال تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ . . . ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة، الآية ٧٥].

وقال: ﴿ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ ﴾ [الزخرف، الآيات من ٦٣ - ٦٥].

نسبه وزمنه

لقد رأينا كيف أن المسيح كان معاصرًا ليحيى بن زكريا عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، وأنه من ولد داود من سبط يهوذا، هذا حسب قول الكتَّاب المسلمين، فإذا ما رجعنا إلى المراجع النصرانية وجدنا اختلافًا بين إنجيلي متى ولوقا في بيان نسب المسيح، ونرى أن نرجع إلى هذين المصدرين لنأخذ فكرة عن صلة المسيح بإسرائيل، والسبط الذي ينتهي إليه نسبه، وصلة القرابة بينه وبين غيره من سائر النبيين.

---

(١) تاريخ الأنبياء والرسل، د. محمد وصفي، ص٢٨٥.

جاء في إنجيل الإصحاح الأول: كتاب ميلاد يسوع المسيح بن داود بن إبراهيم، إبراهيم ولد إسحاق، وإسحاق ولد يعقوب، ويعقوب ولد يهوذا وإخوته، ويهوذا ولد فارص وزارح من ثامر، وفارص ولد حصرون، وحصرون ولد أرام، وأرام ولد عميناداب، وعميناداب ولد نحشون، ونحشون ولد سلمون، وسلمون ولد بوعز من راحاب، وبوعز ولد عوبيد من راعوث، وعوبيد ولد يسي، ويسي ولد داود الملك، وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا، وسليمان ولد رحبعام، ورحبعام ولد أبيا، وأبيا ولد آسا، وآسا ولد يهوشافاط، وهوشفاط ولد يورام، ويورام ولد عزيا، وعزيا ولد يوثام، ويوثام ولد أحاز وأحاز ولد حزقيا، وحزقيا ولد منسى، ومنسى ولد آمون، وآمون ولد يوشيا، ويوشيا ولد يكنيا، وإخوته عند سبى بابل، وبعد سبى بابل يكنيا ولد شألتيئيل، وشألتيئيل ولد زربابل، وزربابل ولد أبيهود، وأبيهود ولد ألياقيم، وألياقيم ولد عازور، وعازور ولد صادوق، وصادوق ولد أخيم، وأخيم ولد أليود، وأليود ولد أليعازر، وأليعازر ولد متان، ومتان ولد يعقوب، ويعقوب ولد يوسف؛ رجل مريم التي ولد منها يسوع الذي يدعى المسيح. فجميع الأجيال من إبراهيم إلى داود أربعة عشر جيلًا، ومن داود إلى سبى بابل أربعة عشر جيلًا، ومن سبى بابل إلى المسيح أربعة عشر جيلًا[١].

وأما لوقا فيقول في إنجيله: ولما ابتدأ يسوع كان له نحو ثلاثين سنة، وهو على ما كان يظن ابن يوسف بن هالي بن متثات بن لاوي بن ملكي بن ينا بن يوسف بن متاثيا بن عاموص بن ناحوم بن حسلي بن نجاي بن مآث بن متاثيا بن شمعي بن يوسف بن يهوذا بن يوحنا بن ريسا بن زربابل بن شألتيئيل بن نيري ابن ملكي بن أدى بن قصم بن المودام بن عير بن يوسى بن أليعازر بن يوريم بن متثات بن لاوي بن شمعون بن يهوذا بن يوسف بن يونان بن ألياقيم بن مليا بن مينان بن متاثا بن ناثان بن داود بن يسي بن عوبيد بن بوعز بن سلمون بن نحشون بن عميناداب بن أرام بن حصرون بن فارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم[٢].

(١) (متى ١/ ١-١٧).
(٢) (لوقا ٣/ ٢٣-٣٤)

وبمراجعة الإنجيلين نجدهما يتفقان في سلسلة النسب من إبراهيم إلىٰ داود، ولكننا إذا انتقلنا إلىٰ سلسلة النسب بعد ذلك وجدنا هنالك اختلافًا ظاهرًا، إذ إن متىٰ جعل المسيح من سلالة سليمان بن داود، وجعله لوقا من نسل ناثان بن داود، وقال متىٰ: إن يورام ولد عزيا[١]، وهو مخلف لما جاء في (العهد القديم) الذي جاء فيه أن يورام ولد أخزيا، وأن أخزيا ولد يواش، وأن يواش ولد أمصيا، وأن أمصيا هو ولد عزريا، وأن عزريا ولد يوثام[٢].

كما يلاحظ أن متىٰ صحَّفَ اسم «عزريا» فجعله «عزريا». هذا مع العلم بأن الأسماء التي أسقطها متىٰ أسماء ملوك مشهورين، وسنذكر في الجدول تاريخ تولية كل منهم ملك يهوذا أو إسرائيل، وسنضع كلًّا منهم في الجدول بين قوسين:

داود

حسب إنجيل متىٰ		حسب إنجيل لوقا
سليمان	توفي عام (١٠١٥ق م)	ناثان
رحبعام	توفي عام (٩٧٥ق م)	متاثا
أبيا	توفي عام (٩٥٨ق م)	مينان
آسا	توفي عام (٩٥٥ق م)	مليا
يهوشافاط	توفي عام (٩١٤ق م)	ألياقيم
يورام	توفي عام (٨٦٨ق م)	يونان
...	(أخزيا تولىٰ عام (٨٨٥ق م)	يوسف
...	(يواش تولىٰ عام (٨٧٨ق م)	يهوذا
...	(أمصيا تولىٰ عام (٨٣٧ق م)	شمعون

(١) (متىٰ ١/ ٨).

(٢) ((ملوك ثاني)) (٨، ١٢، ١٤، ٢٠)، و((أخبار الأيام)) (٢٢، ٢٤، ٢٥).

عزيا (عزريا)	تولىٰ عام (٨١٠ق م)	لاوي
يوثام	تولىٰ عام (٧٥٧ق م)	متثاب
أحاز	تولىٰ عام (٧٤١ق م)	يوريم
حزقيا	تولىٰ عام (٧٢٦ق م)	أليعازر
منسىٰ	تولىٰ عام (٦٩٧ق م)	يوسىٰ
آميون	تولىٰ عام (٦٤٢ق م)	عير
يوشيا	تولىٰ عام (٦٤٠ق م)	المودام
		قصم
		أدي
		ملكي
يكنيا		نيري
شلأتيئيل		شلأبيئيل
زربابل		زربابل

من نوح إلى عيسى عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ بالتاريخ الميلادي[1].

أما وقد بينا نسب المسيح من وجهة نظر المسيحية، فنرىٰ أنه من المناسب أن نذكر بعض التواريخ التي تحدد زمن بعض النبيين حسب رأىٰ مؤرخي المسيحية، ليأخذ القارئ كذلك فكرة عن الارتباط الزمني بين الرسل والأنبياء الذين نؤمن بهم، ويؤمن بهم هؤلاء حسب وجهة نظرهم الخاصة كذلك، وسنذكر ما أمكننا ذكره من هذه التواريخ من زمن ولادة نوح إلىٰ زمن المسيح عيسىٰ ابن مريم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

(١) تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي للكاتب الدكتور محمد وصفي ص ٢٩٤.

ما يراد معرفة زمنه	السنة قبل الميلاد
ولادة نوح	٢٩٤٨
وفاة نوح	١٩٩٨
ولادة إبراهيم	١٩٩٦
ولادة إسماعيل عندما كان سن أبيه ٨٦ سنة	١٩١٠
هلاك قوم لوط ونجاة لوط وأهله	١٨٩٦
ولادة إسحاق	١٨٩٦
ولادة يعقوب عندما كان إسحاق ابن ٦٠ سنة	١٨٣٦
وفاة إبراهيم وهو ابن ١٧٥ سنة	١٨٢٠
وفاة إسماعيل وله من العمر١٣٧ سنة	١٧٧٣
ولادة رأوبين بن يعقوب من ليئة	١٧٥٨
ولادة شمعون بن يعقوب من ليئة	١٧٥٧
ولادة لاوي بن يعقوب من ليئة	١٧٥٦
ولادة يهوذا بن يعقوب من ليئة	١٧٥٥
ولادة يوسف بن يعقوب من راحيل وهو ابن ٩١ سنة	١٧٤٥
ولادة بنيامين بن يعقوب من راحيل	١٧٣١
وفاة إسحاق وهو ابن ١٨٠ سنة	١٧١٦
وفاة يعقوب وهو ابن١٤٨ سنة	١٦٨٩
وفاة يوسف وهو ابن١١٠ سنه	١٦٣٥
وفاة لاوي وهو ابن١٣٧ سنة	١٦١٩
ولادة هارون	١٥٧٤
ولادة موسىٰ	١٥٧١

ما يراد معرفة زمنه	السنة قبل الميلاد
وفاة هارون وهو ابن ١٢٣ سنة	١٤٥٢
وفاة موسىٰ وهو ابن ١٢٠ سنة	١٤٥١
ولادة نبي بني إسرائيل (صموئيل)	١١٥٥
طلب بني إسرائيل ملكًا من صموئيل (نبي بني إسرائيل)	١٠٩٦
ولادة داود	١٠٨٥
قتل داود جالوت	١٠٦٢
وفاة نبي بني إسرائيل (صموئيل) وهو ابن ٩٨ سنة	١٠٥٧
ولادة سليمان	١٠٣٣
وفاة داود وهو ابن ٧٠ سنة	١٠١٤
وفاة سليمان	٩٧٥
ظهور إلياس	٩٢٢ تقريبًا
إلياس يقتل أنبياء بعل الكاذبين	٩٠٨
موت إلياس	٨٩٦
انتقال اليشع إلىٰ دمشق	٨٨٤
وفاة اليشع	٨٣٩
ظهور يونس	٨٢٣ تقريبًا
خراب أورشليم علىٰ يد نبوخذ نصر	٥٨٨
ظهور زكريا بالنبوة حسب التقويم الرومانى	٥
ولادة يحيىٰ حسب التقويم الرومانى	٤
ولادة عيسىٰ حسب التقويم الرومانى	٤
ظهور يحيىٰ نبيًّا	٢٦
ظهور يحيىٰ مع عيسىٰ	٢٧

ما يراد معرفة زمنه	السنة قبل الميلاد
قتل هيرودس ليوحنا (يحيىٰ)	٢٩
اختفاء المسيح (وصلب الرجل الذىٰ ظن أنه المسيح)	٣٠
وفاة المسيح	بعد حادثة الصَّلب

• العقائد في رسالة المسيح عليه السلام

كان المسيح عيسىٰ ابن مريم عليه السلام آخر أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله إليهم خاصة[١] ليذكرهم بالتوراة التي أنزلت إليهم، وبالتعاليم التي جاء بها من سبقه من الرسل والأنبياء، وليتبين لهم العقائد الصحيحة التي تركوها واعتنقوا غيرها من العقائد الباطلة الفاسدة، وذكرت كتب النصارىٰ أنه كان يوبخ الكتبة [٢] والفريسيين[٣]؛ لموقفهم عن الدين وتمسكهم بتقاليد ورثوها ما أنزل الله بها من سلطان، فكان يقول لهم مثلًا: ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تأكلون بيوت الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم... أيها الجهال والعميان... أيهما أعظم: القربان أم المذبح الذي يقدس القربان... ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون؛ لأنكم تعشرون النعنع والشبت والكمون وتركتم أثقل الناموس، الحق والرحمة والإيمان. . . أيها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلعون الجمل.. أيها الحيات أولاد الأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم؟... إلخ[٤].

(١) جاء في كتب النصارىٰ أنه قال: «لم أرسل إلا إلىٰ خراف بيت إسرائيل الضالة». (متىٰ ١٥/ ٢٤)، قال الله تعالىٰ في القرآن: ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ. . .﴾ [آل عمران، الآية ٤٩].

(٢) الكتبة، ويقال لهم: الناموسيون، كانت وظيفتهم في الأصل نسخ الكتب الدينية، وكان أكثرهم يميل إلىٰ مطالعة العلوم والفنون، ويفسرون الشريعة ويهذبون الشعب.

(٣) الفريسيون: هم أعظم الطوائف بين اليهود، وتقدسهم العامة، وكان أكثر حكماء السنة والكتبة منهم، وكانوا يعتبرون تقاليد المشايخ بقدر ما يعتبرون كلام الناموس وربما فضلوها عليه.

(٤) متىٰ ٢٣/ ١٤، ١٩، ٢٣، ٢٤، ٣٣).

ولقد شملت رسالة عيسى عليه السلام كما جاءت في القرآن جميع العقائد الأساسية في الدين، وسنذكرها في هذا المقام، ويستطيع القارئ أن يستخلص من الآيات الكريمة التي سنذكرها فيما بعد، جميع العقائد الفرعية الأخرى، منها ما يتصل بالتوحيد، كقدرة الله وأوامره والتوكل عليه وخشيته، وغيره أي: غير التوحيد، ومنها ما يندرج تحت العقائد الأساسية كالذنب وفتنة الشيطان والجزاء وغيرها.

• الربوبية، والوحدانية، والرسالة، والمعجزات:

إن أول ما دعا إليه المسيح هو الإيمان بالربوبية ووحدانية الخالق والإيمان برسالة الأنبياء والمرسلين، كانت هذه الدعوة أول ما نطق به في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم، الآية ٣٠]، وكان كل همه بعد ذلك أن يدعو الناس إلى طاعة الله وتقديم العبادة له دون سواه[١]، وكان يبين لقومه أن الله هو ربه وربهم، وأن الله هو رب الناس وملكهم وإلههم، وكان يذكر لهم أن الاعتراف بالربوبية والألوهية هو السبيل القويم الذي يؤدي إلى النجاة، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف، الآيتان ٦٣ - ٦٤].

ومن المعجزات التي حققها الله على يد المسيح لإثبات رسالته، وصدقه في الدعوة إلى الإيمان بالله وبيان قدرة الله وقوته معجزة إحياء الموتى[٢]، وإبراء الأكمه

---

(١) جاء في كتب المسيحيين: أن إبليس عرض على المسيح أن يعطيه الدنيا جميعها إن هو= =سجد له، وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد، وإياه وحده تعبد. (متى ٤/ ٩، ١٠). وهنالك جملة في كتب النصارى تصرح بالوحدانية تصريحًا ظاهرًا، وهذه الجملة قيل: إنها صدرت من المسيح، وهي أنه قال: «ولا تدعوا لكم أبًا على الأرض، لأنه أباكم واحد الذي في السماوات، ولا تدعو معلمين لأن معلمكم واحد المسيح». (متى ٢٣/ ٩). وإننا لنستطيع توضيح هذه الجملة وبيان المقصود منها، وهي أن المسيح إنما كان يدعوهم إلى قول: (لا إلهَ إلَّا الله وأن المسيح رسول لله).

(٢) يؤمن اليهود والنصارى أن من رسل الله من أحيا الموتى قبل المسيح، كإلياس واليسع كما قدمنا عند الكلام عنهما، وذكروا أن حزقيال أحيا جيشًا عظيمًا جدًّا بعد أن أصبحت=

والأبرص وغير ذلك مما عده عيسىٰ في قوله لقومه: ﴿... أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران، الآيات ٤٩ – ٥١].

ويلاحظ أن قول المسيح أنه يفعل هذه المعجزات بإذن الله[١] هو لِلَفْتِ أنظارهم إلىٰ أن الله يرسل مع رسله المعجزات التي تثبت رسالته، لتطمئن قلوبهم إلىٰ دعوته رحمة من الله بهم، حتىٰ لا تتسلط عليهم النفس الأمارة بالسوء فتقودهم إلىٰ الهلاك.

والدليل علىٰ أن عيسىٰ كان يحمل في رسالته وجوب الإيمان بجميع الرسل والنبيين، دعوته إلىٰ التصديق برسالة موسىٰ، كما كان يوجب التصديق برسالة محمد خاتم النبيين ﷺ، وهو ما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف، الآية ٦].

وتعترف النصارىٰ بأنه يؤمن بيحيىٰ، وقد تَعمَّد علىٰ يديه أمام الناس كما قدمنا، وبأنه يؤمن بموسىٰ وبالتوراة، فقد ذكروا أنه قال لأبرص شفاه: انظر ألَّا

=أفراده عظامًا. (حزقيال ٣٧/ ١-١٠)، ونرجح أن هذه الحادثة هي التي ذكرها الله تعالىٰ في قوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ) [سورة البقرة، الآية ٢٤٣]. ومن المرجح عند بعض مؤرخي المسلمين أنَ حزقيال كان نبيًا من أنبياء بني إسرائيل، وامتدت رسالته من سنة (٥٩٥ق. م) إلىٰ (٥٧٥ق. م)، وقد حُشدت في السفر المسمىٰ باسمه في «العهد القديم» أخبار خيالية بعيدة عن الواقع.

(١) جاء في كتب النصارىٰ اعترف المسيح بأن المعجزات التي علىٰ يديه إنما هي من عند الله. (متىٰ ١١/ ٢٧)، وجاء فيها أن الناس جميعًا رأوا هذه المعجزات واعترفوا بقدرة الخالق الذي يحقق مثل هذه الأفعال الخارقة للعادة علىٰ يد البشر، من ذلك قول متىٰ: «فلما رأىٰ الجموع تعجبوا ومجدوا الله الذي أعطىٰ الناس سلطانًا مثل هذا». (متىٰ ٨/ ٩).

تقول لأحد، بل اذهب أرِ نفسك للكاهن وقدِّم القربان الذي أمر به موسىٰ شهادة لهم، وقالوا: حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلًا: علىٰ كرسي موسىٰ جلس الكتبة والفريسيون، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فأحفظوه وافعلوه[١].

• البعث، والقيامة، والجنة، والنار:

جاءت عقيدة البعث في رسالة المسيح كما جاءت في رسالات غيره من النبيين، فقد أعلن هذه العقيدة منذ كان في المهد صبيًّا إذ قال: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ﴾ [مريم، الآية ٣٣].

إن هذه الآية الكريمة تبين أن الله يوجد الإنسان عامة في هذه الحياة الدنيا بطريق التناسل والولادة، وإن المسيح خاصة وجد بطريق الولادة من غير ذكر، وأن عناصر تكوينه هي عناصر تكوين كل الناس، وكان كلامه في المهد هي الحجة علىٰ براءة أمه مريم من البغاء: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩ ﴾ [آل عمران، الآية ٥٩].

وأنَّ الله كما أوجده في هذه الدنيا من جسم بشري فإنه سوف يميته كذلك كسائر البشر، وأنه سيبعث كذلك مثلهم، وأن ولادته علىٰ غير العادة لا تعني خروجه مستقبلًا عن القدر الذي قدره الله علىٰ البشرية جميعًا، وما جرىٰ علىٰ فم عيسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ في المهد في هذه الآية الكريمة هو إعلان لحقيقة البعث التي لا شك أنه قد آمن بها كل من سمع عيسىٰ حينئذ من قوم مريم، ولا شك أن هؤلاء نقلوا كلام المسيح الذي تفوه به في المهد إلىٰ كل من يلوذ بهم، وطبيعي أن لفظ: «ٱلۡبَعۡث» كان مفهومًا للمخاطبين، أو لبعضهم، فلا يخلوا هذا البعض من أنه سمع شيئًا عن البعث ممن كان مؤمنًا برسالة النبيين من قبل كيحيىٰ وزكريا عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ .

وطبيعي أن يفسر المسيح كل ما يتعلق بعقيدة البعث بعد تكليفه بالرسالة، وبهذا شملت رسالته عقيدتي الجنة والنار، فمن آمن بالله واتبع رسوله وآمن برسالته

(١) (متىٰ ٢٣/ ١-٣).

دخل الجنة، وأما من كفر بذلك دخل النار، ولا شك أن الإيمان بأن هنالك جنة وهناك نارًا في دار الجزاء أصل من أصول العقائد التي بعث النبيون لبيانها، حتى يعلم كل فرد من الناس ما سوف ينتظره في الحياة الآخرة، فلا يستطيع أن يدعي عدم علمه بذلك وقتئذ، وحتى يحذر المؤمنون فيعبدوا الله رغبة في ثوابه ورهبة من عقابه ويخلصوا في عبادته ولا يشركون بعبادة ربهم أحدًا، والدليل على أن المسيح أدى ما عليه من تبليغ كل هذا، قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة، الآية ٧٢].

ولقد ذكر الله لنا في القرآن الكريم أن كلاً من التوراة والإنجيل جاء فيه ذكر الجنة، كما جاء ذكرها فيما بعد في القرآن، وأنه جاء في هذه الكتب المنزلة أن الله تعالى وعد المقاتلين في سبيل الله جنة الخلد، وأنهم إذا فقدوا حياتهم في هذه الدنيا وأموالهم، فإنهم سيحيون الحياة الحقيقية في الجنة، وسينالون فيها ما لا يعد ما كان لهم في الدنيا شيئًا مذكورًا، وجاء هذا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾﴾ [التوبة، الآية ١١١]، بل ولقد ذكر المسيح الناس قبيل وفاته بكل ما يتعلق بيوم القيامة، والحساب والجنة والنار، وحذرهم من الخروج عن طاعة الله، وأكد لهم ما ذكره لهم طوال حياته معهم، ونعتقد أنه أخبرهم بما ذكره الله وأوحاه إليه من قبل موته: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [آل عمران، الآيات ٥٥ – ٥٧].

إن هذه الآيات الكريمة التي خاطب الله بها عيسىٰ رسوله عليه السلام، ليس من حق المسيح إخفاؤها عن قومه، فليس ما فيها خاص به وحده، بل إن ما فيها يخص المرسل إليهم جميعًا، إذ إنها حملت بين ثناياها عقائد الآخرة والحساب والثواب والعقاب، وخشية الله ورحمته، ولهذا نحن علىٰ يقين، كما قدمنا، أن المسيح تلا هذه الآيات باللغة التي كان يوحي الله بها إليه، إلىٰ قومه، بمجرد نزولها عليه.

• الوحي

وتشمل رسالة المسيح كذلك الإيمان بالوحي، فطبيعي أن يخبر المسيح قومه أنه يوحَىٰ إليه من عند الله، وأن التعاليم التي يبلغها لهم ليست من عنده[1]، إنما يوحىٰ بها إليه من ربه، وذكر الله المسيح في جملة من يوحىٰ إليهم من النبيين كما ذكرنا في الآية ١٦٣ سورة النساء.

• الإيمان بوجود الملائكة والجن

من جملة العقائد التي جاءت في رسالة المسيح، الإيمان بوجود الملائكة، وأنها مخلوقات خاصة لا تعصىٰ الله وإذا كلَّفها الله بأمر نفذته ومن غير تردد، والإيمان بوجود الجن، وأن العصاة منهم هم الشياطين، وأن الشياطين هي التي توسوس في صدور الناس.

أما ما جاء عن الملائكة في رسالة المسيح، فهو أنه هو نفسه كان البُشْرَىٰ التي بشرت بها الملائكة أمه مريم: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران، الآية ٤٥].

(١) مذكور في كتب النصارىٰ أن المسيح كان يقول لقومه: إن الكلام الذي يعظهم به، والأخبار التي يخبرهم عنها ليست من عنده؛ بل هي وحي من الله، فكان يقول لهم: وأنا إنسان قد كلمكم بالحق الذي سمعه من الله. (يوحنا ٨/ ٤٠)، ومثله قوله: والكلام الذي تسمعونه ليس لي بل الأب الذي أرسلني. (يوحنا ١٤/ ٢).

وأما ما جاء عن الشيطان في رسالة المسيح، فهو ما جاء في دعاء امرأة عمران أن يجنب الله ابنتها مريم وابن مريم وسوسة الشيطان، قال الله تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران، الآية ٣٦].

إن قصة امرأة عمران وولادتها وولادة المسيح عيسىٰ ابن مريم بما شملته من ذكر الملائكة والشيطان، لا بد وأن تكون موجودة في الإنجيل الذي أوتيه عيسىٰ، للعلم والعظة والاعتبار، وللإيمان ببعض ما جاء في هذه القصة من عقائد، ولا عجب أن تكون هذه القصة موجودة في الإنجيل، فإن القرآن الكريم نفسه يذكر أخبارًا عن النبي ﷺ وغزواته ونسائه وأصحابه وأنصاره، وغيره ذلك مما لا بد من وجوده في الكتاب الذي سيبقىٰ ليهدىٰ الأجيال كلها إلىٰ ما شاء الله.

والإيمان بوجود الملائكة عقيدة واجبة، إذ لولاها لما آمن أحد بالوحي، ولما آمن بمَلَكِ الموت وبالوظائف المختلفة التي يكلف الله الملائكة بأدائها، ولما آمن بقصة آدم عليه السلام وسجود الملائكة له.

وكذلك الإيمان بوجود الجن والشياطين، أمر ضروري لكل مسلم، فإن المسلم إذا آمن بما يقوم به الشيطان من تضليل ووسوسة كانت عنده فرصة للتزود بالطاعات التي تقوي عزيمته، وتمكِّنه من التغلب عليه، فإن المرء إذا عرف عدوه، أخذ حذره منه، وكان دائمًا علىٰ قدم الاستعداد لمقاومته والتخلص من مكايده وحِيَله وغواياته، والإيمان بوجود الشيطان واجب، ليكون المؤمن علىٰ علم بقصة الخلْق الأول، ونحن علىٰ يقين أنه ما من نبي أو رسول إلا وقد عرَّف قومه بقصة آدم وزوجه حواء وسجود الملائكة لآدم، وعصيان إبليس وتوعده الله بإضلال الناس أجمعين، إلَّا عباد الله المخلصين.

المبحث الثاني والعشرون
محمد رسول الله خاتم النبيين والمرسلين ﷺ

محمد ﷺ هو نبي الإسلام، ولد في مكة في عام ٥٧٠ م. وقد عاش يتيمًا، ورباه عمه الذي كان من قبيلة ذي شرف من قريش، وتربىٰ ونشأ وأصبح معروفًا لدىٰ قومه بالصدق والأمانة والكرم والإخلاص إلىٰ حد أنهم لقبوه بـ«الصادق الأمين»، وكان ﷺ تقيًّا ورعًا، أبغض الانحطاط والوثنية في مجتمعه. وفي سن الأربعين ولأول مرة ينزل الله سبحانه عليه الوحي عن طريق أمين الوحي جبريل عليه السلام وظل ينزل عليه الوحي لمدة ٢٣ عامًا، وهو المعروف بـ«القرآن».

وبمجرد أن بدأ يتلو آيات الله من القرآن ويدعو إلىٰ الحق الذي أوحاه الله إليه، وعانىٰ هو ومجموعة قليلة من متَّبعيه من الاضطهاد والتعذيب من المجتمع حولهم، وعندما زاد هذا الاضطهاد والتعذيب أمرهم الله عز وجل بالهجرة إلىٰ المدينة بعد أن اتخذت قريش قرارًا بقتل النبي صلىٰ الله عليه وسلم بطريقة شيطانية تؤدي إلىٰ تفرق دمه علىٰ القبائل مما يجعل المطالبة بدمه أمرًا مستحيلًا. حيث تقرر وقوف مجموعة من الرجال من مختلف القبائل العربية علىٰ بابه وعند خروجه يضربونه ضربة رجل واحد. ولكن الله سبحانه وتعالىٰ أنقذ نبيه من بينهم بعد أن أغشىٰ أبصارهم. فنثر النبي التراب علىٰ وجوههم، ثم أمر النبي صلىٰ الله عليه وسلم علي بن أبي طالب أن يبيت في بيته ليعمي علىٰ المشركين من ناحية وليعيد الأمانات إلىٰ أصحابها حيث كانت قريش تودع أماناتها عنده. ولم تكن هجرته صلىٰ الله عليه وسلم بلا مصاعب بل تكبد الكثير منها حتىٰ وصل إلىٰ يثرب. يقول تعالىٰ: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: ٤٠].

وعندما وصل النبي صلىٰ الله عليه وسلم إلىٰ يثرب حرص علىٰ بناء دولة جديدة وفق فكر جديد يختلف عما كان سائدًا. فكان دستور المدينة ذلك الدستور المدني الضامن للحقوق والحرّيات بين مختلف أطياف المجتمع الجديد. حيث كان الوضع الاجتماعي والسياسي في غاية البؤس. فمن الناحية الاجتماعية كان هناك المسلمون الوافدون الجدد من مكة المكرمة وهم المهاجرون بما فيهم النبي صلىٰ الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر. وهناك أيضًا المسلمون من أهل يثرب وهم الأنصار. كما كان هناك العرب الوثنيون في المدينة وهم ينتمون إلىٰ الكثير من القبائل العربية. ولم يقتصر الأمر علىٰ هذه الفئات الاجتماعية ، فكانت عناك فئات أخرىٰ غيرهم، فكانت خطوته الأولىٰ صلىٰ الله عليه وسلم في بناء هذه الدولة الجديدة، بعد أن بنىٰ مسجد قباء، إيواء المهاجرين الجدد بتأمين الحاجات المعيشية الضرورية لهم ولعوائلهم. ومن هنا نشأ نظام «المؤاخاة» الذي اشترك فيه ٤٥ أنصاريًّا و٤٥ مهاجرًا. ثم قام النبي صلىٰ الله عليه وسلم بكتابة وثيقة المدينة التي تعتبر أول دستور مدني في التاريخ. لقد جاءت هذه الوثيقة بهدف تنظيم العلاقة بين أطياف المجتمع من مهاجرين وأنصار وعرب مشركين ويهود. لقد تم بناء مجتمع جديد تذوب بين أطيافه الفوارق القبلية والدينية والعرقية وتجمعهم حقيقة الانتماء إلىٰ الدولة الجديدة وهو ما يمكن أن نسميه المواطنة. وبإبرام هذا الدستور – وإقرار جميع الفصائل بما فيه – صارت المدينة دولة وفاقية رئيسها الرسول – صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وصارت جميع الحقوق الإنسانية مكفولة، كحق حرية الاعتقاد وممارسة الشعائر، والمساواة والعدل... إلخ

وبالنظر إلىٰ بنود هذه الاتفاقية نجدها تؤسس لمبدأ مواطنة سليمة في عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة. ولعل أول ما يلفت النظر هنا استخدام مسمىٰ «أمة» لوصف بوتقة الانصهار المجتمعي هذه. فالمؤمنون والمسلمون أمة واحدة، ولليهود والنصارىٰ وغيرهم ملتهم ، «وأنه من تبعنا من اليهود فإن له النصر والأسوة». وهذا أمر لم تألفه البنية الاجتماعية العربية آنذاك حيث كان الأساس لتلك البنية

الاجتماعية رابطة الدم والقرابة (القبيلة). بل وحتىٰ بين يهود المدينة أنفسهم كان الأساس القبيلة علىٰ الرغم من رابطة الديانة اليهودية.

فجاء دستور المدينة الجديد ببنية مختلفة أساسها المواطنة. حيث قد يعتقد البعض أن دولة يترأسها النبي صلىٰ الله عليه وسلم صاحب الدين الخاتم للدين الإسلامي، والناسخ لما قبله كان يفترض أن تكون الرابطة الاجتماعية فيها فقط هي الرابطة الدينية. إلَّا أنّ كلّ هذا لم يحصل، إنما الذي حصل هو مشروعية التنوُّع والتعدُّد وكانت الرابطة هي رابطة المواطنة. يقول المستشرق كَيربيلي: «في بداية حقبة المدينة كانت سياسات النبي وحكمته قد طوّرت كلّ الوضع لصالحه، في وثيقةٍ قيِّمة وموثوقة لا تقبل الشكّ. وقد وصلتنا. وهي الوثيقة (charter) التي سنَّها محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع جميع سكان المدينة بعد مدّةٍ وجيزة من وصوله. وتنطوي هذه الوثيقة علىٰ أهمّية تاريخية وقانونية ولغوية، جعل فيها جميع سكّان المدينة (المؤمنون منهم والوثنيون واليهود) أمّة واحدة، وسعىٰ جاهدًا إلىٰ تنظيم العلاقات بينهم.

كما تنطوي هذه الاتفاقية علىٰ ما يؤطر علاقة الراعي بالرعية وكذلك تساوي جميع المواطنين في الحقوق بغض النظر عن العرق الذي ينتمون إليه أو الدين الذي يعتنقونه. حيث نجد اليهود في نواة هذه الدولة الجديدة يتمتعون بحقوق مساوية لحقوق المسلمين. حيث جاء في البند رقم (١٦) «وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنّ لَهُ النّصْرَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ.» فاليهود لهم حق النصرة وحق العدل. وهذا يدل علىٰ انتفاء الخلفية الدينية كنوع من التمايز بين المواطنين. وهو ما دعت إليه الدساتير الحديثة. وكما لكافة أطياف المجتمع حقوقهم المتساوية فإن عليهم نفس الحقوق التي يلزمهم بها مبدأ الانتماء إلىٰ هذا المجتمع الجديد. فقد جاء في البند (٣٨): «وَإِنّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ».

وتتميز المجتمعات الصحية لا سيما المعاصرة منها بحرية الديانة. فالمواطن الذي ينتمي إلىٰ مجتمع ما، له الحق في ممارسة شعائره الدينية بكل حرية. فلا يحق لأحد إجبار هذا المواطن علىٰ اعتناق دين آخر أو يمنعه من ممارسة شعائره الدينية.

ويمكن رؤية هذا في البنود والتي كفلت لليهود حرية الديانة في عاصمة الدولة الإسلامية الجديدة.

فليهود بَنِي عَوْفٍ ويهودِ بَنِي النّجّار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة الحق في ممارسة شعائرهم الد وطقوس مللهم كيفما يشاؤون دون إرغام على الدخول في الإسلام..

ثم يأتي دور المواطن في الحفاظ على بنية مجتمعه بعدم استيعاب المحدثين من أهل الفتنة أو نصرتهم. لما في ذلك من أضرار بالمجتمع ووحدته. وهذا ما نراه في البند (٢٢) الذي يقول: «وَإِنّهُ لَا يَحِلّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرّ بِمَا فِي هَذِهِ الصّحِيفَةِ وَآمَنَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ وَأَنّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللهِّ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ». كما أن المواطن بناء على هذه الوثيقة له الحق في النصرة عند تعرضه للظلم. حيث جاء في البند رقم (٣٧) «وَإِنّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ وَإِنّ النّصْرَ لِلْمَظْلُومِ».

مبادئ وثيقة المدينة(١)

اشتملت وثيقة المدينة على المبادئ التالية:

١- بسم الله الرحمن الرحيم: هَذَا كِتَابٌ مِنْ مُحَمّدٍ النّبِيّ، بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُسْلِمِينَ مِنْ قُرَيْشٍ وَيَثْرِبَ، وَمَنْ تَبِعَهُمْ فَلَحِقَ بِهِمْ وَجَاهَدَ مَعَهُمْ.

٢- إنّهُمْ أُمّةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ دُونِ النّاسِ.

٣- الْمُهَاجِرُونَ مِنْ قُرَيْشٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ.

٤- وَبَنُو عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمْ الْأُولَى، كُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

(١) الوثيقة النبوية والأحكام الشرعية المستفادة منها، رسالة ماجستير في العلوم الدينية والإسلامية، جاسم محمد راشد العيساوي، مكتبة الصحابة – الإمارات، الشارقة، ط ١، ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، ص ٧٠ -٧٥.

٥- وَبَنُو الْحَارِثِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٦- وَبَنُو سَاعِدَةَ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٧- وَبَنُو جُشَمٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٨- وَبَنُو النّجّارِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

٩- وَبَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

١٠- وَبَنُو النّبِيتِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

١١- وَبَنُو الْأَوْسِ عَلَى رِبْعَتِهِمْ يَتَعَاقَلُونَ مَعَاقِلَهُمُ الْأُولَى، وَكُلّ طَائِفَةٍ مِنْهُمْ تَفْدِي عَانِيَهَا بِالْمَعْرُوفِ وَالْقِسْطِ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ.

١٢- أ- وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ لَا يَتْرُكُونَ مُفْرَحًا بَيْنَهُمْ أَنْ يُعْطُوهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ

ب- وَأَنْ لَا يُحَالِفَ مُؤْمِنٌ مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ.

١٣- وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةَ ظُلْمٍ أَوْ إِثْمٍ أَوْ عُدْوَانٍ، أَوْ فَسَادٍ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِنّ أَيْدِيَهُمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا، وَلَوْ كَانَ وَلَدَ أَحَدِهِمْ.

١٤- وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ.

١٥- وَإِنّ ذِمّةَ اللّهِ وَاحِدَةٌ يُجِيرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ. وَإِنّ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ دُونَ النّاسِ.

١٦- وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعَنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأُسْوَةَ غَيْرَ مَظْلُومِينَ وَلَا مُتَنَاصَرِينَ عَلَيْهِمْ.

١٧- وَإِنَّ سِلْمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةٌ لَا يُسَالَمُ مُؤْمِنٌ دُونَ مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَىٰ سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ.

١٨- وَإِنَّ كُلَّ غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يُعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

١٩- وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ يُبِيءُ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

٢٠- أ- وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَىٰ أَحْسَنِ هُدًىٰ وَأَقْوَمِهِ.

ب- وَإِنَّهُ لَا يُجِيرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقُرَيْشٍ وَلَا نَفْسَهَا، وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَىٰ مُؤْمِنٍ.

٢١- وَإِنَّهُ مَنِ اعْتَبَطَ مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيِّنَةٍ فَإِنَّهُ قَوَدٌ بِهِ إِلَّا أَنْ يَرْضَىٰ وَلِيُّ الْمَقْتُولِ وَإِنَّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةٌ وَلَا يَحِلُّ لَهُمْ إِلَّا قِيَامٌ عَلَيْهِ.

٢٢- وَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقَرَّ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَآمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحْدِثًا وَلَا يُؤْوِيهِ وَأَنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةَ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلَا عَدْلٌ.

٢٣- وَإِنَّكُمْ مَهْمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَىٰ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَىٰ مُحَمَّدٍ

٢٤- وَإِنَّ الْيَهُودَ يُنْفِقُونَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا مُحَارَبِينَ.

٢٥- وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ وَلِلْمُسْلِمَيْنِ دِينُهُمْ مَوَالِيهِمْ وَأَنْفُسُهُمْ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

٢٦- وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْف.

٢٧- وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

٢٨- وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي سَاعِدَةَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

٢٩- وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمٍ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ.

٣٠- وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْف.

٣١- وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ فَإِنَّهُ لَا يُوتِغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

٣٢- وَإِنَّ جَفْنَةَ بَطْنٌ مِنْ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ.

٣٣- وَإِنَّ لِبَنِي الشَّطِيبَةِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ.

٣٤- وَإِنَّ مَوَالِيَ ثَعْلَبَةَ كَأَنْفُسِهِمْ.

٣٥- وَإِنَّ بِطَانَةَ يَهُودَ كَأَنْفُسِهِمْ.

٣٦- أ- وَإِنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِ مُحَمَّدٍ.

ب - وَإِنَّهُ لَا يُنْحَجَزُ عَلَىٰ ثَأْرِ جُرْحٌ وَإِنَّهُ مَنْ فَتَكَ فَبِنَفْسِهِ فَتَكَ وَأَهْلِ بَيْتِهِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَبَرِّ هَذَا.

٣٧- أ- وَإِنَّ عَلَىٰ الْيَهُودِ نَفَقَتَهُمْ وَالنَّصِيحَةَ وَالْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ.

ب- وَإِنَّهُ لَمْ يَأْثَمْ امْرُؤٌ بِحَلِيفِهِ وَإِنَّ النَّصْرَ لِلْمَظْلُومِ.

٣٨- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٣٩- وَإِنَّ يَثْرِبَ حَرَامٌ جَوْفُهَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ.

٤٠- وَإِنَّ الْجَارَ كَالنَّفْسِ غَيْرَ مُضَارٍّ وَلَا آثِمٌ.

٤١- وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ حُرْمَةٌ إِلَّا بِإِذْنِ أَهْلِهَا.

٤٢- وَإِنَّهُ مَا كَانَ بَيْنَ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ مِنْ حَدَثٍ أَوْ اشْتِجَارٍ يُخَافُ فَسَادُهُ فَإِنَّ مَرَدَّهُ إِلَىٰ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَإِلَىٰ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ.

٤٣- وَإِنَّهُ لَا تُجَارُ قُرَيْشٌ وَلَا مَنْ نَصَرَهَا.

٤٤- وَإِنَّ بَيْنَهُمْ النَّصْرَ عَلَىٰ مَنْ دَهَمَ يَثْرِبَ،

٤٥ - أ- وَإِذَا دُعُوا إِلَىٰ صُلْحٍ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ فَإِنَّهُمْ يُصَالِحُونَهُ وَيَلْبَسُونَهُ وَإِنَّهُمْ إِذَا دُعُوا إِلَىٰ مِثْلِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ لَهُمْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا مَنْ حَارَبَ فِي الدِّينِ.

ب - عَلَىٰ كُلِّ أُنَاسٍ حِصَّتُهُمْ مِنْ جَانِبِهِمْ الَّذِي قِبَلَهُمْ.

٤٦ - وَإِنَّ يَهُودَ الْأَوْسِ، مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ مَا لِأَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ. مَعَ الْبِرِّ الْمَحْضِ؟ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصَّحِيفَةِ- وَإِنَّ الْبِرَّ دُونَ الْإِثْمِ لَا يَكْسِبُ كَاسِبٌ إِلَّا عَلَىٰ نَفْسِهِ وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ أَصْدَقِ مَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَبَرِّهِ.

٤٧ - وَإِنَّهُ لَا يَحُولُ هَذَا الْكِتَابُ دُونَ ظَالِمٍ وَآثِمٍ - وَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ آمِنٌ وَمَنْ قَعَدَ آمِنٌ بِالْمَدِينَةِ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ أَوْ أَثِمَ وَإِنَّ اللَّهَ جَارٌ لِمَنْ بَرَّ وَاتَّقَىٰ، وَمُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ صلىٰ الله عليه وسلم.

وبعد سنوات عدة عاد محمد ﷺ هو وأصحابه إلىٰ مكة، وفيها سامح رسول الله ﷺ أعداءه الذين اضطهدوهم وعذبوهم من قبل. وقبل وفاته ﷺ في عمر ٦٣ عامًا، أصبح معظم شبه الجزيرة العربية مسلمين وخلال قرن واحد بعد وفاة النبي ﷺ انتشر الإسلام من إسبانيا في الغرب وحتىٰ الشرق الأقصىٰ في الصين، ومن بين أسباب هذا الانتشار السريع والسلمي للإسلام: الحقيقة والوضوح لشريعته وعقيدته.

وقد كان النبي محمد ﷺ قدوة ومثلًا أعلىٰ في الكرم والعدل والرحمة والصدق والأمانة والشجاعة، وبالرغم من أنه كان بشرًا إلا أنَّه كان معصومًا من جميع الأخطاء والآثام، وأنه كان يتقىٰ الله ﷻ ليجزيه الله خير الجزاء في الآخرة. علاوة علىٰ ذلك فإنه في جميع أفعاله وتعاملاته كان يخاف الله ويتقيه.

وفي القرآن الكريم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧٠ ﴾ [النساء، الآية ١٧٠].

• نسبه وزمنه[١]: أجمع النسابون علىٰ أن محمدًا رسول الله ﷺ هو ابن عبد الله بن عبد المطلب[٢] بن هاشم[٣] بن عبد مناف[٤] بن قصي[٥] بن كلاب[٦] بن مرة[٧] بن كعب[٨] بن لؤي بن غالب بن فهر[٩] بن مالك[١٠] بن النضر[١١] بن كنانة بن خزيمة بن مُدْركة بن إلياس بن نزار بن معد[١٢] بن عدنان.

---

(١) تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي ص ٣١٩.

(٢) عبد المطلب: اسمه شيبة، وكانت له السيادة في قريش، وصارت إليه السقاية والرفادة بعد عمه عبد المطلب، وهو الذي جدد حفر زمزم، بعد أن كانت مطمورة في عهد جدهم، وهو أول من زيّن أبواب الكعبة بالذهب وعاش مائة وأربعين سنة.

(٣) هاشم: اسمه «عمرو»، وهو أول من سنّ رحلتي الشتاء والصيف إلىٰ الشام واليمن، وهاتان الرحلتان هما اللتان ذكرهما الله تعالىٰ فِيٰ قوله: (لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ * إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ) [سورة قريش، الآيات ١-٤]

(٤) مناف: اسم الصنم الذي يقال له «مناة»، والذي جاء ذكره فِيٰ قوله تعالىٰ: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ * أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ * تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ) [سورة النجم، الآيات ١٩-٢٢]، وعبد مناف: اسمه «المغيرة».

(٥) قصي: اسمه «زيد»، هو الذي أسس دار الندوة، وكانت إليه الرفادة والسدانة والحجابة واللواء، وهو الذي سن السقاية، وهو أول من أحدث وقيد النار بالمزدلفة ليهتدي إليها من يأتي إليها من عرفات، وأول من أحدث الرفادة، وهي إطعام الحجيج أيام موسم الحج إلىٰ أن يخرجوا راجعين إلىٰ بلادهم، وفرض علىٰ قومه ذلك ونهىٰ عن الخمر قبل موته.

(٦) كلاب: اسمه «ابن حكيم»، وهو جد أم رسول الله ﷺ، فهي آمنه بنت وهب بن عبد مناف ابن زهرة بن مرة، فهو ملتقىٰ نسب أبىٰ الرسول الكريم ﷺ بنسب أمه، وقيل: إنه أول من سمىٰ الأشهر العربية المستعملة الآن.

(٧) مرة: كنيته» أبو يقظة «، وهو الجد السادس لرسول الله ﷺ والجد السادس أيضًا لأبي بكر الصديق ﷺ.

(٨) كعب: كنيته» أبو هصيص»، وهو الجد الثامن لعمر بن الخطاب t، وكان بين موت كعب ومبعث النبي ﷺ خمسمائة عام وستون.

(٩) مهر: اسمه» قريش» وإليه تنسب قريش.

(١٠) مالك: كنيته « أبو الحارث»..

(١١) النضر اسمه: «قيس».

(١٢) معد: كان في زمن بُخْتنصَّر، وكان عمره وقت ذاك اثنتي عشر سنة، وقيل: لما غزا بختنصر بلاد العرب حمل إرميا معدًّا معه إلىٰ الشام.

أما نسب الرسول الكريمﷺ من عدنان إلىٰ إسماعيلعَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فيختلف فيه المؤرخون، فقيل: إن عدنان هو ابن أدد بن مقوم بن ناحور بن تيرح ابن يعرب بن يشجب بن ثابت بن إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

وقيل: إن عدنان بن ميدع بن متبع بن أدد بن كعب بن يشجب بن يعرب بن الهَمَيْسع بن قَيْدار بن إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ.

وروىٰ ابن سعد سلسلة من النسب بين عدنان وقيدار تحمل ثمانية وثلاثين اسمًا وهو النسب الأقرب -في رأينا- إلىٰ الصواب، هذا إذا اعتبرنا معدًّا معاصرًا لإرمياء بن حلقي، إذ قد تتسع سلسلة النسب حينئذ للزمن الذي يمتد بين إسماعيل ومعد، وهذا النسب حسب قول ابن سعد هو: معد بن عدنان بن أدد بن الهميسع بن سلامان بن عوص بن يوز بن قموال بن أبىٰ بن العوام ابن ناشد بن حزا بن بلداس بن تدلاف بن طابخ بن جاحم بن ناحش بن ماخي بن عبقىٰ بن عبقر بن عبيد بن الدعا بن حمدان بن سنبر بن يثربىٰ بن نحزن بن يلحن بن أرعوىٰ بن عيفىٰ بن ديشان بن عيسر بن أقنان بن أيهام بن مقصىٰ بن ناحث بن زارح بن شمىٰ بن مزىٰ بن عوص بن عرام بن قيذر بن إسماعيل بن إبراهيم.

وروىٰ ابن سعد عن محمد بن سعد قال: ولم نجد بينهم اختلافًا أن معدًّا من ولد قيذر بن إسماعيل[١].

وجاء في كتاب اليهود أن إسماعيل ولد اثني عشر ولدًا من بينهم: «قيدار»[٢]، وجاء فيه كذلك أن قيدار سكن في البرية: أي في شبه جزيرة العرب وذكروا أن أشعياء[٣] تنبأ منذ أكثر من سبعمائة سنة قبل الميلاد أن هذه البرية التي سكنها قيدار سيكون لها شأن عظيم، وسيخرج منها رسول محارب ينصره الله ويقويه علىٰ

(١) الطبقات الكبرىٰ، (١/ ٥٥-٥٩) وغيره.

(٢) (تكوين ٢٥/ ١٢-١٦

(٣) أشعياء: يعده اليهود من أنبياء بني إسرائيل، ويؤمن بذلك كذلك كثير من المسلمين ظهرت دعوته في أورشليم من سنة (٧٥٩ق.م) إلىٰ سنة (٧٠٠ق.م) وقتل منشورًا.

أعدائه، فأن صحت نبوة أشعياء بن آموص، وصح ما جاء فيها، فإن المراد التبشير بقدومه وفرح سكان البرية به، هو محمد رسول الله ﷺ.

أما الأغنية الجديدة فالمراد منها الشريعة الجديدة، ولا ينطبق هذا القول على رسالة عيسى، فإن عيسى عليه السلام جاءت شريعته على نهج شريعة موسى عليه السلام، وهو ما قيل: إنه جاء على لسانه أنه قال: «لا تحسبوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقص بل جئت أكمل[1]». أما شريعة خاتم النبيين ﷺ فشريعة جديدة قائمة بذاتها.

وقد رأينا أن قيدار هو ابن إسماعيل، وإسماعيل نشأ في جزيرة العرب وكذلك ابنه قيدار.

وأما قوله: (لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال)، فهو إشارة إلى المدينة المنورة، التي بدأت منها حروب رسول الله ﷺ عندما هاجر إليها، وجبل سالع هو جبل سلع من جبال المدينة، يبعد عن المدينة نحو خمس دقائق، وفي سفحه الغربي كهف بني حرام الذي كان مبيت الرسول الكريم ﷺ، وإلى شمال هذا الكهف في سفح الجبل أيضًا مسجد الفتح، وهو مقام على الموضع الذي دعا فيه رسول الله ﷺ على الأحزاب في غزوة الخندق.

أما حروب الرسول ﷺ وانتصاراته على أعدائه فقد بينها الله تعالى في القرآن الكريم، وكتبت تفاصيلها في كتب السيرة النبوية، والمعروف أن عيسى ابن مريم عليه السلام لم يحارب قط كما هو معروف.

وليس هنالك أمة عظيمة أوجدها الله من ذرية إسماعيل إلَّا أمة محمد ﷺ التي ذكرتها البشارة التي جاءت في كتب اليهود، فقد ذكروا أن الله تعالى قال لإبراهيم: إن إسماعيل ابنه من هاجر سيكون أمة عظيمة كما جاء في (سفر التكوين): فقال الله لإبراهيم لا يقبح في عينيك من أجل الغلام - أي إسماعيل - ومن أجل جاريتك - أي هاجر - في كل ما تقول لك سارة اسمع لقولها، لأنه بإسحاق يدعى لك نسل،

(١) متى ٥ / ١٧.

وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك [١] وقالوا: ونادىٰ ملاك الله هاجر من السماء، وقال لها: مالك يا هاجر لا تخفين لأن الله قد سمع لصوت الغلام – أي إسماعيل – حيث هو، قومي احملي الغلام، وشدي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة.

فإذا جاز لنا أن نأخذ بمثل ما تقدم من كتب اليهود، كانت نسبة محمد ﷺ إلىٰ إسماعيل عليه السلام صحيحة علىٰ هذا الوجه كذلك، فيكون محمد ﷺ من ولد قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ .

وجاء في كتب السنة أن واثلة بن الأسقع قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله اصطفىٰ كنانة من ولد إسماعيل، واصطفىٰ قريشًا من كنانة، واصطفىٰ من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم» [٢].

وتيسيرًا علىٰ القارئ نعرض عليه هنا سلسلة نسب النبي ﷺ علىٰ وجه يستطيع منه أن يأخذ فكرة عن الزمن الذي وجد فيه أجداد النبي ﷺ، وسنعرض بعض العلاقات الزمنية بين سلسلة نسب الرسول الكريم ﷺ، وبين بعض الرسل والنبيين الذين عاصروا أجداد النبي ﷺ ما وسعنا ذلك، وسنقسم سلسلة نسب النبي ﷺ إلىٰ ثلاثة أجزاء: الجزء الأول: سلسة النسب بين إبراهيم ومعد، والسلسلة الثانية: بين معد وكعب، والسلسلة الثالثة: بين كعب وخاتم النبيين ﷺ.

ولد الرسول الكريم ﷺ في ٢٠ أبريل سنة ٥٧١م في صبيحة يوم الاثنين التاسع من شهر ربيع الأول، حسب ما تذكره المصادر الإسلامية، ونحو ٥٧٠م حسب المصادر الأخرىٰ، وهو عام الفيل الذي غزا فيه أبرهة وجيشه بيت الله الحرام.

فلما تم له أربعون سنة جاءه جبريل عليه السلام بالنبوة، وذلك في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده، فيكون عمره إذ ذاك أربعين سنة قمرية، وستة أشهر، وثمانية أيام، ذلك يوافق ٦ أغسطس سنة ٦١٠ وهو بغار حراء.

---

(١) (تكوين ٢١/ ١٣، ١٢).

(٢) صحيح مسلم ٤ / ١٧٨٢، حديث رقم . وراجع سنن الترمذي، ٦/ ٥، حديث رقم .

وكانت هجرته إلى يثرب في ١٦ ربيع الأول (٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢م)، وانتقل إلى جوار ربه في يوم الاثنين ١٣ ربيع الأول سنة ١١ هجرية (٨يونية سنة ٦٣٢م) وهو في الثالثة والستين من عمره، بعد أن بلغ الرسالة، وأدى الأمانة على أحسن الوجوه وأكملها[١].

• من عقائد الناس عند بعثة خاتم النبيين ﷺ

أرسل الله محمدًا رسول الله ﷺ في بلاد العرب، وقد كانت وقتئذ تموج بمختلف العقائد، وشتى الملل، كانت تتمثل في بلاد العرب جميع الملل المنتشرة في العالم على اختلاف صورها، وتعدد طقوسها ومعتقدات أهلها، وكانت تتركز جميع هذه الملل في مكة لتوسطها بين الشام واليمن، يمر بها المسافر من الشام إلى أقصى الجنوب إلى الشمال، ويتخذها الجميع مكانًا يتزودون منه بالماء الذي ينبع من زمزم أثناء سفرهم.

وكانت قوافل قريش تجوب البلاد كذلك طولًا وعرضًا، يحثها على ذلك فقر البلاد، وعدم توافر الغذاء فيها أو الماء، وكان القرشيون على غاية كبيرة من النشاط والصبر على التجوال، فوصلوا إلى غزة، وبيت المقدس ودمشق، وعبروا البحر الأحمر إلى بلاد الحبشة، وكان ميناء جدة يبعد عن مكة بنحو أربعين ميلًا، واسطة التجارة بينها وبين الحبشة الغنية بالتوابل، وكانت إبل قريش تحمل من أسواق صنعاء، ومن مواني عمان واليمن الطيب والبخور الذي كان يكثر استعماله في المعابد والكنائس والقصور في البلاد الواقعة في حوض البحر المتوسط، وكذلك المنسوجات الحريرية والجلد والأسلحة، وكانت تشترى من أسواق بُصّرَى ودمشق القمح والمصنوعات وزيت الزيتون والحبوب، ومن مصر المنسوجات التي كانت تسمى بالقَبَاطي، وكانت ترد إلى مواني بلاد اليمن من الهند والصين وغيرها من ضروب التجارة.

ولم يكن العرب منعزلين عن العالم المحيط بهم، كما قد يتبادر إلى الذهن، بل

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي، حسن إبراهيم حسن، ١٢٤ – ١٩١.

لقد ساعدتهم ظروفهم على الاتصال بمصر والحبشة والشام، والاتصال بالفرس والروم، ومعرفة شيء عن مللهم ومعتقداتهم، وكان القرشيون قد اعتادوا السفر إلى الشام في الصيف وإلى اليمن في الشتاء، وكان بنو عبد مناف الأربعة، يتوجهون للتجارة إلى مختلف البلاد، فكان هاشم يتوجه إلى الشام، وعبد شمس إلى الحبشة، وعبد المطلب إلى اليمن، ونوفل إلى بلاد الفرس، وكانوا في رحلاتهم هذه آمنين على أنفسهم، وكانوا حريصين على أخذ أمان من الملوك الذين ينزلون إلى أراضيهم.

إن هذه التنقلات وهذه الرحلات ساعدت -كما قدمنا- على تبادل الأفكار بين العرب وبين سكان مختلف البلاد، وفتحت مجالًا للمجادلات الدينية، وكان كل فرد يحاول أن يقنع الآخر بمعتقداته الخاصة، وكان كُلُّ رئيسِ فرقةٍ من الفرق الدينية المختلفة يبذل ما استطاع من جهد ليضم أكبر عدد ممكن من الناس إلى فرقته، ليقوى سلطانه، وليتمكن من الحصول على أوفر نصيب من المال بحجة التقرب إلى معبوده، ونوال الحظوة عنده، وبحجة بناء المعابد أو ترميمها أو إطعام الفقراء، أو غير ذلك مما يتقنه الرؤساء الدينيون لابتزاز الأموال، كما كانت اليهود تفعل من قبل، فجزاهم الله بتحريم بعض الطيبات عليهم.

قال تعالى: ﴿ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ ﴾ [النساء، الآيتان ١٦٠ - ١٦١].

١- الدهريون

لقد جاء رسول الله ﷺ في جزيرة العرب، وفيها الذين ينكرون الخالق إنكارًا تامًّا وينكرون البعث، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الجاثية، الآية ٢٤].

لقد كانوا يقولون ذلك لرسول الله ﷺ، وهو القول نفسه الذي كانت تردده الأفراد من عاد قوم هود، ومن ثمود قوم صالح عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ، فكانوا يقولون:

﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [المؤمنون، الآيات ٣٥ - ٣٧].

٢- الوثنيون

كما كان قوم نوح عليه السلام يعبدون الأصنام، ويزعمون أنها شفعاؤهم في الآخرة فشادوا لها الهيكل، وسموها بأسماء خاصة، كودٍّ وسُواع ويغوث ويغوق ونَسْر، كما بينا عند الكلام عن قوم نوح، فكذلك أرسل الرسول الكريم ﷺ، وكان في البلاد العربية من يعبد مثل تلك الأصنام مثل: «اللات»، وهي من أقدم أصنامهم، تمثل الزُّهَرة، وهي من الأصنام الأنثوية لها صورة امرأة، وكانت مصنوعة من حجر أسود تعبدها ثقيف في الطائف، وكانت بنو ثقيف حُجَّابَها

ومن تلك الأصنام «العُزَّى»، وكانت صنمًا بصورة امرأة، وقيل: بصورة نخلة، يعبده قريش، وبنو كنانة، وكان حُجَّابُها بني شيبة، ومن تلك الأصنام كذلك «مناة»، وكان يعبدها هذيل وخزاعة، بين مكة والمدينة، وقد قال الله تعالى في هذه الأصنام: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ اللَّتَ وَالْعُزَّى ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النجم، الآيات ١٩ - ٢٢].

ومنها: «هُبَل»، كان صنمًا لعمرو بن سبأ ملك الحجاز، وكان أكبر أصنامهم، ويسمونه الصنم الأكبر، وكان منصوبًا فوق الكعبة، ومصنوعًا من نُحاس، وقيل: من قوارير: أي زجاج، على هيئة رجل ضخم، وكانوا يذبحون له، ويستخيرونه في أسفارهم وحروبهم وسائر أعمالهم اليومية العادية.

ومنها: «إساف ونائلة»، وهما صنمان؛ الأول على صورة رجل، والثاني على صورة امرأة جَلَبهما عمرو بن لُحَيٍّ من البلقاء بالشام فوضعهما على بئر زمزم بالكعبة، ثم وضع أحدهما على الصفا، والآخر على المروة.

ومنها: (كثرى) لطسم وجديس، و(تيم) لبنى تميم، و(ذو الشرى) للأوس

والخزرج، و(الباجر) لبني أزد، و(الجهار) لهوازن، و(أوال) لبني بكر وتغلب، و(المحرق) لبني بكر بن وائل، و(سعد)، وكان صخرة كبيرة قائمة في فلاة فسيحة لبني ملكان بن كنانة و(ذو الخلصة) لخثعم ودوس بتبالة، ولقد روىٰ أن المسلمين أخرجوا من البيت الحرام (٣٦٠صنمًا) حين فتحوا مكة في السنة الثامنة للهجرة.

قال الشَّهْرَسْتاني: إن أول من جعل الأصنام في الكعبة وعبدها، فأطاعته العرب، واستمروا علىٰ عبادتها إلىٰ مجيء الإسلام، وعمرو بن لحيٍّ من ولد كهلان بن سبأ، كان ملك الحجاز، وإليه تنسب خزاعة، قيل: إنه سار يومًا إلىٰ البلقاء من أراضي الشام، فرأىٰ قومًا يعبدون الأصنام، فسألهم عنها، نستنصر بها فننتصر، ونستسقىٰ بها فنسقىٰ، فأعجبه ذلك، وطلب منهم صنمًا من أصنامهم، فدفعوا إليه (هُبَل) فسار به إلىٰ مكة، ووضعه علىٰ الكعبة.

والظاهر أن العرب اقتبسوا عبادة الأوثان ممن جاورهم من الأمم كالكَلْدانيين، والفينيقيين وقدماء المصريين، وغيرهم، وقد ضلوا كما ضلت الأمم من قبلهم منذ عهد قوم نوح وقوم إبراهيم وبني إسرائيل مما بيناه بالتفصيل من قبل.

وكانت عبادة الكواكب والنجوم منتشرة انتشارًا كبيرًا عند العرب، فكانوا يعبدون الشمس والقمر، وعُطارد، والزُّهرة، والشِّعرىٰ، والمُشْتَري، والمرِّيخ، وزُحل، وسهل، والدَّبران وغيرها.

لقد ساروا علىٰ سنن من كان قبلهم من الأمم الضالة كقوم إبراهيم وموسىٰ عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ اللذين أنزل في صحفهم: ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝٤٩﴾ [النجم، الآية ٤٩]، وكأهل سبأ وغيرهم، أنزل الله علىٰ رسوله الكريم ﷺ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ۝٣٧﴾ [فصلت، الآية ٣٧].

وقال: ﴿. . . وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف، الآية ٥٤].

وروي أن العرب كانوا يقدمون القرابين لآلهتهم، ويسرون في مواكب حول معابدهم، وكان المنذر بن ماء السماء (٥٠٥-٥٥٤م) في الحِيرة، يقدم كثيرًا من أسرىٰ المسيحيين تكريمًا للسيار فينوس venus (الزُّهَرة)، كما كان يقدم عرب شبه جزيرة سيناء القرابين البشرية لهذا السيار نفسه، وقد سبقهم الإسرائيليون منذ عهد بعيد إلىٰ مثل ذلك، ومن المحتمل أن يكون لاتصال العرب الشديد بالمسيحيين وأهل الملل الأخرىٰ أثر كبير في إحياء الحماس الديني، وقد تلاشت تلك القرابين البشرية في عهد محمد رسول الله ﷺ[1] في جزيرة العرب.

٣- المجوس

كانت المجوسية كذلك موجودة في جزيرة العرب، ومنهم زُرارة بن عدي، وابنه علي الذي تزوج بابنته حسب إباحة ذلك في دين المجوس.

والمجوس أتباع زَرادُشْت، وهو رجل من أهل أذْرِبيجان، ولد سنة (٦٦٠ق. م)، وادعىٰ النبوة، فآمن به بشتاسف، وأظهر أسبنديار بن بشتاسف دين زرادشت فىٰ العالم، ويؤمن بأن الذي خلق الخير هو أهورا مزدا، وأن الذي خلق الشر هو أهرمان، وكتابه الذي يضم تعاليمه يسمىٰ (الأفيستا)، وكان يحارب عبادة الأوثان ويسمىٰ نفسه (نبي الإله الواحد)، ويقول: إن (أهورامزدا) هو الإله الأعظم، وهو أزلي قديم، مجرد من جميع شوائب المادة منزَّه عن كل أدران النقص، لم يولد ولن يموت، وهو روح الأرواح، يرىٰ ولا ينظر، ولا تدركه عين أو بصر، وهو موجود في كل مكان، ولكنه لا يرىٰ في أي مكان، وهو يعلم الحاضر والمستقبل، ويعلم الغيب، ويدرك دخائل النفوس، وهو قدير علىٰ كل شيء لا يسمو عليه شيء قط، وهو مُعينٌ من لامُعينَ له، وراعىٰ الفقراء والأغنياء علىٰ حد سواء. . . ورمز إلىٰ أهورامزدا برمزين ماديين هما الشمس والنار.

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي ص ٨٥.

ويقول الزرادشتيون: إنهم يقدسون النار ولا يعبدونها؛ لأنها مقدسة كرمز[١]، وقد انقسمت المجوس إلىٰ فرق كثيرة لكل منها معتقدات تتميز بها علىٰ الأخرىٰ.

ويقول أبو حامد الزَّوْزَنى: إن المجوس زعمت أن إبليس كان لم يزل في الظلمة والجو الخلاء بمعزل عن سلطان الله، ثم لم يزل يزحف ويقرب بحيلة حتىٰ رأىٰ النور، فوثب وثبت، فصار في سلطان الله في النور، وأدخل معه هذه الآفات والشرور، وخلق الله هذا العالم شبكة له، فوقع عيها، وصار متعلقًا بها لا يمكنه الرجوع إلىٰ سلطانه، فهو محبوس في هذا العالم، مضطرب في الحبس، يرمىٰ بالآفات والمحن والفتن إلىٰ خلق الله، فمن أحياه الله، رماه بالموت، ومن أصحَّه رماه بالسقم، ومن سره رماه بالحزن، فلا يزال كذلك إلىٰ يوم القيامة، وكل يوم ينقص سلطانه حتىٰ لا يبقىٰ له قوة، فإذا كانت القيامة ذهب سلطانه، وخمدت نيرانه، وزالت قوته، واضمحلَّت قدرته، فيطرحه في الجو ظلمة ليس له حد ولا منتهىٰ، ثم يجمع الله أهل الملل فيحاسبهم ويجازيهم علىٰ طاعة الشيطان وعصيان الإله الواحد[٢].

٤- اليهودية

كانت اليهودية في زمن الرسول الكريمﷺ في بني نمير، وبني كنانة، وبني الحارث بن كعب، وبني كندة.

ويقال: إن الذي أدخل اليهودية بين العرب زرعة بن كعب بن حسان أحد ملوك اليمن، الملقب بذي نواس الحميري، وكان اسمه يوسف، وقد تهودت معه أناس كثيرون، في أواخر القرن الخامس للميلاد، ودعا أهل نجران ليتحولوا عن النصرانية إلىٰ اليهودية فأبوا، فحفر لهم أخدودًا وجعل فيه نارًا، وألقىٰ فيه من ظفر به منهم، ونرىٰ أن اليهود نزحوا من أورشليم وفلسطين إلىٰ الجنوب فرارًا من غزوات نبوخذ ناصر، وفرارًا من بطشه وتنكيله بهم، ومن البلاد التي استعمروها يثرب،

---

(١) قصة العقائد بين السماء والأرض، (ص٢٤٠، ٢٧٢، ٢٧٣)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص٨٦).

(٢) الملل والنحل ٦١، ٦٢.

مدينة رسول الله ﷺ، وكان يهود يثرب ثلاث قبائل: بنو النضير، وبنو قينقاع، وبنو قريظة.

ومن البلاد التي استعمروها كذلك تَيْماءُ، وفدلك، وخَيْبر، ووادي القُرىٰ[1] وكانت اليهود فقدت التوراة التي أنزلت علىٰ موسىٰ عليه السلام منذ حرق بُخْتنَصَّر الهيكل الذي قالوا: إن الله أمر موسىٰ أن يحفظها فيه[2]، وبعد حرق أورشليم وسَبْي اليهود إلىٰ بابل، كما قدمنا، فقدت اليهود سندها الأصلي الذي كانت ترجع إليه، فضلوا سواء السبيل، ولكن الله أرسل إليهم أنبياءه ليهدوهم إلىٰ شريعة موسىٰ، ويردوهم إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، فلقي أنبياؤهم منهم كل معارضة وإعراض، ولقد رأينا كيف عبدوا البعل، ملوكهم وأحبارهم وعامتهم من قبل، وكيف لاقىٰ منهم إلياس عليه السلام أشد الصعاب في محاولة ردهم إلىٰ الله تعالىٰ والإيمان به، ثم كيف استمرت فيهم عبادة البعل بعد موت إلياس، وكان الشَّعب لا يزالون يذبحون ويوقدون علىٰ المرتفعات[3]، فأرسل الله إليهم اليسع عليه السلام ليردهم كذلك إلىٰ الله وطرح عبادة التماثيل والأوثان.

٥- المسيحية

كانت المسيحية منتشرة في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال، وفي بلاد اليمن في الجنوب، وهم أهل كتاب، وكانت كذلك في ربيعة وتنوخ وحمير وبهرا وبعض طيِّئ وعرب الحِيرة الذين تنصروا مع ملكهم النعمان بن المنذر، وجاءت النصرانية من الجنوب عن طريق الحبشة، ومن الشمال عن طريق سوريا وشبه

(١) فجر الإسلام ٢٧.

(٢) قالوا: إن الله قال لموسىٰ: فاكتب علىٰ اللوحين الكلمات التي كانت علىٰ اللوحين الأولين اللذين كسرتهما وتضعهما في التابوت. (تثنية ١٠/ ٢)، وذكروا أن موسىٰ قال: ثم انصرفت ونزلت من الجبل ووضعت اللوحين في التابوت الذي ينعت فكانا هناك كما أمرني الرب. (تثنية ١٠/ ٥). ولم يكن لأحد من اليهود أن يحصل علىٰ التوراة، فقد كان الموكل بها أحد من سبط لاوي، قالوا: في ذلك الوقت أفرز الرب سبط لاوي ليحملوا تابوت عهد الرب، ولكي يقفوا أمام الرب ليخدموه ويباركوا باسمه إلىٰ هذا اليوم. (تثنية ١٠/ ٨).

(٣) ملوك الثاني (١٤/ ٤).

جزيرة سيناء الآهلة بالأديرة والصوامع [١]، وكان لأباطرة الرومان في القرن الرابع الميلادي دور ملحوظ في دخول النصرانية إلى شبه الجزيرة.

وكانت نَجْرانُ أهمَّ موطن للنصرانية في جزيرة العرب، وكان ذو نواس قد قتل أهلها كما ذكرنا من قبل، ولكنهم استنجدوا بالحبشة فأنجدوهم، وهزموا ذا نواس سنة (٥٢٥م)، وقيل: كان بنجران كعبة بناها بنو عبد المدان بن الديان الحارثي على بناء الكعبة وعظموها مضاهاة للكعبة، وسموها كعبة نجران، وكان فيها أساقفة مُعْتمون.

وكانت النصرانية قد انقسمت إلى جملة فرق تسرب منها إلى جزيرة العرب فرقتان كبيرتان، النَّساطرة واليعاقبة، فكانت النَّسْطورية منتشرة في الحيرة، واليعقوبية في غسان وسائر قبائل الشام، كذلك كانت هناك صوامع في وادي القرى [٢].

أما النَّساطرة فيسمون باسم نسطور بَطْرِيَرْق القسطنطينية، ويعتقدون أن مريم ولدت الإنسان: أي جسم المسيح، ولم تلد الإله: أي المسيح نفسه، وأن الله ولد الإله (المسيح).

ولم يلد الإنسان، واليعاقبة يقولون: إن روح الله اختلط ببدن عيسى اختلاط الماء باللبن، وأن المسيح هو الله تعالى نفسه.

• العقائد الإسلامية [٣]

هكذا جاءت رسالة خاتم النبيين ﷺ في هذا الزمن الذي تتلاطم فيه أفكار أهله في بحر خِضَمٍّ من العقائد الباطلة المختلفة المتزاحمة المتخبطة في دياجير من الأوهام والظنون والأحلام.

بعث الله رسوله الكريم ﷺ في هذا الوقت الذي آن فيه أن تنقذ البشرية من الهاوية السَّحيقة التي تردت فيها وماجت في دُجّناتها، وأن تمتد إليها يد الرحمة لترفعها إلى

(١) تاريخ الإسلام السياسي ٨٦.

(٢) فجر الإسلام ص٢٩، ٣٠.

(٣) تاريخ الأنبياء والرسل والارتباط الزمني والعقائدي، د. محمد وصفي، ص ٣٤٢.

المستوىٰ السويِّ السامي الذي يَخْلق بها أن تحيا فيه، ولتعاونها علىٰ الأوبة إلىٰ العقائد الصحيحة التي تضمَّنها الدين الإسلامي الذي حمل مشاعله الرسل والنبيون منذ فجر البشرية عبر القرون والأجيال.

جاءت الرسالة المحمدية لتخلص العقول مما لحقها من وساوس الشياطين وخدع المحترفين بالدين، ولترفع سيف الحق علىٰ أئمة الكفر وزعماء الباطل والمجادلين ضد الحق، ولتحرر الأفكار مما لحقها من شوائب الشرك التي تمكنت من قلوب الناس، وتأصلت في نفوسهم، وورثها الأبناء عن الآباء، وورثها الآباء عن الأجداد، واعتنقوها كحقائق مسلَّم بها من غير تَروٍّ أو تأمل أو تفكير.

بعث الله الرسول الكريم ﷺ ليبين للناس سبيل الرشاد، وليحق الحق ويبطل الباطل: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ٣٣ ﴾[التوبة، الآية ٣٣].

١ - التوحيد:

لقد جاء الإسلام منذ خُلِق البشر بالتوحيد الخالص الذي لا يشوبه شيء من الشرك، حمله الرسل والنبيون إلىٰ الناس كافة علىٰ طول حياتهم الإنسانية، لتتحقق لهم سعادة الدنيا وحسن ثواب الآخرة، وليطهروا أنفسهم مما تحمله عقيدة الإشراك مما يلوث النفوس وينحطُّ بها عن المستوىٰ اللائق بالإنسان.

ولقد افترت اليهود علىٰ الله كذبًا فقد عبدوا عزيرًا (عِزْرا) الذي تقدم ذكره من قبل، وكان يكتب لليهود كتبًا ليهتدوا بها، وذلك بعد خروجهم من بابل إلىٰ أورشليهم بعد الأسر وتخريب بابل علىٰ يد بخُتْنَصَّر، ولقد تابعت النصارىٰ اليهود فعبدوا كذلك المسيح عيسىٰ ابن مريم كما قدمنا، قال الله تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٣٠ ﴾ **[التوبة، الآية ٣٠].**

ومما جاء من الأدلة على بيان قدرة الله تعالى إحياء الميت وعدم تغير الطعام الذي مر عليه مائة عام، وإحياء رجل[١]، ثم إماتته عامًا، كذلك قال الله: ﴿ أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٢٥٩].

٢- القضاء والقدر:

كان الرسل جميعًا يؤمنون بالقضاء والقدر، ويتبين هذا من قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النحل، الآية ٣٦].

وقوله: ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ [السجدة، الآية ١٣].

وقال: ﴿ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾ [الأعراف، الآيتان ١٧٨ - ١٧٩].

وقال جل شأنه لخاتم النبيين ﷺ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [القصص، الآية ٥٦].

٣- اليوم الآخر، والبعث، والحساب:

لقد ذكرنا من قبل أن أول شيء خاطب الله به البشر عندما أخرج آدم وزوجه

---

(١) قيل: هذا الرجل هو عزير (عزرا)، وقيل: هو (أرميا بن حلقيا) راجع: جامع البيان ٣/ ١٩- ٢٢.

من الجنة، هو قوله: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًاۢ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾﴾ [طه، الآيات من ١٢٣ – ١٢٧].

وأما الآيات التي تدل على أن الرسل جميعًا حملت هذه الرسالة فهي قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَاۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام، الآيتان ١٣٠ – ١٣١].

٤ – جهنم:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ قَالُوا۟ بَلَىٰۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر، الآيتان ٤٩ – ٥٠].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الطور، الآيات من ١١ – ١٤].

وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ [الملك، الآيات من ٧ – ٩].

وقال جل شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَاۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [غافر، الآيات ٧٠ – ٧٢].

وهكذا تخبر هذه الآيات الكريمة أن النبيين أنذروا قومهم لقاء هذا اليوم الذي سيكون فيه العذاب في نار جهنم، وطبيعي أن النبيين ما كانوا ليُخْفُوا هذا العذاب عن أقوامهم، ذلك العذاب الذي سوف يخلد فيه العاصون المكذبون به.

ويلاحظ هنا كذلك أن رسالة خاتم النبيين ﷺ قد جاءت فيها تفاصيل أوسع عن جهنم: كحرق جلد أهل النار، واستبدال هذا الجلد كلما نضج وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾ [النساء، الآية ٥٦].

وكوجود شجرة معينة في النار يأكل منها أصحاب جهنم، قال الله تعالى: ﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الصافات، الآيات ٦٢ – ٦٧]... وهكذا.

٥- الجنة:

ذكرنا من قبل كذلك أن النبيين وعدوا أتباعهم بالجنة وذكروا الأقوامهم أن الجنة جعلها الله للمتقين، فإن أطاعوه أدخلهم جنات النعيم ووقاهم عذاب الجحيم، ومما يبين أن المرسلين جميعًا ذكروا الجنة في رسالتهم واعتقدوا بوجودها، وبينوا لأقوامهم أن الجنة حقيقة من الحقائق التي لا يتطرق إليها الشك ووعدوا الذين يؤمنون برسالاتهم أن تكون الجنة نُزُلَهم في الآخرة، هو قوله جل شأنه: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ۖ لَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ ۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلْكُمُ ٱلْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ۖ قَالُواْ نَعَمْ ۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ﴾ [الأعراف، الآيات ٤٢ – ٤٤].

وقال الله تعالىٰ: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الزمر، الآيتان ٧٣ – ٧٤].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُواْ ٱلذِّكْرَ وَكَانُواْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًاۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان، الآيات ١٥ – ٢٤].

فهذه الآيات الكريمة تذكر الذين يدخلون الجنة، ممن اتبعوا المرسلين الذين وعد ربهم بها، منذ فجر الخليقة إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، فكل نبي ورسول بغير استثناء، قد صدَّق بالجنة وآمن بوجودها وعرف قومه خبرها ووعد متَّبعيه بدخولها.

ولا يفوتنا أن نذكر هنا كذلك أن ما ذكرناه في الأبحاث السابقة كان فيه ذكر الجنة أو الثواب في الحياة الآخرة مختصرًا حسب ما جاء في ذكر رسالاتهم في القرآن، ومع هذا فإن لفظ (الْجَنَّةِ) وحده يدل علىٰ أن الحياة فيها ستكون حياة استمتاع مشابه لأقصىٰ ما يتصور من الاستمتاع في الحياة الدنيا، فالجنة يكون فيها

فاكهة، وطيور وغذاء طيب وماء جار، ورائحة زكية، تفوح من زهورها وورودها ورياحينها، وأردية وملابس، واستمتاع جنسي مع الأزواج المطهرة، وفيها كل ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين، ولا يتصور العقل جنة ليس فيها هذه الأشياء(١)، وطبيعي أن الرسل قد ذكرت ما في الجنة من خير الأطعمة وألذ الشراب.

وقد بين الله في كتابه الكريم بعض التفاصيل التي لم تذكر في الكتب السابقة مثل ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾ [ص، الآيات من ٤٩ - ٥٤]، إلى غير ذلك من خيرات يسهل الرجوع إليها في القرآن الكريم.

٦- خلود العذاب والثواب:

لقد ذكرنا شيئًا عن خلود العذاب والثواب في رسالة النبيين من قبل، ونستطيع أن نضيف جديدًا في هذا المقام، وهو ما ذكر الله من أنه كتب في التوراة أن الذي يدخل النار يخلد فيها، ذكره الله تعالى ذلك في مناسبة ادعاء اليهود أنهم لن يلبثوا في النار إلَّا أيامًا معدودة، فبين الله خطأهم وافتراءهم عليه، وذكر أن هذا لم يأت به رسول ولا أتى به موسى عليه السلام في صُحُفه، وأكد أن الخلود في النار هو الحق الذي جاء بذكره المرسلون والنبيون، وفي هذا يقول جل شأنه: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ [البقرة، الآيتان ٨٠ - ٨١].

وذكر الله تعالى في آية أخرى أن الذي جاء به المرسلون، وهو الحق، أن أصحاب النار يمكثون فيها خالدين؛ بل وإنهم قد حرموا من الموت في النار حتى يستمروا في العذاب إلى ما لا نهاية، ويؤخذ هذا من قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ

(١) يعتقد النصارى أن الحياة الآخرة مجردة من المادة.

خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ
﴿٧٦﴾ وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدۡ جِئۡنَٰكُم بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ
أَكۡثَرَكُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الزخرف، الآيات ٧٤ –٧٨].

فحقيقة الخلود في جهنم بيَّنها الله في هذه الآيات، فالخلود حكم عام، لا يملك نبي ولا رسول أن يقول بغيره، ونرى أن الرسل والنبيين ما داموا قد ذكروا النار في رسالاتهم فلابد أنهم قد ذكروا الخلود فيها، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
وَظَلَمُواْ لَمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ
فِيهَآ أَبَدٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٗا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء، الآيتان ١٦٨ – ١٦٩].

٧- الذنب:

لقد ذكرنا من قبل أن الله يعاقب على الذنب وأن العقاب على الذنب عقيدة من العقائد التي تؤمن بها الرسل وما من رسول إلَّا وقد بين لمن أرسل إليهم أن اقتراف الذنب جريمة يعاقب عليها مقترفها، ولقد ضربنا الأمثلة على ذلك في الأبحاث الماضية، وأن المغفرة ترجع إلى الله وحده دون سواه، فالله هو ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ ﴾ [غافر، الآية٣].

وقد أمر الله تعالى رسوله الكريمﷺ أن يدعو أمته إلى ترك الإثم ظاهره وباطنه، قال تعالى: ﴿ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام، الآية ١٢٠].

٨- الفتنة:

جاء ذكر الفتنة كعقيدة في رسالات النبيين، وذكرنا أنه علينا أن نؤمن بوجود الفتنة حتى نستطيع أن نعد أنفسنا لمقاومتها، وقد ذكر الله تعالى شيئًا عن الفتنة في قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنۡ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن
يَحۡضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون، الآيتين ٩٧ – ٩٨].

وقال جل شأنه: ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ
فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ
ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ
وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٢٧﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ
وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنفال، الآيات ٢٥ – ٢٨].

٩- الجزاء:

إنه لمن العقائد الإسلامية أن يؤمن المسلم بأنه يجازى على فعله، وقد ذكرنا أن هذا مما جاء به النبيون والرسل.

وقد جاء في شريعة إبراهيم وموسى عَلَيۡهِمَا ٱلسَّلَامُ أن الإنسان لا يحاسب ولا يجازى إلَّا حسب أعماله هو، لا على أعمال غيره من سائر البشر، وأنه ليس له إلَّا ما قدمت يداه، قال الله تعالى: ﴿ أَمۡ لَمۡ يُنَبَّأۡ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي
وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعۡيَهُۥ
سَوۡفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجۡزَىٰهُ ٱلۡجَزَآءَ ٱلۡأَوۡفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النجم، الآيات ٣٦ – ٤١].

ولقد جاء ذكر هذا الحكم نفسه في شريعة خاتم النبيين ﷺ، فقد قال الله تعالى لخاتم النبيين ﷺ: ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا
عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ
﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأنعام، الآية ١٦٤].

١٠- التوبة:

وأما عقيدة التوبة فإنها مقررة كذلك منذ فجر الإنسانية، وجاءت في رسالة الرسل والنبيين كما ذكرنا من قبل، وأما دعوة الرسل والنبيين أقوامهم إلى الرجوع إلى الله واتقائه فما هي إلَّا دعوة إلى التوبة.

وذكرنا من قبل أن فرعون موسى عندما أوشك على الغرق قال: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [يونس، الآية ٩٠].

فقال له الله تعالى: ﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس، الآية ٩١].

ويعني هذا أن فرعون تاب عندما أدركه الغرق، وأن الله لم يقبل هذه التوبة؛ لأن التوبة لها شرط في الدين وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء، الآيتان ١٧ – ١٨].

وبذلك يعد هذا الحكم حكمًا عامًّا بالنسبة إلى عقيدة التوبة، وهي عقيدة يعتنقها النبيون، والمرسلون، والمؤمنون.

وفي مثل ما تقدم يقول جل شأنه: ﴿ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓا۟ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الزمر، الآيات ٥٤ – ٥٩].

فالتوبة التي آمن بها المرسلون والنبيون هي التوبة التي يتلوها من العمل الصالح ما يدل على جديتها والإخلاص فيها، ولهذا يقول جل شأنه: ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [المائدة، الآية ٣٩].

ويقول تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الفرقان، الآية ٧٠].

١١- الاستغفار:

قال الله تعالى لرسوله الكريم ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ ﴿١٩﴾﴾ [محمد، الآية ١٩].

وقال: ﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ [النساء، الآية ٦٤].

وقال نوح عليه السلام لقومه من قبل ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح، الآية ١٠].

وقال هود عليه السلام: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ تَسَلَّنِ. . ﴿٥٢﴾﴾ [هود، الآية ٥٢].

وقال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ۖ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم، الآية ٤٧].

وقال لهم يعقوب عليه السلام: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف، الآية ٩٨].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف، الآية ٩٢].

وقال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [هود، الآية ٩٠].

١٢- الرُّسُل:

من العقائد الدينية أن يؤمن المسلم بجميع رسل الله، وأن يؤمن الرسل كذلك بعضهم ببعض، ولقد أخذ الله ميثاق النبيين بذلك، وهو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران، الآية ٨١].

١٣- الحياة البرزخية:

ذكرنا عند الكلام عن العقائد في دين آدم عليه السلام أن الحياة البرزخية حقيقة من الحقائق التي يجب أن يسلم بها كل مسلم، وذكرنا هنالك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾﴾ [طه، الآية ١٢٤].

وقلنا: إن هذا القول هو بيان للحياة بعد الموت إلى أن ينفخ في الصور للمرة الأولى حيث تفنى جميع الكائنات الحية.

ولا شك عندنا أن هذه الحقيقة قد بينها الرسل والنبيون لأقوامهم، وهنالك دليل على أنه جاء في التوراة خبر عن هذه الحياة، إذ إن من غير المعقول ألا يذكر الله لموسى عليه السلام ما يفعله لفرعون وآله، وهو قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر، الآية ٤٦].

إن فرعون وهامان وآلهما يعرضون على النار غدوًّا وعشيًّا قبل القيامة، فلا بد أن يكون هذا العرض سابقًا ليوم القيامة، ولم يعرض فرعون وهامان وآلهما على النار عندما كانوا أحياء على وجه الأرض، فلا بد أن يكون هذا العرض في حياة وسط بين الحياة الدنيا والحياة يوم النشور والحساب، إن هذه الحياة هي الحياة الضَّنْك السالفة الذكر.

وقد أكد الرسول الكريم خاتم النبيين ﷺ هذه الحقيقة، فقد أخبره الله بوجودها في قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّا ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا ۖ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [المؤمنون، الآيات من ٩٩-١٠١].

وهنالك آية كريمة نعتقد أنها تدل على الحياة البرزخية كذلك وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ ﴾ [التوبة، الآية ١٠١].

لقد عذب الله المنافقين في الحياة الدنيا على أيدي رسول اللهﷺ والمؤمنين، فقد كشف الله لرسوله الكريمﷺ عن نفاقهم مرات عديدة، ومن لم يكشف الله لرسولهﷺ عنه، انضم إلى الأعداء فناله مثل ما نال الأعداء، قال الله تعالى: ﴿ قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ غَيْظَ .. ﴿١٥﴾ ﴾ [التوبة، الآيتان ١٤ – ١٥].

ومنهم من مات معذبًا بحقده وغيظه كما يصور ذلك قوله تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُو۟لَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ١١٩].

هذه هي المرة الأولى من المرتين اللتين سيعذب الله فيهما المنافقين في قوله: ﴿ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ﴾ [التوبة، الآية ١٠١]، فلابد أن يكون العذاب الثاني هو العذاب في الحياة البرزخية، فإن الله تعالى قد قال: إنه بعد العذاب الثاني سيعذبون عذابًا عظيمًا، وليس هذا العذاب إلَّا العذاب في الآخرة: ﴿ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة، الآية ١٠١]، فهذا عذاب ثالث بعد العذاب في الحياة الدنيا والعذاب البرزخي.

وسوف أذكر بعض ما قاله بعض العلماء والحكام والمشاهير في العالم عن النبيﷺ، وهذا قولهم في النبي الأمي العربي الحجازي وعن الدين العظيم الذي انتشر في الأرض، وأنا على يقين من أنه لا توجد دولة في العالم الآن إلَّا وانتشر فيها الإسلام والحمد لله رب العالمين.

قالوا عن رسول الإسلام محمد ﷺ

غوستاف لوبون:


غوستاف لوبون

هو الطبيب والمؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون، المولود في مقاطعة نوجيه لوروترو، بفرنسا في (٧ مايو١٨٤١م والمتوفىٰ في ١٣ديسمبر ١٩٣١م). وهو الذي كتب في علم الآثار وعلم الأنثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. وهو أحد أشهر فلاسفة الغرب، وأحد الذين امتدحوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية. لم يَسِر غوستاف لوبون علىٰ نهج معظم مؤرخي أوروبا، حيث اعتقد بوجود فضلٍ للحضارة الإسلامية علىٰ العالم الغربي. درس الطب، وقام بجولة في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا. واهتم بالطب النفسي وألف فيه مجموعة من الأبحاث المؤثرة عن سلوك الجماعة، والثقافة الشعبية، ووسائل التأثير في الجموع، مما جعل من أبحاثه مرجعًا أساسيًّا في علم النفس، ولدىٰ الباحثين في وسائل الإعلام في النصف الأول من القرن العشرين.

من أشهر آثاره:

أولها «روح الاجتماع» الذي كان تأليفه الأول، و«حضارة العرب»، و«حضارات الهند»، و«باريس ١٨٨٤»، و«الحضارة المصرية»، و«حضارة العرب في الأندلس»، و«سر تقدم الأمم».

وقد أسهم في الجدل الدائر حول المادة والطاقة، وألف كتابه «تطور المواد» الذي حظي بشعبية كبيرة في فرنسا. وحقق نجاحًا كبيرًا مع كتابه «سيكولوجية الجماهير»، ما منحه سمعة جيدة في الأوساط العلمية، اكتملت مع كتابه الأكثر مبيعًا «الجماهير: دراسة في العقل الجمعي»، وكان صالونه من أشهر الصالونات الثقافية التي تقام أسبوعيًّا، ويحضره شخصيات المجتمع المرموقة مثل: «بول فاليري»، و«هنري برغسون»، و«هنري بوانكاريه».

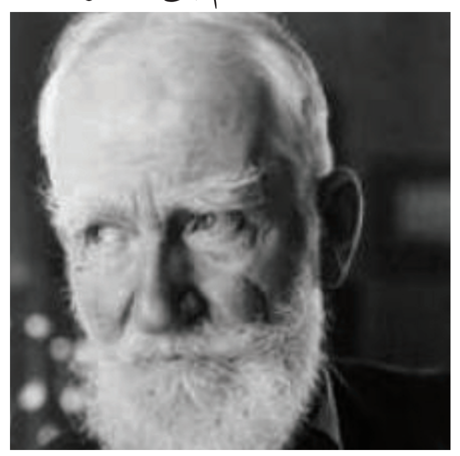
عُرف بأنه أحد أشهر فلاسفة الغرب الذين أنصفوا الأمة العربية والحضارة الإسلامية، فلم يَسِر علىٰ نهج مؤرخي أوروبا الذين صار من تقاليدهم إنكار فضل الإسلام علىٰ العالم الغربي. لكن «لوبون» الذي ارتحل في العالم الإسلامي وله فيه مباحث اجتماعية، أقرَّ أن المسلمين هم مَن مدَّنوا أوروبا، فرأىٰ أن يبعث عصر العرب الذهبي من مرقده، وأن يُبديه للعالم في صورته الحقيقية؛ فألف عام ١٨٨٤م كتاب «حضارة العرب»[(١)] جامعًا لعناصر الحضارة العربية وتأثيرها في العالم، وبحث في أسباب عظمتها وانحطاطها وقدمها للعالم تقديم المدين الذي يدين بالفضل للدائن. توفي في ولاية مارنيه لاكوكيه، بفرنسا ١٩٣١م.

---

(١) ترجمة عادل زعيتر ١٩٥٦م، نشر بدار الشروق ومكتبة الأسرة بهيئة الكتاب بمصر عام ٢٠٠٠م.

جورج برنارد شو:

هو الذي قال: «إن رجلًا كمحمدﷺ لو تسلم زمام الحكم المطلق في العالم بأجمعه اليوم لتم النجاح له في حكمه، ولقاد العالم إلىٰ الخير وحل مشاكله علىٰ وجه يحقق للعالم كله السلام والسعادة المنشودة، لقد تنبأت بأن دين سيكون مقبولًا في أوروبا الغد كما أنه بدأ يكون مقبولًا في أوروبا اليوم كنت علىٰ الدوام أنزل ديانة محمد منزلة كبيرة من الإعزاز والإكبار؛ لعظمته التي لا تنكر، ولقد قرأت الكثير عن محمد ودرست ما يدعو إليه هذا الرجل العظيم، فأعجبت به، ومن الواجب أن يدعىٰ محمد المنقذ للإنسانية إذا حكمنا علىٰ العظمة بما كان للعظيم من أثر في الناس. قلنا: إن محمدًا رسول المسلمينﷺ أعظم عظماء التاريخ فقد كبح جماح التعصب والخرافات وأقام فوق اليهودية والمسيحية ودين بلاده القديم دينًا واضحًا قويًّا استطاع أن يبقىٰ إلىٰ يومنا هذا قوة عظيمة. لم يسجل التاريخ أن رجلًا واحدًا سوىٰ محمدﷺ كان صاحب رسالة وباني أمة ومؤسس دولة هذه الثلاثة التي قام بها محمد كانت وحدة متلاحمة، وكان الدين هو القوة التي توحدها علىٰ مدىٰ التاريخ».


جورج برنارد شو

وقال أيضًا: «قرأت حياة رسول الإسلام جيدًا مرات ومرات فلم أجد فيها إلَّا الخُلُق كما ينبغي أن يكون، وكم ذا تمنيت أن يكون الإسلام هو سبيل العالم».

وهو الذي درس سيرة محمد r، باعتباره رجلًا مدهشًا، فقال جورج برنارد شو عن رسول اللهﷺ «رأيته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، بل يجب أن يدعىٰ

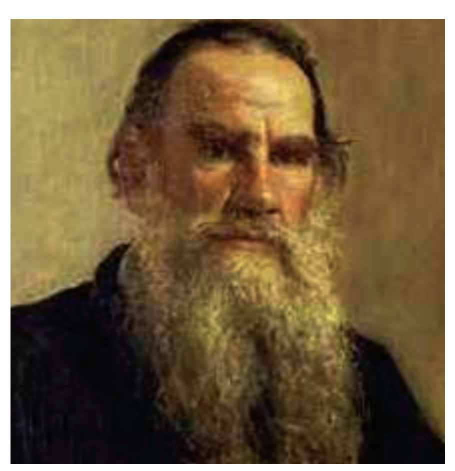
منقذ الإنسانية، وأوروبا في العصر الراهن بدأت تعشق عقيدة التوحيد، وربما ذهبت إلى أبعد من ذلك فتعرف قدرة هذه العقيدة على حل مشكلاتها، فبهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتي».

إن أوروبا الآن ابتدأت تحس بحكمة محمدﷺ، وبدأت تعيش دينه كما أنها ستبرئ العقيدة الإسلامية مما اتهمها بها من أراجيف رجال أوروبا في العصور الوسطى؛ ولذلك يمكنني أن أؤكد نبوءتي فأقول: إن بوادر العصر الإسلامي الأوروبي قريبة لا محالة، وإني أعتقد أن العالم أحوج ما يكون إلى رجل في تفكير محمد؛ هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال، فإنه أقوى دين خالد خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في أوروبا.

إن رجال الدين في القرون الوسطى نتيجة للجهل والتعصب، قد رسموا لدين محمدﷺ صورة قاتمة لقد كانوا يعتبرونه عدوًّا للمسيحية، لكنني اطلعت على أمر هذا الرجل فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل إنه يجب أن يسمى منقذ البشرية.

وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم لوفق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها.

ماذا قال شارف تولستوي عن رسول الإسلام؟


شارف تولستوي

شارف تولستوي رجل من الاتحاد السوفيتي تعاطف مع أهل الشيشان المسلمين وتعلق قلبه بالإسلام، فاستثار يقظته المتدفقة، وتصالح مع ذاته حين خذلته واستولت عليه مشاعر الضياع والكآبة، وهو يبحث عن مغزىٰ الحياة، فلم يكفَّ عن تساؤلاته واستفهاماته ليتخفف من أعبائه، بحثًا عن فكر يستوعب القيم الأخلاقية والسمو الروحي والنزعة الإنسانية التي يرومها، مما جعل لمؤلفاته قيمة حضارية وثقافية، وهي أوسع ترجمات لكاتب في العالم، حسب إحصاءات اليونسكو.

يقول الدكتور معمر الفار في مجلة دبي الثقافية: إن هناك حقائق تكشف لأول مرة أن تولستوي تعلم العربية واعتنق الإسلام وصلىٰ في الشيشان، وانعكس تأثره بطراز حياة الشعب القفقاسي وأسلوبه في روايته (الحاج مراد) و(الكازاك)، حيث انغمس في صميم حياة الشيشانيين، وكان لديه أصدقاء بينهم أكدوا في شهاداتهم أن الأديب الروسي صلىٰ معهم علىٰ الملأ. لما قارب تولستوي الخمسين من عمره، حدث تغير كبير في حياته، وحدث له انقلاب روحي هائل، لم يستطع النقاد تفسيره، رغم النجاحات المتلاحقة وذروة المكانة الأدبية، فقد حدثت له أزمة نفسية عميقة الجذور، كان يسعىٰ جاهدًا للوصول إلىٰ جواب شاف لمعاني الحياة ومقاصدها ضمن عقيدة دينية، مما جعله يقول عن عقيدة التوحيد في الإسلام: «جوهر هذه الديانة

يتلخص في أن لا إله إلا الله، وهو واحد أحد، ولا يجوز عبادة أرباب كثيرة، وأن الله رحيم وعادل، ومصير الإنسان النهائي يتوقف على الإنسان وحده. فإذا سار على تعاليم الله فسيحصل على الجزاء، أما إذا خالف شريعة الله فسينال العقاب».

ويقول عن رسول الله ﷺ: «كان من عظماء الرجال المصلحين الذين خدموا المجتمع الإنساني خدمة جليلة، ويكفي محمدًا فخرًا أنه هدى أمة بكاملها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسكينة والسلام، وتؤثر عيشة الزهد، ومنعها من سفك الدماء، وتقديم الضحايا للبشرية، وفتح لها طريق الرقي والمدنية، وهذا عمل عظيم لا يقوم به إلا شخص أوتي وحيًا وقوة من عند الله، إن شريعة محمد ستسود العالم لانسجامها مع العقل والحكمة».

ويقول تولستوي: «المسلمون يقولون لا إله إلا الله محمد رسول الله، حيث لا توجد هنا معضلة أو سر غامض، وعندما نقارن بين الإسلام وبقية الأديان، نجد أن الإسلام يسبقهم ويسمو عليهم جميعًا». وحسب رأي مترجمة القرآن الكريم إلى الروسية الأديبة فاليريا بروخافا، فإنها تؤكد أن تولستوي أسلم في آخر حياته، بعد قيامه بدراسة الإسلام، وأوصى أن يدفن كمسلم، ويستدل على ذلك بعدم وجود إشارة الصليب على شاهد قبره، حسب مشاهدتها الشخصية.

ماذا قال لامارتين عن رسول الإسلام؟

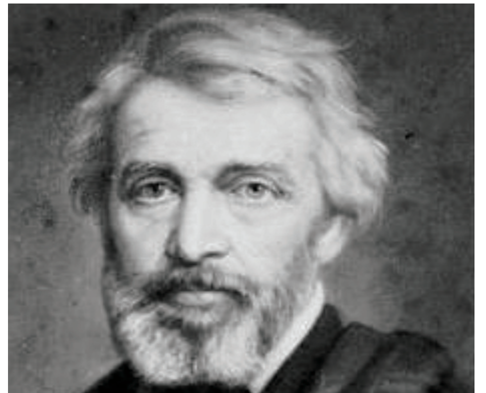

لامارتين

هو الشاعر الفرنسي **لا مارتين** الذي قال: «من ذا الذي يجرؤ أن يقارن أيًّا من عظماء التاريخ الحديث بالنبي محمدﷺ في عبقريته؟فهؤلاء المشاهير قد صنعوا الأسلحة وسَنَّوا القوانين وأقاموا الإمبراطوريات، فلم يجنوا إلا أمجادًا بالية لم تلبث أن تحطمت بين ظهرانَيِّهم.. لكنَّ هذا الرجل محمدًاﷺ لم يَقُدِ الجيوش، ويَسُنُّ التشريعات، ويُقيم الإمبراطوريات، ويحكم الشعوب، ويُرَوِّض الحكام فقط، وإنما قاد الملايين من الناس فيما كان يُعَدُّ ثلث العالم حينئذٍ. ليس هذا فقط، بل إنه قضىٰ علىٰ الأنصاب والأزلام والأديان والأفكار والمعتقدات الباطلة.. إنه بالنظر لكل مقاييس العظمة البشرية، أودُّ أن أتساءل: هل هناك من هو أعظم من النبي محمد؟»

وقال أيضًا: «إن أعظم حدث في حياتي هو أنني درست حياة رسول الله محمد دراسة وافية، وأدركت ما فيها من عظمة وخلود، أيُّ رجل أدرك من العظمة الإنسانية مثلما أدرك محمد، وأي إنسان بلغ من مراتب الكمال ما بلغ؟!، لقد هدم الرسول المعتقدات الباطلة التي تتخذ واسطة بين الخالق والمخلوق».

ماذا قال توماس كارليل عن رسول الإسلام؟

هو الكاتب الإنجليزي المعروف «توماس كارليل»، يقول: «يزعم المتعصبون والملحدون أن محمدًا لم يكن يريد بقيامه إلَّا الشهرة الشخصية ومفاخر الجاه والسلطان. كلا وأيم الله لقد كان في فؤاد ذلك الرجل الكبير ابن القِفار والفلوات، المتوقد المقلتين العظيم النفس، المملوء رحمةً وخيرًا وحنانًا وبرًا وحكمة وحجىٰ وإربه ونهىٰ أفكار غير الطمع الدنيوي، ونوايا خلاف طلب السلطة والجاه».



توماس كارليل

ويقول أيضًا: «أرىٰ في محمدٍ آيات علىٰ أشرف المحامد وأكرم الخصال، وأتبين فيه عقلًا راجحًا وفؤادًا صادقًا ورجلًا قويًّا عبقريًّا، لو شاء لكان شاعرًا فحلًا أو فارسًا بطلًا أو ملكًا جليلًا، أو أي صنف من أصناف البَطل».

«إن محمد شهاب قد أضاء العالم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

ماذا قال العالم المعاصر الأمريكي مايكل هارت عن رسول الإسلام ؟


مايكل هارت

إن اختياري محمدًا ليكون الأول في قائمة أهم رجال التاريخ ربما أدهش كثيرًا من القراء إلى حد قد يثير بعض التساؤلات، ولكن في اعتقادي أن محمدًا ﷺ كان الرجل الوحيد في التاريخ الذي نجح بشكل أسمى وأبرز في كلا المستويين الديني والدنيوي.

ماذا قال جولز ماسيرمان عن رسول الإسلام؟

هو محلل نفسي أميركي، وأستاذ في جامعة شيكاغو بالولايات المتحدة الأمريكية.

وقد ضع جولز ماسيرمان ثلاثة شروط لاختياره الزعيم القائد في العالم يجب أن يتوفر في القائد التكوين السليم للقيادة يجب على القائد أن يوفر لشعبه مجموعة واحدة من المعتقدات يجب على القائد أن يوفر لشعبه نظامًا اجتماعيًّا يشعر فيه الناس نسبيًّا بالأمن والطمأنينة، قال لعل أعظم قائد كان على مر العصور هو محمد الذي جمع الأعمال الثلاثة.



جولز ماسيرمان

ماذا قال بونابرت عن رسول الإسلام ؟

لأن بونابرت كان عسكريًّا فقد تكلم عن رسول الله من الناحية العسكرية والخططية التي أبهرته وأبهرت العالم.

يقول بونابرت: «إنّ مُحمّدًا الرسولﷺ كان نموذجًا ناجحًا لما تقوم عليه استراتيجيات القادة في العصر الحديث، وتوفرت لتلك الاستراتيجيات ظروف مكَّنت من نجاح الرسول في نشر الإسلام في الجزيرة العربية».



بونابرت

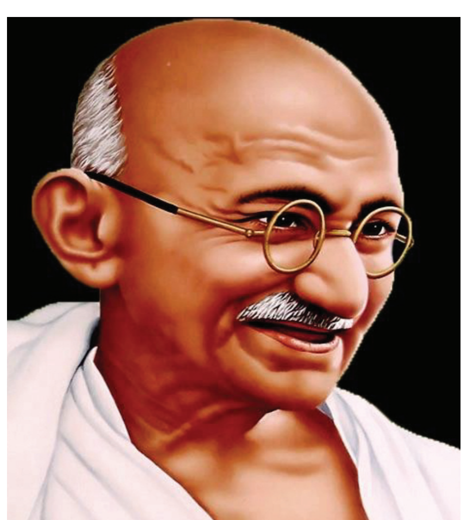
ويقول بونابرت أيضًا: «إن الرسول محمدًاﷺ هو أول من أحدث تغييرًا ثوريًّا في العقيدة العسكرية، فجعل أتباعه يقاتلون تحت راية الدين، وأنه أول من أوجد مفهوم الأُمَّة، لتحلّ محل الولاءات القبلية والعائلية الصغيرة».

أما عبقرية رسول اللهﷺ فيقول عنها بونابرت: إنه «بدون عبقرية ورؤية الرسول محمدﷺ العسكرية الفذة ما كان ليبقى الإسلام، ويصمد وينتشر بعد وفاته؛ ويصفه أيضًا بأنه أول جنرال عسكري محنَّك في الإسلام، وأنه لولا نجاح الرسول محمدﷺ كقائد عسكري، ما كان للمسلمين أن يغزوا الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية». ويقول بونابرت: «نجاح الرسول في إحداث تغيير ثوري في العقيدة العسكرية لما كان معروفًا وسائدًا في جزيرة العرب؛ لإيمانه بأنه مُرسَل من عند الله، ويشير إلى أنه بفضل ذلك نجح في إيجاد أول جيش نظامي عربي قائم على الإيمان بنظام متكامل للعقيدة الأيديولوجية (الدين

الإسلامي)، وبمفاهيم مثل «الحرب المقدسة» و«الجهاد» و«الشهادة» من أجل الدين، قدمها أولًا واستخدمها الرسول محمدﷺ قبل أي شخص آخر.

ويرىٰ «بونابرت» في الدين الإسلامي نظامًا متكاملًا حلّ بنجاح مذهل محل ما كان موجودًا من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية متخلفة في جزيرة العرب، فأوجد الرسول مفهوم الأُمة، «الأُمة المؤمنة» لتحلّ محل الولاءات القبلية والعائلية الصغيرة، وذهب إلىٰ أن الرسول نجح في بناء منظومة عسكرية للقيادة والسيطرة للمرة الأولىٰ في التاريخ العربي، وأن مُحمّدًا الرسول أوجد للمرة الأولىٰ في التاريخ مفهوم «الحرب النفسية» التي لم تكن معهودة من قبل! ويؤكد أن الرسول نجح في خلق منظومة عسكرية متطورة كان هو شخصيًّا محورها الأساسي، إضافةً إلىٰ خلق هوية جديدة لا تفرِّق بين المواطن والمقاتل في إطار مفهوم "المساواة ويشير «بونابرت» إلىٰ أن الرسول مُحمّدًا نجح في إقناع أتباعه أنهم ينفِّذون أوامر الله في الأرض، وأنهم جند الله، وكانت تلك المرة الأولىٰ في التاريخ التي يعتقد فيها جيش نظامي، أنه ينفذ أوامر الله في الأرض، ومن هنا تطور مفهوم «الحروب المقدسة»، ويرىٰ «بونابرت» أن الرسول نجح في جعل «الدين أهم مصدر للوحدة بين جنوده». وكما يرىٰ أن نجاح الرسول في إقناع المقاتلين بالتضحية بحياتهم من أجل نصرة هذا الدين، جعل المقاتِل المسلم لا يهاب الموت؛ إيمانًا منه بتمتعه بالجنة بعد وفاته كما تقول تعاليم الدين الإسلامي مشيرًا إلىٰ أن «الجهاد في الإسلام جوهره الكفاح والتغلب علىٰ المصاعب من أجل تحقيق السعادة».

ماذا قال المهاتما غاندي؟

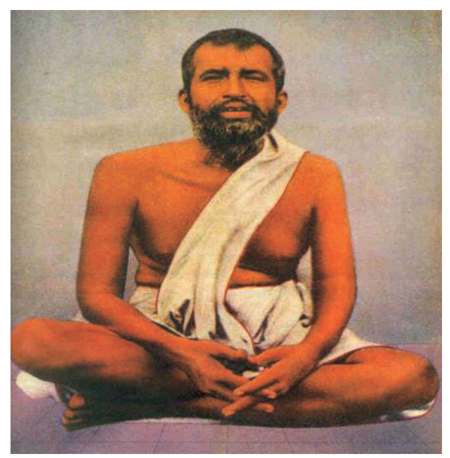

المهاتما غاندي

قال غاندي: «أردت أن أعرف صفات الرجل الذي يملك بدون نزاع قلوب ملايين البشر. . . لقد أصبحت مقتنعًا كل الاقتناع أن السيف لم يكن الوسيلة التي من خلالها اكتسب الإسلام مكانته، بل كان ذلك من خلال بساطة الرسول مع دقته وصدقه في الوعود، وتفانيه وإخلاصه لأصدقائه وأتباعه وشجاعته مع ثقته المطلقة في ربه وفي رسالته».

هذه الصفات هي التي مهدت الطريق، وأزالت المصاعب وليس السيف. بعد انتهائي من قراءة الجزء الثاني من حياة الرسول وجدت نفسي أسفًا لعدم وجود المزيد للتعرف أكثر على حياته العظيمة».

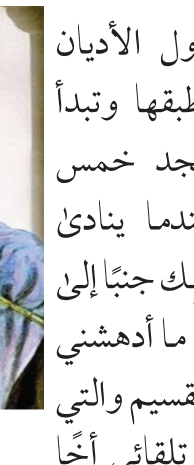
ماذا قال البرفيسور راما كريشنا راو في كتابه "محمد النبي"؟

يقول كريشنا راو: «لا يمكن معرفة شخصية محمد بكل جوانبها. ولكن كل ما في استطاعتي أن أقدمه هو نبذة عن حياته من صور متتابعة جميلة. فهناك النبي محمد، ومحمد المحارب، ومحمد رجل الأعمال، ومحمد ملاذ اليتامى، وحامي العبيد ومحمد محرر النساء، ومحمد القاضي، كل هذه الأدوار الرائعة في كل دروب الحياة الإنسانية تؤهله لأن يكون بطلًا».



راما كريشنا راو

ساروجني ندو شاعرة الهند:


ساروجني ندو

قالت: يعتبر الإسلام أول الأديان الذي نادىٰ بالديمقراطية وطبقها وتبدأ هذه الديمقراطية في المسجد خمس مرات في اليوم الواحد عندما ينادىٰ للصلاة ويسجد القروي والملِك جنبًا إلىٰ جنب اعترافًا بأن الله أكبر. . . ما أدهشني هو هذه الوحدة غير القابلة للتقسيم والتي جعلت من كل رجل بشكل تلقائي أخًا للآخر.

مونتجومري وات

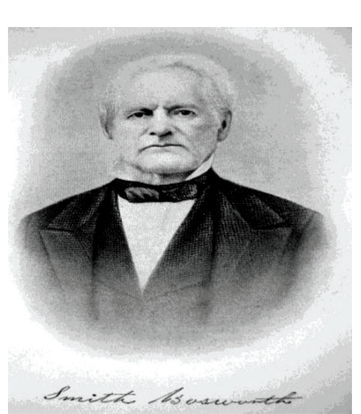
قال في كتابه «محمد في مكة»: «إن استعداد هذا الرجل لتحمل الاضطهاد من أجل معتقداته، والطبيعة الأخلاقية السامية لمن آمنوا به واتبعوه واعتبروه سيدًا وقائدًا لهم، إلىٰ جانب عظمة إنجازاته المطلقة، كل ذلك يدل علىٰ العدالة والنزاهة المتأصلة في شخصه. فافتراض أن محمدًا مدع افتراض يثير مشاكل أكثر ولا يحلها. بل إنه لا توجد شخصية من عظماء التاريخ الغربيين نالت من التقدير اللائق بها مثل ما فعل محمد».



مونتجومري وات

بوسورث سميث

قال في كتابه «محمد والمحمدية»: «لقد كان محمد قائدًا سياسيًّا وزعيمًا دينيًّا في آن واحد. لكن لم تكن لديه عَجْرَفة رجال الدين، كما لم تكن لديه فيالق مثل القياصرة. ولم يكن لديه جيوش مجيشة أو حرس خاص أو قصر مشيد أو عائد ثابت. إذا كان لأحد أن يقول إنه حكم بالقدرة الإلهية فإنه محمد، لأنه استطاع الإمساك بزمام السلطة دون أن يملك أدواتها ودون أن يسانده أهلها».



بوسورث سميث

إدوارد جيبون أوكلي:


إدوارد جيبون أوكلي

قال في كتابه «تاريخ إمبراطورية الشرق»: «ليس انتشار الدعوة الإسلامية هو ما يستحق الانبهار، إنما استمراريتها وثباتها على مر العصور. فما زال الانطباع الرائع الذي حفره محمد في مكة والمدينة له نفس الروعة والقوة في نفوس الهنود والأفارقة والأتراك وحديثي العهد بالقرآن رغم مرور اثني عشر قرنًا من الزمان».

لقد استطاع المسلمون الصمود يدًا واحدة في مواجهة فتنة الإيمان بالله، رغم أنهم لم يعرفوه إلا من خلال العقل والمشاعر الإنسانية. فقول: « أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله» هي ببساطة شهادة الإسلام، ولم يتأثر إحساسهم بألوهية الله عز وجل بوجود أي من الأشياء المنظورة التي كانت تتخذ آلهة من دون الله. ولم يتجاوز شرف النبي وفضائله حدود الفضيلة المعروفة لدى البشر، كما أن منهجه في الحياة جعل مظاهر امتنان الصحابة له (لهدايته إياهم من الظلمات إلى النور) منحصرة في نطاق العقل والدين.

المستشرق الكندي الدكتور زويمر:


الدكتور زويمر

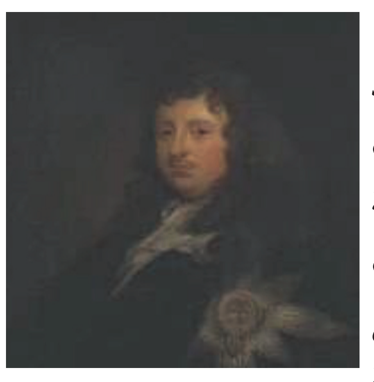
قال في كتابه «الشرق وعاداته»: «إن محمدًا كان ولا شك من أعظم القواد المسلمين الدينيين، ويصدق عليه القول أيضًا بأنه كان مصلحًا قديرًا وبليغًا فصيحًا وجريئًا مغوارًا ومفكرًا عظيمًا، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات، وهذا قرآنه الذي جاء به وتاريخه يشهدان بصحة هذا الادعاء».

المستشرق الألماني: برتلي سانت هيلر:


برتلي سانت هيلر

قال في كتابه «الشرقيون وعقائدهم»: «كان محمد رئيسًا للدولة وساهرًا على حياة الشعب وحريته، وكان يعاقب الأشخاص الذين يجترفون الجنايات حسب أحوال زمانه وأحوال تلك الجماعات الوحشية التي كانت يعيش النبي بين ظهرانيها، فكان النبي داعيًا إلى ديانة الإله الواحد، وكان في دعوته هذه لطيفًا ورحيمًا حتى مع أعدائه، وأن في شخصيته صفتين هما من أجلِّ الصفات التي تحملها النفس البشرية وهما العدالة والرحمة».

الفيلسوف الفرنسي إدوار مونته:


إدوار مونته

قال في كتابه «العرب»: « عرف محمد بخلوص النية والملاطفة وإنصافه في الحكم، ونزاهة التعبير عن الفكر والتحقق، وبالجملة كان محمد أزكىٰ وأدين وأرحم عرب عصره، وأشدهم حفاظًا علىٰ الذمام، فقد وجههم إلىٰ حياة لم يحلموا بها من قبل، وأسس لهم دولة زمنية ودينية لا تزال إلىٰ اليوم».

آن بيزيت:

قال في كتابه «حياة وتعاليم محمد»: «من المستحيل لأي شخص يدرس حياة نبي العرب العظيم وشخصيته ويعرف كيف عاش هذا النبي وكيف علم الناس، إلا أن يشعر بتبجيل هذا النبي الجليل، أحد رسل الله العظماء، ورغم أنني سوف أعرض فيما أروي لكم أشياء قد تكون مألوفة للعديد من الناس فإنني أشعر في كل مرة أعيد فيها قراءة هذه الأشياء بإعجاب وتبجيل متجددين لهذا المعلم العربي العظيم، هل تقصد أن تخبرني أن رجلًا في عنفوان شبابه لم يتعد الرابعة والعشرين من عمره بعد أن تزوج من امرأة أكبر منه بكثير وظل وفيًا لها طيلة ٢٦ عامًا ثم عندما بلغ الخمسين من عمره – السن التي تخبو فيها شهوات الجسد – تزوج لإشباع رغباته وشهواته ؟! ليس هكذا يكون الحكم علىٰ حياة الأشخاص. فلو نظرت إلىٰ النساء اللاتي تزوجهن لوجدت أن كل زيجة من هذه الزيجات كانت سببًا إما في الدخول في تحالف لصالح أتباعه ودينه، أو الحصول علىٰ شيء يعود بالنفع علىٰ أصحابه، أو كانت المرأة التي تزوجها في حاجة ماسة للحماية».

سنرستن الآسوجي


سنرستن الآسوجي

العلامة سنرستن الآسوجي: مستشرق آسوجي ولد عام ١٨٦٦. وهو أستاذ اللغات الساميّة، وقد ساهم في دائرة المعارف، جمع المخطوطات الشرقية، وكان يحرر مجلة (العالم الشرقي)، له عدة مؤلفات، منها: «القرآن الإنجيل المحمدي» و«تاريخ حياة محمد».

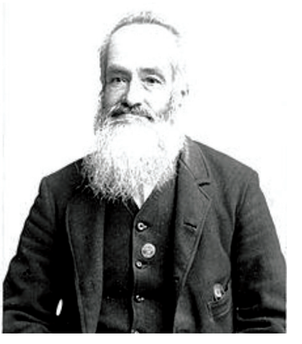
يقول سنرستن: «إننا لم ننصف محمدًا إذا أنكرنا ما هو عليه من عظيم الصفات وحميد المزايا، فلقد خاض محمد معركة الحياة الصحيحة في وجه الجهل والهمجية، مصرًّا علىٰ مبدئه، وما زال يحارب الطغاة حتىٰ انتهىٰ به المطاف إلىٰ النصر المبين، فأصبحت شريعته أكمل الشرائع، وهو فوق عظماء التاريخ».

المستر سنكس:

مستشرق أميركي ولد في بلدته بالاي عام ١٨٣١، وتوفي ١٨٨٣م. يقول في كتابه: «ديانة العرب»: «ظهر محمد بعد المسيح بخمسمائة وسبعين سنة، وكانت وظيفته ترقية عقول البشر، بإشرابها الأصول الأولية للأخلاق الفاضلة، وبإرجاعها إلىٰ الاعتقاد بإله واحد، وبحياة بعد هذه الحياة».

إلىٰ أن قال: «إن الفكرة الدينية الإسلامية، أحدثت رقيًّا كبيرًا جدًّا في العالم، وخلّصت العقل الإنساني من قيوده الثقيلة التي كانت تأسره حول الهياكل بين يدي الكهان. ولقد توصل محمد بمحوه كل صورة في المعابد وإبطاله كل تمثيل لذات الخالق المطلق ـ إلىٰ تخليص الفكر الإنساني من عقيدة التجسيد الغليظة».

السير موير:


السير موير

قال في كتابه «تاريخ محمد»: « إن محمدًا نبي المسلمين لقب بالأمين منذ الصغر، بإجماع أهل بلده؛ لشرف أخلاقه وحسن سلوكه. ومهما يكن هناك من أمر فإن محمدًا أسمىٰ من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرفه من جهله وخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم».

شبرك النمساوي:


شبرك النمساوي

يقول شبرك: «إن البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها، إذ أنه رغم أميته استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أن يأتي بتشريع سنكون نحن الأوروبيين أسعد ما نكون إذا توصلنا إلىٰ قمته».

محاسن الإسلام

لقد أنزل الله كتبًا سماوية على رسله، قال تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الأنعام، الآيات ٨٣ – ٨٧].

و قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [الأنعام، الآية ٩١].

ولا شكَّ أنَّ الله قد اختارَ لعبادِه هذا الدين وارتضاه لهم، فإنّه جعله الدينَ السماوي الخاتم، وختمَ بالقرآن كتبَه السماوية، كما ختمَ بنبيِّه محمّدﷺ الأنبياء والمرسلين، فلا نبيَّ ولا رسول بعده.

لذا كان أمرًا طبيعيًّا أنْ تتوافرَ فيه مزايا ومحاسن لم تكن فيما قبلَه مِن الشـرائع السماوية، ويكفي أن نشيرَ فيما يلي إلى بعضِها، فنقول:

١- الإسلامُ دين الله

الإسلام هو الدين الذي ارتضاه الله لنفسه، وبعث به رسله، وأذن لخلقه أن يعبدوه من خلاله، فكما لا يشابه الخالق المخلوق، فكذلك لا يشابه دينه، وهو الإسلام، قوانين الخلق وأديانهم، وكما اتصف سبحانه بالكمال المطلق فكذلك دينه له الكمال المطلق، في الوفاء بالشرائع التي تصلح معاش الناس ومعادهم، والإحاطة بحقوق الخالق سبحانه وواجبات العباد نحوه، وحقوق بعضهم على بعض، وواجبات بعضهم تجاه بعض.

٢- الإسلامُ يصل الخالق بالمخلوق:

اختص كلُّ مذهبٍ باطل وكلُّ ملةٍ بأنها تصل الإنسان بإنسان مثله عرضةً للموت والضعف والعجز والمرض، بل ربما تربطه بإنسان مات منذ مئات السنين وأصبح عظامًا وترابًا. بينما خُصّ الإسلام بأنه يصل الإنسان بخالقه مباشرة، فلا قسيسَ ولا قديس، ولا سر مقدس؛ إنما هو الاتصال المباشر بين الخالق والمخلوق، اتصال يربطُ العقل بربّه فيستنير ويسترشد ويسمو ويتعالىٰ ويطلب الكمال، ويترفع عن السفاسف والصغائر، إذ كل قلب لم يرتبط بخالقه فهو أضل من بهيمة الأنعام.

وهو اتصال بين الخالق والمخلوق، يتعرف من خلاله علىٰ مراد الله منه، فيعبده علىٰ بصيرة، ويتعرف علىٰ مَوَاطن رضاه فيطلبها، ومواطن سخطه فيجتنبها.

وهو اتصال بين الخالق العظيم وبين المخلوق الضعيف الفقير، فيطلب منه المدد والعون والتوفيق، ويسأله أن يحفظه من كيد الكائدين وعبث الشياطين.

٣- الإسلام يُراعي مصالح الدنيا والآخرة:

بنيت شريعة الإسلام علىٰ مراعاة مصالح الدنيا والآخرة معًا، وإتمام مكارم الأخلاق. أما بيان مصالح الآخرة: فقد بَيَّـنَ هذا الشرع وجوهها، ولم يغفل منها شيئًا، بل فسَّرَهَا وأوضحها؛ لئلا يُجهل منها شيء، فوعد بنعيمها وتوعد بعذابها.

وأما بيان المصالح الدنيوية: فقد شرع الله في هذا الدين ما يحفظ علىٰ الإنسان دينه ونفسه وماله ونسبه وعرضه وعقله.

أما بيان مكارم الأخلاق: فقد أمر بها ظاهرًا وباطنًا، ونهىٰ عن رذائلها

وسفاسفها، فمن المكارم الظاهرة: النظافة والطهارة والتنزه عن الأقذار والأوساخ، وندب إلىٰ التطيب وتحسين الهيئة، وحرم الخبائث كالزنىٰ، وشرب الخمر والميسر، وأكل الميتة والدم ولحم الخنزير، وأمر بأكل الطيبات ونهىٰ عن الإسراف والتبذير.

أما النظافة الباطنية فترجع إلىٰ التخلي عن مذموم الأخلاق، والتحلي بمحامدها ومستحسنها، فالأخلاق المذمومة: كالكذب والفجور، والغضب، والحسد، والبخل، ومهانة النفس، وحب الجاه، وحب الدنيا والكبر، والعُجْب والرياء. ومن الأخلاق المحمودة: حسن الخلق، وحسن الصحبة للخلق، والإحسان إليهم، والعدل، والتواضع، والصدق، وكرم النفس، والبذل والتوكل علىٰ الله، والإخلاص، والخوف من الله، والصبر والشكر(١).

٤- الإسلام دين اليسر:

يعدُّ اليسرُ إحدىٰ الصفات التي تميز هذا الدين؛ ففي كل شعيرة من شعائره يسر، وكل عبادة من عبادته يسر.

وأول هذا اليسر: أنَّ من يريد أن يدخل في هذا الدين فلا يحتاج إلىٰ وساطة بشرية، أو اعتراف بماضٍ سابق، بل كل ما عليه أن يتطهر ويتنظف، ويشهد أنْ لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن يعتقد معناهما ويعمل بمقتضاهما. وقال تعالىٰ: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام، الآية ١٢٥].

ثم إنَّ كل عبادة يدخلها اليسر والتخفيف إذا سافر الإنسان أو مرض، ويكتب له من العمل مثلما كان يعمل صحيحًا مقيمًا. بل إن حياة المسلم تصبح ميسرة مطمئنة، بخلاف حياة الكافر فإنها ضنك وعسر.

---

(١) انظر الإعلام بما في دين النصارىٰ من الفساد والأوهام، للقرطبي، تحقيق أحمد بن حجازي أحمد، دار التراث العربي، القاهرة، ١٩٨٠م، ص ٤٤٢-٤٤٥.

٥- الإسلام دين العدل والتواضع:

إنّ الذي شرع الشرائع الإسلامية هو الله وحده، وهو خالق الخلق كلهم: الأبيض والأسود، والصغير والكبير، والذكر والأنثىٰ وكل بلغته وأرضه، وهم جميعًا تحت حكمه وعدله ورحمته سواء. وقد شرع لكلٍّ من الذكر والأنثىٰ ما يناسبه، فحينئذ يستحيل أن تحابي الشريعةُ الرجلَ علىٰ حساب المرأة، أو تفضل المرأة وتظلم الرجل، أو تخص الإنسان الأبيضَ بخصائص وتحرم منها الإنسان الأسود، فالكل أمام شرع الله سواء لا فرق بينهم إلا بالتقوىٰ، ومن المستحيل أن يأخذ الكبير حق الصغير أو يظلمه، فكلٌّ له حقوق وعليه واجبات ومن لم يرحم صغيرنا ويحترم كبيرنا فليس منا، وأن الله يستحي من ذي شيبة، ولنا في خادم الحرمين الملك سلمان بن عبد العزيز - حفظه الله -أكبر الأمثلة في التواضع ومساعدة المحتاجين كما هو موضح في الصور المرفقة.



خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز - حفظه الله - يصافح رجلًا مسنًّا قعيدًا، فهو أب وأخ لهذا الشعب الذي يكن له صادق المحبة والوفاء



خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز – حفظه الله – مع أطفال أيتام، وهذا امتثال من خادم الحرمين الشريفين لأوامر ديننا الحنيف.



خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز – حفظه الله – بكل تواضع يقود الكرسي المتحرك لأحد المعاقين.



خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز – حفظه الله – يمازح أحد الأطفال المعاقين

٦- الإسلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر:

تضمّنَ الشرعُ الإسلامي مزيّةً شريفة، وخصيصةً منيفة، ألا وهي: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. فيجب علىٰ كل مسلم ومسلمة بالغ عاقل مستطيع، أن يأمر وينهىٰ وفق استطاعته، حسب مراتب الأمر والنهي، وهي أن يأمر أو ينهىٰ بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه.

وبهذا تصبح الأمة كلها رقيبة علىٰ الأمة، فكل فرد يجب عليه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر علىٰ كل مَنْ قَصَّرَ في معروف أو ارتكب منكرًا، سواء كان حاكمًا أم محكومًا، علىٰ حسب استطاعته ووفق الضوابط الشرعية التي تضبط هذا الأمر.

فهذا الأمر كما ترىٰ واجبٌ علىٰ كل فرد، علىٰ حسب استطاعته، في حين تفخر كثيرٌ من النظم السياسية المعاصرة بأنها تتيح لأحزاب المعارضة أن تراقب سير العمل الحكومي وأداء الأجهزة الرسمية.

وختامًا، فإنه يمكن لنا أنْ نجمل محاسن أخرى للإسلام في النقاط التالية:

١- الإسلام نقلَ البشَرَ مِن ظُلمة الشِّرْكِ وعبادة المخلوق إلىٰ التوحيد وإفراد الخالق بالعبودية؛ قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٥٧].

٢- أنقذَ الإسلامُ النساءَ مما كان يقع عليهنَّ مِن ظُلْم، مثل: وأد البنات، والحرمان من الحقوق، والميراث وسوء المعاملة. قال تعالىٰ: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ ﴿١٩﴾﴾ [النساء، الآية ١٩].

٣- يتطلب الإسلام من معتنقيه نظافة روحية وجسدية. قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة، الآية ٦].

٤- يمنع الإسلام التعدّي علىٰ مخلوقات الله؛ سواء كانت بشرًا، أم حيوانًا، أم نباتًا. قال تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ

نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١٥١﴾ ﴾ [الأنعام، الآية ١٥١].

٥- يُحَمِّلُ الإسلامُ تابعيه مسؤوليةَ دعوة الناس لدين الله إنقاذًا لهم من النار. قال تعالىٰ: ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ١٠٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأعراف، الآيتان ٣٥ - ٣٦].

٦- يمنع الإسلام تناولَ كل ما يعبث بالعقول من خمور أو مخدرات وكذلك اللحوم المحرمة، ويحرم كذلك أكل كل ما لم يُذكر اسم الله عليه. قال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ [المائدة، الآية ٩٠].

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾ [البقرة، الآية ١٧٣].

قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسۡقٞۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ وَإِنۡ أَطَعۡتُمُوهُمۡ إِنَّكُمۡ لَمُشۡرِكُونَ ﴾ [الأنعام، الآية ١٢١].

٧- يحافظ الإسلام علىٰ الأعراض والأنساب، فيمنع الزنىٰ والفحش والبغاء. قال تعالىٰ: ﴿ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴾ [الإسراء، الآية ٣٢].

٨- يحافظ الإسلام على ممتلكات الغير، فيمنع السرقة والنهب وأكل أموال الناس بالباطل. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴾ [النساء، الآية ٢٩].

٩- يطالب الإسلامُ بالتكافل الاجتماعي، فيفرض الزكاة ويشجع الصدقات لتُعطى للفقراء. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴾ [التوبة، الآية ٦٠].

١٠- يسوّي الإسلام بين عباد الله، بغض النظر عن ألوانهم وأجناسهم، فلا يفرق بين أبيض وأسود، ولا أعجمي ولا أعرابي، ولا أبكم ولا أعمى، ولا غيرهما إلا بالتقوى. قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات، الآية ١٣].

١١- يفرضُ الإسلامُ خمسَ صلوات على تابعيه؛ ليكونوا على اتصال بخالقهم في جميع أوقات اليوم قال تعالى: ﴿ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا ﴾ [النساء، الآية ١٠٣].

١٢- أبواب اكتساب الأجر لا حصر لها، فللمسلم الأجر في كل ما يفعله راجيًا به رضا الله. قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام، الآية ١٦٠].

١٣- يترك الإسلامُ بابَ التوبة مفتوحًا أمام جميع الناس؛ مما يبعث على الطمأنينة النفسية والإقبال على التوبة. قال تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الزمر، الآية ٥٣].

١٤- بساطة الإسلام وقدرة شتى طبقات الناس على فهمه تجعل الناس يقبلون عليه دون أية حيرة. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام، الآية ١٦١].

١٥- مرونة الإسلام وقدرته على التكيف مع المستجدات، جعلته يحافظ على أصالته. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف، الآية ١٠٨].

١٦- الإسلام هو الدين الوحيد الذي يمتلك أتباعه كتابًا سماويًّا محفوظًا كما هو، منذ أنزله الله على نبيه وحتى تقوم الساعة. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر، الآية ٩].

١٧- نبي الإسلام هو النبي الوحيد الذي اعتنى أتباعه بأدق تفاصيل حياته وما صدر عنه من قول أو عمل، وسنته المطهرة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي. قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥﴾ [النجم، الآيات ٣ - ٥].

١٨- بينما كانت رسائلُ أنبياءِ الله السابقين موجهة لأقوام محددين ولأوقات محددة، فإن الإسلام موجه لسائر البشر وإلى أن تقوم الساعة. قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبأ، الآية ٢٨].

١٩- الإسلام هو الدين الوحيد على وجه البسيطة الذي من خلاله يعبد أتباعه خالقهم بحسب تعليماته، وليس كما كتب البعض فيما يسمى تجاوزًا: كتبًا مقدسة. قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام، الآية ١٥٣].

٢٠- يأمر الإسلامُ بالرأفة بالضعفاء والمساكين والمرضى وكبار السن والفقراء.

قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا ﴿٨٣﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٨٣].

٢١- ينقي الإسلامُ سِيَرَ أنبياء الله من العيوب التي اتهمهم بها غير المسلمين. قال تعالى: ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الأنبياء، الآيتان ٧٢ - ٧٣].

٢٢- يساوي الإسلامُ بين الفقير والغني في المعاملة وفي المساجد والمجالس، فلا يحق لغني إقامة فقير من مكانه ليجلس فيه. قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات، الآية ١٣].

٢٣- يفرض الإسلامُ الصيامَ على المسلمين ليعلّمهم ضبطَ النفس والإحساس بما يشعر به الفقراء من الحرمان، فيدفعهم ذلك إلى الصدقات. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة، الآية ١٨٣].

٢٤- يرفع الإسلام من نفس الإنسان، فلا يرى متاع الدنيا أهم ما يسعى إليه. قال تعالى: ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء، الآية ٧٧].

٢٥- لا يفرق الإسلام بين المسلم وغيره في الصدقات. قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة، الآية ٦٠].

٢٦- يمنح الإسلامُ الجارَ حقوقًا عظيمة، حتى ولو لم يكن مسلمًا. قال تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء، الآية ٣٦].

٢٧- يحث الإسلام على احترام الكبير ورحمة الصغير. قال رسول الله ﷺ: «ليس منا من لم يرحم صغيرنا ويعرف شرف كبيرنا»(١).

٢٨- يُقرّرُ الإسلام حقوقًا عظيمة للوالدين، حتى ولو لم يكونا مُسلمَيْن. قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء، الآيتان ٢٣ - ٢٤].

٢٩- يفرض الإسلام حقوقًا للطفل حتى قبل ولادته. قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم، الآية ٣٢].

٣٠- يفرض الإسلام الاعتراف بجميع أنبياء الله واحترامهم. قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٨٥].

٣١- يفرضُ الإسلام حقوقًا حتى للموتى. عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أسرعوا بالجنازة؛ فإن تك صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك غير ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»(٢). وقال الرسول ﷺ: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له» [مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٩١/١].

- قَبُولُ الآخرِ في الإسلام (مكانةُ غَيرِ المُسْلِمين في الحضارة الإسلامية):

كثيرةٌ هي تلك الأقوال التي ترى أن الإسلامَ هو شريعةُ الحرب

(١) سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م، ج٣، ص ٣٨٦، رقم الحديث ١٩٢٠.

(٢) صحيح البخاري ٢ / ٨٦، حديث رقم ١٣١٥. صحيح مسلم، ٢ / ٦٥١، رقم الحديث ٩٤٤.

والاعتداء، وسفك الدماء، وكثيرٌ من المستشرقين قد أذاعَ تلك الصورة المشوّهة عن الإسلام في كتاباته. فهذا كارل بروكلمان (ت ١٩٥٦م) يعلنُها صراحةً في كتابه «تاريخ الشعوب الإسلامية»، يقول: «يتحتّمُ علىٰ المسلم أَنْ يعلنَ العداوة علىٰ غير المسلمين حيث وجدهم؛ لأن محاربة غير المسلمين واجب ديني»[(١)]، وهذا منطق غير صحيح ومخالف لمفاهيم الإسلام وتعاليمه التي ألزمَ بها المُسلمين في شئون حياتِهم المختلفة.

وعلىٰ الطرف الآخر، فإننا نجد المنصفين منهم يرون أن انتشار الإسلام في العالم لم يكن بالسلاح والإرهاب، وإنما كان بفضل تسامحه مع الآخرين وتعاملِه الطيّب معهم. فهذا توماس أرنولد يقول: «تحوّلَ البدوُ المسيحيون إلىٰ الإسلام بالتسامح»[(٢)]. ولقد كان في الجزيرة العربية وبلاد الشام مسيحيون وأهل كتاب، وقد أرسل النبي ﷺ إلىٰ أهل اليمن جماعةً من أكابر أصحابه يعلمونهم الإسلام، ومنهم الصحابي الجليل معاذ بن جبل، الذي قال له مُعَلّما إياه: «إنك تَقْدَمُ علىٰ قوم أهل كتاب، فليكن أوّلَ مَا تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالىٰ، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله فرض عليهم زكاة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتَوَقّ كرائمَ أموالِ النّاسِ»[(٣)].

بل يذهب توماس أرنولد إلىٰ أبعد مِن ذلك؛ فيعترف بأنَّ العقيدةَ الإسلامية «تلتزمُ التسامحَ، وحرية الحياة الدينية لجميع أتباع الديانات الأخرىٰ... وقد ظلَّ الكُفّار ـ علىٰ وجه الإجمالِ ـ ينعمون في ظلِّ الحكم الإسلاميّ بدرجةٍ مِن التَّسامحِ لم نجد لها مثيلًا في أوروبَا حتىٰ عصورٍ حديثةٍ جدًّا، وأنَّ التحويلَ

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية، تأليف: كارل بروكلمان، نقله إلىٰ العربية: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت ط٥، ١٩٦٨م ص ٧٨.

(٢) الدعوة إلىٰ الإسلام ٦٩.

(٣) صحيح البخاري ٢/ ١١٩، حديث رقم (١٤٥٨).

إلىٰ الإسلامِ عن طريقِ الإكراهِ محرّمٌ. . . وأنَّ مجرّد وجود كثيرين جدًّا مِن الفرقِ والجَماعاتِ المسيحية في الأقطارِ التي ظلّت قرونًا في ظلِّ الحكم الإسلامي لدليلٌ ثابتٌ علىٰ ذلك التسامحِ الذي نعمَ به هؤلاءِ المسيحيون»[1].

ولقد كفل الإسلامُ لغير معتنقيه من اليهود والنَّصارىٰ حقوقًا وحريّات لم يكفلها أي دين أو مذهب أو شريعة أخرىٰ لهم، ولم يجبرهم الإسلام علىٰ الدخول فيه، نذكر مِن ذلك:

١ - الحماية مِن أيِّ اعتداء خارجيٍّ:

حيث يجب علىٰ المسلمين حماية أهل الذمة المرتبطين معهم بالميثاق والولاء، ويجب علىٰ الحاكم بما له من سلطة شرعية وقوة عسكرية توفيرُ هذه الحماية لهم. وقد صرَّح بذلك غير واحد من فقهاء المسلمين، مثل ابن حزم الظاهري في كتابه «مراتب الإجماع»، والقرافي المالكي في كتابه «الفروق»[2] بل إن شيخ الإسلام ابن تيمية حينما تغلَّب التتار علىٰ الشام، وذهب الشيخ إلىٰ حاكمها آنذاك ليفاوضه علىٰ إطلاق الأسرىٰ، فإنه لم يقبل منه سوىٰ إطلاق جميع الأسرىٰ المسلمين واليهود والنصارىٰ؛ معللًا ذلك بأنهم في ذمة المسلمين نظير ما يدفعونه من جزية، لهم ما للمسلمين من حقوق، وعليهم ما علىٰ المسلمين من واجبات.

وقبل ذلك حينما تعلل الصليبيون بأنهم ما جاءوا إلىٰ الشام إلا لحماية النصارىٰ من ظلم الحكام المسلمين آنذاك، فرفض نصارىٰ الشام هذه الذريعة ورفضوا التعاون مع الأمراء الصليبيين.

---

(١) الدعوة إلىٰ الإسلام، تأليف: توماس أرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١ ص ٤٦١ ـ ٤٦٢.

(٢) الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، أحمد بن إدريس القرافي، تحقيق ودراسة: محمد أحمد سراج وعلي جمعة، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ٣/ ٢٩ وما بعدها، الفرق ١١٩.

٢- الحماية مِن الظُّلم الداخلي:

إن الظلم الاجتماعي أمرٌ يرفضه الإسلام كلّية لجميع أعضاء مجتمعه؛ سواء أكانوا مسلمين أم غير مسلمين، بل إن الرسول الكريم يحذّرُ من ظلم غير المسلمين من أهل العهد والذمة، فيقول: «مَنْ ظَلَمَ مُعاهدًا أو انتقصه حقًّا، أو كلَّفَه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس منه، فأنا حجيجه يوم القيامة»[١]. وفي عهد النبي ﷺ لأهل نجران أنه: «لا يؤخذ منهم رجل بظلمِ آخر»[٢].

وعلى هذا النهج سار الخلفاء الراشدون من بعده، فهذا عمر بن الخطاب يسأل الوافدين عليه من الأقاليم عن حال أهل الذمة، خشية أن يكون أحدٌ من المسلمين قد أفضى إليهم بأذى، فيقولون له: ما نعلمُ إلَّا وفاءً.

وهكذا، فإنَّ الإسلامَ يكفل للذميين مجموعةً من الحقوق، يمكنُ أنْ نجملها في:

أ- حماية الدماء والأبدان:

إنَّ حق الحماية المقرر لأهل الذمة يتضمن حماية دمائهم وأنفسهم وأبدانهم، كما يتضمن حماية أموالهم وأعراضهم... فدماؤهم وأنفسهم معصومة باتفاق المسلمين، وقتلهم حرام بالإجماع؛ يقول الرسول ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة، وإنَّ ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عامًا»[٣].

ولهذا أجمع فقهاء الإسلام على أنَّ قتل الذمي كبيرة من كبائر المحرمات للوعيد الوارد في الحديث، ولكنهم اختلفوا: هل يُقتل المسلم بالذمي إذا قتله أم لا؟.

---

(١) البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ٩/ ٢٠٥.

(٢) رواه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم في كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م، ص٧٢ - ٧٣.

(٣) البخاري: الجامع الصحيح، ٣/ ١١٥٤؛ مسند أحمد، ١١/ ٣٥٦ (٦٧٤٥).

لقد ذهب جمهور الفقهاء، ومنهم الشافعي وأحمد، إلىٰ أنَّ المسلم لا يُقتل بالذمي؛ مستدلين بالحديث الصحيح: « لا يُقتل مسلمٌ بكافر »[١]. والحديث الآخر: «ألا لا يُقتل مؤمن بكافر، ولا ذو عهد في عهده»[٢]. وقال مالك والليث: "إذا قتلَ المسلمُ الذميَّ غيلة يُقتل به، وإلا لم يُقتل به[٣]. وهو الذي فعله أبَان بن عثمان حين كان أميرًا علىٰ المدينة، وقتل رجلٌ مسلمٌ رجلًا من القبط، قتلَه غيلة، فقتله به، وأبَان معدودٌ من فقهاء المدينة[٤].

ولقد طبّقَ الإسلامُ قاعدةً ضمنت حقوق المسلم وغير المسلم، فالإسلام قد فرض علىٰ أبنائه الجهادَ لرفع رايته، وللدفاع عن الأرضِ والعِرض، وجعل ثواب ذلك جنّةً عرضها السماوات والأرض. أمَّا غير المسلم فهو غيرُ مكرهٍ علىٰ تركِ دينه، وهو مع ذلك مكتنَفٌ ومدافَعٌ عنه، ومُحافَظٌ علىٰ روحه ودمه وعرضه في مقابل هذا القدر القليل مِن المال (الجزية)، ولم تفرض الجزية علىٰ الشيوخ والنساء والأطفال، إنما كانت علىٰ القادر، وهذا يظهرُ بوضوح مِن خلالِ رد الحسن البصري علىٰ سؤال الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز مستفتيًا لَه: ما بال الخلفاء الراشدين تركوا أهل الذمة وما هم عليه من نكاح المحارم واقتناء الخمور والخنازير؟!

فأجاب الحسن: إنما بذلوا الجزية ليُتّرَكُوا وما يعتقدون، وإنما أنت متّبعٌ لا مبتدعٌ[٥].

---

(١) رواه أحمد في مسنده، ١١/ ٢٤٢، (٦٦٦٢). والترمذي في سننه، ج٣/ ٧٧، (١٤١٣). وابن ماجه في سننه، ٣/ ٦٧١، (٢٦٥٩).

(٢) رواه أحمد، ١١/ ٢٨٧، (٦٧٩٦)؛ سنن النسائي، ٨/ ٢٤، (٤٧٤٥).

(٣) نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار للشوكاني، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن القيم ودار ابن عفان، الرياض - القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م، ٧/ ١٥٤.

(٤) انظر: الجوهر النقي مع السنن الكبرى، تأليف: علاء الدين ابن التركماني، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٤٦هـ، ٨/ ٣٤.

(٥) حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، لأبي الأعلىٰ المودودي، دار الأنصار، مصر، ١٩٧٨م، ص ١٨.

فكما حمىٰ الإسلام أنفسهم من القتل، فقد حمىٰ أبدانهم أيضًا مِن الضرب والتعذيب، فلا يجوز إلحاق الأذىٰ بأجسامهم، ولو تأخروا أو امتنعوا عن أداء الواجبات المالية المقررة عليهم كالجزية والخراج، هذا مع أن الإسلام تشدّدَ كلَّ التشددِ مع المسلمين إذا منعوا الزكاة. ولم يُجِزِ الفقهاء في أمر الذميين المانعين أكثر من أن يُحبَسوا تأديبًا لهم، بدون أن يصحب الحبس أي تعذيب أو أشغال شاقة، وفي ذلك يكتب أبو يوسف: أن حكيم بن هشام أحد الصحابة t رأىٰ رجلًا (وهو علىٰ حمص) يشمِّس ناسًا من النَّبط (أي يوقفهم تحت حر الشمس) في أداء الجزية، فقال: ما هذا؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله عَزَّ وَجَلَّ يُعذِّب الذين يعذبون الناس في الدنيا»[١].

وكتب عليّ رضي الله عنه إلىٰ بعض ولاته علىٰ الخراج: «إذا قدمتَ عليهم فلا تبيعنّ لهم كسوة شتاءً ولا صيفًا، ولا رزقًا يأكلونه، ولا دابةً يعملون عليها، ولا تضربن أحدًا منهم سوطًا واحدًا في درهم، ولا تُقِمْه علىٰ رجله في طلب درهم، ولا تَبعْ لأحد منهم عَرَضًا (متاعًا) في شيء من الخراج، فإنما أُمِرنا أن نأخذَ منهم العفو، فإن أنت خالفتَ ما أمرتك به، يأخذك الله به دوني، وإن بلغني عنك خلاف ذلك عزلتك». قال الوالي: إذن أرجع إليك كما خرجت من عندك! (يعني أن الناس لا يُدفعون إلا بالشدة) قال: وإن رجعتَ كما خرجتَ[٢].

ب- حماية الأموال: ومثل حماية الأنفس والأبدان حماية الأموال، هذا مما اتفق عليه المسلمون في جميع المذاهب، وفي جميع الأقطار، ومختلف العصور.

روىٰ أبو يوسف في كتاب (الخراج) ما جاء في عهد النبي ﷺ لأهل نجران: «ولنجران وحاشيتها جوار الله، وذمة محمد النبي رسول الله ﷺ؛ علىٰ أموالهم وملتهم وبِيَعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير»[٣].

(١) رواه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠١٧، رقم الحديث ٢٦١٣.
(٢) الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ١٥ - ١٦.
(٣) الخراج، لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م، ص ٧٢.

وفي عهد عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنِ "امنع المسلمين من ظلمهم والإضرار بهم، وأكل أموالهم إلا بحِلِّها". وفي كلام لعلي بن أبي طالب t "إنما بذلوا الجزية لتكون دماؤهم كدمائنا، وأموالهم كأموالنا".

وعلى هذا استقر عمل المسلمين طوال العصور؛ فمَن سرق مال ذمي قُطعت يده، ومَن غصبه عُزِّر، وأعيد المال إلى صاحبه، ومَن استدان من ذمي فعليه أن يقضي دَيْنه، فإن مَطَله وهو غني حبسه الحاكم حتى يؤدي ما عليه، شأنه في ذلك شأن المسلم ولا فرق. وبلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموالهم وممتلكاتهم أنه يحترم ما يعدونه -حسب دينهم- مالاً وإن لم يكن مالاً في نظر المسلمين. فالخمر والخنزير لا يعتبران عند المسلمين مالًا مُتقَوَّمًا، ومَن أتلف لمسلم خمرًا أو خنزيرًا لا غرامة عليه ولا تأديب، بل هو مُثَابٌ مأجور على ذلك؛ لأنه يُغيِّر منكرًا في دينه، يجب عليه تغييره أو يستحب، حسب استطاعته، ولا يجوز للمسلم أن يمتلك هذين الشيئين لا لنفسه ولا ليبيعها للغير.

أما الخمر والخنزير إذا ملكهما غير المسلم، فهما مالان عنده، بل من أَنْفَسِ الأموال، كما قال فقهاء الحنفية، فمن أتلفهما على الذمي غُرِّمَ قيمتهما.

جـ- حماية الأعراض: ويحمي الإسلام عِرض الذمي وكرامته، كما يحمي عِرض المسلم وكرامته، فلا يجوز لأحد أن يسبَّه أو يتهمه بالباطل، أو يشنع عليه بالكذب، أو يغتابه ويذكره بما يكره في نفسه أو نسبه أو خَلْقِه أو خُلُقه، أو غير ذلك مما يتعلق به.

يقول الفقيه الأصولي المالكي شهاب الدين القرافي في كتاب «الفروق»: «إن عقد الذمة يوجب لهم حقوقًا علينا؛ لأنهم في جوارنا وفي خفارتنا (حمايتنا) وذمتنا وذمة الله تعالى، وذمة رسول الله ﷺ ودين الإسلام، فمن اعتدى عليهم ولو بكلمة سوء أو غِيبة، فقد ضيَّع ذمة الله، وذمة رسوله ﷺ، وذمة دين الإسلام[1].

(١) الفروق، (أنوار البروق في أنواء الفروق)، لأحمد بن إدريس القرافي، تحقيق ودراسة محمد أحمد سراج وعلي جمعة، القاهرة، ٣/ ١٤، الفرق التاسع عشر والمائة.

وفي كتاب (الدر المختار): «يجب كف الأذىٰ عن الذمي وتحرم غيبته كالمسلم»، ويعلق العلامة ابن عابدين في حاشيته علىٰ ذلك بقوله: «لأنه بعقد الذمة وجب له ما لنا، فإذا حرمت غيبة المسلم حرمت غيبته، بل قالوا: إن ظلم الذمي أشد»(١).

د- التأمين والكفالة عند العجز والشيخوخة والفقر: ضمِن الإسلام لغير المسلمين في ظل دولته كفالة المعيشة الملائمة لهم ولمن يعولونه؛ لأنهم رعية للدولة المسلمة وهي مسئولة عن كل رعاياها، قال رسول الله ﷺ: «أَلَا كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٢).

وهذا ما مضت به سُنَّة الراشدين ومَن بعدهم؛ ففي عقد الذمة الذي كتبه خالد بن الوليد لأهل الحِيرة بالعراق، وكانوا من النصارىٰ: «وجعلتُ لهم: أيُّما شيخٍ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحتُ جزيته وعِيل من بيت مال المسلمين هو وعياله»(٣). وكان هذا في عهد أبي بكر الصِّدِّيق، وبحضره عدد كبير من الصحابة، وقد كتب خالد به إلىٰ الصِّدِّيق ولم ينكر عليه أحد، ومثل هذا يُعَدّ إجماعًا. ورأىٰ عمر بن الخطاب شيخًا يهوديًّا يسأل الناس، فسأله عن ذلك، فعرف أن الشيخوخة والحاجة ألجأتاه إلىٰ ذلك، فأخذه وذهب به إلىٰ خازن بيت مال المسلمين، وأمره أن يفرض له ولأمثاله من بيت المال ما يكفيهم ويصلح شأنهم، وقال في ذلك: «ما أنصفناه إذ أخذنا منه الجزية شابًّا، ثم نخذله عند الهرم!»(٤).

وعند مقْدِمِهِ الجابية من أرض دمشق مَرَّ عمر بن الخطاب t في طريقه بقوم مجذومين من النصارىٰ، فأمر أن يعطوا من الصدقات، وأن يجرىٰ عليهم

(١) الدر المختار وحاشية ابن عابدين عليه، ٣/ ٢٤٤ - ٢٤٦.
(٢) صحيح البخاري، ٩/ ٦٢، رقم الحديث(٧١٣٨).
(٣) رواه أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم في كتاب الخراج، ص١٤٤.
(٤) المصدر السابق، ص١٢٦.

القوت[1]؛ أي تتولى الدولة القيام بطعامهم ومؤونتهم بصفة منتظمة.

وبهذا تقرر الضمان الاجتماعي في الإسلام، باعتباره مبدأً عامًّا يشمل أبناء المجتمع جميعًا، المسلمين وغير المسلمين الذين يعيشون في أراضي المسلمين، ولا يجوز أن يبقى في المجتمع المسلم إنسان محروم من الطعام أو الكسوة أو المأوى أو العلاج، فإنَّ دفعَ الضَّررِ عنه واجبٌ دينيٌّ، مسلمًا كان أم ذميًّا. وذكر الإمام النووي في «المنهاج» أن من فروض الكفاية: دفع ضرر المسلمين ككسوة عارٍ، أو إطعام جائع إذا لم يندفع بزكاة وبيت مال.

ووضح العلامة شمس الدين الرملي الشافعي في «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج» أنَّ أهل الذمة كالمسلمين في ذلك، فدفع الضرر عنهم واجب.

٣- حرية التديُّن:

يحمي الإسلام فيما يحميه من حقوق أهل الذمة حَقَّ الحرية. وأول هذه الحريات: حرية الاعتقاد والتعبد، فلكل ذي دين دينُه ومذهبُه، لا يُجبر على تركه إلى غيره، ولا يُضغط عليه ليتحول منه إلى الإسلام. وأساس هذا الحق قوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ **[البقرة، الآية ٢٥٦]**، وقوله سبحانه: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ **[يونس، الآية ٩٩]**.

قال ابن كثير في تفسير الآية الأولى: أي لا تُكرِهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بَـيِّنٌ واضح، جلي دلائله وبراهينه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحد على الدخول فيه.

وسبب نزول الآية كما ذكر المفسرون يبين جانبًا من إعجاز هذا الدين؛ فقد رووا عن ابن عباس، قال: كانت المرأة تكون مقلاة قليلة النسل فتجعل على نفسها،

---

(١) فتوح البلدان، لأحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق: عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٧٧.

إنْ عاشَ لها ولد أن تُهَوِّدَه (كان يفعل ذلك نساء الأنصار في الجاهلية)، فلما أُجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار، فقال آباؤهم: لا ندع أبناءنا (يعنون: لا ندعهم يعتنقون اليهودية)، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ هذه الآية: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة، الآية ٢٥٦][(١)].

فرغم أن محاولات الإكراه كانت من آباء يريدون حماية أبنائهم من التبعية لأعدائهم المحاربين الذين يخالفونهم في دينهم وقوميتهم، ورغم الظروف الخاصة التي دخل بها الأبناء دين اليهودية وهم صغار، ورغم ما كان يسود العالم كله حينذاك من موجات العنت والاضطهاد للمخالفين في المذهب، فضلًا عن الدين، كما كان في مذهب الدولة الرومانية التي خيَّرت رعاياها حينًا بين التنصر والقتل، فلما تبنت المذهب المَلْكاني أقامت المذابح لكل مَن لا يدين به من المسيحيين من اليعاقبة وغيرهم.

أقول: رغم كل هذا، رفض الإسلام الإكراهَ على اعتناقِه، بل مَن هداه الله وشرح صدره ونوَّر بصيرته دخل فيه على بيِّنة، ومَن أعمى الله قلبه، وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرَهًا مقسورًا، كما قال ابن كثير. فالإيمان عند المسلمين ليس مجرد كلمة تُلفظ باللسان أو طقوس تُؤدَّى بالأبدان، بل أساسه إقرار القلب وإذعانه وتسليمه. ولهذا لم يعرف التاريخ شعبًا مسلمًا حاول إجبار أهل الذمة على الإسلام، كما أقرَّ بذلك المؤرخون الغربيون أنفسهم. وكذلك صان الإسلام لغير المسلمين معابدهم ورعى حرمة شعائرهم، بل جعل القرآن من أسباب الإذن في القتال حماية حرية العبادة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠ ﴾ [الحج: الآيتان ٣٩ – ٤٠].

(١) تفسير ابن كثير، ١/ ٣١٠.

وقد رأينا كيف اشتمل عهد النبي ﷺ إلى أهل نجران، أن لهم جوار الله وذمة رسوله على أموالهم وملَّتهم وبِيَعهم. وفي عهد عمر بن الخطاب إلى أهل إيلياء (القدس) نصٌّ على حُريتهم الدينية، وحرمة معابدهم وشعائرهم: "هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان: أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسائر ملَّتها، لا تُسكن كنائسهم، ولا تُهدم ولا ينتقص منها، ولا من حيزها، ولا من صليبها، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يُضار أحد منهم. ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود... »[١].

وفي عهد خالد بن الوليد لأهل عانات: «ولهم أن يضربوا نواقيسهم في أي ساعة شاءوا من ليل أو نهار، إلا في أوقات الصلاة، وأن يخرجوا الصلبان في أيام عيدهم»[٢]. وكل ما يطلبه الإسلام من غير المسلمين أن يراعوا مشاعر المسلمين، وحُرمة دينهم، فلا يظهروا شعائرهم وصلبانهم في الأمصار الإسلامية، ولا يُحْدِثوا كنيسة في مدينة إسلامية لم يكن لهم فيها كنيسة من قبل؛ وذلك لما في الإظهار والإحداث من تحدي الشعور الإسلامي مما قد يؤدي إلى فتنة واضطراب.

على أن هناك مِن فقهاء المسلمين مَن أجاز لأهل الذمة إنشاء الكنائس والبِيَع وغيرها من المعابد في الأمصار الإسلامية، وفي البلاد التي فتحها المسلمون عُنوة أي: إن أهلها حاربوا المسلمين إن أذن لهم إمام المسلمين بذلك، بناء على مصلحة رآها، ما دام الإسلام يقرهم على عقائدهم.

وقد ذهب إلى ذلك الزيدية والإمام ابن القاسم من أصحاب مالك[٣]. ويبدو أن العمل جرى على هذا في تاريخ المسلمين، وذلك منذ عهد مبكر، فقد بُنِيت في مصر عدة كنائس في القرن الأول الهجري، مثل كنيسة مارمرقص بالإسكندرية ما بين (٣٩ - ٥٦هـ).

(١) تاريخ الطبري، لمحمد بن جرير الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ٣/ ٦٠٩.

(٢) الخراج لأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم، ص١٤٦.

(٣) انظر: أحكام الذميين والمستأمنين، ص٩٦ - ٩٩.

كما بُنِيت أول كنيسة بالفسطاط في حارة الروم، في ولاية مَسْلَمة بن مُخَلَّد على مصر بين عامي (٤٧ – ٦٨ هـ)، كما سمح عبد العزيز بن مروان حين أنشأ مدينة حلوان ببناء كنيسة فيها، وسمح كذلك لبعض الأساقفة ببناء ديرين. وهناك أمثلة أخرى كثيرة، وقد ذكر المؤرخ المقريزي في كتابه "الخِطط" أمثلة عديدة، ثم ختم حديثه بقوله: وجميع كنائس القاهرة المذكورة محدَثة في الإسلام بلا خلاف[1].

أما في القرى والمواضع التي ليست من أمصار المسلمين فلا يُمنعون من إظهار شعائرهم الدينية وتجديد كنائسهم القديمة وبناء ما تدعو حاجتهم إلى بنائه؛ نظرًا لتكاثر عددهم. وهذا التسامح مع المخالفين في الدين مِن قوم قامت حياتهم كلها على الدين، وتمَّ لهم به النصر والغلبة، أمر لم يُعهد في تاريخ الديانات، وهذا ما شهد به الغربيون أنفسهم.

يقول العلامة الفرنسي جوستاف لوبون: «رأينا مِن آي القرآن التي ذكرناها آنفًا أن مسامحة محمد لليهود والنصارى كانت عظيمة إلى الغاية، وأنه لم يقل بمثلها مؤسسو الأديان التي ظهرت قبله كاليهودية والنصرانية على وجه الخصوص، وسنرى كيف سار خلفاؤه على سنته».

وقد اعترف بذلك التسامح بعض علماء أوروبا المرتابين أو المؤمنين القليلين الذين أمعنوا النظر في تاريخ العرب، والعبارات الآتية التي أقتطفها من كتب الكثيرين منهم تثبت أن رأينا في هذه المسألة ليس خاصًّا بنا. قال روبرتسن في كتابه «تاريخ شارلكن»: «إن المسلمين وحدهم الذين جمعوا بين الغَيْرة لدينهم وروح التسامح نحو أتباع الأديان الأخرى، وأنهم مع امتشاقهم الحسام نشرًا لدينهم، تركوا مَن لم يرغبوا فيه أحرارًا في التمسك بتعاليمهم الدينية»[2].

---

(١) انظر: الإسلام وأهل الذمة للدكتور علي حسني الخربوطلي، ص ١٣٩، وانظر أيضًا: الدعوة إلى الإسلام تأليف توماس أرنولد، ص ٨٤ – ٨٦، ط. ثالثة. ترجمة د. حسن إبراهيم وزميليه.

(٢) حاشية من صفحة ١٢٨ من كتاب «حضارة العرب» لجوستاف لوبون.

٤- حرية العمل والكَسْب: كفل الإسلامُ لغير المسلمين حرية العمل والكسب، بالتعاقد مع غيرهم، أو بالعمل لحساب أنفسهم، ومزاولة ما يختارون من المهن الحرة، ومباشرة ما يريدون من ألوان النشاط الاقتصادي، شأنهم في ذلك شأن المسلمين. فقد قرر الفقهاء أن أهل الذمة في البيوع والتجارات وسائر العقود والمعاملات المالية كالمسلمين، ولم يستثنوا من ذلك إلا عقد الربا، فإنه محرم عليهم كالمسلمين وقد رُوِي أن النبي ﷺ كتب إلى مجوس هجر: «إما أن تذروا الربا أو تأذنوا بحرب من الله ورسوله»[1]. كما يمنع أهل الذمة مِن بيع الخمور والخنازير في أمصار المسلمين، وفتح الحانات فيها لشرب الخمر وتسهيل تداولها أو إدخالها إلى أمصار المسلمين على وجه الشهرة والظهور، ولو كان ذلك لاستمتاعهم الخاص، سدًّا لذريعة الفساد وإغلاقًا لباب الفتنة. وفيما عدا هذه الأمور المحدودة، يتمتع الذميون بتمام حريتهم، في مباشرة التجارات والصناعات والحِرَف المختلفة.

وهذا ما جرى عليه الأمر، ونطق به تاريخ المسلمين في شَتَّى الأزمان. وكادت بعض المهن تكون مقصورة عليهم كالصيرفة والصيدلة وغيرهما. واستمر ذلك إلى وقت قريب في كثير من بلاد الإسلام، وقد جمعوا من وراء ذلك ثروات طائلة معفاة من الزكاة ومن كل ضريبة إلا الجزية، وهي ضريبة على الأشخاص القادرين على حمل السلاح، كما سيأتي، وهي مقدارٌ جِدُّ هزيل.

قال آدم ميتز: «ولم يكن في التشريع الإسلامي ما يغلق دون أهل الذمة أي باب من أبواب الأعمال، وكانت قدمهم راسخةً في الصنائع التي تدرُّ الأرباح الوافرة، فكانوا صيارفة وتجارًا وأصحاب ضِياع وأطباء، بل إن أهل الذمة نظموا أنفسهم، بحيث كان معظم الصيارفة الجهابذة في الشام مثلًا يهودَ. على حين كان أكثر الأطباء والكتبة نصارى. وكان رئيس النصارى ببغداد هو طبيب الخليفة، وكان رؤساء اليهود وجهابذتهم عنده»[2].

---

(١) الموالاة والمعادة في الشريعة الإسلامية، لمحماس بن عبد الله الجلعود (ت١٤٢٨هـ)، دار اليقين للتوزيع والنشر، ط١، ٢ / ٧٧٦.

(٢) **الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري للأستاذ آدم ميتز أستاذ اللغات الشرقية**

٥- تولِّي وظائف الدولة:

لأهل الذمة الحق في تولى وظائف الدولة كالمسلمين، إلا ما غلب عليها الصبغة الدينية كالإمامة، ورئاسة الدولة، والقيادة في الجيش، والقضاء بين المسلمين، والولاية على الصدقات، ونحو ذلك. فالإمامة أو الخلافة رياسة عامة في الدين والدنيا، خلافة عن النبي ﷺ، وأن لا يخلف في ذلك إلا مسلم، ولا يعقل أن ينفذ أحكام الإسلام ويرعاها إلا مسلم.

وقيادة الجيش ليست عملًا مدنيًّا صرفًا، بل هي عمل من أعمال العبادة في الإسلام؛ إذ الجهاد في قمة العبادات الإسلامية. والقضاء إنما هو حكم بالشريعة الإسلامية، ولا يطلب من غير المسلم أن يحكم بما لا يؤمن به.

ومثل ذلك الولاية على الصدقات ونحوها من الوظائف الدينية، وما عدا ذلك من وظائف الدولة يجوز إسناده إلى أهل الذمة إذا تحققت فيهم الشروط التي لا بد منها من الكفاية والأمانة والإخلاص للدولة. وقد بلغ التسامح بالمسلمين أن صرح فقهاء كبار مثل الماوردي (ت٤٥٠هـ) في «الأحكام السلطانية» بجواز تقليد الذمي وزارة التنفيذ. ووزير التنفيذ هو الذي يبلغ أوامر الإمام ويقوم بتنفيذها، ويمضي ما يصدر عنه من أحكام. وهذا بخلاف وزارة التفويض التي يكل فيها الإمام إلى الوزير تدبير الأمور السياسية والإدارية والاقتصادية بما يراه. وقد تولى الوزارة في زمن العباسيين بعض النصارى أكثر من مرة، منهم نصر بن هارون سنة ٣٦٩ هـ، وعيسى بن نَسْطورس سنة ٣٨٠هـ. وقبل ذلك كان لمعاوية بن أبي سفيان كاتب نصراني اسمه سرجون. وقد بلغ تسامح المسلمين في هذا الأمر أحيانًا إلى حد المبالغة والجور على حقوق المسلمين؛ مما جعل المسلمين في بعض العصور يشكون من تسلط اليهود والنصارى عليهم بغير حق. وقد قال المؤرخ

بجامعة بازل بسويسرا. ترجمة الأستاذ: محمد عبد الهادي أبو ريدة، الطبعة الرابعة، فصل: «اليهود والنصارى»، ج١، ص٨٦.

الغربي آدم ميتز في كتابه الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري[١]: «من الأمور التي نعجب لها كثرة عدد العمال (الولاة وكبار الموظفين) والمتصرفين غير المسلمين في الدولة الإسلامية، فكأن النصارىٰ هم الذين يحكمون المسلمين في بلاد الإسلام والشكوىٰ من تحكيم أهل الذمة في أبشار المسلمين شكوىٰ قديمة».

ولم تكن هذه الحقوق وتلك الضمانات علىٰ المستوىٰ التنظيري فقط، بل طبقها الخلفاء والحكام المسلمون، وحثّوا ولاتهم وعمّالهم ورعيتهم عليها. وفيما يلي عرضٌ لبعضِ النماذج الحقيقية لقبول الآخر في المجتمع الإسلامي عبر حقب وفترات زمنية مختلفة:

لقد كان تسامحُ الرسول ﷺ مع المشركين، بل وتعامله معهم - رغم كفرهم - خيرَ مثالٍ علىٰ ذلك، فلقد دعا الله لهم بالهداية حال رجوعه من الطائف رغم إيذائهم الشديد له.

وفي هجرته ﷺ كان دليله في الصحراء عبد الله بن أرقط -ويُقَالُ: أُريقط، وقد كان مشركًا- ليدلَّه هو وصاحبه علىٰ الطريق[٢].

وعند تأسيسه للمجتمع الجديد بالمدينة النبوية وضع كتابَه بين المسلمين (مهاجرين وأنصارًا) واليهود، الذي يعد دستور الدولة الإسلامية الأول، وضع فيه الأسس الأولىٰ للعلاقة بين المسلمين وغيرهم من الأمم، علاقة قائمة علىٰ التكامل لا علىٰ الفرقة والنزاع.

لقد كفل رسول الله ﷺ لليهود حقوقَهم كاملةً، قائلًا: «وأنه مَن تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصَر عليهم»[٣].

(١) الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، تأليف: آدم ميتز، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، ١/ ١٠٥.

(٢) السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق: مصطفىٰ السقا وآخرون ص ٤٨٠ وما بعدها.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، جمع: محمد حميد الله، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م ص ٥٩ وما بعدها.

وكذلك كان حالُه في حربه معهم، فقد كان يرفق بهم إذا نقضوا عهده، أو حاربهم فانتصر عليهم؛ فكان لا يعاقبهم إلا بمقدار ما يكُفُّ أيديهم عنه، وكان يحكِّم فيهم من يختارونهم أنفسهم(١).

ففي غزوة خيبر وجد المسلمون صحائف متعددة من التوراة، فجاء اليهود يطلبونها، فأمر بدفعها إليهم، مما جعل ولفنسون يقول: «لم يتعرض النبي ﷺ بسوء لصُحفهم المقدسة، ويذكرون إزاء ذلك ما فعله الرومان حين تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠م؛ إذ أحرقوا الكتب المقدسة، وداسوها بأرجلهم. وما فعله المتعصبون من النصارى في حروب اليهود في الأندلس، حيث أحرقوا ـ أيضًا ـ صحف التوراة. هذا هو البون الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام»(٢).

ولم يقتصر ذلك على اليهود فقط، بل شمل مشركي قريش وعَبَدة الأصنام؛ حتى إن الرسول ﷺ وهو يعقد صلح الحديبية، قبل رفض سهيل بن عمرو، ذكر تلقيبه ﷺ؛ لأن في ذلك اعترافًا بنبوته التي لا يؤمن بها سهيل وأضرابه من المشركين(٣).

وفي فتح مكة أظهر رسول الله ﷺ مدى سماحته وعفوِه وقبولِه للآخر حينما أمر أصحابه أن يدخلوا مكّةَ مسالمين، لا يتعرضون لأحد، رغم ما عاناه من قسوة قريش طيلة ثلاثة عشر عامًا قضاها هناك قبل هجرته، بل إنه جعل لأبي سفيان ـ سيد قريش آنذاك ـ من الشرف مَا جعله لبيت الله الحرام؛ حيث جعل بيتَه مكان أمن وأمان لمن التجأ إليه من كفار مكة(٤).

(١) تاريخ الإسلام، حسن إبراهيم حسن، ١/ ١٣٢.
(٢) تاريخ اليهود ببلاد العرب، ص ١٧٠.
(٣) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٣١٧.
(٤) السيرة النبوية، لابن هشام ٢/ ٤٠٣.

ومثلما شمل الإسلامُ العرب جميعًا مسلمهم وكافرهم، فإنه قبل جميع الأجناس الأخرىٰ من غير العرب وضمَّهم تحت رايته، فمن أصحابه ﷺ: سلمان الفارسي، الذي قال الرسولُ ﷺ في حَقِّه: «سلمان منا آل البيت»[1]. ومن أصحابه أيضًا: صهيب بن سنان الرومي، وبلال الحبشي.

إن هذا التسامح الذي علَّمه الرسول ﷺ لأصحابه جعل الكثير من غير العرب يقبلون علىٰ الإسلام ويستظلون بظلالِه، سواء أسلموا دونَ إكراهٍ، أم فَضَّلوا البقاء علىٰ دينهم حينما امتد نوره إليهم.

ونستطيع أن نلمس هذا التسامح في أكثر من اتجاه: ففي الجانب الديني نجد أنَّ الإسلام قد أتاح لأهل البلاد المفتوحة حريّةَ ممارسة شعائرهم الدينية، فلم يفرض عليهم شيئًا من القيود، بل وفتح لهم بابًا واسعًا للتسامح كان مغلقًا دونهم فيما مضىٰ من قبل حكامهم السابقين، سواء أكانوا رومانَ أم فرسًا.

وبلغ من التسامح أن سمح للأقباط ببناء كنائسهم بعد الفتح الإسلامي، فقد سمح عمرو بن العاص للقبط ببناء الكنائس؛ وقد بُنِيت كنيسة مارمرقص بالإسكندرية، وفي ولاية مسلمة بن مخلد بُنيت كنيسةٌ في الفسطاط، وفي ولاية عبد العزيز بن مروان بُنِيت أكثر من كنيسة، منها: كنيسة مار جرجس، وكنيسة أبي قير، وفي عهد الدولة الفاطمية كثر إنشاء الكنائس في القاهرة حاضرة الفاطميين[2].

وفي الجانب المدني استفاد أهل الذمة إلىٰ حد كبير من روح التسامح التي شملت العالم الإسلامي شرقه وغربه، ووصلوا إلىٰ أعلىٰ المناصب الإدارية، وانفردوا في بعض الأحيان بهذه الوظائف نتيجةً لمعرفتهم السابقة بالخبرة الإدارية والمالية.

---

(١) المعجم الكبير، لسليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة. د. ت، ٦/ ٢١٣.

(٢) معاملة غير المسلمين، تأليف: ناريمان عبد الكريم، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م، ص ٧٢ وما بعدها.

لقد أبقىٰ العرب علىٰ النظم الإدارية التي وُجِدت في البلاد المفتوحة كما كانت، وظلت هذه الدواوين تُحرر بلغاتها التي كانت عليها قبل الفتح فترةً من الزمن قبل تعريبها في عهد عبد الملك بن مروان؛ لذا كان من الطبيعي أن يُتْرَكَ أهلُها يعملون بها، ويكتفي العرب في هذه المرحلة بالإشراف فقط علىٰ هذه الدواوين.

إذن ليس من العجب أن نرىٰ في هذه الفترة كُتّابًا مِن النصارىٰ، فقد حدث هذا أيام الفاروق عمر ومَنْ بعده.

ولم تكن هذه الفرصة خاصة بأهل الكتاب من نصارىٰ ويهود فحسب، بل استخدم المسلمون الإيرانيين غير المسلمين في وظائف الدولة، خاصة المالية منها، حيث وجدت طبقة الدَّهاقين، والتي عرفت بمهارتها المالية ونبوغها في أعمال الخراج والضرائب. وكذا حدث في بلاد الهند بعد الفتح(١).

ولم يتوقف الأمر علىٰ تولي أهل الذمة بعض الوظائف بالدولة، بل إن منهم مَـن تقلد ديوان جيش المسلمين في وزارة ابن الفرات، وعندما لامه الناس ـ أي: ابن الفرات ـ دافع عن نفسه بأنه اقتدىٰ بمَن سبقوه مِن تولي النصارىٰ بعض الوظائف(٢).

كما وصل النصارىٰ إلىٰ أعلىٰ المناصب وهي الوزارة، وذلك أيام البويهيين بالعراق، والفاطميين بمصر، والمماليك بمصر أيضًا. فهذا نصر بن هارون اتخذه عضد الله الدولة وزيرًا، وأذن له في عمارة البِيَع وإطلاق الأموال لفقراء النصارىٰ(٣)، وفي مصر الفاطمية كان يعقوب بن كِلِّس الذي يعد من أشهر وزراء هذه الدولة(٤)،

---

(١) فتوح البلدان، لأحمد بن يحيىٰ البلاذري ص ٤٢١ ـ ٤٢٢.

(٢) معاملة غير المسلمين، ناريمان عبد الكريم ص١٢٧.

(٣) كان ذلك سنة ٣٦٩. انظر: الكامل في التاريخ، لعلي بن محمد بن الأثير، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م، ٧/ ٣٨٥، ٣٨٦، ٣٨٨.

(٤) تقلد الوزارة ٣٦٣هـ. انظر: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، لأحمد بن علي المقريزي، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة، ط ٢، ١٩٩٦م، ١/ ١٤٤.

كما ولي الوزارة لهم -أيضًا- عيسىٰ بن نسطورس(١).

إنَّ المتصفِّحَ لكتابٍ مثل كتاب (المنهل الصافي والمستوفىٰ بعد الوافي) لجمال الدين يوسف بن تغري بردي، يجده يورد عددًا لا بأس به من الوزراء والوجهاء الذين كانوا نصارىٰ، أو كان أجدادهم كذلك وأسلموا، وتقلّدوا الوزارةَ أو بعض أمور الدولة الأخرىٰ.

ومِن هؤلاء: مستوفي الديار المصرية، أسعد بن السديد الماعز القبطي(٢) (ت ٦٩٥هـ)، الذي ظل علىٰ دينه وتدرَّج في المناصب، إلا أنه أعلن إسلامه أيام الأشرف خليل بن قلاوون. ومنهم أيضًا: الوزير أمين الدين بن تاج الرئاسة، وزير الديار المصرية، كان مستوفي الدواوين، ثم تقلد الوزارة ثلاث مرات، وغيرها من الوظائف في الدولة(٣).

وأخيرًا: عبد الوهاب بن نصر الله بن توما، الوزير تاج الدين القبطي، وُلـد بالقاهرةونشأ

بها علىٰ دين النصرانية، حتىٰ أسلم واتصل بخدمة الأشرف بَرْسباي، وتولىٰ العديدمن الوظائف(٤).

وفي الأندلس برزت كذلك بعضُ الشخصيات من أهل الذمة، واستطاع أحدُهم أن يلي الوزارة في عهد حكم بني زِيري لِغَرْناطة، وهو إسماعيل بن نغرالة اليهودي، وولده يوسف(٥).

(١) كان ذلك سنة ٣٨٤هـ. انظر: اتعاظ الحنفا، للمقريزي، ١/ ٢٨٣.

(٢) انظر ترجمته في: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ليوسف بن تغري بردي، تحقيق محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢/ ٣٧٠-٣٧١.

(٣) انظر: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ليوسف بن تغري بردي، ٧/ ص٨٤-٨٥.

(٤) انظر: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، ليوسف بن تغري بردي، ٧/ ص٣٩٩- ٤٠٠.

(٥) حكمت هذه الدولة بين ٣٦٢ هـ- ٥١٥ هـ، وكان اليهودي وولده أيام بُلكين بن زِيري. انظر: معجم الأسرات الحاكمة، ص ١٠٩.

إن مناخ الحرية الذي عاش فيه أهل الذمة في دار الإسلام، قد هيأ لهم نفوذًا وسلطانًا لم يتح لهم قبل ذلك في العهود التي سبقت الإسلام.

وفي مجال العلوم: نجد نماذج عديدة لعلماء غير مسلمين احتضنهم الإسلامَ فنبغوا في بيئته الخصبة، وإنَّ المتصفح لكتابٍ مثل كتاب «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» لمؤلِّفه ابن أبي أصيبعة المصري (ت٦٨٦هـ) سوف يجد جملةً وافرةً من أسماء هؤلاء العلماء[1].

ومِن هؤلاء: مجموعة من الأطباء في العصر الأموي ظلُّوا على دينهم النصراني ولم يمنعهم ذلك من ممارسة عملهم، بل لم يمنعهم ذلك من اصطفاء خليفة المسلمين، وكان معاوية بن أبي سفيان آنذاك، وإحسانه لاثنين منهما، وهما الطبيبان: ابن أثال، وأبو الحكم الدمشقيان[2].

وفي ظل هذه الدولة ألف عيسى بن الحكم الدمشقي[3] النصراني حفيد الطبيب السابق كنَّاشه (مؤلَّفَه) الكبير الذي عُرِفَ به، كما اختص الحجاج بن يوسف أحد رجال عبد الملك بن مروان ـ بتياذوق[4] (ت نحو ٩٠هـ)، ووثق به وأغدق عليه بالعطاء الكثير.

وفي العصر العباسي كان لجورجيس بن جَبْرائيل اليهودي خبرةٌ بصناعة الطب، خدم بها أول الخلفاء العباسيين أبا جعفر المنصور، وكان حظيًّا عنده رفيع المنزلة لديه، ونال من جهته أموالًا جزيلة، ولم يزل في الخدمة إلى أن مات المنصور[5].

لقد أسس هذا الرجل بيتًا طبيًّا ذا صلة وثيقة بقصر الخلافة، يتوارثونه كابرًا

(١) سنورد جدولًا بأسماء الأطباء ومعاصريهم من الخلفاء في آخر المحور.
(٢) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لأحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة، تحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت، ص ١٧١ ـ ١٧٦.
(٣) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٧ ـ ١٧٨.
(٤) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٧٩ ـ ١٨١.
(٥) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٣ ـ ١٨٦.

عن كابرٍ، فهو خدم المنصور، وابنه بَخْتَيَشُوع[١] (ت ١٨٤ هـ) خدم هارون الرشيد وتميّزَ في أيامه. وكان ابنه جبرائيل[٢] بن بختيشوع (ت ٢١٣ هـ) جيّدَ التصرف في المداواة، حظيًّا عند الخلفاء، رفيع المنزلة عندهم، وحصَّل من جهتهم من الأموال ما لم يحصله غيره من الأطباء. وابنه بختيشوع[٣] بن جبرائيل (ت ٢٥٦ هـ)، بلغ مِن عظم المنزلة والحال والمال، أنه كان يضاهي الخليفة المتوكل في اللباس والفرش.

لقد ظل أحفاد هذا البيت الطبي في ظل البيت العباسي مدة ثلاثة قرون من الزمان، تناهم الرعاية الفائقة، ويغدق عليهم بالأموال الكثيرة حتى كان آخرهم وفاةً عبيد الله[٤] بن جبرائيل ابن عبد الله بن بختيشوع بن جبرائيل في حدود سنة نيف وخمسين وأربعمئة، وكان معاصرًا لابن بُطْلان الطبيب.

ولا يقلُّ شهرةً عن هذا البيت بيتُ حنين بن إسحاق العِبادي، فإلى جانب صناعة الطب التي اشتهر بها هذا البيت فقد نبغوا ـ أيضًا ـ في صناعة الترجمة ونقل الكتب من لغاتها الأصلية إلى اللغة العربية، فكان حنين[٥] (ت ٢٦٠ هـ) مهتمًّا بنقل الكتب الطبية وخصوصًا كتب جالينوس، أما ابنه إسحاق بن حنين[٦] (ت٢٩٨ هـ) فقد نقل كثيرًا من اليونانية إلى العربية، إلا أن جلَّ عنايته كانت بكتب الحكمة والفلسفة.

وفي هذا العصر أيضًا نبغ عددٌ من الأطباء المترجمين في الوقت نفسه، من هؤلاء يوحنا[٧] بن بختيشوع (ت٢٩٠ هـ)، وكان طبيبًا متميزًا خبيرًا باللغتين السريانية واليونانية، خدم بطبِّه الأمير الموفق بالله طلحة ابن الخليفة المتوكل، كما قام بترجمة عددٍ كبيرٍ من الكتب من اليونانية إلى السريانية.

---

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٦ ـ ١٨٧.
(٢) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ١٨٧ ـ ٢٠١.
(٣) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٠١ ـ ٢٠٩.
(٤) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢١٤.
(٥) انظر ترجمته في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٥٧ ـ ٢٧٤.
(٦) انظر ترجمته في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٧) انظر ترجمته في: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧.

لقد أفرد صاحب «عيون الأنباء» بابًا[١] كاملاً للأطباء المترجمِين في الوقت نفسِه، والمتصفح لهذا الباب يجد العديد من الأسماء المسيحية واليهودية، التي حظيت برعاية الخلفاء والإنفاق عليهم.

كذلك نبغت كوكبةٌ مِن الأطباء اليهود في تلك الحقبة، نحو: ماسَرْجَوَيْه[٢] (كان حيًّا سنة ١٠١ هـ)؛ وهو متطبب البصرة، وكان في أيام الدولة الأموية، وكان يعمل بالطب والترجمة في آن واحد، وهو الذي ترجم كتب أَهْرَن بن أَعْيَنَ إلى العربية، وإليه يشير الرازي في كتابه بقوله: «قال اليهودي».

بل إن من الأطباء من كان صابئًا لا دين له، نحو ثابت[٣] بن قرَّة الحراني الصابئ (ت ٢٨٨ هـ)، فلم يكن في زمانه من يماثله في الطب ولا في غيره من جميع أجزاء الفلسفة، وكذلك جماعة كثيرة من ذريته ومن أهله، منهم سنان[٤] بن ثابت بن قرة (ت ٣٣١ هـ)، كان يلحق بأبيه في معرفته بالعلوم واشتغاله بالطب، كذا ابنه ثابت[٥] بن سنان بن ثابت (ت ٣٦٥ هـ)، وأخوه إبراهيم[٦] بن سنان بن ثابت (٣٣٥ هـ).

ومن أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في المغرب والأندلس، فقد لمع نجم عددٍ من الأطباء لم يمنعهم كونهم غير مسلمين من البروز في المجتمع، بل وخدمة الخلفاء في هذه البلاد، ومن هؤلاء: إسحاق بن قسطار، كان يهودي الديانة، وخدم الموفق العامري ـ مؤسس مملكة دانِيةَ ـ وابنه إقبال الدولة علي، وإلى جانب علمه بالطب فقد كان مشاركًا في علم المنطق، متقدمًا في علم اللغة العبرانية، وأحد فقهاء الديانة اليهودية.

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٧٩ وما بعدها.
(٢) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٣٢ ـ ٢٣٤.
(٣) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٢٩٥ ـ ٣٠٠.
(٤) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤.
(٥) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٧.
(٦) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٣٠٧.

وفي مصر نبغ فيها عددٌ غير قليل من الأطباء غير المسلمين، منهم: بليطيان[١] (ت ١٨٦ هـ)، كان نصرانيًّا عالمًا بشريعة النصارىٰ المضلكانية، وكان في الوقت نفسه طبيبًا مشهورًا، وصلت شهرته إلىٰ هارون الرشيد فاستقدمه من مصر إلىٰ بغداد، ونال منه الحظوة والمال الوفير. وسعيد بن توفيل (ت سنة ٢٦٩ هـ، وقيل: سنة ٢٧٩ هـ)، كان طبيبًا نصرانيًّا متميزًا في صناعة الطب، وكان في خدمة أحمد بن طولون، ومن أطبائه الخواص الذين يصحبونه في السفر والحضر.

ومنهم: إسحاق[٢] بن إبراهيم بن نسطاس، وهو طبيبٌ نصرانيٌّ فاضلٌ، خدم الحاكم بأمر الله، وتوفي في أيامه، وكان يعتمد علىٰ طبه.

ومن أشهر الأطباء المصريين: سعيد بن البطريق (ت٣٢٨هـ)، كان طبيبًا نصرانيًّا، وكان في أيام القاهر بالله، وكان هو وأخوه عيسىٰ من فضلاء الأطباء[٣].

ومن غير النصارىٰ، كان موسىٰ بن ألعازار الإسرائيلي[٤]، يهودي الديانة، مشهورًا بالتقدم

والحذق في صناعة الطب، وكان هو وابنه إسحاق في خدمة المعز لدين الله الفاطمي. وكذا كان إفرائيم[٥] بن الزفان (كان حيًّا قبل ٤٥٣ هـ)، كان من الأطباء المشهورين في مصر، وخدم خلفاء زمانه وحصَّل من جهتهم الأموال، وكذا كان تلميذه سلامة بن رحمون (ت ٥٣٠ هـ).

وأبو البيان[٦] بن المدوَّر، كان طبيبًا يهوديًّا (ت ٥٨٠ هـ)، وخدم الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بطبه، وكان الناصر يعتمد علىٰ معالجته، وله فيه حسن ظن.

---

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٤٠.
(٢) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٤٤.
(٣) انظر عنهما: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٤٥ ـ ٥٤٦.
(٤) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٤٥.
(٥) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٦٧ ـ ٥٦٨.
(٦) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٧٩ ـ ٥٨٠.

كما كان الموفق[١] بن شوعة (ت ٥٧٩ هـ) من أعيان العلماء وأفاضل الأطباء، خدم الملك الناصر بمصر، وعلت منزلته عنده.

ومن أشهر أطباء زمانه: موسىٰ[٢] بن ميمون القرطبي اليهودي (ت ٦٠١ هـ)، الذي كان أوحد زمانه في الطب، ورئيس الأطباء في الديار المصرية، وكان ابنه إبراهيم في خدمة الملك الكامل الأيوبي.

ومن أشهرهم أيضًا: هبة الله[٣] بن جُميع الإسرائيلي (ت ٥٩٤ هـ)، الذي خدم الملك الناصر صلاح الدين، وحظي في أيامه، وكان رفيع المنزلة عنده، عالي القدر، نافذ الأمر، يعتمد عليه في صناعة الطب، وكان تلميذه السديد بن أبي البيان وكان يهوديًّا أيضًا ـ من أطباء البيمارستان الناصري بالقاهرة.

فكلُّ هؤلاء العلماء والأطباء وغيرهم لم يكن إخلاصُهم وتفانيهم للدولة الإسلامية إلا نتيجةً لهذا التسامح الذي وجدوه لدىٰ الحكام المسلمين؛ ومِن ثَمَّ كانَ أمرًا طبيعيًّا أنْ يختاروا اللغة العربية ـ علىٰ لغاتِهم المختلفة ـ كي يودعوا فيها علومَهم ومؤلَّفَاتِهم.

ويُقِرُّ مؤرّخ العلم في العالم الحديث جورج سارتون بتلك الحقيقة، واصفًا تلك العلاقة بين المسلمين وغيرهم مِن أصحاب الديانات الأخرىٰ بأنها «كانت علاقةً وديّةً، أو علىٰ الأقلّ لا عدوانَ فيها؛ لأنَّ المسلمين عاملوا رعاياهم بكلِّ رحمةٍ وسماحة، وبعنايتِهم وتشجيعِهم نُشِرَت بحوثٌ كثيرةٌ وأعمال علمية باللغةِ العربية ألَّفها غير مسلمين، منهم صابئة ونصارىٰ ويهود وسامريون... وحتىٰ نهاية القرن الثاني عشر كانت العربيةُ لغةَ اليهودِ الفلسفية والعلمية»[٤].

---

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٨١.

(٢) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٨٢ ـ ٥٨٣.

(٣) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٥٧٦ ـ ٥٧٩.

(٤) تاريخ العلم والإنسية الجديدة، ترجمة: إسماعيل مظهر، ص ١٦١.

وفي الجانب الاقتصادي: فقد أتاحت الدولة الإسلامية لأهل الذمة المشاركة في الحياة الاقتصادية بما كفلته لهم مِن حقوق وحريات، فقد أتاحت لهم الاشتغال بالتجارة، وذلك بما وفرته لهم من حرية الانتقال داخل العالم الإسلامي دون خوفٍ أو مخاطرة؛ فقد تضمنت العهود التي أعطيت لهم حرية التنقل بين البلدان الإسلامية.

وفي الجانب الاجتماعي، فيما يتعلق بالأعياد، فقد سمح أبو عبيدة بن الجراح لنصارىٰ الشام بالاحتفال بعيدهم الأكبر يخرجون فيه بصلبانهم[1].

لقد ذكر لنا تقي الدين أحمد بن علي المقريزي[2] في كتابه «المواعظ والاعتبار» فصلًا كاملًا، تحدث فيه عن أعياد أهل الذمة وطرق احتفالهم بها.

فذكر أن لهم أربعة عشر عيدًا في السنة، منها سبعة أعياد يسمونها أعيادًا كبارًا؛ وهي: عيد البشارة، وعيد الزيتونة، وعيد الفصح، وعيد خميس الأربعين، وعيد الخمسين، وعيد الميلاد، والغطاس.

ومنها سبعة يسمونها (أعيادًا صغارًا)؛ وهي: عيد الختان، وعيد الأربعين، وخميس العهد، وسبت النور، وأحد الحدود، والتجلي، وعيد الصليب.

ثم تحدّثَ تفصيلًا عن طريقتهم في الاحتفال بهذه الأعياد والمواسم، وممارساتِهم لطقوسها المختلفة في الأقطار الإسلامية دون أن يمنعَهم الحُكّام.

---

(١) معاملة غير المسلمين، تأليف: ناريمان عبد الكريم ص ١٦٠.

(٢) انظر: المواعظ والاعتبار، لأحمد بن علي المقريزي، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان لتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢م، ١/ ٧١٤، وما بعدها.

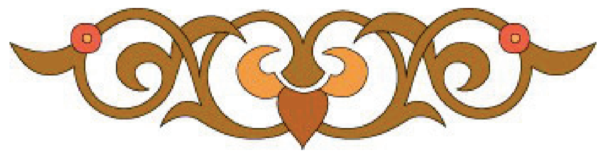
ملحق (١): جدول بأسماء الأطباء ومخدوميهم.

الطبيب	مَنْ خدَمه من الأعيان
ابن أثال	معاوية بن أبي سفيان
أبو الحكم الدمشقي	معاوية بن أبي سفيان
تياذوق	الحجاج بن يوسف الثقفي
جورجيس بن جبرائيل	أبو جعفر المنصور
بختيشوع بن جورجيس	هارون الرشيد
بليطيان	هارون الرشيد
جبرائيل بن بختيشوع	أبناء هارون الرشيد
بختيشوع بن جبرائيل	جعفر المتوكل
يوحنا بن بختيشوع	الأمير طلحة بن المتوكل
إسحاق بن قسطار	الموفق العامري
سعيد بن توفيل	أحمد بن طولون
موسىٰ بن ألعازار	المعز لدين الله الفاطمي
إسحاق بن موسىٰ	المعز لدين الله الفاطمي
إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس	الحاكم بأمر الله الفاطمي
سعيد بن البطريق	القاهر بالله الفاطمي
أبو البيان بن المدور	الناصر صلاح الدين الأيوبي
الموفق بن شوعة	الناصر صلاح الدين الأيوبي
هبة الله بن جميع	الناصر صلاح الدين الأيوبي
إبراهيم بن موسىٰ بن ميمون	الملك الكامل الأيوبي



المحور الثاني

كُنَّا وأَصْبَحْنَا



كُنَّا وأَصْبَحْنَا

العالمُ قَبْلَ الإِسْلَامِ:

لاشكَّ أنّ للبيئةِ المحيطةِ بالإنسانِ أثرًا كبيرًا في تكوينِ شخصيتِه، والأسرةُ والمجتمعُ وطبيعةُ الأرضِ التي تربّى عليها؛ تُشَكِّلُ العواملَ الأساسيةَ في بنائِه. ومن هذا المنطق نستطيعُ أن نتوصل إلى شكل العالم الذي كان يعيش عليه الناس في شتى الأرض قبل مجيء الإسلام. قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران، الآية ١٦٤].

وإذا تطرقنا إلى الوضع العالمي فليس الحال بأفضل؛ فقد كانت الإمبراطوريتان السائدتان في ذلك الوقت هما: إمبراطورية الفرس، وإمبراطورية الروم. وكانت هاتان الإمبراطوريتان سيدتي العالم في ذلك الوقت، بلا منازع أو شريك(١). وقد انتصر العرب على الفرس في معركة ذي قار بالعراق، وكان ملك الفرس قد مزق كتاب النبي ﷺ فدعا عليهم فقال: اللهم مزق ملكهم كل ممزق. فلم يبق لهم ملك وانتصر الإسلام على الروم في معركة تبوك بقيادة النبي ﷺ، وقائد الروم هرقل، وجيش المسلمين آنذاك يمثل ١٠٪ من جيش الروم.

وكانَ الظلمُ والقهر قبل ذلك منتشرًا في بلاد الروم؛ وكانت الشعوب أحوج ما تكون لِلَمْسةٍ حانيةٍ تحتضنها، ورايةِ عدل ترتفعُ في سمائها، لتزيح عنها عبء هذا الظلم.

كذلك انتشرت الحروب الخارجية والنزاعات الداخلية، نتيجة الجدل العقيم بين الفئات المختلفة داخل الدولة الرومية؛ مما أضعف هذه البلاد وجعل الفوضى تعم فيها، وكذلك السخط والحنق لما يمرُّ به الشعب من قهر وظلم وانتهاك لبشريته، وانتشار للمذابح في هذه البلاد.

(١) عبد العظيم الديب: المنهج عند المستشرقين، ص ٣٣٨ - ٣٣٩.

لقد كانت هذه البلاد تعيش في حالة من الظلم الشديد للشعوب؛ فقد فُرضت الضرائب الباهظة على الشعوب الكادحة. أما الطبقة الحاكمة فقد سبحت في بحور الملذات والترف والإسراف والانشغال بالملذات عن مصالح الشعوب(١).

كانت حال الشعوب في أوروبا حالًا عجيبة؛ فقد عاشت في ظلمات الجهل والأمية، لا تعرف عن العلم شيئًا، تسيطر الخرافات على تفكيرها، كما كانت المغالاة في بعض الأفكار هي طبيعتها. فقد كانوا (على سبيل المثال) يعقدون المؤتمرات لبحث حقيقة المرأة وطبيعتها: هل هي حيوان أم إنسان؟!. وكانت أوروبا تعيش أقصى حالات اللامبالاة بعدما اعتادوا على الخضوع والاستكانة.

أما في إيران، فقد كان الوضع على الدرجة نفسها من السوء؛ فقد كان هناك تمايزٌ طبقيٌّ في ذلك المجتمع: طبقة تسيطر عل الموارد المالية، وهي الطبقة العليا. أما بقية الشعب فقد كانت ترضخ للمعاناة والفقر والحرمان، بل تتحمل أعباء بذخ هذه الطبقة على كاهلها. وكان الفقراء محرومين من أبسط حقوقهم الإنسانية، وكانوا يعيشون كالعبيد(٢).

أما التعليم فكان مقصورًا على الأمراء والأثرياء فقط، وحُرِم باقي الشعب من حقه الطبيعي في اكتساب العلوم والمعارف، وعاش في أحضان الجهل.

وكانت الحكومة الفارسية في هذه المرحلة تعاني من الفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار. كذلك انتشرت الإباحية والفساد وحالات هتك الأعراض. وكان الملوك يعتبرون أنفسهم من نسل آخر مختلف عن البشر، ففيهم يجري دم الآلهة، ولهم الحرية في أن يفعلوا في الناس ما يشاؤون(٣). وكان العالم في ذلك الوقت يعيش تحت لواء الحروب المتواصلة بين الفرس والروم، كما كانت الحروب قائمة بين القبائل العربية، وكأن الحرب هي الملاذُ الوحيد آنذاك للعيش في هذه الحياة!

(١) صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، ترجمة: طلعت الشايب، القاهرة: سطور، ١٩٩٨م، ص٩٠-٩١.

(٢) صامويل هنتنجتون: المرجع السابق، ص ٩٢-٩٣.

(٣) عبد النبي أصطيف: نحن والغرب: من صدام الحضارات إلى الشراكة المعرفية، دمشق: دار الآداب، ٢٠٠١م. ص ٨-١١.

عاش العالمُ سنواتٍ طويلةً من الحروب المتواصلة، والفقر والظلم والاستبداد والقهر للشعوب. فكانت هذه الشعوب قد فاض بها الكيلُ، وأصبحت في أمسِّ الحاجة إلىٰ نهر طاهر ترتوي منه، وتغسل فيه همومها، وعدلٍ صارمٍ لا يجاملُ الأثرياءَ علىٰ حسابِ الفقراءِ(١).

هذا هو حال العالم قبل بعثة النبي ﷺ، عالمٌ قد غَلَّفَه الجهلُ والظلم. فأبىٰ الله إلَّا أن يرسل مَنْ يُزِيحُ صخرة هذا الجهل والظلم ويكون منبعًا للرحمة بالبشرية، وقال تعالىٰ عن الرسل ومنهم محمد ﷺ: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأنعام، الآية ٤٨]. **فكان قدوم محمد ﷺ الذي قال عنه ربه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٧].**

فقد كانت المجتمعات بالفعل مهيأة تمامًا لاستقبال رسالة جديدة، أساسها الأخلاق الكريمة، العدل ركيزتها، والرحمة والأمانة واحترام بشرية الإنسان دعائمها. كان لابد مِن الرحمة بهذا العالم الذي أرهقت المظالم كاهله. رحمة يبعث الله بها رجلًا ذا خلق عظيم. فبعثه الله ﷻ لينير ظلمات الحياة، ولتشرق فيها شمس الأخلاق من جديد. هذا الخُلُق الذي تمتع به ذلك الرجل، هو الذي باتت البشرية في حاجة ملحَّة للعودة إليه في هذا الزمان، بعدما وقع هذا الانهيار الأخلاقي الذي يغلف حياة إنسانية هذا اليوم(٢).

وتعد الحضارة الإسلامية، مثل غيرها من الحضارات، لم تنشأ من فراغ، ولم تظهر من العدم أو من تلقاء نفسها، بل سبقتها حضارات أخرىٰ عريقة في هذه المنطقة من العالم، تواصلت معها وأثرت فيها. ففي القرن الرابع قبل الميلاد قام الإسكندر المقدوني (٣٥٦- ٣٢٣ ق. م) بأول محاولة لإقامة دولة واحدة، تشمل الأقاليم من: أوروبا وأسيا وأفريقيا، وتمتد من مقدونيا إلىٰ الهند. ولم يكتف الإسكندر بهذا

(١) عدنان عليّ رضا النّحوي: حوار الأديان دعوة أم تقارب أو تنازل، دار النّحوي للنّشر والتّوزيع، ط١. ٢٠٠١م. ص ٣٣.

(٢) فخري لبيب: صراع الحضارات أم حوار الحضارات، القاهرة: مطبوعات التضامن، ١٩٩٧م. ص ١٢٥-١٢٦.

التوحيد السياسي، بل اتخذ وسائل أخرىٰ لتوحيد العناصر البشـرية في هذه المنطقة من العالم، مثل احترام جميع أديانها، والصلاة في مختلف معابدها، وتأسيس عدد كبير من المدن الجديدة التي عرفت باسم (الإسكندريات) نسبة لاسمه، ويقدر عددها بنحو (٢٧) مدينة، بعضها في بلخ وصغديانا، وفي أسفل القوقاز، وفي مصـر... إلخ. وكان هدفه من وراء ذلك أن تختلط في هذه المدن عناصر بشرية من السكان الأصليين مع الجاليات اليونانية؛ لينشأ من هذا الاختلاط ثقافة جديدة، تستمد أصولها من الحضارات السابقة[١].

وهكذا صارت (الإسكندريات) بمثابة بوتقات علمية، تنصهر فيها هذه الثقافة الجديدة. وقد حرص الإسكندر الأكبر علىٰ تطبيق هذه المبادرة علىٰ نفسه، ليكون قدوة لغيره حين تزوج الأميرة روكسانا الفارسية، وأمر قواده أن يفعلوا مثله[٢].

وعلىٰ الرغم من أن دولة الإسكندر لم تلق نجاحًا بعد وفاته، إذ تفككت إلىٰ ممالك متفرقة بين قواده، إلا أن الحركة العلمية التي كان ينشدها استمرت وازدهرت من بعـده، وهي التي اشتهرت باسم «العصر الهِلِنْستي»، تمييزًا لها عن العصر الهليني الذي ساد اليونان قبل عصـر الإسكندر. ومن أشهر المراكز الهلنستية الجديدة، مدينة الإسكندرية المصرية بمكتبتها ومدرستها العلمية التي كانت مزيجًا من كل الحضارات السابقة، وخصوصًا الحضارة المصرية القديمة.

وفي شمال الهند في حوض نهر السند، حاول الملك الهندي أشوكا Ashoka في القرن الثالث قبل الميلاد، أن يجعل من البوذية دينًا عالميًّا، وبشَّر به ملوك الأرض ولا سيما في بلاد الإغريق والدول الهلنستية، لإقامة وحدة عالمية. وعلىٰ الرغم من أن عددًا كبيرًا من اليونانيين اعتنقوا البوذية، إلا أن محاولته لم تلق الاستمرار والنجاح،

(١) فرانسيس فوكوياما: نهاية التاريخ، ترجمة: حسين الشَّيخ، بيروت: دار العلومِ العربيَّةِ. ص، ٣٠٧-٣٠٨.

(٢) فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون: موقع غير المسلمين في مجتمع المسلمين، القاهرة: دار الشروق، ط٢، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م. ص ٩٠-٩٥.

وبقيت البوذية قاصرة على أقاليمها في الهند والشرق الآسيوي[1]، وكذلك الملك ذو نُوَاس بنَجْران حينما كان يعشق اليهودية فأمر شعبه بأن يعتنقوها وذلك في حادثة الغلام حينما أراد إغراقه، لكن الله تعالى أعاده إليه فرماه من فوق جبل، ولكن الله أعاده إليه ثم صلبه ورماه، ولكن السهم لم يصبه فقال له الغلام: قل: بسم الله رب الغلام، فقالها ورمى فأصاب السهمُ الغلامَ، فآمن أهل نجران برب الغلام، فقام بإحراقهم في الأخدود أي الحفر. قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ۝١ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ۝٢ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ۝٣ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ۝٥ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ۝٦ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ۝٧ وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج، الآيات ١ – ٨].

قصة أصحاب الأخدود:

إنها قصة غلام نوَّر الله بصيرته، وآتاه من الإيمان والثبات، والذكاء والفطنة ما استطاع به أن يغير حال أمة بأكملها، وأن يزلزل عرش ذلك الطاغية المتجبر؛ الذي ادعى الألوهية من دون الله، فقد كان لهذا الملك ساحرُ يعمد إليه في تثبيت ملكه، وإرهاب الناس لينصاعوا لأمره، فكبر سن هذا الساحر، وطلب من الملك أن يرسل له غلامًا ليرث علمه، ويخلفه في مهمته، وكان من إرادة الله الخير لهذا الغلام أن كان هو المرشح لهذه المهمة، وتعرف في أثناء ذهابه إلى الساحر وعودته من عنده على راهب مؤمن، دعاه إلى الإيمان والتوحيد فاستجاب له وآمن، ودلَّه الراهب على ما يتخلص به من تأنيب الساحر وتأنيب أهله في حال تأخره عنهم، ثم أراد أن يزداد يقينًا واطمئنانًا بصحة ما دعاه إليه الراهب، فوجد الفرصة سانحة عندما اعترضت الدابة طريق الناس، ثم ذاع أمر الغلام واشتهر بين الناس وأجرى الله على يديه الكرامات من شفاء المرضى وإبراء الأكْمَه والأبرص، وكان يتخذ من ذلك فرصة لدعوة الناس إلى التوحيد والإيمان، حتى وصل خبره إلى الملك عن

(١) صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات: إعادة صنع النظام العالمي، القاهرة: سطور، ١٩٩٨، ص ٩٥-٩٧.

طريق جليسه الذي دعا له الغلام فشفاه الله، وشعر الملك من كلام الوزير ببوادر فتنة تهدد عرشه، عندما صرح بالألوهية والربوبية لغيره، فأراد أن يعرف أصل هذه الفتنة ومصدرها، فوصل إلى الغلام ثم إلى الراهب عن طريق التعذيب، وأراد أن يصدهم عن ما هم عليه، فأبوا واحتملوا العذاب والقتل على الكفر بالله، وأما الغلام فلم يقتله قتلًا مباشرًا كما فعل مع الوزير والراهب، بل استخدم معه طرقًا متعددة لتخويفه وإرهابه، طمعًا في أن يرجع عن ما هو عليه، ويستفيد منه في تثبيت دعائم ملكه، وفي كل مرة ينجيه الله، ويعود إلى الملك عودة المتحدي، وكان الناس يتابعون ما يفعله الغلام خطوة بخطوة، ويترقبون ما سيصل إليه أمره، فلما يئس الملك من قتله أخبره الغلام أنه لن يستطيع ذلك إلا بطريقة واحدة يحددها الغلام نفسه، ولم يكن الغلام يطلب الموت أو الشهادة بل كان يريد أن يؤمن الناس كلهم وأن يثبت عجز الملك وضعفه في مقابل قدرة الله وقوته، فأخبره أنه لن يستطيع قتله إلَّا إذا جمع الناس في صعيد واحد، وصلبه على خشبة، ثم أخذ سهمًا وليس أي سهمٍ بل سهمًا من كنانة الغلام ثم رماه به قائلًا: بسم الله رب الغلام. فقام الملك بتطبيق قول الغلام، ومات الغلام، وتحقق للملك ما أراد، وآمن الناس كلهم، فجنَّ جنون الملك وحفر لهم الأخاديد، وأضرم فيها النيران، ورضي الناس بالتضحية في سبيل الله، على الرغم من أنه لم يمض على إيمانهم إلا ساعات قلائل بعد الذي عاينوه من دلائل الإيمان، وشواهد اليقين، وأنطق الله الرضيع عندما تقاعست أمه عن اقتحام النار، وكانت آية ثبت الله بها قلوب المؤمنين.

إن هذه القصة تبين لنا قاعدة مهمة من قواعد النصر، وهي أن الانتصار الحقيقي هو انتصار المبادئ والثبات عليها، وأن النصر ليس مقصورًا على الغلبة الظاهرة، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة، فالحياة الدنيا وما فيها من المتاعب والآلام، ليست هي الميزان، الذي يوزن به الربح والخسارة، والناس جميعًا يموتون، وتختلف الأسباب، ولكنهم لا ينتصرون جميعًا هذا الانتصار المطلوب،

الملك هو يوسف ذو نواس ملك حمير الذي أحرق نصارى نجران في الأخدود.

وهو الذي أدخل اليهودية بلاد العرب وقد نزلت فيه الآيات السابقة حينما أحرق الناس بالنار لكي يجبرهم على الدخول في ديانته اليهودية ولكنهم رفضوا واسلموا لله رب الغلام فأحرقهم، ورسولنا الكريم لم يجبر أحدًا أو يحرقه أو يقتله للدخول في الإسلام فقد مرت جنازة برسول الله ﷺ، فبكى فقيل له: إنها ليهودي! فقال: «أعلم، ولكنها نفس تفلتت مني إلى النار».

عودٌ إلى بدءٍ:

ومحاولة الملك أشوكا السالفة في الهند تذكرنا بمحاولة شبيهة رائدة، سبقتها بوقت طويل على يد فرعون مصر الملك أخناتون في القرن الرابع عشر قبل الميلاد (الأسرة ١٨)، عندما بشر في نشيده المشهور بإله العالم «أتون» «الذي يهتم بكل مظاهر الطبيعة، إنسانها وحيوانها ونباتها، وكأنما أراد بذلك إقامة وحدة عالمية روحية، تربط على الأقل بين أجزاء مملكته الممتدة من الشام شمالًا إلى النوبة جنوبًا»[١].

وما يقال عن مصر والهند واليونان؛ يقال أيضًا عن الحضارة الفارسية ذات التراث الآسيوي العريق، والتقاليد الملكية القديمة، والنظم الإدارية المتطورة، إلى جانب المراكز الهلينية المنتشرة في أنحائها مثل بَلْخَ، ومَرْوَ، وجُنْدَيْسابور... وغيرها. لقد بدأ الإيرانيون حياتهم الدينية مثل كثير من شعوب العالم، بعبادة قوى الطبيعة، ثم ظهرت «الزَّرادُشْتية» على يد مؤسسها زرادُشْت zoroustre في القرن السابع قبل الميلاد، منادية بأن الوجود قائم على مبدأين أساسيين هما: الخير (أهورا ويسمى يزدان)، والشر (أهرمن)، أو النور والظلام. وبما أن النور مصدره الشمس، والشمس من نار، لهذا لعبت النار دورًا مهمًا في هذه العقيدة، باعتبارها مصدر الإشراق والنور والضياء، فقدسوها وعبدوها، وصار لهم كتاب مقدس يعرف بـ«الأفستا»، أي المعرفة. غير أن الزرادشتية لم تلبث مع مرور الزمن بسبب سيطرتها وتعصبها، أن ووجهت بحركات دينية مضادة مثل «المانوية، على يد «ماني

---

(١) صامويل هنتنجتون: المرجع السابق، ص ٩٨.

Manes» في القرن الثالث الميلادي، وأتباعها لهم نزعة صوفية هدامة، تحض الناس علىٰ التقشف وعدم الزواج والإنتاج، ويرون أن الخير في العدم المطلق. ولهذا حوربت وبقيت دعوة سرية[١].

وإذا كانت «المانوية» دعت إلىٰ الزهد والبعد عن النساء، فإن دينًا آخر لم يلبث أن ظهر في إيران وهو «المزدكية» علىٰ يد صاحبه «مزدك» الذي دعا الناس إلىٰ حل مشكلاتهم ونبذ خلافاتهم بجعل الحق في الأموال والنساء مشاعًا بينهم. وقد نجح سعيه بين العوام والمحرومين، ولكنه مات قتيلًا في منتصف القرن السادس الميلادي، وبقيت دعوته سرية مثل «المانوية»، وكل هذا يدل علىٰ حالة الاضطراب والفوضى الدينية في إيران قبيل الإسلام[٢].

وهكذا نرىٰ مما تقدم، أنه كانت هناك في هذه المنطقة من العالم، حضارات عريقة نشأت قبل الإسلام، وسادتها روابط وصِلات مختلفة، بل كانت هناك محاولات لتوحيد بعض مكوناتها لم يكتب لها النجاح، ولكنها مع ذلك صبغت هذه المنطقة بروح جديدة وهي الروح الشرقية التي أخضعت الفلسفة اليونانية لما دخلت بلادها، فأسبغت عليها ثوبًا من روحانياتها وإلهامها، وهي الروح التي جعلت علماء التاريخ والاجتماع يدركون خصائص مشتركة بين الشرق، تخالف تلك التي للغرب، روح ورثها الشرقي من أجيال، وساعدت علىٰ تكوينها بيئاتهم الطبيعية والاجتماعية، وجعلتهم يتذوقون غير ما يتذوقه الغربي، ويدركون الأشياء علىٰ غير النمط الغربي، كما جعلت لهم مدنيات تخالف من وجوه كثيرة المدنيات الغربية. جاءت الأديان المختلفة من: بوذية وزرادشتية ويهودية ونصرانية، فصبغت هذه الروح صبغة خاصة، صبغة لا مادية، تؤمن بإله فوق

(١) عصمت عبد المجيد: مواقف وتحديات في العالم العربي، القاهرة: دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٣م. ص ٢٥-٢٦.

(٢) عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوروبية، القاهرة: دار السلام، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، ص ٧٠-٧١.

العالم، وترجو جنة، وتخاف نارًا، وترىٰ أن وراء هذه السعادة الدنيوية، والشهوات الجسمية، سعادة أخرىٰ روحية[١].

العرب قبل الإسلام:

اعتاد الناس أن يسموا تاريخ العرب قبل الإسلام «التاريخ الجاهلي»، أو «تأريخ الجاهلية»، وأن يذهبوا إلىٰ أن العرب كانت تغلب عليهم البداوة، وأنهم كانوا قد تخلفوا عمن حولهم في الحضارة، فعاش أكثرهم عيشة قبائل رُحّل، في جهل وغفلة، لم تكن لهم صِلات بالعالم الخارجي، ولم يكن للعالم الخارجي اتصال بهم، فهم أميوّن، عبدة أصنام، ولكن عندهم -كما ذكرت سابقًا- صفات حميدة مثل حماية الجار وصون العرض وإكرام الضيف والصبر علىٰ ملاقاة الأعداء.

عن مجاهد، أن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذبحت له شاة في أهله، فلما جاء قال: أهديتم لجارنا اليهودي، أهديتم لجارنا اليهودي؟ سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتىٰ ظننت أنه سيورثه»[٢]. وهذه صفة من صفات العرب إكرام الجار وحمايته

لذلك عرفت تلك الحقبة التي سبقت الإسلام عندهم بـ «الجاهلية». وهو اصطلاح مستحدث، ظهر بظهور الإسلام، وقد أطلق علىٰ حال ما قبل الإسلام تمييزًا وتفريقًا لها عن الحالة التي صار عليها العرب بظهور الرسالة، علىٰ النحو الذي يحدث عندنا وعند غيرنا من الأمم من إطلاق تسميات جديدة للعهود القائمة، وقد فهم جمهور من الناس، أن الجاهلية من الجهل الذي هو ضد العلم أو عدم اتباع العلم، أو من الجهل بالقراءة والكتابة، ولهذا ترجمت اللفظة في الإنكليزية بـ «The Time of Ignorance»، وفي الألمانية بـ «Zeit der Unwissenheit»، وفهمها

---

(١) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، تأليف جواد علي، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ج١، ص٣٠-٣١. وكذا انظر: فهمي هويدي: المسلمون وسيناريو الصراع بين الحضارات، المسلم المعاصر، السنة ١٧. العددان ٦٧-١٣، ١٤١٣، ٦٨هـ

(٢) سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين، المكتبة العصرية، بيروت، ٤/ ٣٣٨، رقم الحديث ٥١٥٢.

آخرون أنها من الجهل بالله وبرسوله وبشرائع الدين وباتباع الوثنية والتعبد لغير الله، وذهب آخرون إلىٰ أنها من المفاخرة بالأنساب والتباهي بالأحساب والكبر والتجبر، وغير ذلك من الخلال التي كانت من أبرز صفات الجاهلين. ويرىٰ المستشـرق «كولدتزهير» «Goldziher» أن المقصود الأول من الكلمة «السفه» الذي هو ضد الحلم، والأنفة والخفة والغضب، وما إلىٰ ذلك من معان، هي أمور كانت جد واضحة في حياة الجاهليين، ويقابلها الإسلام، الذي هو مصطلح مستحدث أيضًا ظهر بظهور الإسلام، وعماده الخضوع لله والانقياد له ونبذ التفاخر بالأحساب والأنساب[1].

بعثة النبي وخروج المجتمع العربي من الجاهلية إلى الإسلام والنور:

بُعث رسول الله ﷺ والناس في ضلالة عمياء، وجاهلية جهلاء، والعالم يموج بألوان مختلفة من الشرك والظلم والتخلف والانحدار والبعد عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وفي صدارة العالم دولتان فقدتا مقومات البقاء، وانحدرتا إلىٰ مستوىٰ البهائم العجماء، فالفرس مجوس يعبدون النار، ويُحلون نكاح المحارم، ويغرقون في بحور من الخرافات، والروم حرفت المسيحية، واليونان قد مسختهم الأساطير الكلامية والفلسفات المنطقية، وصدتهم عن سبيل الهدىٰ وديانات أخرىٰ كثيرة تنّشر هنا وهناك في أرجاء المعمورة، وتتشابه في أوصاف التخبط والانحلال والاضطراب والحيرة، وكان سبب شقاء هذه الحضارات المزعومة، والمدنيات المحرومة قيامها علىٰ أسس مادية فقط دون أن يكون لها أي تعلق بنور الوحي الإلهي، لا جرم أنّ نظر الله لأهل الأرض، فمقتهم، عَرَبهم وعَجَمهم إلا بقايا أهل الكتاب، كما قال النبي ﷺ ولم يكن العرب أحسن حالًا من هذه الأمم، فقد بدّل لهم عمرو بن لُحَي الخزاعي ديانة إبراهيم الخليل التي كانوا يدينون بها

(١) طارق البشري: في المسألة الإسلامية المعاصرة، الملامح العامة للفكر السياسي الإسلامي في التاريخ المعاصر، القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦م. ص ٤٠.

حينما جلب إليهم الأصنام من الشام ووزعها عليهم، ومن ثم نُشر الشرك بين أهل مكة وخارجها، حيث كان أهل الحجاز أتباعًا لمكة، لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم، وبانتشار الوثنية بين العرب كثرت الخرافات الدينية التي أثرت بدورها في الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية تأثيرًا بالغًا.

أحوال العرب الاجتماعية وغيرهم من الأمم:

فقد كانت في الحضيض الأسفل من الضعف والعماية، يُغير بعضهم علىٰ بعض فيقتل ويسبي، ويخوضون الحروب الطاحنة لأتفه الأسباب، يئدون البنات خشية العار، ويقتلون الأولاد خشية الفقر والافتقار، لا يتحاشون من الزنىٰ، ولا يستحيون من الخرافات، ويعاملون المرأة كالسلعة المهينة نكاحًا وطلاقًا، ومعاشرةً وإرثًا، ويستمرئون الجهل، ويُحكِّمون العادات. والمتأمل لحالة العرب قبل الإسلام، وحالة الأمم الأخرىٰ من غيرهم يمكن أن يستنتج بعض الحكم التي كانت سببًا في تشريفهم بحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية والمجتمع البشري إلىٰ أعظم الرشد وأبين الهدىٰ(١).

ومن حكمة اختيار العرب لمهمة قيادة البشرية؛ حفاظهم علىٰ الأخلاق التي لم تعرف لغيرهم علىٰ هذا النحو خصوصًا: الوفاء بالعهد، وعزة النفس، ومضاء العزم. إذ لا يمكن لأي أمة بدون هذه الصفات أن تحمل أمانة أو تتحمل مسؤولية ولا يمكن قمع الشر والفساد، وإقامة العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة، وبهذا العزم الصميم والذي خلت منه الأمم الأخرىٰ. وقد ظهر هذا البرهان العملي من خلال المواجهات التي ثبتوا فيها أمام العالم أجمع وتحدوا فيها أرقىٰ الأمم حضارة، وأكثرها عددًا وأمضاها سلاحًا. لذلك أظهر النبي ﷺ اعتزازه بالمشاركة في تعزيز مبادئ الحق وإقرار مكارم الأخلاق، وقد شهد النبي ﷺ حلف الفضول وكان في العشرين من عمره، وقد كانت رجولته ﷺ في القمة، بَيْدَ أن قواه الروحية وصفاءه

(١) كمال السعيد حبيب: البعد العقدي في العلاقة بين الإسلام والغرب، صحيفة البيان الإماراتية، العدد ١٨٥/ مارس ٢٠٠٣م، ص١١-١٢.

النفسي جعلا هذه الرجولة تزداد بمحامد الأدب والاستقامة والقنوع. فلم تُؤثَر عنه شهوة عارضة، أو نزوة خادشة، أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو اصطياد ثروة، بل على العكس بدأت سيرته تومض في أنحاء مكة بما امتاز به عن أقرانه -إن صحت الإضافة؟- من خِلالٍ عذبةٍ، وشمائلَ كريمةٍ وفكرٍ راجحٍ ومنطقٍ صادقٍ ونهجٍ أمينٍ(١).

ملامح الوحدة في حضارة العالم الإسلامي وعلاقة ذلك بظهور الإسلام وانتشاره

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ [الأعراف، الآيتان ١٥٧-١٥٨].

لقد جاء الإسلام كمنهج حياة، يرسم الطريق وينير سبل الهداية. منه انبثق الحل العلمي والدائم لمشاكل الإنسانية التي كانت تشكو من الفراغ الديني والفكري والسياسي والثقافي، فالفكر اليوناني-الإغريقي لم يؤمن إلا بالمحسوس وافتتن بلذائذ الدنيا ومغريات الحياة، وغلبت عليه النزعة الإقليمية الضيقة باعتماده على المنهج الاستنباطي أو القياس القائم أساسًا على النظر الفلسفي والفكري المادي دون الالتفات لمنهج التجربة، فكأن الفكر اليوناني اقتصر على المادية ثقافةً وعلمًا وفلسفةً وشعرًا ودنيا(٢).

(١) كمال السعيد حبيب: البعد العقدي في العلاقة بين الإسلام والغرب، صحيفة البيان الإماراتية، العدد/ مارس ٢٠٠٣م، ص ١٤.

(٢) علي حسن الخربوطلي: المستشرقون والتاريخ الإسلامي، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م، ص ٤١-٤٥.

والفكر الروماني مجد القوة العسكرية إلى حد العبادة والتقديس، وتميز بالنظرة المادية المحضة إلى الحياة، فكانت محصلته، غلوًا في تقدير الحياة وشكًّا في الدين وضعفًا في اليقين واضطرابًا في العقيدة، فتعددت الآلهة، وترتب على ذلك إحداث البغضاء بين الله والإنسان، وما الحياة عندهم إلا فرصة للتمتع، ترف في العيش وانتهاب للذات. أما الفكر الفارسي قبل الإسلام فقد اعتمد تقوية السلطان والقوة الجسدية وقال بجريان الدم الإلهي في عروق أكاسرته وأشاع بين الناس نظرية التفاوت الطبقي(١).

وعلى الجانب الآخر من العالم، في الصين والهند، كان الاختلال يبدو واضحًا فيما يتصل بالجوانب النظرية أو الجوانب العملية من حياة الإنسان فيطغى أحدهما على الآخر، إذ يغرق أحيانًا في الروحانيات أو تطغى عليه الماديات، فلا توازن ولا انسجام(٢).

وبنزول الإسلام اتضحت معالم الحياة الدنيوية والأخروية تمام الوضوح فبالألوهية والربوبية، تحققت العدالة والمساواة والكرامة والحرية للإنسانية، فالله سبحانه وتعالى وحده هو المعبود، والمسلم ينقاد ويخضع لأوامر الله سبحانه وتعالى وحده، والله جل جلاله هو مالك كل شيء، ولم يكن الإسلام محدود المكان ولا وطني النزعة ولا مغلقًا على أهله ولا طبقيًّا، وإنما كان عامًّا، واسع الأفق، يخاطب أي إنسان في أي مكان ويقيم أخوة إنسانية عامة ، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾ [الحجرات، الآية ١٣].

وكانت نظرة الإسلام للإنسان والحياة شاملة، فقد أقر الإنسان كجسم وعقل وروح، في الجسم، النوازع والغرائز، والعقل وسيلة لتحقيق الرغبات والنوازع

(١) محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، القاهرة: مكتبة وهبة، ط٨، ١٩٧٥م. ص ١٧ . ٢٠.

(٢) محمد السعيد عبد المؤمن: مدخل إسلامي لحوار الحضارات، بحث مقدم لندوة الإسلام وحوار الحضارات، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٢٣هـ، ص٨٠- ٨٥.

وتذليل العقبات التي تعترض ذلك، والروح، مركز الأمل والألم والعواطف والشعور[١].

وفي الإسلام، تظل علاقة الإنسان بخالقه، علاقة قوامها التنظيم والهيمنة، فالإنسان المسلم يسلم نفسه لبارئه وخالقه، بلا واسطة، وإنما برقابة ذاتية تنبئ عن شخصية قوية مستقلة للإنسان المسلم عبدت الله سبحانه وتعالى حق عبادته وانكبت إلى دنياها فتمتعت بحقها في الحياة كما أمر الله جَلَّجَلَالُهُ.

فلما انتشر الإسلام في الأرض ونشر نوره في هذه الممالك الشرقية، زاد هذه الروح وقواها، وعمل على توحيدها بين أفراد الدولة الإسلامية مهما اختلفت أجناسهم وأنواعهم. وهكذا نجح الإسلام بوصفه عقيدة دينية ومنهجًا للحياة وقوة موحدة، في إقامة وحدة بشرية في رحاب الخالق، تقوم على الحرية والمساواة والتسامح، وتعمل على إزالة الحواجز السياسية بين البلاد المختلفة الممتدة في القارات الثلاث، وتعطيها شكلًا موحدًا. فكان المسلم يجد نفسه في كل هذه الأماكن: الدين نفسه و الصلوات نفسها والقوانين، حتى إنه كان يشعر دائمًا بأنه في وطنه خلال رحلاته البعيدة أو في أثناء عملياته التجارية خارج بلاده. فالإسلام، كما يقول البعض، كان بمثابة جواز سفر فوق العادة، يضمن لصاحبه حرية التنقل والمرور، بل وحسن الاستقبال في كل مكان يحل فيه[٢].

ويلاحظ في هذا الصدد أن المجتمع الإسلامي في العصر الوسيط في عصر الخلافة الراشدة والأموية والعباسية، لم يكن- كما هو الحال اليوم- ينقسم إلى قوميات، بل كانت هناك طبقات أفقية على طول امتداد عالم الإسلام، فهناك طبقات العلماء والتجار والمتصوفة والجنود... الخ. وكان أفراد كل طبقة يتعاطفون فيما بينهم مهما بعدت المسافات واختلفت الجنسيات. فالرحالة المغربي "ابن بطوطة

(١) محمد خاتمي: حوار الحضارات، ضمن كلمة الرئيس الإيراني في اليونسكو في فرنسا ١٩٩١\١٠\٣٠م. دمشق: دار الفكر ط١، ١٤٢٣هـ. ص ٦٣.

(٢) محمد عمارة: الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري، القاهرة: دار الشروق، ط ١، د.ت.

"يصرح بأنه استطاع بخرقة التصوف أن يجوب بلاد العالم الإسلامي، وأن يجد كل ترحيب ومساعدة في الأماكن التي مر بها. وهذا يدل على وجود ما يصح أن يسمى أمة واحدة، لها أدب واحد، وثقافة واحدة، وعلم مشترك[١].

فالعالم الإسلامي إذن يمثل وحدة تاريخية فريدة من نوعها مهما باعدت بين أجزاء هذا العالم المسافات، وفرقت بين أطرافه المذاهب والسياسات، فالفرقة السياسية بين دوله وحكوماته لم تحل دون لقائها على الصعيدين الشعبي والحضاري. ذلكم بأن الإيمان بالإسلام كنظام متكامل للأخلاق والمدنية والاجتماع والاقتصاد والسياسة يظل صمام الأمان بين المسلمين أينما كانوا، فهو الذي يقيم قواعد حضارة الإسلام ويميز عناصر الحضارة الصالحة عن عناصرها الرديئة، يدافع عن نظامه ويجذر أصوله، وعلى هذا الإيمان تتوقف أخلاق الأفراد ووحدة الأمة، وحفظ الوجود الحضاري للأمة الإسلامية، فالمبادئ التي طرحها الإسلام قادرة على فرز عناصر قوية تتصدى لجميع الأنظمة السياسية والأفكار الفلسفية التي تحاول النيل من الإسلام. فيصمد أمام زحف النظريات المادية والرأسمالية والشيوعية، في حين أن الديانات الأخرى لم تصمد أمام زحف تلك النظريات فشاعت تلك النظريات وانتشرت بين أممها وشعوبها[٢].

فالإسلام على هذا الأساس: دين أوَّلًا، ودولة ثانيًا، إلى جانب كونه حضارة وثقافة ورسالة إصلاحية تتمثل فيها ذرى العلوم والمعارف. ومحمد ﷺ، ما هو إلا رسول كريم، ومصلح منير له رسالة سامية يراد له تنفيذها. وبطبيعة الحال لقيت هذه الرسالة معارضة كبيرة؛ لأنها تريد من الإنسان ترك عاداته ومعتقداته التي يعتز بها والتي ورثها عن آبائه وأجداده وهي على جهل مطبق. وحررت رسالة الإسلام الإنسان من عبادة غير الله عز وجل، لأن في عبادة الإنسان غيره إلغاء لعقله وكيانه وتعطيلًا لطاقاته المادية والمعنوية. ورفعته على جميع المعتقدات بربطه بجسر

(١) محمد عمارة: العرب والتحدي، القاهرة: دار الشروق، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.
(٢) محمد عمارة: حضارة أم حضارات، مجلة المسلم المعاصر، السنة ١٩، العدد ٧٣.

روحي ومادي مع خالق الإنسان دون وسيط أو دخيل، في الوقت الذي كانت جميع الملل السابقة تفصل بين الفرد وخالقه بوساطات وهياكل وطقوس كهنوتية، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[التوبة، الآية ٣١]، ومن هنا كانت معارضة أصحاب الهوىٰ والمصالح لرسالة الإسلام. والإنسان محافظ بطبعه، ولا يندفع إلىٰ التجديد إلا إذا دفع إلىٰ ذلك دفعًا. فالحضارات لم تأت عفوًا، وإنما جاءت بعد تضحيات كثيرة. ومن هنا كانت المعارضة لرسالة النبي ﷺ من جميع نواحيها الدينية والأخلاقية والاجتماعية أمرًا طبيعيًّا[١].

ولم تلبث هذه الدولة العربية الإسلامية الفتية أن قامت بإنجازات عسكرية وحضارية واسعة النطاق في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية (١١-١٣٢ هـ/ ٦٣٣ - ٧٤٩م)، ومن أهمها حركة الفتوحات الكبرىٰ التي ازدادت في مساحتها.

انتشر الإسلام وازدادت الدولة اتساعًا في طورين أساسيين:

في العهد الراشدي: (١١ هـ/ ٦٣٢م- ٤٠ هـ/ ٦٦١م): في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر وصدر خلافة عثمان، وشمل فتح الشام والعراق ومصر وفارس، وقد حمل العرب إلىٰ تلك الأقطار مبادئ دينهم الحنيف، الذي انتشر فيها، وأقبل أهلها علىٰ اعتناقه لسمو مبادئه وذلك طواعية واختيارًا ودون إكراه من جانب العرب الفاتحين عملًا بقول القرآن: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾﴾ [البقرة، الآية ٢٥٦][٢].

(١) محمد عمارة: حضارة أم حضارات، المسلم المعاصر، السنة ١٩، العددان ٧٣.

(٢) محمد نورد شان: موقف الإسلام من الحضارات الأخرىٰ، بحث مقدم إلىٰ ندوة الإسلام وحوار الحضارات، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز، محرم ١٤٢٣هـ. ص ٢٢-٢٥.

فلما أقبل كثير من أهل البلاد المفتوحة على الإسلام، نشأت الطبقة المعروفة بـ«طبقة الموالي» في تلك البلاد. ولا شك أن نجاح العرب في فتوحاتهم في هذا الطور الأول يرجع إلى قوة إيمانهم واتحادهم، وإلى نظرتهم العادلة إلى أهل البلاد المفتوحة، فكانوا يكتفون بالجزية من أهل الكتاب من اليهود والنصارى، وحتى عندما فتحوا فارس، أنزلوا المجوس (الزرادشتية) منزلة أهل الكتاب واكتفوا منهم بالجزية[١]. **في عصر الدولة الأموية** في أواخر القرن الأول الهجري. ويمتاز هذا الطور عن سابقه، بأن العناصر المحلية أو الموالي الذين دخلوا في الإسلام، وقفوا جنبًا إلى جنب مع العرب في فتوحاتهم الجديدة التي شملت أقاليم «خراسان»، «وما وراء النهر (نهر جَيحون)»، و«حوض السِّنْد»، وبلاد «المغرب والأندلس». ومن المعروف كذلك أن موالي القبط اشتركوا مع العرب في قتال الروم في البحر في موقعة ذات الصواري سنة ٣٤ هـ/ ٦٥٥ م- وقد كان قائد المعركة هو عبد الله بن أبي سرح القرشي[٢] أخو الخليفة عثمان بن عفان من الرضاعة، كما أصبح البربر بعد اعتناقهم الإسلام يشكلون الكثرة الغالبة في الجيوش الإسلامية التي فتحت الأندلس وجنوب فرنسا[٣].

وكان هذا التعاون الوثيق بين العرب وبين العناصر المسلمة الجديدة في ظل الدولة الإسلامية، من أقوى الأسباب في مد نطاق الفتوح الإسلامية في هذا الطور الثاني الذي تضاعفت فيه رقعة الدولة الإسلامية التي امتدت من أواسط آسيا

(١) نادية محمود مصطفى: مصر ومشروعات النظام الإقليمي الجديد في المنطقة، مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد، جامعة القاهرة ١٩٩٧. مقدمة البحث، ص١.

(٢) هو عبد الله بن أبي سرح القرشي قائد الأسطول البحري في معركة ذات الصواري في عهد الخليفة عثمان بن عفان، انظر إكليل موسوعة شهران العريضة وقبائل خثعم المجيدة، الجزء الثالث، د. علي بن سعد آل زحيفة الشهراني الخثعمي.

(٣) محمد السعيد عبد المؤمن: مدخل إسلامي لحوار الحضارات، بحث مقدم لندوة الإسلام وحوار الحضارات، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٢٣هـ. ص٤٠-٤١.

شرقًا، إلى المحيط الأطلسي غربًا، فالوحدة التي شملت جميع العناصر الإسلامية من عرب وفرس وأفارقة وبربر وهنود هي السر في امتداد الدولة الإسلامية شرقًا وغربًا، شمالًا وجنوبًا. ويُعْزَىٰ لبني أمية الفضل في توحيد الثقافة في العالم الإسلامي، إذ كانوا قد نجحوا في نشر الإسلام في رقعة واسعة من الأرض تضم شعوبًا مختلفة وثقافات متنوعة. تعرضت لتأثيرات يونانية ورومانية، وسريانية وآشورية، ولقد تم تثبيت الإسلام ونشر اللغة العربية بين المجتمعات الإسلامية الجديدة، فأكثر الأمويون من فتح الكتاتيب العربية لتعلم الكتابة، واستُدعي أعلام الفكر والأدب لعقد ندواتهم ومناظراتهم بحضور الخلفاء ومن ثم الاهتمام بالمكتبات وتنميتها، والإبقاء على المدارس الأجنبية في نصيبين وحَران وعدم التعرض لنشاطها، مما ساعد تلك المدارس على الاستمرار في أعمال الترجمة، والاستعانة بأهل البلاد المفتوحة من عرب وغيرهم للمساهمة في المجالات الحياتية الجديدة، وأعطى بنو أمية للعلوم النظرية والتطبيقية عناية متميزة، فظهرت علوم القراءات والتفسير والحديث والفقه والسير والمغازي، وكانت العناية بتلك العلوم ملحَّة لتسهم في استقرار البلاد الإسلامية وذلك بغرض تعميق تمسكها بالدين الإسلامي، وإتقانها العربية، لغة القرآن الكريم(١).

ومن الجدير بالذكر أنه توفرت في الدولة الأموية كل العوامل التي تساعد على قيام مراكز ثقافية تعنى بالنشاط العلمي، فكانت البصرة والكوفة علاوة على دمشق، العاصمة، نقاط التقاء الثقافات وتقاطر أهل العلم والمعرفة من مختلف البلدان والأمصار عليها للدراسة.

لقد كانت جهود بني أمية واضحة في انكفائهم لتشجيع العلوم ورعايتهم لحركة الترجمة، وتمثل ذلك بجهود خالد بن يزيد، حكيم بني أمية، الذي اشتغل والراهب ماريانوس في ترجمة العديد من الكتب اليونانية، ومثله فعل ماسَرْجَوَيْه

(١) محمد السعيد عبد المؤمن: مدخل إسلامي لحوار الحضارات، بحث مقدم لندوة الإسلام وحوار الحضارات، الرياض: مكتبة الملك عبد العزيز، ١٤٢٣هـ. ص٤٣.

في عهد مروان بن الحكم، ٦٤ هـ/ ٦٨٣م الذي ترجم كتاب أهْرَن بن أعْيَنَ الطبي، وسرجون بن منصور، وطبيب الحجاج تياذوق(١).

لقد كان للأمويين فضل الريادة في الاتجاه نحو ثقافات الشعوب التي انتشر بينها الإسلام، وعملوا على استيعاب تلك الثقافات، وتعاملوا بمهارة مع المشكلات والعقبات التي اعترضت عملية النقل والتفسير من تلك الثقافات ووضعوا الحلول المناسبة لها، فما كان على بني العباس، إلا الاستمرار على المنهج والنسق الذي ابتدأه الأمويون.

ففي العهد العباسي: ١٣٢هـ/ ٧٥٠م-٦٥٦هـ/ ١٢٥٨: قامت بعد ذلك الدولة العباسية على أنقاض الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ (٧٥٠ م)، وامتد حكمها خمسة قرون إلى أن سقطت على أيدي المغول أو التتار بزعامة هولاكو» حفيد جنكيز خان" سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م). وعلى الرغم من أن الأسرة العباسية الحاكمة كانت أسرة عربية هاشمية، تنحدر من سلالة العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ، إلا أنها اعتمدت على «الموالي» أي على الشعوب التي دخلت في الإسلام. ولذلك لم يكن العباسيون لينظروا إلى جنس معين من رعاياهم يتعصبون له على نحو تعصب الأمويين للعرب، بل نظروا إلى الشعوب التي تتألف منها الأمة الإسلامية نظرة واحدة مع اختلاف أجناسهم وألوانهم، عملًا بمبدأ المساواة الذي ينص عليه الإسلام في قول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾ ﴾ **[الحجرات، الآية ١٣]**.

وبهذه السياسة وهذه النظرة إلى الشعوب الإسلامية، تقاربت الأعراق الإسلامية، وتداخلت بالزواج المختلط أو التوليد، ونشأ عن هذا الاختلاط جيل جديد من المولدين، وأصبحت الدولة الإسلامية وكأنها وطن لأمة واحدة لا

(١) فهمي هويدي: المسلمون وسيناريو الصراع بين الحضارات، المسلم المعاصر، السنة ١٧. العددان ٦٧-٦٨ ١٤١٣هـ-١٩٩٣م.ص ٢٠٠.

لشعوب مختلفة، تدين بدين واحد، وتتكلم لغة واحدة. وقد اتجهت سياسة الدولة العباسية – منذ البداية – إلى المشرق، وكان هذا سر نجاحها(١).

ومنذ ذلك الوقت؛ نلاحظ أن الحضارة الإسلامية أخذت تسود بلاد أواسط آسيا بعد أن أزاحت عنها الوجود الصيني. كذلك قامت في الأطراف الشرقية للدولة العباسية، دول إسلامية عريقة عملت على نشر الإسلام هناك باسم الخلافة العباسية.

أثر الحضارة العربية على أوروبا الحديثة

ما إن بزغ نور الإسلام في شبه الجزيرة العربية وما حولها إلا وأبصر به العرب حياتهم الجديدة في ظل هذا الدين الجديد. لقد غير الإسلام حياتهم كلها؛ الدينية والاجتماعية والفكرية. فدينهم يدعوهم للتفكر والتفكير والتعرف على ما خلق الله من سماء وما فيها، وأرض وما تحويها، كما يدعوهم للتعرف على البشر الآخرين.

وما إن تمضي ثلاث عشرة سنة من البعثة حتى تنطلق رسل النور مبشرين به ما حولهم من أمم غارقة في ظلامها الدامس ما تكاد أن تبصر منه ليلها من نهارها. وما تمضي عشر سنوات أخرى حتى يعم ذلك النور أرجاءً واسعة من البسيطة.

وإحقاقًا للحق؛ فإن من بين تلك الأمم التي انطوت في ركاب حضارة الإسلام، أممٌ كان لها رصيدٌ وارف الظلال في ركب الحضارة العام. فمصر بحضاراتها المتعاقبة؛ فرعونية ورومانية، والعراق بحضاراته البابلية والآشورية، والشام بحضارته الكنعانية، والهند والصين بحضارتيهما، كانوا لبنات في صرح حضارتنا الإسلامية الباهرة.

وفي طور النشأة اتخذت حضارتنا خطوات من سبقها على الدرب، لقد قامت جميع الحضارات على استيعاب السابق، ومعرفته حق المعرفة؛ بناء صرحٍ شامخٍ

(١) فهمي هويدي: المسلمون وسيناريو الصراع بين الحضارات، المسلم المعاصر، السنة ١٧. العددان ٦٧-٦٨ ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م. ص٢٠١.

عليه. وكذا خطت الحضارة العربية، فكان عليها أن تستوعب نتاج ما سبقتها من حضارات فارسية وهندية ويونانية، ولكونه بلغات غير لغتها، فكان عليها لزامًا أن تقوم بنقله إلى لغتها كي يسهل لها معرفته جيدًا ثم البناء عليه.

لقد استغرقت حركة النقل والترجمة حوالي ستين عامًا، وكانت في بادئ الأمر تعتمد على الجهود الخاصة والمبادرة الفردية[١]. ولعل انشغال العرب في الصدر الأول من دولتهم بشئون الحكم ووضع قواعده قد شغلهم عن الاهتمام بالحركة العلمية[٢].

وما إن تستقر أوضاع الخلافة في دمشق إلا ويقبل أحد أفراد البيت الأموي أو حكيم بني أمية كما يلقب أحيانًا وهو: خالد بن يزيد بن معاوية على التعرف على ثمار ما خلَّفه له علماء الحضارات السالفة؛ إذ يقبل على درس الصنعة (الكيمياء) على يد راهب إسكندراني، ويأمر بنقل بعض كتبها من لغتها إلى العربية.

وما يختتم القرن الأول سنيه حتى يعتلي عرش بني أمية الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، والذي يأمر بتدوين الحديث الشريف والسنة النبوية، وهما علم العرب الأول. لقد كان هذا الأمر فتحًا قويًّا في ركب الحضارة الإسلامية قامت على أساسه العديد من العلوم، كما شجع هذا الأمر مترجمًا يهودي الديانة سرياني اللغة أن ينقل له مجموعًا طبيًّا.

لقد كانت هناك حركتان ثقافيتان في العصر الأموي، الأولى تمثلت في بداية حركة الترجمة والثانية في تدوين العلوم الإسلامية والعربية والتأليف فيها. وشهد هذا العصر ظهور ألمع وأشجع رجال الكنيسة في سوريا إذ ظلت المدارس الكبرى من مسيحية أو يهودية أو صابئة أو يونانية قائمة لم يتعرض لها بنو أمية بسوء[٣].

---

(١) حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، ص ١٦.

(٢) محمد عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، ص ٢٩٣.

(٣) من الفلسفة اليونانية، ص ٣٠٢.

لقد كان قيام الدولة العباسية في الثلث الأول من القرن الثاني الهجري فتحًا علىٰ الأصعدة والمجالات كافة؛ ففي المجال السياسي ترسَّخت أقدام هذه الدولة وظلت ممتدة لأكثر من خمسة قرون كاملة إلىٰ أن غربت شمسها علىٰ يد الطاغية المغولي هولاكو في منتصف القرن السابع الهجري، حقًّا لقد انتابها حالة من الضعف العام في القرنين الأخيرين من عمرها، لكنها في الوقت نفسه شهدت قيام دويلات صغيرة ـ تدين لها بالولاء أحيانًا ـ استطاعت أن تذود عن الأطراف المتسعة للدولة الكبرىٰ الرغبات الاستعمارية في الدول المجاورة لها.

وفي مجال الترجمة:

لقد شهدت حركة النقل والترجمة ازدهارًا منقطع النظير؛ إذ لقيت دعمًا من الخلفاء أنفسهم بداية من أولهم أبي جعفر المنصور، وما أن يعتلي هارون الرشيد سدة الحكم في بغداد إلا ويؤسس دار الحكمة أشبه ما يكون حاليًّا بهيئة الترجمة والتي عنيت بالترجمة بشكل منظم، وذلك عن طريق اختيار المادة المترجمة، ومراجعتها من قبل المشرف علىٰ المؤسسة، ثم تقديمها للخليفة والذي عادة ما يجزل العطاء لمترجمها.

وفي عهد ابنه المأمون ـ امتداد العصر الذهبي لبني العباس ـ تبلغ حركة الترجمة أوجَّها ازدهارًا، وذلك لكون المأمون واسع الثقافة، بعيد النظر، سخي اليد، محبًّا للفلسفة، فقرَّب رجال الفكـر، وكان يطلق علىٰ هذا العلم حينئذٍ: علم الكلام وأجزل لهم العطاء وأمر بنقل الكتب الفلسفية، حتىٰ إنه كان يبعث الوفود إلىٰ ما حوله من دول؛ كالهند ومصر وفارس واليونان، للبحث عن الكتب العلمية النفيسة واستجلابها شراءً، بل إنه جعل الحصول علىٰ كتب الفلسفة والعلوم شرطًا من شروط وقف القتال، وذلك حين انتصر علىٰ الروم، إذ أرسل وفدًا اختار ما شاء من كتب الفلاسفة وجاء بخمسة أحمال منها[١].

(١) العلوم عند العرب، ٢٤٧ وما بعدها.

وتجدر الإشارة إلى أن حركة النقل والترجمة لم تكن مقصورة على الدولة وحدها متمثلة في رعاية الخليفة لدار الحكمة، بل لقد كان لبعض أهل اليسار من الوزراء ممن عُرفوا بالعلم والفضل إسهام لا ينسى لا تنسى، كالدور الذي قامت به الأسرة البرمكية في رعاية بعض العلماء والمترجمين.

وما إن يحل القرن الرابع الهجري حتى كان العالم الإسلامي يمتلك ترجمات عربية لأشهر تراث اليونان في العلم والفلسفة[١].

وجدير بالذكر أن نذكر طرق الترجمة المعتمدة في هذه الفترة، لقد كانت هناك طريقتان متبعتان لدى المترجمين، **إحداهما**: طريقة الترجمة اللفظية أو ما يسمى بـ«الترجمة الحَرّفية»، وهي أن يقوم المترجم بترجمة كل كلمة منفردة إلى العربية، غير أن هذه الطريقة قد تؤدي إلى نص غير مفهوم أحيانًا، وممن اتبعها عيسى بن ناعمة الحمصي. **وثانيهما**: هي طريقة النقل بالمعنى، وهي أن يأتي المترجم على الجملة فيترجم معناها إلى اللغة المراد النقل إليها، وممن اتبعها حنين بن إسحاق.

أحدثت حركة النقل والترجمة انقلابًا ثقافيًّا في مناحي كثيرة امتدت آثاره إلى الفكر واللغة والدين.

وإذا انتقلنا من حركة الترجمة وطريقتها إلى المادة العلمية عند العرب، فإننا نجدهم قدمالوا لاستخدام المنهج التجريبي، وذلك لرفضهم للمنطق الأرسطي، والذي وجدوا في طرق برهانه خطرًا على سلامة الدين.

إن المستطلع المنصف للمجالات العلمية المختلفة، لا يمكن بحال أن ينكر ما قدمه العرب في كل مجال طرقوه من إسهامات علمية تشهد لهم بالبراعة في ذلك المجال.

ففي الوقت التي كانت أوروبا تعاني فيه من التخلف والركود والانحطاط العلمي وذلك ما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلادي كانت الحواضر العربية الإسلامية تنير الحواضر والمدن. ولم يتغير واقع أوروبا إلا بعد الاتصال بالحضارة

(١) محمد عبد السلام كفافي، الحضارة العربية طابعها ومقوماتها العامة، ص ٥١.

العربية الإسلامية عن طريق المعابر الحضارية المتمثلة في الأندلس وصقلية وبلاد الشام، فتحولت من واقع التخلف إلىٰ واقع العلم بفضل حضارتنا المتقدمة آنذاك.

في الكيمياء:

تقترن الكيمياء العربية دائمًا باسم جابر بن حيان، فقد سلك في بحوثه وتجاربه الكيميائية مسلكًا علميًّا خالصًا، وسجل نتائجه بدقة فائقة مما جعل بعض الباحثين يعتبرونه مؤسس الكيمياء الحديثة في الشرق والغرب بلا منازع[١].

لقد استخدم جابر بن حيان (ت نحو ٢٠٠ هـ) المنهج التجريبي، بل إنه يصرح بذلك قائلًا: «والله لقد عملته بيدي وبعقلي من قبل، وبحثت عنه حتىٰ صحَّ...)»[٢].

إن كتابات جابر بن حيَّان توحي بالمنهج التجريبي الذي تتلخص أهم خطواته في أنه:

١- يستوحي العالم من مشاهداته فرضًا يفرضه ليفسر الظاهرة المراد تفسيرها.
٢- يستنبط من هذا الفرض نتائج تترتب عليه من الوجهة النظرية.
٣- يعود بهذه النتائج إلىٰ الطبيعة ليرىٰ هل تصدق أو لا تصدق، علىٰ مشاهداته الجديدة، فإن صدقت تحول الفرض إلىٰ قانون علمي يستند عليه.

ويتضح ذلك مما قام به من بعض التجارب الكيميائية، فقد استخدم التبخير والتقطير والتكليس والإذابة والتبلور والتصعيد، كما قام بتحضير بعض المواد الكيميائية في المعمل كنترات الفضة المتبلورة، وحامض الأزوتيك، كما عرف طريقة فصل الذهب عن الفضة بالحل بواسطة الحامض[٣].

---

(١) مصطفىٰ لبيب: الكيمياء عند العرب، ص ٩١.

(٢) جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبير، المقالة الثانية والثلاثون، مختارات كراوس، ص ٣٢٢.

(٣) العلوم عند العرب، ص ٢٦٩، وما بعدها، وفيها عرض تفصيلي لبعض النتائج العلمية التي توصل إليها جابر بن حيان.

المسلمون في مجال الطب:

حينما نتعرض لإسهامات العرب في المجال الطبي، فلابد أن نتطرق لأمرين مهمين، الأول هو المنهج المستخدم من قبل هؤلاء الأطباء، والثاني هو مدىٰ إسهام هؤلاء الأطباء في تاريخ العلم عامة، والحضارة العربية الإسلامية وأثرها علىٰ حضارة أوروبا خاصة.

وأول هذه الكوكبة، الطبيب المعروف أبو بكر الرازي(ت٣١٣هـ)، فقد استخدم الرازي المنهج التجريبي القائم علىٰ الملاحظة والتجربة. وتتضح قيمة التجربة وأهميتها عند الرازي من خلال قيامه ببعض تجاربه التي أجراها علىٰ القرود باعتبارها أقرب الحيوانات شبهًا بالإنسان بالرغم من اختلاف الطبيعتين في بعض الأحيان، والمثال علىٰ ذلك ما ذكره الرازي من خواص الزئبق[(١)].

لقد تميز الرازي بدقة ملاحظاته في الطب الجسدي السريري، ويتضح ذلك من خلال ما سطره في رسالته الحصبة والجدري، إذ يصف مرض الحصبة وأعراضه وصفًا دقيقًا، فيقول: ويلاحظ أن ارتفاع الحرارة يساعد علىٰ انتشار الطفح الذي ينشأ بسبب فوران الدم. وهو يشبه ذلك بفوران الخمر في أثناء تخمره[(٢)].

كما نراه يركز علىٰ أهمية الفحص الدقيق للقلب والنبض والتنفس والبراز عند مراقبة المرض، وتلك الأمور لا زالت موجودة وتحتفظ بأهميتها في العصر الحديث.

كما تنبه الرازي إلىٰ أثر العامل النفسي في صحة المريض، وفي إحداث الأمراض العضوية، كما فطن أيضًا إلىٰ علاج بعض الأمراض النفسية عن طريق الموسيقىٰ، ومما يؤكد ذلك ما ذكره ابن جلجل عنه: كان في ابتداء أمره يضرب علىٰ العود.

ومن أهم مؤلفاته في مجال الطب التي تأثرت بها أوروبا كتاب «الحاوي»، والذي يعد من أعظم كتب الطب قاطبة حتىٰ نهاية العصور الحديثة، والذي ظل

(١) العلوم عند العرب، ص ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٢) العلوم عند العرب، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

يدرس في الجامعات الأوروبية حتى أواسط القرن السادس عشر، وقد ترجم الكتاب إلى اللاتينية، واعتبر أطباء أوروبا بأن الرازي هو أعظم أطباء الطب السريري ـ الإكلينيكي ـ في العصور الوسطى. وما زال الغربيون يعترفون بفضل الرازي ومآثره الطبية مما دعا جامعة برنستون في الولايات المتحدة الأمريكية لإطلاق اسمه على أفخم أجنحتها تقديرًا لفضله عليهم(١).

لقد كان للرازي العديد من المنجزات الطبية، ومن أهمها: قيامه بعمل مراهم الزئبق وابتكاره خيوط الجراحة، كما كتب في طب الأطفال، وعالج أمراض السُّلّ بالحليب والسكر، واستعمل طرقًا عديدة مبتكرة في علاج أمراض شتَّى(٢).

كذا فهو أول من شخَّص مرض الحصبة والجدري، وهو الذي ابتكر خيوط الجراحة المعروفة، وهو الذي صنع مرهم الزئبق(٣)، والحقيقة فإن الرازي لم يكن طبيبًا فحسب، وإنما كان موسوعة علمية، له إسهامات في الطب والكيمياء والرياضيات والفلسفة والأخلاق والموسيقى.

وثاني هؤلاء الأطباء شهرة وتأثيرًا هو أبو الحسين بن سينا، صاحب كتاب القانون في الطب، والذي يعتبر من الكتب الجامعة للمعارف وعلوم الطب التي أجراها الأطباء الذين سبقوا ابن سينا.

إن معرفة مدى التقدير الحقيقي لكتاب القانون يتضح من خلال حرص جامعة باريس على تكريم الأطباء المسلمين؛ فاحتفظت بصورتين كبيرتين في قاعتها الكبرى، إحداهما للرازي والأخرى لابن سينا، أو من خلال مقولة عالمهم شاخت وبوزورث: بأن كتاب «القانون» أصبح، وكأنه إنجيل الطب في العصور الوسطى(٤).

(١) العلوم عند العرب، ص ٢٩١.
(٢) العلوم عند العرب، ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤.
(٣) العلوم عند العرب، ص ٢٩٢.
(٤) العلوم عند العرب، ص ٢٩٣.

ومن أولياته: وصفه لمرض الالتهاب السحائي، وهو أول من ميز بين الشلل الناتج عن سبب داخلي في الدماغ، وبين الشلل الناتج عن سبب خارجي، وهو أول من وصف السكتة الدماغية الناتجة عن كثرة الدم، وهو أول من وصف مرض الإنكلستوما، وذلك قبل أن تعرفه أوروبا بـ ٩٠٠ سنة[١].

كان ابن سينا طبيبًا نفسيًّا إلى جانب مميزاته الطبية الأخرى، فقد نُقل عنه معالجته لمرضى نفسيين بطرق شفي منها المريض، وأثبتت ريادته في هذه النوع من الطب.

وكما أنبتت حضارتنا أطباء معالجين، فإنها في ذات الوقت قدمت للإنسانية أطباءً جراحين، ومن أبرز هؤلاء أبو القاسم الزهراوي الذي كان طبيبًا جراحًا في الوقت التي كانت فيه أوروبا تعتبر أن الجراحة من الأمور غير مقبولة أو غير المسموح بها لديهم.

لقد أجرى الزهراوي العديد من العمليات الجراحية، كاستخراج الحصاة من مثانة المرأة، وشق القصبة الهوائية، وتوسيع باب الرحم، وعمليات البتر، وبرع أيضًا في تشخيص أمراض العيون والأنف والأذن والحنجرة، وقدم علاجًا لمرض السرطان ظل يستعمل في العصور الوسطى وحتى اليوم، كما قام بإجراء العمليات التجميلية. كما كان يعقم آلاته الطبية التي يستخدمها في عملياته الجراحية بمادة الصفراء للتأكد من تطهيرها، وقد أثبت الطب الحديث أن مادة الصفراء تقلل من تواجد البكتريا. ومن الأمراض التي اهتم بها الزهراوي مرض السرطان وكيفية معالجته، فقد أعطى لهذا المرض الخبيث وصفًا وعلاجًا ظل يستعمل إلى قريب[٢].

ومن الأطباء البارزين في مجالي الطب والتشريح، العالم ابن النفيس، صاحب كتاب «الشامل» في الطب والذي يعد موسوعة علمية لا ينقصها سوى عدم اكتمالها، فإن صاحبها لم يبيض منها سوى جزء منها بلغ ثمانين مجلدة.

(١) العلوم عند العرب، ص ٢٩٤.
(٢) العلوم عند العرب، ص ٢٩٥ - ٢٩٦.

إن النتائج التشريحية التي توصل إليها ابن النفيس سبق بها أوروبا الحديثة، كما أن اكتشافه للدورة الدموية الصغرىٰ سبق به الإسباني (سرفيتوس) بثلاثة قرون كاملة. ومن المؤسف حقًّا أن سرفيتوس ينقل حرفيًّا وصف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرىٰ دون أن يشير إليه أو يعزو هذا الاكتشاف لصاحبه الأصلي.

المسلمون في الرياضيات والفلك:

عرف العلماء العرب الفلك وميزوا بينه وبين التنجيم القائم علىٰ الخرافة والوهم، وأكدوا أن الفلك علمٌ قائم بذاته له أسبابه وأصوله ونتائجه العلمية. كما قام العلماء العرب بتصحيح كثير من النظريات والآراء الواردة في كتب العلماء السابقين من اليونان والفرس والهنود وغيرهم.

ومن أهم منجزات العلماء العرب في مجال الفلك:

١- أدركوا أن الأرض كروية وسابحة في الفضاء، وبذلك فسروا كيفية دوران الشمس والقمر والنجوم حولها.

٢- قياس خط نصف النهار.

٣- رصد الكواكب السيارة والنجوم الثوابت، وعينوا موقعها وأفلاكها في القبة الزرقاء أو رسموا لها الخرائط.

٤- اكتشفوا أن القمر يختلف في سيره من سنة إلىٰ سنة.

٥- توصل ابن رشد بواسطة الحساب الفلكي إلىٰ وقت عبور عطارد علىٰ قرص الشمس، فرصده وشاهد بقعة سوداء علىٰ قرصها في الوقت المعين.

٦- عرف العرب أن للنجوم أبعادًا وأحجامًا مختلفة، وأن الأرض أصغر من الشمس كثيرًا[1].

---

(١) راجع أهم منجزات العلماء العرب، العلوم عند العرب، ٣١٦ وما بعدها.

ويُعَدُّ الحسن بن الهيثم أكبر عالم رياضي وطبيعي في العصور الوسطي، وقد احتل بفضل جهوده وأبحاثه في علم الطبيعة وعلم الضوء مكانة مرموقة.

ففي كتاب «المناظر» يعرض الحسن بن الهيثم لأبحاثه في الضوء والبصريات بدقة وتحليل فائقين مما جعل هذا الكتاب لا يقل في أهميته عن الكتب والمصنفات الحديثة في موضوع انكسار الضوء وتشريح العين وكيفية تكوين الضوء على شبكتها(١).

لقد عكف على دراسة الرأيين المتعارضين لتفسير ظاهرة الضوء، أحدهما يرى: أن عملية الإبصار تكون عن طريق شعاع يخرج من البصر إلى المبصر، وبه يدرك البصر صورة المبصر، والآخر يقول: إن الإبصار يكون بورود صور من المبصر إلى البصر منها يدرك البصر صورة المبصر.

المسلمون في مجال الجغرافيا:

فإن هذا العلم نشأ مرتبطًا ارتباطًا وثيقًا بعلم الفلك الذي برع فيه العرب والمسلمون، ويمكن إجمال الأسباب التي أدت إلى نشوء علم الجغرافية عند المسلمين فيما يلي:

١ - الحج، وهو فريضة على كل مسلم مستطيع.

٢ - الرحلة في طلب العلم، وذلك يستلزم معرفة الأماكن والمناطق.

٣ - حاجة الدولة الإسلامية إلى معرفة الطرق الكبرى التي تصل أقاليمها.

٤ - السفارات السياسية بين الدولة الإسلامية وما جاورها من دول.

المسلمون في مجال الهندسة:

أدخل العلماء العرب فرضية التوازي التي لم تكن موجودة عند هندسة إقليدس، كما كان لهم إسهامات في مجال العمارة والبناء تجلت في تصميماتهم

(١) قدري حافظ طوقان، الخالدون العرب، ص ١١٨ ـ ١١٩.

التي وضعوها للمساجد، وتمثل إبداعهم في أعمدة المساجد والأشكال الهندسية والنباتية التي زخرفوا بها مساجدهم.

المسلمون في الفيزياء:

اهتم العلماء العرب والمسلمين بالفيزياء، ومن بين الذين تميزوا في الفيزياء مجموعة من العلماء. ومن أبرز هؤلاء العلماء العرب في هذا المجال (بنو موسى بن شاكر) والذين أسهموا بدور فعال في علوم الرياضيات والهندسة الميكانيكية والموسيقى والطب والحكمة والفلسفة.

لقد ألف (بنو موسى) كتابًا في قطع المستديرات ظل مصدرًا أساسًا لعلماء أوروبا في الأشكال الإهليلجية، كما اهتموا بصنع بعض الآلات المتحركة مثل الروافع المبنية على فكرة الفائدة الميكانيكية[١].

المسلمون في مجال الطيران:

قليلون هم الذين يعلمون ما قام به العرب في مجال استخدام الهواء والسيطرة عليه، وهي المحاولة التي قام بها ابن فرناس في الأندلس، إذ صنع أول طائرة من القماش والريش، ثم صعد بها مرتفعًا وترك نفسه في الهواء يحمله[٢].

المسلمون في مجال العلوم الإنسانية:

أسهم العلماء العرب إسهامات بالغة، حتى إنهم أرسوا قواعد بعض العلوم، مثل علم الاجتماع مثلاً، والذي أسس قواعده (ابن خلدون)،و ليس (إميل دور كايم) كما يعتقد الغرب، إن القارئ لكتابات ابن خلدون ـ رغم أنها تسبق كتابات دور كايم ببضع مئات السنين ـ يجد أنه أخصب منه فكرًا، وأتم علمًا وأعظم رأيًا، وأكمل فهمًا[٣].

(١) للمزيد عن إسهامات بني موسى، راجع كتاب العلوم عند العرب، ص ٣٤٤ـ٣٤٧.

(٢) شمس العرب تسطع على الغرب، تأليف زيغريد هونكة، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ط٨، ١٩٩٣، ص ١٣٤.

(٣) المسلمون علماء وحكماء، ص ١٣٣.

لقد سبق ابن خلدون كل علماء الاجتماع في تحديد خصائص ذلك العلم، بل تفوق عليهم في بيان الطرق والوسائل التي يستخدمها الباحث عند دراسته للحوادث والظواهر الاجتماعية.

كما إنه يحدد الأسس التي يجب أن يقوم عليها علم الاجتماع، أو علم العمران البشري كما كان يسميه.

كيفَ أصبحَ المسلمون، ولماذا؟

ليس غريبًا أنْ يتركَ الإسلامُ أثرًا منذ بزوغِه على البشرية في جميع مناحي الحياة، فلقد كان ظهور المدنية الإسلامية بروحها ومظاهرها وقيام الدولة الإسلامية بشكلها ونظامِها في القرن الأول لهجرة النبي ﷺ فصلًا جديدًا في تاريخ الأديان والأخلاق.

فلقد جاء الإسلامُ بالتوحيد وعبادة الخالق وحدَه، ونهى عن الوثنية والشرك، فهان الشركُ منذ ذلك اليوم في عيون أهله وصغر، فصار أهلُه أولَ من يخجلُ منه ويتبرّأ مِن أفعاله الوثنية في الجاهلية.

بل بلغ الأمر أكبر من ذلك، حتى ظهر أثرُ الإسلام في المذاهب والملل الأخرى. يقول الأستاذ أحمد أمين: «ظهر بين النصارى نزعاتٌ يظهر فيها أثر الإسلام؛ مِن ذلك: أنّه في القرن الثامن الميلادي (القرنين: الثاني والثالث الهجريين) ظهرت في سبتمانيا septimania ـ وهي مقاطعة فرنسية قديمة في الجنوب الغربي لفرنسا ـ حركةٌ تدعو إلى إنكار الاعتراف أمام القسس، وأنْ ليس للقسس حقٌّ في ذلك، وأنْ يضرعَ الإنسان إلى الله وحده في غفرانِ ما ارتكبَ مِن إثم، والإسلام ليس له قسيسون ورهبان وأحبار، فطبيعي أن لا يكونَ فيه اعتراف»[١].

(١) ضحى الإسلام، ج١/ ١٦٤.

كذلك يمكننا أن نلمسَ تأثير العقلية الإسلامية والشريعة الإسلامية في أخلاق الأمم وفكرها في أوروبا النصرانية وفي الهند الوثنية بعد الفتح الإسلامي، فيمكن أنْ نلمسَ ذلك في تلك النزعات المختلفة إلىٰ التوحيد، واحترام المرأة والاعتراف بحقوقِها، والاعتراف بمبدأ المساواة بين طبقات البشر... وغير ذلك مما امتازت به شريعة الإسلام ومدنيته(١).

وليس غريبًا أيضًا أنْ وجدنا جماعة مِن المفكرين المنصفين ممّن يعترفون بفضل هذا الدين ومنهجه القويم علىٰ سائر الأمم. مثال ذلك ما قاله

Robert Briffault في كتابِه (The Making of Humanity):

«مَا مِن ناحيةٍ مِن نواحي تقدم أوروبا إلا وللحضارة الإسلامية فيها فضلٌ كبير وآثار حاسمة لها تأثير كبير»(٢).

ويقولُ في موضعٍ آخر: «لم تكن العلومُ الطبيعية (التي يرجع فيها الفضل إلىٰ العرب) هي التي أعادَت أوروبا إلىٰ الحياة، ولكنّ الحضارة الإسلامية قد أثرت في حياة أوروبا تأثيراتٍ كبيرة ومتنوعة منذ أرسلت أشعتها الأولىٰ إلىٰ أوروبا»(٣).

أقول: ليس غريبًا أنْ نجد هذا التأثير الفعّال للإسلام، واعتراف الغربيين به. لكنّ الغريب هو مَا وصلَ إليه المسلمون اليوم من انحطاطٍ وتدهور، دونَ محاولة استدراك ذلك والوقوف جليًّا علىٰ أسبابِه؛ فليس يُعدُّ حكيمًا مِن لم يكن لنفسِه خصيمًا وحسيبًا.

إنَّ الراصدَ لواقع أمّة المسلمين اليوم لا يعرف علىٰ وجه اليقين مَا إذا كانت هذه الأمة جادة في البحث لها عن دورٍ فاعل يخرجُ بها مِن صفوفِ دول العالم الثالث المتخلف المفعول به دائمًا، أم أنّها اكتفت بهذا الانكماش والانبطاح طوال هذه القرون.

---

(١) انظر ذلك تفصيلًا: أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ١١٣ وما بعدها.

(2) P. 190

(3) P. 202

إذا كان مِن العسير كما يقول بعضهم التحديد الدقيق لأمرين: النوم في حياة الفرد، والانحطاط في حياة الأمة، فلا يُشعر بهما إلا إذا غلبا واستوليَا ـ فإنّ الأمرَ يختلف في الاهتداء إلىٰ بداية انحطاط الأمة الإسلامية وأسبابه، وهذا مِن لطف الله علينا؛ فإنّه إذا اكتُشف الداء وعُرِف سببه سهل علاجه واستدراك ما قد تلف بسببه مِن الجسد.

وتعدّدت الآراء، وتحدّث الكثيرُ حول الأسباب المختلفة التي أدت بالأمة المسلمة إلىٰ ما هي عليه مِن تدهور:

فمِن قائل يقول: إنَّ السَّبب الرئيس هو فرقة المسلمين، الذي أدّىٰ إلىٰ تكدير صفاء العقيدة، وتشويه ملامح الذات ومقومات الجماعة الإسلامية؛ الأمر الذي أدىٰ إلىٰ تدميرها مِن الداخل، وفتح أسوار حمايتِها وحصون استقلالها للغزو الفكري والعسكري المنظم.

وآخر يقول: إنّ أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير هو فقدهم الثقةَ بأنفسِهم، وهو مِن أشدّ الأمراض الاجتماعية، وأخبث الآفات الروحية، فإنّ هذا الداء لا يتسلّطُ علىٰ أُمّة إلا ساقها للفناء. قال تعالىٰ: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾ ﴾ **[الأنفال، الآية ٥٣]**.

وثالث يقولُ: إنَّ الرُّعاة الذين يتولون أمر الرعيّة، ولا يقومون عليهم حقّ القيام هم السبب الحقيقي وراء هذا الانحطاط الذي نشهده اليوم، مستدلين بأنّه لما كانَ الراعي والقائد لهذه الأمة رسول الله ﷺ ومِن بعده الخلفاء الراشدين فإن الأمةَ كانت في تقدم وازدهارٍ دومًا، ولم تشهد أي تدهور وتأخر رغم الظروف القاسية التي صاحبت تأسيس دولة الإسلام.

ورابع يقول: إنَّ مَا نشهده اليوم من تخلُّف وانحطاط يعود إلىٰ فسادِ الرعيّة وليس الراعي، فإذا كان الراعي فاسدًا فأمرُه إلىٰ الله، بل إنّ فساد الراعي سببه فساد الرعية، التي انغمست في شهواتِها وملذاتها، وبعدت عن أوامرِ ربّها وإرشاداته.

ونستطيع أن نجمل ذلك كلّه، ونقرّر أنَّ كل هذه الأسباب وغيرها هي التي أدت إلى تخلُّفِ الأمة الإسلامية وانحطاطها، ولكن قبل تفصيل ذلك يمكننا القول:

إنَّ أسباب تدهور أي أمّة من الأمم يعودُ دومًا إلى تخلّيها عن الأسس والمبادئ التي ازدهرت بسببها، والسؤال: ما هي المبادئ وما تلك الأسس التي أدت إلى ازدهار الإسلام في وقتٍ كان العالم فيه في بحرٍ مِن الظلمات والجهل؟

نظرة إلى عصر النهضة الإسلامية:

بدأت الدعوةُ الإسلامية وعلى رأسها قائد عظيم مؤيّدٌ بالوحي الإلهيّ (القرآن)، وذلك بعد أنْ بلغت شقاوة الإنسانية غاية ما وراءها مِن غاية.

فقام رسول الله ﷺ بهذه الدعوة العظيمة، مؤديًا حقوقها على أكمل وجهٍ: مِن جهادٍ في سبيل الله، وإيثاره على كلّ مَا يقفُ في وجهه: «يا عمّ، والله لو وضعوا الشمسَ في يميني، والقمرَ في يساري على أنْ أتركَ هذا الأمرَ حتى يُظهرَهُ اللهُ أو أهلك فيه ما تركتُه»[(١)]. معلنًا العزوف عن الشهوات ومطامع الدنيا، فكان في ذلك أسوةً وإمامًا للعالم كلّه.

ولقد كانَ أكثرُ الناسِ اتصالًا به وأقربهم إليه أقلَّهم حظًّا في الحياةِ، وأعظمهم نصيبًا في الجهادِ والإيثار، فإذا أرادَ أنْ يحرمَ شيئًا بدأَ ذلك بعشيرته وبيتِه، وإذا سنّ حقًّا أو فتحَ بابًا لمنفعةٍ قدّمَ الآخرين وربما حرَّمَه على عشيرته الأقربين[(٢)]. فأوّل ما نزل تحريم الربا بدأ بربا عمّه العباس بن عبد المطلب، ولما أراد أنْ يهدرَ دماء الجاهلية بدأ بدم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب فأبطلَه: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، أَلَا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دم أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ»[(٣)].

(١) السيرة النبوية لابن هشام، ١/ ٢٦٦.

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٤٣.

(٣) صحيح مسلم، باب حجّة النبي، ٢/ ٨٨٦، رقم الحديث .

هكذا كان حالُ القائدِ العظيم في سياستِه ودعوتِه وحياتِه؛ لم يكن يُؤثر حاشيتَه وأقرباءه إليه، ولم يكن يخصُّهم بمزيدٍ من العناية والخصوصية، فقد امتثل إلى الوحي الإلهي وائتمر بأوامرِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [الحجرات، الآية١٣].

ولكن السؤال الآن: كيف كانَ حالُ الرعيّة التي قادَها رسول الله ﷺ ومَنْ بعده من الخلفاء الراشدين نحو النهوض والازدهار وتبوء المكان الرفيع؟

لقد كانت قضيّة الإنسانية والنهوض بها أعظم مِن أن يقومَ بها قائدٌ واحدٌ دون أن يكونَ له أنصار يأخذوا بعضده ويستمعون لأوامره.

لقد «علم الله عند بعثه الرسول ﷺ أنَّ الرومَ والفرسَ والأمم المتحضرة المتصرفة بزمام العالم المتمدن لا تستطيعُ بحكم حياتِها المصطنعة المترفة أنْ تتعرّضَ للخطرِ وتتحمل المتاعب والمصاعب في سبيل الدعوة والجهاد وخدمة الإنسانية البائسة، ولا تستطيع أنْ تُضحي بشيء مِن دقائق مدنيَّتها في الملبس والمأكل، وأنْ تتنزّل عن حظوظِها ولذاتها وزخارفها فضلًا عن حاجاتها، وأنّه لا يوجد فيها أفرادٌ يقوون على قهر شهواتِهم، والحدِ من طموحهم، والزهد في فضول الحياة ومطامع الدنيا، والقناعة بالكفاف. فاختارَ لرسالة الإسلام وصحبة الرسول ﷺ أمّةً تضطلعُ بأعباء الدعوة والجهاد، وتقوىٰ على التضحية والإيثار، تلك هي الأمة العربية القوية السليمة التي لم تبتلعها المدنية، ولم ينخرها البذخ والترف، وأولئك أصحاب محمّد ﷺ أبر الناس قلوبًا، وأعمقهم علمًا وأقلّهم تكلفًا»(١).

هكذا كان حالُ مَنْ أسلمَ وأذعنَ للنداء الإلهي، وهكذا كان شأن العرب الذين احتضنوا هذه الدعوةَ منذ مهدِها، قوم رضوا بمزيد مِن متاعب الجهاد وخسائر النفوس والأموال؛ لأنَّ سعادة البشرية إنما كانت تتوقفُ على ما يقدمونه مِن تضحيةٍ وإيثار ما يتحملون مِن خسائر ونكباتٍ، لذا كان أمرًا طبيعيًّا أنْ يخاطبَهم الحقُّ بقوله: ﴿ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح، الآية١٨].

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٤٣.

وقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ﴾ [التوبة، الآية ١١١].

وبعدُ؛ فهذا كان حال الأمة وقت نهوضها وازدهارها، إذ كان الإسلام وقتئذٍ يمثل القوميّة العربية، ومحمد ﷺ هو روح العالم العربي وإمامه وقائده، والإيمان قوته المثلىٰ التي حارب بها ظلمات العالم فانتصر عليها، فيه يُقهر أعداؤه ويُحفظ كيانه وتُؤدَّىٰ رسالته، إيمانٌ جعل أصحابَه يتحملون الشدائدَ في سبيل الله، ويستقبلون الموت بثغر باسم، ويتهافتون عليه تهافت الفراش علىٰ النورِ.

والآنَ بعد أن ألقينا الضوءَ علىٰ فترة ازدهار المسلمين بقيادة زعيم الأمة وخاتم الأنبياء محمد ﷺ، يمكن لنا بيسرٍ أنْ نضعَ أيدينا علىٰ الأسباب الحقيقيّة لتخلّف المسلمين، والتي يمكنُ إجمالها في:

١- البعد عن الدستور الإسلامي ومصدري التشريع (القرآن والسُّنّة)، ومحاولة فصل السياسة عن الدين:

لم يترك الله أمته الخاتمة بغيرِ دليل تهتدي به في هذه الدنيا، بل جعل لها شِرعةً ومنهاجًا تهرع إليه في أمورِها كلّها، وتحتكمُ إليه عند نزاعها، وتأتمر بأوامره، وتنتهي عن نواهيه. ألا وهو (القرآن الكريم)، فهو دستور الله في الأرض.

وجاءت السُّنّة النبوية (قولًا وفعلًا وتقريرًا) موضحةً لما أجملَه القرآن الكريم ومبينة له، ومضيفة إليه في بعض الأحيان؛ ومِن ثمّ فإنَّ ما ثبت من سُنّة الرسول ملزمٌ لجميع أفراد الأمة إلزامهم للقرآن الكريم: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾ [النجم، الآيتان ٤- ٥].

وقد أُمرَ المسلمون بجعل هذين المصدرين للتشريع (القرآن والسُّنة) بمثابة المشكاةِ بينهم، لن يضلوا طالما هم متمسكون بهما، لا يرضونَ بهما بديلًا. قالَ

رسول الله ﷺ: «إني قد خلّفتُ فيكم مَا لن تضلوا بعدهما مَا أخذتم بهما أو عملتُم بهما؛ كتابَ الله وسُنّتي، ولن يتفرّقا حتىٰ يردا عليَّ الحوض»[١].

ومرّت الأمةُ الإسلامية بمحاولاتٍ لفصل الدين عن السياسة، باءت بالفشل الذريع في بداية أمرها، لكنها نجحت في نهاية الأمر. زاعمين أنصار هذه المحاولة أنَّ الإسلام هو دينٌ للتعبُّد لا يخرجُ عن حوائط المسجد ودور العبادة، شأنه في ذلك شأن النصرانية واليهودية. وكأنهم قد تغافلوا عن الدور الرئيس الذي قام به دين الإسلام في النهوض بالأمة طيلة قرون عديدة.

وما إن انفصل الدين والسياسة حتىٰ عادا كما كانا قبل العهد النبوي والخلافة الراشدة، فأصبح الدين مقصوص الجناح مكتوف الأيدي، وأصبحت السياسةُ مطلقة اليدِ حرّة التصريف، نافذة الكلمة، صاحبة الأمر والنهي؛ ومِن ثم أصبحَ رجالُ العلمِ والدين في جانبٍ، ورجال السياسة والحكم في جانبٍ آخر، وأصبحت الشُّقّةُ بينهما شاسعة، وفي بعض الأحيان أصبح بينهما عداء وتنافس غير محمودٍ.

٢- انتقال الإمامة مِن الأكفاء إلى غير الأكفْاء:

وهذا سببٌ رئيسٌ في تلك الحال التي وصل إليها المسلمون هذه الأيام؛ فكم مِن رعيّة اقتدت برعاتِها. لكن مِن الأسف نرىٰ أنّ كثيرًا من الرجال قد تولوا هذا المنصب الخطير ولم يكونوا له أكْفاء، ولم يعدُّوا له عُدّة، ولم يأخذوا له أُهبة. فإنهم لم يتلقوا التربية الدينية والخلقية اللازمة كما تلقّىٰ الأولون؛ ومِن ثمّ فإنهم لم يسيغوا تعاليمَ الإسلامِ إساغةً تليقُ بقيادةِ الأُمّةِ الإسلامية والاضطلاع بزعامتِها، ولم تنقّ رؤوسهم ولا نفوسُهم مِن بقايا التربية القديمة.

وتلك قضيّةٌ حذّرَ منها رسولُ الله ﷺ، وأشارَ إلىٰ أنَّ توسيدَ غير الأكفاء مِن أمارات الساعةِ. قالَ ﷺ: «إذَا وُسِّدَ الأَمرُ إلَىٰ غَيْرِ أَهْلِه فانتظرِ الساعةَ»[٢]. وعن أبي

(١) السنن الكبرىٰ للبيهقي، باب ما يقضي به القاضي، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات ط٣، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م، ١٠/ ١٩٥.

(٢) صحيح البخاري، باب مَن سُئل علمًا وهو مشتغلٌ في حديثِه، ١/ ٢١، رقم الحديث.

هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إنها ستأتي على الناس سنون خداعة يُصدَّق فيها الكاذب ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن ويُخون فيها الأمين وينطق بها الرويبضة». قيل: وما الرويبضة؟ قال: «السفيه يتكلم في أمر العامة»(١).

٣- النزعات الجاهلية في رجال الحكومة وسوء تمثيلهم للإسلام:

لم يكن رجال الحكومة في العصور المتأخرة ـ على اختلاف درجاتِهم ـ أمثلةً كاملةً في الدينِ والأخلاقِ، فكانَ في الكثيرِ منهم عروقٌ جاهليّة وتعصبات لمذاهبَ غير سويّةٍ، فسرَت روحهم ونفسيتُهم وما يكنّون في صدورهم في الحياةِ العامة ولدى الرعيّة؛ ومِن ثَمَّ فقدت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سلطانها، لأنّها لا تستندُ إلى قوةٍ ولا تحميها حكومةٌ. لذا كان أمرًا طبيعيًّا أنْ تعيشَ الرعيّةُ حياةَ الترف والنعيم، وأنْ تركنَ إلى الملاهي والملاعب والانغماس في الملذات والشهوات، دون أيّ وازعٍ من الراعي للوقوف بهم نحو الجادة.

كذلك كان هؤلاء الحكام في كلِّ مَا يأتون ويذرون ممثلين لأنفسِهم وسياستِهم فقط، لا يمثلون الإسلامَ ولا سياستَه الشرعيّة، لا قانونَه الحربي، ولا نظامه المدني، ولا تعاليمه الأخلاقية إلا نادرًا؛ ومِن ثَمَّ فقدت رسالة الإسلام تأثيرَها وقوتها في قلوب غير المسلمين، وضعفت ثقتهم به(٢).

٤- قلة الاهتمام بالعلوم العلمية المفيدة:

لم يقم المسلمون المتأخرون على مَا خلّفه له أسلافهم مِن علوم طبيعيّة وتجريبيّة مختلفة خيرَ القيام؛ الأمر الذي أدّى بهم إلى الانشغالِ بعلومِ مَا بعد الطبيعةِ والفلسفة الإلهية التي تلقوهَا مِن اليونان، ومَا هي إلا وثنيتهم القوميّة التي ترجموها في لغتِهم الفلسفية.

وكذلك اشتغلوا بمباحث الروحِ، وفلسفة الإشراق، ومسائل وحدة الوجود،

(١) قال الهيثمي: رواه الطبراني بأسانيد وفي أحسنها ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله ثقات.

(٢) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

وبذلوا فيها قسطًا كبيرًا مِن أوقاتِهم وجهودهم وذكائهم؛ الأمر الذي جعلَهم يتخلفون عن ركب التطوّر والتقدّم.

وعلى العكس مِن ذلك في المجتمعات الأوروبية؛ فإنّهم أخذوا يتناولون هذا التراث الهائل الذي خلّفه علماء المسلمين ـ بعين الجدّ والتدقيق، حتى بنوا عليه النظرياتِ العلمية المختلفة، وساروا به نحو الأمام.

٥- انتشار الضلالات والبدع وعدم الاهتداء إلى الطريق السوي:

لم يجد المستعمرُ الفكريُّ أمرًا يُشغل به المسلمين عن الجهاد والعلم والتقدم نحو الطريق السويّ إلا نشر ضلالاتٍ وبدع شتّى يثيرها بين الحين والآخر، فنرى الكثير مِن هذه البدع التي طرأت على النظام الديني، وشغلت مكانًا واسعًا مِن حياةِ المسلمين وشغلتهم عن الدين الصحيح، وعن الدنيا.

وهذا الدينُ محفوظٌ دومًا بحفظِ الله له، فإذا عملت فيه عقول الناس ودخلت فيه أعمال النَّاس وأهواؤهم ضلّوا سوَاء السبيل، وخرجوا عن الخطّ المستقيم المرسومِ لهم في هذه الحياة الدنيا، فتأخذهم الأهواء إلى مدرجٍ وخيم.

٦- الانحطاط الفكري والعلمي العام:

تنازل العالم الإسلامي منذ أمدٍ بعيد عن مكانتِه في القيادة العلمية والتوجيه، كما تنازل عن استقلالِه الفكري، فأصبح المسلمون عيالًا على الغرب متطفلين على مائدة. فبعد أن أفاقت أوروبا في القرنين: السادس عشر والسابع عشر الميلاديين مِن هَجْعتها الطويلة، وأصبحت تسمو إلى غايتِها المنشودة، معتمدةً في ذلك على ما خلّفه العرب مِن علوم ومعارف ـ وجدنًا في تلك الفترة القصيرة ـ بالمقارنة مع فترة الازدهار العربي ـ علماء مبتكرين في كل علم، أمثال: كوبرنيكس (Copernicud)، وبرونو (Brunoe)، وجاليليو (Galilio)، وكبلر (Kepler)، ونيوتن (Newton)، وغيرهم الذي نسخوا النظام القديم وأسّسوا نظامًا حديثًا، واكتشفوا عوالم في العلم. ومن الرحالين المكتشفين أمثال: كولومبس (Columbus)، وفاسكو دي جاما (Vasco Dagama)، ومجلن (Magin).

لكننا إذا نظرنَا إلىٰ تلك الفترة نفسِها فإننا لا نكاد نعثر في عالمنا الإسلامي علىٰ قامةٍ مثل تلك القامات التي كانت موجودةً آنذاك في أوروبا. لذا كان مِن الطبيعي أن ينصتَ الشرقُ المتخلف عن الركب إلىٰ صوت أوروبا المتقدّم في شتىٰ المجالات، حتىٰ في مجال اللغة العربية وآداب اللغات وعلومها، وحتىٰ في علوم الدين كالتفسير والحديث والفقه، وأصبحت أوروبا صاحبة الفضل في نشر تراثنا العربي في شتىٰ الفنون والعلوم، كما أصبح المستشرقون هم المرشدون الموجهون في البحث والتحقيق، وهم الأسوة في النقض والإبرام. فتغلغلت أفكارهم ودعاياتهم في الأوساط العلمية الحديثة في العالم الإسلامي، وتجلّت بصورة واضحة في دعوتهم إلىٰ فصل الدين عن السياسة، فالدين ـ مِن وجهة نظرهم ـ قضية شخصيّة لا شأنَ له بالمجتمع، كما أنه عقيدة وعبادة وخلق لا شأنَ له بالسياسة والحكم... إلىٰ غير ذلك مِن أفكار هدّامة أصبح يدعو إليها الآن تلاميذ المستشرقين والخاضعون لهم في الشرق الإسلامي[1].

٧- **تأخر المسلمين في مرافق الحياة وصناعة الحرب:**

لم يكن تخلّف المسلمين في العصور المتأخرة علىٰ المستوي النظري فحسب، بل كان تخلّفًا حياتيًّا وعمليًّا أيضًا.

فالناظر إلىٰ حقبة الضعف العثماني يلاحظ بوضوح كيف كانَ المسلمون في خمول في ميادين العلوم والصناعات، فعلىٰ سبيل المثال: نجد أنّ صناعةَ السفن لم تدخل بلاد الخلافة العثمانية إلا في القرن السادس عشر الميلادي، ولم تُعرف المطابع فيها إلا في القرن الثامن عشر، علمًا أن صناعة السفن لدىٰ المسلمين ظهرت في عهد عثمان بن عفان الخليفة الثالث، وقد وقعت معركة في البحر علىٰ سفن حربية صنعها المسلمون وهي معركة ذات الصواري.

وأمّا التخلُّف العلمي فيتمثل أول ما يتمثل في صناعة الحرب التي كان يتقنها العرب الأوائل بسجيتِهم وطبيعتهم الحربية الأصيلة، إلا أنّ هذا الإتقان انتهىٰ

(١) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص٢٣٧ وما بعدها.

بهزيمة أوروبا للجيوش العثمانية سنة ١٧٧٤م؛ الأمر الذي أدّىٰ بالعثمانيين إلىٰ انتداب الماهرين الأوروبيين لتنظيم الجيش وتربية العسكر الإسلامي!!

٨- التدهور الملحوظ في الأخلاق والمجتمع:

لم يكن احتلالُ الغرب للشرق الإسلامي احتلالًا عسكريًّا فحسب، بل كان احتلالًا فكريًّا وخلقيًّا، أصيب فيها المجتمع المسلم بأدواء خلقية واجتماعية كانت أهم أسباب انهيار الدول الإسلامية وانهزام الأمم الشرقية.

لقد كانَ برُّ الأبناء للآباء وطاعتهم إلىٰ حدّ التفاني في سبيلِهم، والتذلل في إرضائهم وإسعادهم منتزعًا من قول صاحب الخلق العظيم ﷺ: «أنتَ ومالُكَ لأبيك»(١).

- وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، «من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثُمّ مَنْ؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم مَن؟ قال: «ثم أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك». (٢)
- عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ قال: «رضا الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»(٣).
- عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «إن الله حرم عليكم: عقوق الأمهات، ومنعًا وهات، ووأد البنات، وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال»(٤).
- عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرىٰ، باب نفقة الأبوين، ٧/ ٧٨٩؛ والطبراني في المعجم الأوسط، ١/ ٢٢، وغيرهما.

(٢) صحيح مسلم، ٤/ ١٩٧٤«٢٥٤٨». وصحيح البخاري،٨/ ٢ «٥٩٧١».

(٣) السلسة الصحيحة للألباني رقم «٥١٦».

(٤) صحيح البخاري،٨/ ٤ «٥٩٧٥»؛ وصحيح مسلم٣/ ١٣٤١ «٥٩٣».

والديه ؟! قال: «نعم، يسب أبا الرجل، فيسب أباه، ويسب أمه، فيسب أمه».(١)

- عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «رغم أنفه، ثم رغم أنفه، ثم رغم أنفه». قيل: من يا رسول الله؟ قال: «من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كليهما ثم لم يدخل الجنة»(٢).
- عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟». ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله. قال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وجلس وكان متكئًا، فقال: «ألا وقول الزور». قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت(٣)!!

كما كان حبُّ الأبناء للوالدين وبرهم بهم غير مقتصر على حياتِهما، بل كان يستمر إلى ما بعد وفاتِهما، فتصلهما دعوةٌ صالحةٌ منه، أو صدقة جارية يتصدق بها عليهما فتصل حسناتها إليهما في قبرهما، بل عُدَّ التحبب إلى أهليهم وذويهم وعشيرتهم والتودّد إليهما مِن حسن برِّ الابن لوالديه، عملًا بقوله ﷺ: «إنَّ مِن أبرِّ البرِّ صلةَ الرّجلِ أهلَ ودِّ أبيه بعدَ أنْ يُولّي»(٤).

وكانت الرابطة التي تربط أعضاء المجتمع الإسلامي بعضه ببعض قائمة على الرحمة بالصغير وتوقير الكبير؛ امتثالًا لقول رسول الإنسانية ﷺ: «مَنْ لم يرحمْ صغيرَنا، ويعرف حقَّ كبيرِنا فليس منَّا»(٥).

لكن ما لبثت أنْ تشبعت عقلية العربي المسلم بعقلية الأوروبي، عقليةٌ تدافع عن المادية، فلا تحكم على الأخلاق بالحسن والصحة إلا بمقدار جلبها للمنافع

(١) صحيح مسلم، ١/ ٩٢ «٩٠».
(٢) صحيح مسلم، ٤/ ١٩٧٨ «٢٥٥١».
(٣) صحيح البخاري ٣/ ١٧٢، رقم ٢٦٥٤.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر، باب صلة أصدقاء الأب والأم ونحوهما، ٤/ ١٩٧٩، حديث رقم .
(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، باب فضل الكبير، ص١٢٩. وصحّحه الألباني.

المادية، وبحسب ما يكتسب المجتمع بواسطتها مِن اللذة والهناء، والأفراد مِن الاغتباط والرخاء.

- أصبح الربح المادي هو الميزان للأخلاق، والفارق بين الخير والشر، كما أصبحت الأخلاق ليس لها قيمة فعلية إلا القيمة الدينية أو الخُلقية في المصطلح القديم.

٩- تتبع آثار الأوروبيين والسير على خطاهم:

قلنا فيما سبق إنَّ مِن مبادئ الإسلام وخصائصه الوسطية والواقعية وعدم الغلو، وهذا كلُّه يؤدي بالمسلم إلىٰ الانفتاح علىٰ المجتمعات الأخرىٰ وأخذ كلِّ مَا هو نافع له ولدينِه منها؛ فالحكمةُ ضالةُ المؤمن، حيث وجدها فهو أحقُّ بها.

لكن في الوقت نفسِه ينبغي أنْ تكونَ عينُ المسلم عينًا ناقدةً فاحصةً لما سيأخذه مِن الآخر، فلا تقبل مَا يتعارضُ مع معتقداته ودينه وأخلاقه. وللأسف لم يحدث ذلك مع مسلمي العصر، بل حدث ضد ذلك تمامًا، فنراهم قد هجروا ما وصل إليه الغرب مِن معارف وعلوم، وأخذوا زخرف الحياة الدنيا مِن متاعٍ وشهوة وتكالب علىٰ المادة، شأنهم في شأن مَن لا يؤمنُ بنبيٍّ ولا كتاب، ولا يرجو معادًا، ولا يخشىٰ حسابًا.

١٠- رضا بعض المسلمين بالحياة الدنيا والاطمئنان بها:

لا شكَّ أن قنوع المسلمين بالحياة الدنيا والاطمئنان بها، مِن أهم العلل التي أدت تدهور المسلمين، بل هي علة العلة.

فلقد أدّىٰ هذا الرضا إلىٰ الارتياح إلىٰ الأوضاع الفاسدة وعدم إنكارها، وإلىٰ الهدوء الزائد في الحياة. فلا يقلقه فسادٌ، ولا يزعجه انحرافٌ، ولا يهيجه منكرٌ، ولا يهمّه غير مسائل الطعام واللباس. وكأنّ رب العزة يحذرنا أن نكون مِن هؤلاء الذين خاطبهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [يونس: الآية ٧].

١١- الأثرة والأنانية وحب الذات لدى المجتمع المسلم:

لا شكَّ أنَّ الطبائعَ البشريّة مجبولة على حبِّ الذات والأنانية، لكنَّ الإسلامَ جاءَ مهذبًا لتلك الطبائع، وكابحًا لرغباتِها، فقال رسول الله ﷺ: «لا يؤمنُ أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه مَا يُحبُّ لنفسه»(١).

ولقد ابتلي المسلمون في هذه الآونة الأخيرة ـ بسبب بعدهم عن تعاليم الدين الحنيف ـ بأنانية مفرطة مع حبِّ الدنيا وكراهية الموت. فأصبح المسلمُ يجدُ أخاه قد ظُلم فلا ينتصـرُ له، ويرى المنكرَ أمام عينيه فلا يلقِي له بالًا خشيةَ أنْ يلحق به أذىً، فهو يخاف على نفسِه أن تُصابَ بأذى أو سوء، وما علم هذا الرجل أنّه قد وقع في خطرٍ عظيمٍ قد يصيبُ الأمةَ جميعها. فإنَّ سلوكَه هذا يتنافى مع خيرية الأُمة الإسلاميةِ التي فُضّلت بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر، فإذا انتفى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر انتفت الخيرية عن هذه الأمّة، وحلَّ بها ما تستحقُّه مِن أمراض وأوبئة لم تكن فيها قبلها مِن الأمم، وقبل ذلك وبعده سخط الله وعذابه. قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولَتنهُون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»(٢).

هل الإسلام مسئول عن تخلف المسلمين؟

شبهةٌ أثارها أعداء الإسلامِ من العلمانيين وغير المسلمين؛ بهدف فصل الدولة والاتجاه بها بعيدًا عن الدين، وجعل الدين قاصرًا على دور العبادة فقط، مثل: الصلاة والزكاة والصيام والحج، وغير ذلك مِن العبادات التي لا شأنَ لها بالسياسة، ولا الاقتصاد، ولا الفنون، ولا أي شيء مِن شئون الحياة.

وهذه العلمانية ظهرت أول مَا ظهرت في أوروبا في عصر النهضة، بعد عام

(١) صحيح البخاري، ١/ ١٢، رقم الحديث «١٣». صحيح مسلم،١/ ٦٧، رقم الحديث»٤٤».

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ٤/ ٣٨، رقم الحديث"٢١٦٩". وحسنه الألباني.

١٥١٦م، بعد أن قامت الثورة الفرنسية، وكان شعارُها: (اشنقوا آخر قسيس بأمعاء أخر نبيل) والنبيل عندهم: الغني أو الإقطاعي، أو (اشنقوا آخر نبيل بأمعاءِ آخر قسيس)؛ ذلك لأنَّ الكنيسة في أوروبا وقفت حجر عثرةٍ في طريقِ التقدمِ والحضارة، فكانت تحكم على كل جديدٍ بالحرمة وأنه مِن عمل الشيطان، وحاربت العلم والعلماءَ حتى تكونَ هي المسيطرة على عقول أتباعها؛ لدرجة أنهم أعدموا بعض المكتشفين والمبتكرين أمثال جاليليو، الذي قالوا عنه: إنه يريدُ أنْ يرى الربّ[1].

لكنّ السؤال الآن: هل وقفَ الإسلامُ حاجزًا أمام التقدم والحضارة كما فعلت الكنيسة في أوروبا فنبعده عن السياسة والدولة، أم كان دافعًا لها نحو النهوض والازدهار؟

١ - إنَّ حقائق التاريخ تبين بما لا يدع مجالاً للشك أن الإسلام قد استطاع بعد فترة زمنية قصيرة من ظهوره أن يقيم حضارة رائعة كانت من أطول الحضارات عمرًا في التاريخ. ولا تزال الشواهد على ذلك ماثلة للعيان فيما خلفه المسلمون من علم غزير في شتى مجالات العلوم والفنون، وتضم مكتبات العالم آلافًا مؤلفة من المخطوطات العربية الإسلامية تبرهن على مدى ما وصل إليه المسلمون من حضارة عريقة. يضاف إلى ذلك الآثار الإسلامية المنتشرة في كل العالم الإسلامي والتي تشهد على عظمة ما وصلت إليه الفنون الإسلامية.

وحضارة المسلمين في الأندلس وما تبقى من معالمها حتى يومنا هذا، شاهد على ذلك في أوروبا نفسها. وقد قامت أوروبا بحركة ترجمة نشطة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لعلوم المسلمين. وكان ذلك هو الأساس الذي بنت عليه أوروبا حضارتها الحديثة.

٢ - يشتمل القرآن الكريم على تقدير كبير للعلم والعلماء، وحثٍّ على النظر في الكون ودراسته وعمارة الأرض. والآيات الخمس الأولى التي نزلت من

(١) انظر: محمد ياسين: ردود علماء المسلمين على شبهات الملحدين والمستشرقين، ص٢٢٤.

الوحي الإلهي تنبه إلى أهمية العلم والقراءة والتأمل. وهذا أمر كانت له دلالة مهمة انتبه إليها المسلمون منذ البداية. وهكذا فإن انفتاح الإسلام على التطور الحضاري بمفهومه الشامل للناحيتين المادية والمعنوية لا يحتاج إلى دليل.

٣- أما تخلف بعض المسلمين اليوم فإن الإسلام لا يتحمل وزره؛ لأن الإسلام ضد كل أشكال التخلف. وعندما تخلف بعض المسلمين عن إدراك المعاني الحقيقية للإسلام تخلفوا في ميدان الحياة.

ويعبر مالك بن نبي ـ المفكر الجزائري الراحل ـ عن ذلك تعبيرًا صادقًا حين يقول: «إن التخلف الذي يعاني منه المسلمون اليوم ليس سببه الإسلام، وإنما هو عقوبة مستحقة من الإسلام على المسلمين لتخليهم عنه، لا لتمسكهم به كما يظن بعض الجاهلين». فليست هناك صلة بين الإسلام وتخلف بعض المسلمين.

٤- لا يزال الإسلام وسيظل منفتحًا على كل تطور حضاري يشتمل على خير الإنسان. وعندما يفتش المسلمون عن الأسباب الحقيقية لتخلف بعضهم فلن يجدوا الإسلام من بين هذه الأسباب، فهناك أسباب خارجية ترجع في جانب كبير منها إلى مخلفات عهود الاستعمار التي أعاقت البلاد الإسلامية عن الحركة الإيجابية، وهذا بدوره، بالإضافة إلى بعض الأسباب الداخلية ـ أدى أيضًا إلى نسيان المسلمين للعناصر الإيجابية الدافعة لحركة الحياة في الإسلام.

٥- لا يجوز الخلط بين الإسلام والواقع المتدني للعالم الإسلامي المعاصر. فالتخلف الذي يعاني منه المسلمون يُعد مرحلة في تاريخهم، ولا يعني ذلك بأي حال من الأحوال أنهم سيظلون كذلك إلى نهاية التاريخ. ولا يجوز اتهام الإسلام بأنه وراء هذا التخلف، كما لا يجوز اتهام المسيحية بأنها وراء تخلف دول أمريكا اللاتينية.

إن الأمانة العلمية تقتضي أن يكون الحكم على موقف الإسلام من الحضارة مبنيًّا على دراسة موضوعية منصفة لأصول الإسلام، وليس على أساس إشاعات

واتهامات وأحكام مسبقة لا صلة لها بالحقيقة(١).

وفي نهاية القرن السادس عشر الذي يعتبر منطلق الإصلاح الديني في الغرب، كانت بداية الاتصال الاقتصادي المتمثل في اكتشاف موارد الثروة في العالم الإسلامي، واستغلالها ونقلها إلى الغرب في صورة تبادل تجاري وغير ذلك، وتبع هذا الاتصال السياسي المتمثل في سيطرة الغرب ونفوذه على العالم الإسلامي حتى بلغ أوجه خلال الفترة ما بين النصف الثاني من القرن التاسع عشر حتى الربع الأول من القرن العشرين، وخلال هذه الفترة الاستعمارية عمل الغربيون على تخلف المسلمين بإبعادهم عن دينهم حتى يتمكنوا من إخضاعهم إخضاعًا تامًّا للسيطرة الغربية.

ففي تلك الفترة كان الاستشراق في ذروته؛ لأنَّه كان مدعومًا من قبل الحكومات الغربية التي كانت توفر لهم الأسباب المعينة على دراسة العلوم الإسلامية، حتى يتمكن الاستعمار الغربي في البلاد الإسلامية، فبحث المستشرقون في كل ما يتصل بالإسلام من تاريخ وفقهٍ وتفسيرٍ وحديثٍ وأدبٍ وحضارةٍ، وصبغوا كل ذلك بصبغة علمية، مما أدى بتلك البحوث والدراسات أن تكون مراجع للكثير من الباحثين في المعاهد والجامعات العالمية.

فما الرأي؟

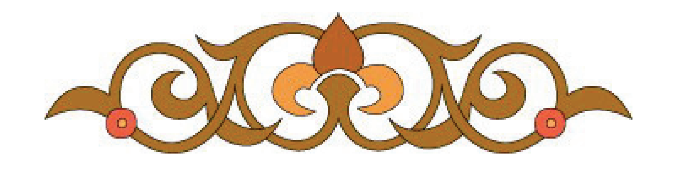
دعونا نعترف أن الخوف من مسألة الغزو الثقافي الذي يستهدف المسلمين والتصدي له موضوع خطير يحتاج إلى كثير من البحث، ولا يمكن أن نفيه حقه عبر هذه العجالة. ولكن يجب أن ندرك بأن هذا الغزو الثقافي الذي يستهدف المسلمين قد وصل إلى أشد حالاته شراسة، وأنه يزداد عداءً وخبثًا مع ازدياد انتشار الإسلام في العالم. وهذا يعني أنه لا خيار أمام المسلمين إلا التصدي لهذا الغزو. ولا شك في أن سبل التصدي مرهقة وشاقة وتحتاج إلى بذل الكثير من الجهود التي نذكر بعضها:

(١) انظر: علي بن نايف الشحود: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، ٢ / ٢١.

- مسؤولية القادة والعلماء المسلمين في شحذ الهمم الإسلامية، وبث الفعالية الروحية للأمة الإسلامية.
- الاتجاه السليم إلى الأجيال المسلمة الجديدة، وإيجاد حالة التصاق متين بينها وبين الإسلام وقيمه ومبادئه.
- نشر الوعي الثقافي الكفيل بتكوين المسلم المتمتع بالشخصية الإسلامية الحقيقية التي تملك تصورًا شاملًا عن الكون والإنسان.
- التعريف بالتاريخ الإسلامي المضيء، وقدرة الثقافة الإسلامية على الوقوف في ساحة الحياة، و قيادة الأمة نحو ما تصبو إليه.
- تأمين الوسائل الإعلامية الحديثة بتقنياتها المتطورة، والقادرة على التصدي للوسائل الإعلامية المعادية.

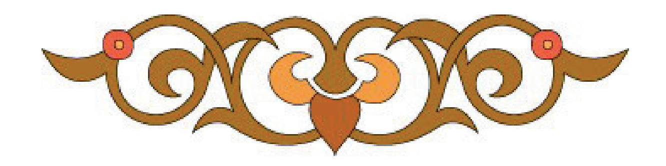
إن سبل التصدي كثيرة وشائكة كما قلنا؛ ولكن كل السبل لا يمكن أن تكون فعالة ما لم يلتقِ المسلمون على صعيد واحد وعلى هدف واحد. والالتقاء يجب أن يكون مبنيًّا على حب الخير والمصلحة لجميع المسلمين دون تمييز؛ ويجب ألا يغرب عن البال أن الأعداء هم الذين زرعوا الشقاق والخلاف في صفوف المسلمين[١].

(١) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، ١/ ٢٩.



المحور الثالث

شبهاتٌ وردودٌ



المحور الثالث: شبهاتٌ وردودٌ

أولًا: حول انتشار الإسلام وما قيل فيه من شبهات:

- **توطئة:**

إن الإسلام هو الدين الخاتم الذي ختم الله تعالىٰ به إلىٰ البشر، ولم يترك هذا الدين معاملة من المعاملات إلا نظمها ووضع لها التشريعات اللازمة للحفاظ عليها وللرجوع عند الاختلاف إليها، فنظم علاقة المرء بأخيه وجاره وسائر من حوله كما نظم سائر التعاملات التي تحتاج إلىٰ اتصال الناس بعضهم ببعض حتىٰ يتحقق العدل والمساواة بين بني البشر كافة.

وكما نظم الإسلام هذه التعاملات بين المسلمين بعضهم بعض، فإنه نظمها كذلك بين المسلمين وبين غيرهم، فحدد طبيعة هذه التعاملات ورسم طريق الخير فيها لكل صورة من الصور التي يتعامل المسلم فيها مع غير المسلم.

فبَيَّنَ الإسلام بنصوصه وقواعده التي أرساها كيفية التعامل مع غير المسلمين في كل مرحلة من مراحل الدعوة المختلفة، التي تتراوح بين القوة والضعف، أو السلم والحرب، أو داخل الحدود الإسلامية أو خارجها. وكذلك بيّن الإسلام كيفية التعامل مع غير المسلم في أي صورة يكون عليها غير المسلم؛ كأن يكون ذميًّا أو حربيًّا أو أسيرًا. كما حدد الإسلام جميع هذه التعاملات بالضوابط الشرعية المنبثقة من كتاب الله وسنة النبي ﷺ.

ولئن ظهر ذكاء النبي ﷺ وفطنته فيما كان ينتهجه من شتىٰ أنواع السلوك الإنساني، فإن فطنته ﷺ قد ظهرت بارزة في تعاملاته ﷺ ليس فقط إزاء معارفه وجيرانه بل كذلك إزاء المخالفين له في الدين، فقد أثبت ﷺ بتعاملاته أنه كان علىٰ جانب كبير من معرفة نفسية بمن يتعامل معه ورغباتهم، وما يميلون إليه وما

ينصرفون عنه، ولعل هذا مما عناه الحق سبحانه وتعالىٰ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم، الآية ٤].

إن الإسلام قد وجد طريقه إلىٰ القلوب والعقول وخالطت بشاشته النفوس ودخل فيه أفواج من اليهود والنصارىٰ، وخاصة الأحبار منهم والرهبان والمستشرقين والعلماء، حيث وجدوا فيه بغيتهم وفطرتهم، ووجدوا فيه الأصول الصحيحة لليهودية والنصرانية وغيرها من الأديان الأخرىٰ، فآمنوا بسيدنا محمد وسيدنا عيسىٰ وسيدنا موسىٰ عليهم الصلاة والسلام واعتنقوا الإسلام عن رغبة واعتزاز بالحجة والإقناع، وعلىٰ الرغم من ذلك بقيت بعض الطوائف من غير المسلمين قد حرصت علىٰ التجريح في الإسلام وبث الشبهات حوله وحول نبينا محمدﷺ، ولم يزدهم تطاول الأيام إلا افتراء علىٰ الرسالة العظمىٰ وصاحبها الأمينﷺ فلا يزالون حتىٰ الآن يشنون حربًا تلو الأخرىٰ من الأكاذيب ضد هذا الدين الحنيف القيم كلما سنحت لهم الفرصة.

وقد انطلق هؤلاء الحاقدون يصفون الإسلام ونبيهﷺ بأقبح الخصال، ومن بين ما افتروه:

١ - أن الإسلام انتشر بحد السيف.

٢ - أن هدف النبيﷺ من فتوحاته إنما كان غرضه اقتصاديًّا بحتًا، فاتهموا النبيﷺ وصحابته الكرام، عليهم رضوان الله تعالىٰ، بأنهم قوم أضراهم الجوع، فما الجهاد والفتوحات الإسلامية إلا غارات عربية قامت بها قبائل كانت تشتغل قبل ذلك بالسلب والنهب.

٣- كذلك زعموا أن التاريخ الإسلامي علىٰ مداره كان تاريخ هضم وظلم لغير المسلمين، وأنه قد أساء إلىٰ مخالفيه.

هذه ثلاثة افتراءات وقضايا سيتم بعون الله‌ﷻ الرد عليهم فيها، ويأتي ردنا علىٰ هذه الافتراءات مصحوبًا بالأدلة الثابتة التي أوردها باحثون غير مسلمين في

دراسات علمية محكمة، ونحن قبل ذلك وبعده على أتم اليقين بأن الإسلام ونبيه ﷺ منزهان وبريئان مما أثير حولهما من شبهات المبطلين، كما أننا سنرفق هذه الشهادات في أثناء عرضنا لهذه الشبهات والرد عليها ردًّا علميًّا، وسنرفق اعترافات وشهادات علمائهم ومفكريهم.

١- الرد على فرية انتشار الإسلام بحد السيف:

هذا الزعم الباطل يعني أن الرسول ﷺ قد أكره الناس على الدخول في الإسلام، وهو زعم باطل مِن ناحيتين:

الأولى: أن الواقع يكذبه على نحو ما مر بنا في سرد مبادئ الإسلام في التعامل مع غير المسلمين، فالتاريخ حافل بالحوادث التي لا يمكن معها إقرار هذه الفرية.

الثانية: أن منهج الإسلام لا يقر الدخول في الإسلام عن طريق الإكراه؛ لأنه ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، على حسب ما هو مقرر في القرآن الكريم، فغير المسلم إذا دخل الإسلام عن طريق الإكراه فإسلامه غير صحيح.

قال ابن قدامه: «وإذا أكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم، لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعًا»[١].

والحق إن الذي يدعي أن الإسلام انتشر بالسيف إنما يريد تنفير الشعوب غير المسلمة عن الدخول في الإسلام، كرد فعل لما يراه من دخول الكثير منهم فيه. فالذي يروج هذه الافتراءات إنما يحاول إيقاف المد الإسلامي الذي ما زال يخرج الكثير من غير المسلمين إلى أنوار التوحيد والإيمان، كما أن كثيرًا من أبواق التنصير في أرجاء العالم ظهر فشلها في استقطاب المسلمين وردِّهم عن دينهم.

فإذا كان الإسلام انتشر بالسيف كما يزعم الزاعمون فلماذا يغزو أوروبا الآن ويهتدي إليه كثير من العلماء والقساوسة بالرغم مما فيه المسلمون الآن من عدم

---

(١) المغني، لعبد الله بن أحمد بن قدامة، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ط٣، ١٩٩٧، ١٢/ ٢٩١.

تمكينهم من الدعوة إلى الإسلام؟! ثم كيف كان إسلام الأولين مثل أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم، فهل كان النبي ﷺ بيده سيف أدخل هذا العدد الغفير في الإسلام؟!

ثم أكبر دليل على عدم صدق هذا الزعم بقاء غير المسلمين على دينهم حتى الآن، يقول توماس أرنولد: «نستطيع أن نستخلص بحق أن هذه القبائل المسيحية التي اعتنقت الإسلام إنما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرة، وأن العرب المسحيين الذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التسامح»(١).

والحقيقة إنه لم يدرس إنسان عاقل يخلص البحث عن الحق الإسلامَ إلا انقاد وانشرح صدره لهذا الدين لقيم؛ لأنه دين الفطرة. واللافت للنظر أن أكثرهم من أحبار اليهود والقساوسة.

وتحتوي قائمة المهتدين للإسلام أعدادًا كبيرة تجل عن الحصر وأكثرهم من العلماء والمفكرين؛ يقول برناردشو: «إن الإسلام يستحق الاحترام والإجلال؛ لأنه أقوى دين على هضم جميع المدنيات، وهو خالد خلود الأبد. وإني أرى كثيرًا من بني قومي من العلماء دخلوا هذا الدين على بيّنة من أمرهم. ومستقبلًا سيجد هذا الدين مجاله الفسيح في كل أنحاء أوروبا. وقد درست سيرة محمد ﷺ فوجدته بعيدًا عن مخاصمة المسيح، ويمكن بحق أن نعتبر محمدًا ﷺ منقذًا للإنسانية، وأعتقد أن رجلًا مثله لو حكم العالم بآثاره وخلقه لجلب الناس إلى السلام والسعادة»(٢).

ويقول السير توماس أرنولد: «وإذا نظرنا إلى التسامح الذي امتد إلى رعايا المسلمين من المسيحيين في صدر الحكم الإسلامي ظهر أن الفكرة التي شاعت بأن السيف كان العامل في تحويل الناس إلى الإسلام بعيدة التصديق»(٣).

---

(١) الدعوة إلى الإسلام: توماس أرنولد، ترجمة: د. حسن إبراهيم حسن وآخرين. القاهرة. ١٩٧٠م. ص ٥١.

(٢) مجلة الأزهر ج٦ جمادي الآخرة ١٤٢١ هـ سبتمبر ٢٠٠٠ م ص ٨٣٥.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، ص ٦٥.

ويقول أيضًا: «ولكننا لم نسمع عن أية محاولة مدبرة لإرغام الطوائف من غير المسلمين على قبول الإسلام، أو عن اضطهاد منظم قصد منه استئصال الدين المسيحي. ولو اختار الخلفاء تنفيذ إحدى الخطتين لاكتسحوا المسيحية بتلك السهولة التي أقصى بها فرديناند وإيزابيلا دين الإسلام من إسبانيا، أو التي جعل بها لويس الرابع عشر المذهب البروتستانتي مذهبًا يعاقَب عليه متبعوه في فرنسا، أو بتلك السهولة التي ظل بها اليهود مبعدين عن إنجلترا ٣٥٠ سنة، وكانت الكنائس الشرقية في آسيا قد انعزلت انعزالًا تامًّا عن سائر العالم المسيحي، الذي لم يوجد في جميع أنحائه أحد يقف في جانبهم باعتبارهم طوائف خارجة عن الدين؛ ولهذا فإن بقاء هذه الكنائس حتى الآن يحمل في طياته الدليل القوي على ما قامت عليه سياسة الحكومات الإسلامية بوجه عام من تسامح نحوهم»[١].

ويقول مسيو مونتيه: «لقد انتشر الإسلام منذ نشأته بسرعة، وقلما توجد بل لا توجد أبدًا ديانات تنتشر بمثل هذا الانتشار[٢]، وإن ما صادفه الإسلام من أول عهده كان عظيمًا وباهرًا حتى تكونت آراء طائشة عن حقيقة سبب تلك الفتوحات السريعة التي وطدت سلطة نبي الإسلام ﷺ وإصلاحه بعيدًا عن حدود بلاد العرب، ولقد كرروا ولا يزالون يكررون حتى الآن أن نجاح العقيدة الإسلامية يرجع إلى العنف وإلى القوة والسيف في عهد محمد ﷺ وعهد خلفائه الأولين، يعني الخلفاء الأربعة، ولكن هذه الفكرة قد كذبتها الوقائع»[٣].

وتقول كاتبة إنجليزية في جريدة الناقد السورية وقد طلبت الكاتبة من الجريدة عدم ذكر اسمها: «يقولون إن دين محمد ﷺ دين السيف، مع أن دين محمد ﷺ دين القوة الإلهية، وتتوالى هذه الشهادات إلى حد يصعب استقصاؤه، على أن العاقل لا يقول: كيف انتشر؟ بل يقول: ما الذي انتشر؟ هل هو الحق أم الباطل؟ ثم يترك

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، ص ٧٣ ـ ٧٤.

(٢) ـــ والصواب أنه ليس كما قال ديانات، وإنما هي ملل

(٣) محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير كتابه، محمد فهمي عبد الوهاب. تونس، ص ١٧.

عقله وفطرته يجيبان فإذا تيقن أن الله أمره ونهاه فإنه لا يملك بعد ذلك إن كان مؤمنًا إلا أن ينقاد إلىٰ دين الله»(١).

ويقول توماس كارليل: «أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأي طريقة أخرىٰ فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار، فلندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها».

ويقول أيضًا في كتابه «الأبطال»: «لقد أصبح من أكبر العار علىٰ أي متمدين من أبناء هذا العصر أن يصغي إلىٰ أناس حاقدين كاذبين علىٰ محمدﷺ، وآن لنا أن نحارب مزاعمهم السخيفة المخجلة. فإن الرسالة التي أداها ذلك الرسولﷺ مازالت السراج المنير مدة أربعة عشر قرنًا»(٢).

إن إعطاء الإنسان الحرية الكاملة في اختيار عقيدته وعدم إجباره علىٰ تغيير دينه بأي واسطة من وسائط الإكراه ثمرة من ثمار محمدﷺ.

«إن هذا الشعب العربي كان يمكن أن يمثل في حال النصر الدور الذي مثله التتار فيما بعد من قتل جماعي كبير وصل لملايين القتلىٰ، فهل هو محو للحضارة؟ ولكن العرب علىٰ العكس من ذلك فقد مثلوا علىٰ مسرح التاريخ أروع أمثلة الرحمة والتسامح مع الشعوب المغلوبة.

إن عملية الجهاد المستمر والتضحيات الكثيرة التي بذلت من أجل نشر دين الله مع إعطاء الفرد الحرية الكاملة في اختيار عقيدته دون إكراه، لدليل علىٰ أن محمدًاﷺ حقٌّ، فالذين يتصورون أن مقام النبوة يتنافىٰ مع الحرب، تصوراتهم معكوسة؛ فإن حرب الأنبياء وحدها هي الحرب المعقولة في العالم، إذ إن البشر حينئذٍ إما ملحدون، وهؤلاء أصغر من أن يرد عليهم؛ لأن القتل والخراب الذي يحدث علىٰ أيديهم يَنْدَىٰ له جبين الوحوش، وإما أهل كتاب كاليهود والنصارىٰ وهؤلاء يناقدون أنفسهم فإن في التوراة التي يؤمنون بها جميعهم ما يدل علىٰ أن

(١) محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة العربة ومشاهير كتابه، ص ٢٦.
(٢) مجلة الأزهر ٦/ ٨٣٧.

الأنبياء جاهدوا في سبيل الله»(١).

إن «حرية التدين هي أخطر صور الحرية الفكرية وأشدها حساسية، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية التفكير... وحرية ممارسة الدين وشعائره هي أخطر صور إعلان الرأي، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية الرأي والتعبير»(٢).

والهدف الواضح للإسلام يتمثل في قوله ﷺ: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم»، وصح عن النبي ﷺ أنه لما بعث عليًّا رضي الله عنه إلى خيبر قال: «ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدًا خيرٌ لك من حمر النعم»(٣).

قال تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ **[البقرة، الآية ٢٥٦]**، قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام، وركن عظيم من أركان سياسته، فهو لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه، ولا يسمح لأحد أن يُكْرِه أحدًا من أهله على الخروج منه. وإنما نكون متمكنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كنا أصحاب قوة ومنعة نحمي بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا في ديننا، ونرد بها على من اعتدى علينا؛ إذ أُمرنا أن ندعو إلى سبيل ربنا بالحكمة والموعظة الحسنة، وأن نجادل المخالفين بالتي هي أحسن، معتمدين على أنَّ تَبَيُّن الرشد من الغي هو الطريق المستقيم إلى الإيمان، مع حرية الدعوة وأمن الفتنة. فالجهاد من الدين بهذا الاعتبار، أي إنه ليس من جوهره ومقاصده، وإنما هو سياج له وجُنَّة، فهو أمر سياسي لازم له للضرورة، ولا التفات لما يهذي به العوام ومعلموهم الطَّغام، إذ يزعمون أن الدين قام بالسيف، وأن الجهاد مطلوب لذاته، فالقرآن في جملته وتفصيله حجة عليهم حتى تقوم الساعة.

---

(١) الشيخ سعيد حوى: الرسول ﷺ ١٢٥.
(٢) د. محمد فتحي عثمان: من أصول الفكر السياسي ٢٣٣.
(٣) صحيح البخاري، ٤/ ٤٧، رقم الحديث «٢٩٤٢».

وذكر أيضًا في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾ [يونس، الآية ٩٩]، إن هذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالإكراه، ثم نزل عند التنفيذ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ أي لا يجوز ولا يصح به؛ لأن علماء المسلمين أجمعوا على أن إيمان الْمُكْرَه باطل لا يصح، ولكن النصارى ومقلديهم لا يستحون من افتراء الكذب على الإسلام والمسلمين، ومنه رميهم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الإسلام، ويُخَيِّرونهم بينه وبين السيف يقطع رقابهم، على حد المثل: «رمتني بدائها وانسلت».

فهذا ما يقوله الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وتلميذه محمد رشيد رضا في تفسير تلك الآية، وهما اللذان كان لهما ولأستاذهما جمال الدين الأفغاني الفضل في تطهير الإسلام مما لصق به من آثار الجمود، حتى أعادوه إلى طهارته وروعته الأولى، فأمكنه أن يقف كالصخرة العاتية الصلدة أمام سيل الشبهات التي توجه إليه في هذا العصر، ولولا هذا لتزعزعت أركانه، واختفى في ظلمات الجمود التي كانت تخيم عليه، وتساعد أعداء الإسلام فيما يوجهونه من طعنات إليه، كما يساعدونهم في جمودهم على تفسير تلك الآية بما يفيد أن الإسلام لم ينتشر إلَّا بالإكراه والقوة، وهذا قول غير صحيح.

٢- شهادة مفكر مسيحي:

هناك أيضًا شهادات المنصفين من غير المسلمين، ونختار منها شهادة ذلك المفكر المصري المسيحي الدكتور نبيل لوقا بباوي الذي أصدر مؤخرًا دراسة تحت عنوان: «انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء»، رد فيها على الذين يتهمون الإسلام بأنه انتشر بحد السيف وأجبر الناس على الدخول فيه واعتناقه بالقوة.

وناقشت الدراسة هذه التهمة الكاذبة بموضوعية علمية وتاريخية أوضحت خلالها أن الإسلام، بوصفه دينًا سماويًّا، لم ينفرد وحده بوجود فئة من أتباعه لا تلتزم بأحكامه وشرائعه ومبادئه التي ترفض الإكراه في الدين، وتحرِّم الاعتداء على

النفس البشـرية، وأن سلوك وأفعال وفتاوىٰ هذه الفئة القليلة من الولاة والحكام والمسلمين غير الملتزمين لا تمت إلىٰ تعاليم الإسلام بصلة(١).

هذا شعار الإسلام (لا إله إلا الله) هو الذي يحقق الوصية التي هي أول الوصايا: «والرب إلهنا رب واحد؛ رب إبراهيم وإسحاق ويعقوب»، كما قال عيسىٰ عليه السلام. وبالمقارنة مع دين النصارىٰ نجد أن هذه الوصية قد توارت واختفت، وأصبح التثليث وتأليه المسيح واعتقاد صلبه لفداء خطيئة البشرية الموروثة، هو شعار النصارىٰ وأصل عقيدتهم. وأما اليهود فإلههم عاجز ضعيف فقير مغلوب، وهو إله خاص بهم لا يعبده غيرهم. وأما سائر الأمم فهم عبيد العبيد لهم لا مانع من نشر الشرك والوثنية وعبادة الشيطان والشهوات فيهم. فمقارنة يسيرة بين هذه المعتقدات وبين أهل الإسلام في الأسماء والصفات، قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٨٠﴾ **[الأعراف، الآية ١٨٠]**.

وقالت الدراسة: حدث في المسيحية أيضًا التناقض بين تعاليمها ومبادئها التي تدعو إلىٰ المحبة والتسامح والسلام بين البشر وعدم الاعتداء علىٰ الغير، وبين ما فعله بعض أتباعها في البعض الآخر من قتل وسفك دماء واضطهاد وتعذيب، مما ترفضه المسيحية ولا تقره مبادئها، مشيرة إلىٰ الاضطهاد والتعذيب والتنكيل والمذابح التي وقعت علىٰ المسيحيين الكاثوليك، لا سيما في عهد الإمبراطور دقلديانوس الذي تولىٰ الحكم في عام ٢٨٤م، فكان في عهده يتم تعذيب المسيحيين الأرثوذكس في مصر بإلقائهم في النار أحياء علىٰ الصليب حتىٰ يهلكوا جوعًا، ثم تترك جثثهم لتأكلها الغربان، أو كانوا يوثقون في فروع الأشجار، بعد أن يتم تقريبها بآلات خاصة ثم تترك لتعود لوضعها الطبيعي فتتمزق الأعضاء الجسدية للمسيحيين إربًا إربًا(٢).

(١) راجع ذلك تفصيلًا في كتاب: انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء لنبيل لوقا بباوي. القاهرة. ص٢٤ وما بعدها.

(٢) انتشار الإسلام بحد السيف، (التقديم) بقلم الشيخ فوزي الزفزاف، ص ١٩.

وقال بباوي: إن أعداد المسيحيين الذين قتلوا بالتعذيب في عهد الإمبراطور دقلديانوس يقدر بأكثر من مليون مسيحي، إضافة إلى المغالاة في الضرائب التي كانت تفرض على كل شيء حتى على دفن الموتى، لذلك قررت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر اعتبار ذلك العهد عصر الشهداء، وأرخوا به التقويم القبطي تذكيرًا بالتطرف المسيحي[١].

وأشار الباحث إلى الحروب الدموية التي حدثت بين الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا، وما لاقاه البروتستانت من العذاب والقتل والتشريد والحبس في غياهب السجون إثر ظهور المذهب البروتستانتي على يد الراهب مارتن لوثر الذي ضاق ذرعًا بمتاجرة الكهنة بصكوك الغفران.

وهدفت الدراسة من وراء عرض هذا الصراع المسيحي إلى:

أولًا: عقد مقارنة بين هذا الاضطهاد الذي وقع على المسيحيين الأرثوذكس من قبل الدولة الرومانية ومن المسيحيين الكاثوليك، وبين التسامح الديني الذي حققته الدولة الإسلامية في مصر، وحرية العقيدة الدينية التي أقرها الإسلام لغير المسلمين وتركهم أحرارًا في ممارسة شعائرهم الدينية داخل كنائسهم، وتطبيق شرائع ملتهم في الأحوال الشخصية، مصداقا لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ﴾، وتحقيق العدالة والمساواة في الحقوق والواجبات بين المسلمين وغير المسلمين في الدولة الإسلامية إعمالا للقاعدة الإسلامية: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»، وهذا يثبت أن الإسلام لم ينتشر بالسيف والقوة؛ لأنه تم تخيير غير المسلمين بين قبول الإسلام أو البقاء على دينهم مع دفع الجزية (ضريبة الدفاع عنهم وحمايتهم وتمتعهم بالخدمات)، فمن اختار البقاء على دينه فهو حر، وقد كان في قدرة الدولة الإسلامية أن تجبر المسيحيين على الدخول في الإسلام بقوتها، أو أن تقضي عليهم بالقتل إذا لم يدخلوا في الإسلام قهرًا، ولكن الدولة الإسلامية لم تفعل ذلك تنفيذًا لتعاليم الإسلام ومبادئه، فأين دعوى انتشار الإسلام بالسيف ؟وكيف أحاربه بالسيف والرسول ﷺ له معاملة فاضلة مع اليهود حتى توفي ؟.

---

(١) المصدر السابق نفسه.

ومما سبق نثبت بأن الإسلام لم ينتشر بالسيف، ولم يدخل أحد الإسلام بالسيف، وأن رسول الله ﷺ قد أوتي من جوامع الكلم، فأقواله وأفعاله وتقريراته هي مرجع المسلمين إلىٰ قيام الساعة، فكان العلماء علىٰ مر القرون يستنبطون من الكلام القليل والفعل اليسير لرسول الله ﷺ الفوائد الجليلة والعظيمة، ومن أمثلة ذلك هذا الحديث الذي نتناوله في هذا المحور، وهو حديث مروي في العديد من كتب السنة، فقد رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد في «مسنده» ومالك في «الموطأ» والدارمي في «سننه» وابن حبان في «صحيحه»، ورواه أيضًا غيرهم في كتب السنة الأخرىٰ.

وسنذكر أهمَّ طرق الحديث، ثم نتبع ذلك بالفوائد الفقهية التي استنبطها العلماء من الحديث؛ ففي «صحيح البخاري» و«مسلم» وغيرهما عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ اشترىٰ طعامًا من يهودي إلىٰ أجل ورهنه درعًا من حديد.

وروىٰ البخاري وغيره عن أنس رضي الله عنه أنه مشىٰ إلىٰ النبي ﷺ بخبز شعير وإهالة سنخة، ولقد رهن النبي ﷺ درعًا له بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيرًا لأهله، ولقد سمعته يقول: «ما أمسىٰ عند آل محمد ﷺ صاع بُرّ، ولا صاع حَبّ، وإن عنده لتسع نسوة»[1].

أما الفوائد المستنبطة من الحديث فهي ما يلي:

١- أن الرسول ﷺ عندما قال: «ما أصبح لآل محمد» أو «ما أمسىٰ في آل محمد»، لم يفعل ذلك متضجرًا ولا شاكيًا - معاذ الله من ذلك - وإنما قال معتذرًا عن إجابته دعوة اليهودي ولرهنه عنده درعه.

٢- جواز معاملة الكفار فيما لم يتحقق تحريم عين التعامل فيه وعدم الاعتبار بفساد معتقدهم ومعاملاتهم فيما بينهم، وهذا يعني أن التعامل مع الكفار من غير المسلمين جائز بشرط أن يكون المتعامل فيه ليس محرمًا، ولا يؤثر فساد معتقدهم، حيث إنهم علىٰ الكفر ولا فساد معاملاتهم فيما

(١) صحيح البخاري، ٣/ ٥٦، حديث رقم ٢٠٦٩.

بينهم، حيث إنهم لا يراعون فيها الحلال والحرام، لا يؤثر ذلك في هذا التعامل.

٣- ثبوت أملاك أهل الذمة في أيديهم. فلا يعتدىٰ عليها ولا تؤخذ من أيديهم إلَّا بأنواع المعاملات الشرعية التي يبيحها الإسلام، فقد بقيت هذه الدرع عند اليهودي ولم يفك رهنها الرسول ﷺ حتىٰ مات، ثم افتكها أبو بكر رضي الله عنه بعد موت الرسول ﷺ، علىٰ قول، أو علي بن أبي طالب رضي الله عنه في قول آخر.

٤- جواز الشراء بالثمن المؤجل، ذلك لأن الرسول ﷺ قد اشترىٰ الطعام من اليهودي إلىٰ أجل ورهنه درعه، فالدرع لم تكن ثمنًا وإنما رهن فقط، ولقد ترجم البخاري لحديث عائشة وحديث أنس في كتاب البيوع باب شراء النبي ﷺ بالنسيئة، وقال ابن حجر: (النسيئة بكسر السين المهملة والمد أي بالأجل)، قال ابن بطال: (الشراء بالنسيئة جائز بالإجماع).

٥- وفيه ما كان عليه النبي ﷺ من التواضع والزهد في الدنيا والتقلل منها مع قدرته عليها.

٦- وفيه ما يدل علىٰ كرم الرسول ﷺ الذي أفضىٰ به إلىٰ عدم الادخار حتىٰ احتاج إلىٰ رهن درعه.

٧- وفيه الصبر علىٰ ضيق العيش والقناعة باليسير.

٨- وفضيلة لأزواجه لصبرهن معه علىٰ ذلك. قلت: فلتقتد بهن زوجات المسلمين ولا تتضجر إحداهن بمجرد مرور زوجها بضائقة مالية أو ببعض الابتلاءات.

٩- قال العلماء: الحكمة في عدوله ﷺ عن معاملة مياسير الصحابة إلىٰ معاملة اليهود؛ إما لبيان الجواز؛ أو لأنهم لم يكن عنده إذ ذاك طعام فائض عن حاجتهم، أو خشي أنهم لا يأخذون منه ثمنًا أو عوضًا لم يرد

التضييق عليهم، فإنه لا يبعد أن يكون فيهم إذ ذاك من يقدر على ذلك وأكثر منه.

ثانيًا: إثبات أن الجزية التي فرضت على غير المسلمين في الدولة الإسلامية بموجب عقود الأمان التي وقعت معهم، إنما هي ضريبة دفاع عنهم في مقابل حمايتهم، والدفاع عنهم من أي اعتداء خارجي؛ لإعفائهم من الاشتراك في الجيش الإسلامي حتى لا يدخلوا حربًا يدافعون فيها عن دين لا يؤمنون به، ومع ذلك فإذا اختار غير المسلم أن ينضم إلى الجيش الإسلامي برضاه فإنه يعفى من دفع الجزية.

وتقول الدراسة: إن الجزية كانت تأتي أيضًا نظير التمتع بالخدمات العامة التي تقدمها الدولة للمواطنين مسلمين وغير مسلمين، والتي ينفق عليها من أموال الزكاة التي يدفعها المسلمون بصفتها ركنًا من أركان الإسلام، وهذه الجزية لا تمثل إلا قدرًا ضئيلًا متواضعًا لو قورنت بالضرائب الباهظة التي كانت تفرضها الدولة الرومانية على المسيحيين في مصر، ولا يعفى منها أحد، في حين أن أكثر من ٧٠٪ من الأقباط الأرثوذكس كانوا يعفون من دفع هذه الجزية، فقد كان يعفى من دفعها: القُصّر والنساء والشيوخ والعجزة وأصحاب الأمراض والرهبان.

ثالثًا: إثبات أن تجاوز بعض الولاة المسلمين أو بعض الأفراد أو بعض الجماعات من المسلمين في معاملاتهم لغير المسلمين إنما هي تصرفات فردية شخصية لا تمتُّ لتعاليم الإسلام بصلة، ولا علاقة لها بمبادئ الدين الإسلامي وأحكامه، فإنصافًا للحقيقة ينبغي ألا ينسب هذا التجاوز للدين الإسلامي، وإنما ينسب إلى من تجاوز، وهذا الضبط يتساوى مع رفض المسيحية للتجاوزات التي حدثت من الدولة الرومانية ومن المسيحيين الكاثوليك ضد المسيحيين الأرثوذكس، ويتساءل قائلًا: لماذا إذن يغمض بعض المستشرقين عيونهم عن التجاوز الذي حدث في جانب المسيحية ولا يتحدثون عنه، بينما يضخمون الذي حدث في جانب الإسلام، ويتحدثون عنه؟ ولماذا الكيل بمكيالين؟ والوزن بميزانين؟!

وصدق الشاعر الإمام الشافعي في قوله:

وعين الرضا عن كل عيبٍ كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وأكد الباحث أنه اعتمد في دراسته القرآن والسنة وما ورد عن السلف الصالح من الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم لأن في هذه المصادر وفي سير هؤلاء المسلمين الأوائل الإطار الصحيح الذي يظهر كيفية انتشار الإسلام وكيفية معاملته لغير المسلمين.

إن الإسلام بدأ بفرد واحد وهو رسول الله ﷺ ولم يشهر سيفه على أحد في مكة، وإنما ذاق أتباعه حلاوة الإيمان. وعندما اشتد عليهم الأذى أذن الله سبحانه وتعالى في الهجرة للحبشة ثم للمدينة المنورة، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج، الآية ٣٩]. **لقد كان معظم قتال رسول الله ﷺ إما لاسترداد بعض حقوق المسلمين كما حدث في موقعة بدر، وإما للدفاع عن المدينة المنورة وتأمين الدولة الإسلامية من اعتداءات قبائل المشركين في قبائل العرب الذين تحزبوا على الإسلام، قال تعالى:** ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ **[التوبة، الآية ٣٦]. فجاهد ﷺ هو وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم في سبيل الله عز وجل، ومن أبدى الرغبة في التعايش السلمي وعدم مظاهرة أحد على قتاله لم يمتنع من عقد المواثيق، قال تعالى:** ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦١﴾ **[الأنفال، الآية ٦١].**

ولما حدث صلح الحديبية الذي كان مفتاح انطلاق للإسلام إلى خارج جزيرة العرب وسماه الله عز وجل فتحًا قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا ٣ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ٤ لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ٥﴾ **[الفتح، الآيات ١ – ٥].**

فبدأ رسول الله ﷺ بإرسال الكتب والرسل إلى ملوك الأرض، كملك الفرس والروم، وعظيم القبط بمصر المقوقس، وبعض الملوك العرب الموجودين على أطراف الأراضي المباركة.

لقد كان فتح مكة خير دليل على رحمة النبي ﷺ بأعدائه عندما قال بعض أصحابه: اليوم يوم الملحمة اليوم أذل الله قريشًا، فقال رسول الله ﷺ: «اليوم يوم المرحمة اليوم يعز الله قريشًا»(١)، وقوله ﷺ لكفار قريش: «اذهبوا فأنتم الطلقاء»(٢).

ولم يكن النبي ﷺ يحب الحرب؛ ولذلك قال: «يا أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله تعالى العافية، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف، ثم قال: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب اهزمهم وانصرنا عليهم»(٣).

وكان ﷺ ينهى عن ظلم المعاهدين، فعن رسول الله ﷺ قال: «ألا مَن ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»(٤). زاد البيهقي: «ألا ومن قتل معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله حرم عليه ريح الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا»(٥).

وتتجلى رحمة النبي ﷺ في قتال أعدائه؛ فقد كان ﷺ إذا بعث أميرًا أو أمر أميرًا على سرية أو جيش أمره وأوصاه في خاصته بتقوى الله وبمن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا باسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا فلا تغلوا ولا تَغْدِروا، ولا تمثِّلوا ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال فأيتهم ما أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم: ادعهم

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، ٨/ ٩.

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ١٤٢٤هـ، ٩/ ١٩٩، رقم الحديث ١٨٢٧٥.

(٣) سنن أبي داود، لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٧، ٣/ ٤٢، حديث رقم ٢٦٣١.

(٤) سنن أبي داود ٣/ ١٧١، ح٣٠٥٢.

(٥) أخرجه أبو داود (٣/ ١٧٠، رقم ٣٠٥٢)، والبيهقي (٩/ ٢٠٥، رقم ١٨٥١١).

إلى أن يهاجروا من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم إن فعلوا ذلك أن لهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين فإن أبوا أن يبرحوا من دارهم فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المسلمين، لا يكون لهم في الفيء ولا في الغنيمة شيء، فإن أبوا فاسألهم الجزية، فإن فعلوا فاقبل منهم وخل عنهم، فإن أبوا فقاتلهم. وإذا حاصرت أهل حصن فإن أرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة رسوله، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أبيك وذمم أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسولهﷺ، وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنْزِلَهم على حكم الله فلا تُنْزِلْهم على حكم الله ولكن أنزِلهم على حكمك، فإنك لا تدري تصيب حكم الله فيهم أم لا". فقال عبد الرحمن: هذا عندي[1].

إن القاعدة في الإسلام هي السلام، والحرب هي الاستثناء للضرورة، والضرورة إما أن تكون للدفاع عن النفس والعرض والمال والدين والوطن المسلم ضد الاعتداء، وهذا ما يسمى بجهاد الدفع أي الدفاع، قال تعالى: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠ ﴾ [البقرة، الآية ١٩٠]، وقال رسول اللهﷺ: «من قُتِل دون ماله فهو شهيد، ومن قُتل دون أهله فهو شهيد، ومن قُتل دون دينه فهو شهيد ومن قتل دون دمه فهو شهيد»[2].

أو للدفاع عن الدولة إذا وقف أحد في سبيلها بتعذيب من آمن بها، أو بصد من أراد الدخول فيها، أو بمنع الداعي من تبليغها وهو ما يسمى بجهاد الطلب، قال تعالى: ﴿ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩١ ﴾ [البقرة، الآية ١٩١].

(١) مسند البزار (البحر الزخار) ١٠ / ٢٥٩ ـ ٢٦٠.

(٢) إطراف المسنِد المعتلي بأطراف المسنَد الحنبلي، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، ط١، ١٩٩٣م، ٢ / ٤٧٠.

والجهاد في الإسلام إما فرض عين وذلك أولا على من حضر القتال قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة، الآية ٤١]

وثانيًا: إذا أغارت دولة كافرة على ديار الإسلام، ففي هذه الحالة يكون الجهاد فرضًا على كل مسلم ومسلمة، حتى إن المرأة تخرج للجهاد ولو بغير إذن زوجها، في حين أنها لا تخرج للحج إلا بإذنه ويخرج الابن بغير إذن أبيه والعبد بغير إذن وليه، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ [البقرة، الآيتان ١٩٣-١٩٤].

وثالثًا: على من أمره الحاكم المسلم بالجهاد في سبيل الله، وليس لحَمِيَّة جاهلية أو اعتداء على الأبرياء؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ لاَ تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»[١]. قال رسول الله ﷺ: «مَن قَاتَل لتكون كلمةُ الله هي العُلْيا فهو في سبيل الله»[٢].

وإما أن يكون فرض كفاية إن قام به البعض سقط عن الآخرين، وذلك:

أولًا: إذا وقع الظلم على أقلية مسلمة تعيش في البلاد الكافرة كالتشريد والقتل والاضطهاد، قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [النساء، الآية ٧٥].

وثانيًا: وهو الجهاد الدعوي، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران، الآية ٦٤].

---

(١) إتحاف الخيرة المهرة، ٣/ ٢٢٧، رواه أبو بكر بن أبي شَيْبَة بسند رواته ثقات.

(٢) إطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي، ٧/ ٩٤.

فإن استكبروا عن سماع الحق فليدفعوا الجزية وإلا فالقتال، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾ [الحج، الآية ٧٨].

قَالَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ: «إِنَّ رَأْسَ هَذَا الأَمْرِ أَنْ تَشْهَدَ أَلَّا إِلَهَ إِلا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَإِنَّ قُوَامَ هَذَا الأَمْرِ إِقَامَةُ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَإِنَّ ذُرْوَةَ السَّنَامِ مِنْهُ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ، إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، وَيَشْهَدُوا أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدِ اعْتَصَمُوا وَعَصَمُوا دِمَاءَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا وَحِسَابُهُمْ عَلَىٰ اللهِ». وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا شَحَبَ وَجْهٌ، وَلاَ اغْبَرَّتْ قَدَمٌ فِي عَمَلٍ يُبْتَغَىٰ فِيهِ دَرَجَاتُ الْجَنَّةِ بَعْدَ الصَّلاَةِ الْمَفْرُوضَةِ كَجِهَادٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَلاَ ثَقُلَ مِيزَانُ عَبْدٍ كَدَابَّةٍ تُنْفَقُ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوْ يُحْمَلُ عَلَيْهَا فِي سَبِيلِ اللهِ»(١).

ومن بعد رسول الله ﷺ في عصر الفتوحات، نجد كثيرًا من البلدان المفتوحة قد فتحت سلمًا لا حربًا.

ويذكر البلاذري في كتابه «فتوح البلدان» جملة من الفتوحات السلمية، نذكر منها علىٰ سبيل المثال لا الحصر مدينة بُصرىٰ والتي فتحت سنة ١٣ هـ صلحًا، علىٰ أن يؤدي أهلها عن كل شخص بالغ دينارًا، ومقدارًا معينًا من القمح، ويؤمنهم المسلمون علىٰ دمائهم وأعراضهم وأولادهم وأموالهم، وعلىٰ أن يدفعوا الجزية نظير حمايتهم والدفاع عنهم(٢).

وفي العام نفسه افتتح المسلمون أرض حوران سنة ١٣هـ علىٰ يد القائد

(١) إتحاف الخيرة المهرة، ٥ / ٩١.

(٢) فتوح البلدان، لأحمد بن يحيىٰ البلاذري، تحقيق: عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م، ص ١٥٥.

الصحابي أبي عبيدة بن الجراح صلحًا على نفس شروط صلح بصرى، وجميع مدن الأردن ما خلا طبرية صلحًا على يد القائد شرحبيل ابن حسنة، بعد أن صالح أهلها على أنصاف منازلهم وكنائسهم، ثم افتتحت طبرية صلحًا أيضًا[١].

وافتتح المسلمون مدينة دمشق في المحرم من سنة ١٤ هـ صلحًا على يد القائد أبي عبيدة بن الجراح على أنصاف منازلهم وكنائسهم، وعلى دفع الجزية[٢].

ولمَّا فرغ أبو عبيدة من أمر مدينة دمشق سار إلى حمص، فمر على بعلبك فطلب أهلها الأمان والصلح، فصالحهم على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وكتب لهم بذلك كتابًا، فلمّا أتوا على حمص طلب أهلها الأمان والصلح فصالحهم على ١٧٠ ألف دينار[٣].

وفي سنة ١٩ هـ افتتح معاوية بن أبي سفيان مدينة قَيْسارية قسرًا بعد أن حُصرت سبع سنين. وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية يأمره بتتبع ما بقي من فلسطين، ففتح عسقلان صلحًا بعد كيد[٤].

وافتتح عياض بن غنم الرَّقة وحرَّان والرُّها ونَصِيبينَ ومَيَّافارِقين وقَرْقِيسيا وقرى الفرات ومدائنها صلحًا وأرضها عُنْوة، وذلك سنة ١٩ هـ.

وفتحت قبرص صلحًا في عام ٣٩هـ، على أن يدفعوا ٧٢٠٠ دينار كل سنة[٥].

وفتح حبيب بن مسلمة[٦] عدة مدن من بلاد أرمينية صلحًا، وذلك أيام عثمان بن عفان.

---

(١) فتوح البلدان، ص ١٥٨.
(٢) المصدر السابق، ص ١٦٥.
(٣) المصدر السابق، ص ١٧٨.
(٤) المصدر السابق، ص ١٩٠ وما بعدها.
(٥) المصدر السابق، ص ٢٠٨.
(٦) المصدر السابق، ص ٢٨٥.

وفتح سليمان بن ربيعة مدينة البيلقان صلحًا على أن أمنهم على دمائهم وأموالهم، واشترط عليهم أداء الجزية والخراج[(١)]، ثم أتى سليمان بن ربيعة الباهلي برذعة، فصالحه أهلها على صلح البيلقان[(٢)].

وافتتح عمرو بن العاص إقليم برقة (بليبيا حاليًّا) صلحًا بعدما صالح أهلها على الجزية وهي ١٣٠٠٠ ألف دينار[(٣)].

ثانيًا: المرأة في الإسلام ووجهةُ نظرِ الآخر:

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة»[(٤)].

- **الإسلام يحضُّ على العمل والكسب الحلال ولا فرق بين الرجل والمرأة**[(٥)]

منذ عهد النبوة والوحي يتنزل وللمرأة وجود ونشاط في المجتمع المدني، ولها إسهامات في بناء مجتمعها أقرها عليه الشرع المطهر، شاركت في بيعة الرسول ﷺ مع الرجال، وهاجرت وجاهدت وعملت وتاجرت وطببت ومرَّضت وصنعت وزرعت، وقامت برعاية الأسرة والعناية بالأولاد والزوج. وللمرأة في صدر الإسلام مكانة رفيعة وإسهامات كبيرة في إثراء النهضة العلمية والفكرية والأدبية والاقتصادية والصناعية، وبرز منها المحدثات والفقيهات والشاعرات والراويات لأحاديث النبي ﷺ، وبرز في مراحل التاريخ الإسلامي الأولى الآلاف من النسوة النابغات والمتفوقات في شتى العلوم وفروع المعرفة.

---

(١) فتوح البلدان، ص٢٨٥.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٨٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٣١٤.

(٤) صحيح مسلم، ٢/ ١٠٩٠، حديث رقم ١٤٦٧.

(٥) د. عبد اللطيف آل الشيخ؛ مقال بجريدة الرياض السعودية، بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠١٠م، العدد رقم «١٥٤٧٨»، ص٧.

خادم الحرمين الشريفين الملك سلمان بن عبد العزيز - حفظه الله - يدعم حقوق المرأة، ويتابع باهتمام قضاياها عمل المرأة مُباح إلا عملًا محرمًا لذاته أو مكانه، والاختلاط البريء لا يمنعها:

إن الإسلام كرم الإنسان الرجل والمرأة على حد سواء، وما أعطاه الإسلام للرجل أعطاه للمرأة وقد أعطى للمرأة الحرية الكاملة في التصرف المشروع في مالها إذا كانت راشدة مثل ما أعطى الرجل تمامًا، ولها أيضًا حق اختيار العمل أو المهنة التي تميل إليها وليس فيها مخالفة لنص شرعي، كما أعطاها المشرع الحق في قبول الخاطب أو رفضه، كما أعطاها الحق بطلب فسخ عقد الزواج إذا لم تحصل على حقها المقصود من العقد أو كرهت الزوج لسبب، كما حرم الله سبحانه وتعالى عضلها أو منعها من أي حق من حقوقها إلا بمسوغ شرعي ظاهر مثلها في ذلك مثل الرجل في الحقوق والواجبات، وإن بدا شيء من الفروق في بعض التكاليف أو الواجبات بين الرجل والمرأة، فإن ذلك بسبب الخصائص التي ميز الله تعالى بها الرجال عن النساء والعكس، وهذه ليست نقيصة ولا سببًا لسلب حق من حقوق المرأة التي خلقها الله سبحانه وتعالى مثل الرجل لعبادته وحده وعمارة أرضه جل جلاله.

أم المؤمنين خديجة بنت خويلد نموذجٌ للمرأة التي حصنت الإسلام بثروتها وحكمتها:

لم يرد في الشريعة الإسلامية ما يمنع عمل المرأة في التجارة أو غيرها من الأعمال المحترمة، والثابت الصحيح أن النساء في صدر الإسلام كن يبعن ويشترين باحتشام وتحفُّظ من إبداء الزينة، ومارسن كل المهن المشروعة على عهد الرسول ﷺ والوحي ينزل وهي تعمل في مجالات عدة من تجارة وطب وتعليم وصناعة، ولم تكن المرأة في عهد الرسول ﷺ مهمشة ممنوعة من ممارسة دورها الطبيعي أو مهضومة الحق، وكما هو معلوم إلى عهد قريب[1].

---

(١) د. عبد اللطيف آل الشيخ؛ مقال بجريدة الرياض السعودية، بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠١٠م، العدد رقم «١٥٤٧٨» ص٧.

والخطاب الشرعي موجه للرجل والمرأة علىٰ حد سواء في التكاليف الشرعية وفي الأوامر والنواهي:

١- وقال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ﴿٢٩﴾ ﴾ [النساء، الآية ٢٩].

٢- وقال الله تعالىٰ: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ ﴾ [النساء، الآية ٧].

٣- وقال الله تعالىٰ: ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [النساء، الآية ٣٢].

٤- وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾ [التوبة، الآية ١٠٥].

٥- وقال الله تعالىٰ: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَوْفُوا۟ بِٱلْعُقُودِ ﴿١﴾ ﴾ [المائدة، الآية ١].

٦- وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَـٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ﴿٢٨٢﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٢٨٢].

وقال الرسول ﷺ: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبينا بورك لهما في بيعهما وإن كتما وكذبا مُحقت بركة بيعهما»[أخرجه البخاري في كتاب البيوع]. وقال ﷺ مما روىٰ الترمذي من حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «إنما النساء شقائق الرجال».

روىٰ أبو هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من أقال نادمًا بيعته أقال الله عثرته يوم القيامة»[صحيح ابن حبان كتاب البيوع، باب الإقالة].

قال الرسولﷺ: «المسلمون على شروطهم إلا شرطًا حرم حلالًا أو أحل حرامًا» [رواه الترمذي].

فالنصوص من الكتاب والسنّة تشير إلى الذكر والأنثى جميعًا ولم تستثن أحدًا منهما في الخطاب والتوجيه الذي يبين ويوضح الطريق المستقيم (١).

ورعاية للمرأة وحفظًا لها من الامتهان والابتذال وحتى لا تكون لقمة سائغة للمفسدين والمتسلطين وضعاف العقول، ولأن الشريعة الإسلامية تحض على العمل والكسب الحلال ولا تمنع أحدًا من ذلك رجالاً أو نساءً، فهم على حد سواء، إلا أنها لم تترك الناس فوضى بل وضعت حدودًا وضوابط تكفل وتضمن للملتزم بها من أن يقع في المحذور، كما أن الشريعة شاملة وكاملة فلم تترك شأنًا من شؤون الرجل والمرأة إلا وبينت حكم الله فيه، إما عن طريق مصادر التشريع الأصل، وهي كتاب الله تعالى وسنّة رسولهﷺ، وإجماع الأمة والقياس، أو عن طريق باقي مصادر التشريع كالمصالح المرسلة والاستحسان، وهذه بعض الحالات التي تحتاج فيها المرأة للعمل المسموح به في الشريعة الإسلامية (٢)

١ - الحالة الأولى:

أن تكون المرأة محتاجة للعمل لكسب رزقها ولسد حاجتها أو حاجة والديها أو أسرتها وليس لديها خيار آخر أو بديل يسد حاجتها وهي ملتزمة بالضوابط الشرعية، ومنها:

١ - إذن ولي الأمر أو الزوج لزوجه.

٢ - أن يكون العمل المراد الخروج لأجله غير محرم، ولا اختلاط فيه ريبة ولا خلوة فيه؛ لأنها محرمة.

٣ - أن يكون الخروج للحاجة للعمل وطلب الرزق الحلال.

---

(١) د. عبد اللطيف آل الشيخ؛ مقال بجريدة الرياض السعودية، بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠١٠م، العدد رقم «١٥٤٧٨»، ص٧.

(٢) المصدر السابق. ص ٧.

٤- أن يكون العمل لحاجة لها أو لمجتمعها.

٥- ألا يكون الخروج للعمل فيه إضاعة لحق الأولاد أو الزوج.

٦- أن تلتزم المرأة بالحجاب وعدم إبداء الزينة أو التعطر أو يبدو منها ما يغري أو يفتن الرجل، والاتزان في حركاتها ومشيتها والخضوع في القول والتحدث.

٧- الابتعاد عن مواطن الريبة وصحبة السوء، والالتزام بالأمانة والصدق.

٨- وقبل ذلك وبعده أن تحرص على مراقبة الله ومخافته في السر والعلن.

فهذه المرأة يجوز لها مزاولة هذا العمل، ولا تثريب عليها إن شاء الله.

قال الرسول ﷺ لمعاذ وأبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يسرا ولا تعسرا»(١).

عن أبي سعيد بن مالك بن سنان الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا ضرر ولا ضرار»(٢).

«ما جاز لعذر بطل بزواله»(٣)، و«الضرورات تبيح المحظورات»(٤).

٢- الحالة الثانية:

إذا كانت المرأة ملتزمة بالضوابط الشرعية آنفة الذكر ولم تجد عملًا غير هذا العمل من غير حاجة، ولديها ما يغنيها ويدفع الحاجة عنها، فإن ممارستها لهذا العمل لا يخرج الحكم عن إطار الكراهة، ومن ترك شيئًا لله عوضه الله بخير منه. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴿٣﴾﴾ **[الطلاق، الآيتان ٢ - ٣]**.

(١) صحيح البخاري، ٤/ ٦٥، رقم الحديث «٣٠٣٨". صحيح مسلم، ٣/ ١٣٥٩، رقم الحديث "١٧٣٣".

(٢) سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ٢/ ٧٨٤، رقم الحديث «٢٣٤١».

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٨٥.

(٤) قواعد الفقه ص٨٩ للبركتي.

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: «ما من عبد ترك شيئًا لله إلا أبدله الله به ما هو خير منه من حيث لا يحتسب...»[(١)].

وعن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنك لا تدع شيئًا اتقاء الله تعالى إلا أعطاك الله عز وجل خيرًا منه»[(٢)].

٣- الحالة الثالثة:

إذا كانت راغبة العمل في هذه المهنة غير قادرة على الالتزام بالضوابط الشرعية أو معروفة بذلك فإن عملها بالأسواق يعتبر محرمًا، ومن يمكنها من العمل آثم ويحرم عليه ذلك.

وأفضل عمل تقوم به المرأة ويناسب طبيعتها أن تَقَرَّ في بيتها وتقوم بشؤون زوجها وأولادها، ولا يكون العمل خارج البيت إلا لحاجة لها أو حاجة ملحَّة لمجتمعها. قال تعالى: ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأحزاب، الآية ٣٣]. وهذا الخطاب موجه إلى زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين تبعٌ لهن في ذلك.

ومن النماذج الطيبة الطاهرة في الصدر الأول للإسلام، أمهات المؤمنين وغيرهن من المؤمنات، فالسيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها حصنت الإسلام بثروتها وحكمتها. لا سنّة للنساء في ممارسة التجارة أظهر وأهدى من الاقتداء بسيدتنا خديجة بنت خويلد التي كانت من أصحاب رؤوس الأموال في مكة. فقد كانت لها تجارة تبعث بها إلى الشام، حتى إن عِيرها كانت كعامة عير قريش، تستأجر لها الرجال يجلبون لها المتاع فيبيعونه وتجازيهم عوضًا عن ذلك. فقد خرج في عيرها خير الرجال صلى الله عليه وسلم مع غلامها ميسرة وقالت له: أعطيك ضعف ما أعطي قومك، وقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج إلى سوق بُصْـرَىٰ وباع سلعته التي خرج

(١) رواه أبو نعيم في الحلية.

(٢) رواه أحمد، وإسناده صحيح، ورواه البيهقي ووكيع.

بها، واشترى غيرها وربحت ضعف ما كانت تربح. فأربحت خديجة النبيﷺ ضعف ما سمت له[١].

وفي ترجمة قَيْلة أم بني أنمار - من طبقات ابن سعد - أنها قالت: جاء النبيﷺ إلى المروة ليحلَّ بعمرة من عُمَرِه، فجئت أتوكأ على عصا حتى جلست إليه فقلت: يا رسول الله إني امرأة، أبيع وأشتري فربما أردت أن أشتري سلعة، وأعطي فيها أقل مما أريد أن آخذها به، وربما أردت أن أبيع السلعة فاستمت بها أكثر مما أريد أن أبيعها به ثم نقصت ثم نقصت حتى أبيعها بالذي أريد أن أبيعها به. فقال لي رسول اللهﷺ: «لا تفعلي هكذا يا قيلة، ولكن إذا أردت أن تشتري شيئًا فأعطي به الذي تريدين أن تأخذيه به؛ أعطيت أو منعت، وإذا أردت أن تبيعي شيئًا فاستأمي الذي تريدين أن تبيعيه به أعطيت أو منعت»[٢].

كانت «الشفاء بنت عبد الله العدوية» واسمها ليلى، من المبايعين الأوائل ومن المهاجرين، وكانت تعد من أعقل الصحابيات، قال عنها ابن حجر: «كانت من عقلاء النساء وفضلائهن» وكان رسول اللهﷺ يأتيها ويقيل عندها في بيتها.. كان عمر يقدّمها في الرأي ويرعاها ويفضلّها وربما ولاّها شيئًا من أمر السوق[٣].

وإضافة إلى الشفاء التي كانت تعتبر من خيرة صحابيات الرسولﷺ، وقد عملت امرأة أخرى تدعى «سمراء بنت نهيك» كانت تتصدى للحسبة في السوق.

فعن أبي بَلْجٍ يحيى بن سليم قال: «رأيت سمراء بنت نهيك - وكانت قد أدركت النبيﷺ - عليها درع غليظ وخمار غليظ، بيدها سوط تؤدب الناس، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر»[٤]. وذكر الإمام ابن عبد البر في «الاستيعاب» في ترجمة

(١) الإصابة في تمييز الصحابة، ٤/ ٨١.
(٢) الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٠هـ، ٨/ ٢٤٠.
(٣) الإصابة ٨/ ١٢٦.
(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩/ ٢٦٤) بإسناد جوده الألباني، وقال الهيثمي (٩/ ٢٦٤): ورجاله ثقات.

الصحابية الجليلة سمراء بنت نهيك الأسدية: «أدركت رسول الله ﷺ وعمرت وكانت تمر في الأسواق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتضرب الناس على ذلك بسوط كان معها»[(١)]، وكانت النسوة في عهد الرسول ﷺ يمرضن ويداوين ومن أشهرهن أسماء بنت عميس الشهرانية الخثعمية والربيع بنت معوذ بن عفراء التي كانت تخرج مع النبي ﷺ في بعض غزواته لمعالجة الجرحى وكذلك رفيدة الأنصارية التي كانت لها خيمة بجوار المسجد تعالج فيها الجرحى من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وحديث علاجها لسعد بن معاذ رضي الله عنه مشهور معروف، وأم عُمارة الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا نُسَيْبة بنت كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وموقفها العظيم في القتال يوم أحد، وكذلك أم دليم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وموقفها يوم حنين، ويوم أحد مع عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا[(٢)].

كثيرةٌ هي أقوال الآخرين حولَ ظلمِ الإسلام للمرأةِ وحقوقِها، وكثيرةٌ ـ أيضًا ـ تلك الشُّبهاتِ التي يثيرها أعداءُ الإسلامِ حول المرأةِ، أمثال:

- لماذا سمحَ الإسلام للرجل بتعدد الزوجات ـ رغم أنّ هذا يضرُّ بالمرأة ـ ولماذا لم يسمح للمرأة أيضًا بتعدد الأزواج؟ أليست هذه عنصرية ظالمة؟!
- لماذا يعامل الإسلام المرأة كأنّها سلعة، فيسمح للزوج أنْ يُطلّقَها وقتما يشاء؟ أليس في ذلك تخريبٌ للبيوت وتشريد للأطفال وإهانة للمرأة؟ ولماذا لا يسمحُ الإسلامُ للمرأةِ أن تطلّقَ زوجها ـ مِن باب المساواة ـ كما أباح للرجل ذلك؟
- لماذا فرّق الإسلامُ بين الرجل والمرأة في الميراث ولم يسوِّ بينهما، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؟

(١) الاستيعاب، لابن عبد البر، (٤/ ١٨٦٣).
(٢) د. عبد اللطيف آل الشيخ؛ مقال بجريدة الرياض السعودية، بتاريخ ٩/ ١١/ ٢٠١٠م، العدد رقم «١٥٤٧٨»، ص٧.

- لماذا تصرون على ارتداء المرأة للحجاب مع أنّ هذا لا يعني تديّنها، ولا يضمن لها السلامةَ الخُلقية، وقد رأينا نماذج فاسدة مِمّن يرتدين الحجاب؟
- لماذا تحجرون على المرأة وترغمونها على عدم العمل وتولّي المناصب المختلفة، ثم تدّعون بعد ذلك مساواتها بالرجل؟!

وغير ذلك مِن شبهٍ أرادَ بها هؤلاء المغرضون التشكّيك في سلامة ديننا القويم وصلاحيته أنْ يكونَ الدينَ الخاتم للبشرية.

ويطيبُ لي قبل الشروع في تفنيد تلك الشُّبه المغرضة أنْ أعرضَ عرضًا يسيرًا حالَ المرأةِ قبل الإسلام، وذكَرها في اليهودية والمسيحية، فأقول:

• يقولون إن المرأةَ هي المسئولةُ عن الخطيئة البشرية الأولى:

تقول قصّةُ الخَلْقِ في الكتاب المقدّس: إنَّ اللهَ لَمَّا خلقَ آدمَ وحوّاء وقد حرَّمَ عليهما أكل الفاكهة مِن الشجرةِ المحرَّمة وسوست الحيّةُ لحوّاء أنْ تأكلَ مِن هذه الشجرة المحرّمة، وحواء وسوست لآدمَ أنْ يأكل منها.

وعندما لامَ اللهُ آدمَ على ما فعلَهُ ألقى كل الذَّنْبِ على حوّاء: «فقالَ آدمُ: إنها المرأةُ التي جعلتها معي، هي أعطتني مِن الشجرةِ فأكلتُ»(١). وقال الإلهُ للمرأةِ: «تكثيرًا أكثر إتعاب حبلك. بالوجع تلدين أولادًا، وإلى رجلك يكون اشتياقُك وهو يسودُ عليكِ. وقال لآدم: لأنكَ سمعتَ لقولِ امرأتك، وأكلتَ مِن الشجرةِ التي أوصيتُك قائلًا: لا تأكل منها، ملعونةٌ الأرض بسببك. بالتعبِ تأكلُ منها كل أيّام حياتك»(٢).

وبغضِّ النظر عن تلك الآراء التي ذكرها علماء الكتاب المقدس حول سفر التكوين وما جاءَ فيه مِن روايات خلق السماوات والأرض والإنسان، وخطيئته الأولى وما تسبب عنها من طرده من الجنّة ـ والتي تجمع على مصداقية ما ورد في

(١) سفر التكوين، ٣: ١٢.
(٢) المصدر السابق، ٣: ١٦-١٧.

هذا السفر، فإنَّ مَا سبق إيراده يصوّرُ المرأةَ علىٰ أنّها المسئولةُ عن الخطيئةِ الأولىٰ، وما ترتّبَ عليها مِن شقاءٍ للبشـرية. فالمرأةُ عندهم شيطان الرجل؛ ولهذا جاء عقابُها مضاعفًا، وهو في حقيقة الأمر عقابٌ ماديٌّ يتمثل في متاعب حبلها الكثيرة، وولادتها بالوجع. وعقابٌ معنويٌّ تمثّل في تسلُّطِ الرُّجل عليها، فهو ليس شريكها ولا وهي مساوية له، بل سيّدها ومولاها: «لا تكونُ شريكةَ الرجل، ولا تساويه، بل تمسي فتنة الرجل، وهو يستعبدُها لتلدَ له الأولاد»(1).

تلك هي وجهة نظر اليهودية ومن بعدها المسيحية حول قصّة الخلق، وهذا هو تصورهم للمرأة ونظرتهم إليها. لكن ماذا بشأن الإسلام؟

لقد ذُكرت قصةُ بدءِ الخليقة في القرآن في غير موضع؛ منها قولُه تعالىٰ: ﴿ وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَـٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَـٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّـٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [**الأعراف، الآيات ١٩ - ٢٣**].

لم يقل النصُّ القرآنيُّ إنَّ حوّاء هي السبب في غواية آدم والبشرية مِن بعدِه، بل كانَ عادلًا ومنصفًا للمرأةِ، مبينًا أنَّ الشيطان هو الذي وَسْوسَ للاثنين معًا ـ آدم وحواء ـ وأنَّهما قد أكلا معًا مِن الشجرة ثُمَّ استغفرا الله فغفرَ لهما.

كذلكَ لم يفرّق النصُّ القرآنيُّ بين الرجل والمرأة، فكلاهما خلقٌ وعبيدٌ لله لا فرقَ بينهما، ولا فضل لأحدهما علىٰ الآخر إلا بتقواه وقربه مِن الله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ

(١) انظر: تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام: أحمد عبد الوهاب: القاهرة. مكتبة وهبة، ط١. ١٩٨٩م. ص١٩٠-١٩١.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات، الآية ١٣]. كما أنَّ آلامَ الحملِ وتعبه وولادتها بالوجعِ أمرٌ ورد في مفهوم الإسلام؛ فالقرآن يُقَرِّرُ حقيقةً ربّانية مثاليّة، تتمثلُ في أنَّ اللهَ لم يكن ليعاقب نفسًا بذنب نفسٍ أخرى: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾ [فاطر، من الآية ١٨].

وهنا يترددُ سؤالٌ ملحٌّ إلى الذهن، وهو: إنَّ إناث الحيوانات تحمل وتلد بمتاعب وأوجاع كثيرة، فهل يحدث لها ذلك بسبب خطيئة ارتكبتها جدّتها في الأزل؟ ثم أن هذه هي سنة الله في خلقه لكي يكثر النسل وتُعمر الأرض بالصالحين.

• يقولون: إن المرأةَ تَرِثُ ذنبَ حوّاء، وهي مجلبةٌ للعارِ:

لم تصوّر العقيدة اليهودية والمسيحية حوّاء على أنّها هي التي وَسْوست لآدم للأكل مِن الشجرة الملعونة فحسب، بل إنها جعلت مِن كل امرأة قادمة مِن نسل حوّاء وريثةً لذنب أمّها حواء؛ وبالتالي فهي ليست على خُلق ولا يُوثَقُ بها. بل يرون أن الطمث والحمل والولادة عقابٌ للمرأةِ على ذنبِ حوّاء الأبدي؛ ففي العهد القديم للكتاب المقدّس نجد: «فوجدتُ أمرَّ مِن الموت: المرأة التي هي شباك وقلبها إشراك ويداها قيود. الصالح قدام الله ينجو، أمَّا الخاطئ فيُؤخَذُ بها»(١).

كما نجد في الإنجيل الكاثوليكي: «لا يوجد خطيئةٌ يمكن مقارنتها بخطيئة المرأة، فأيُّ خطيئةٍ تكون وراءها امرأة، وبسبب المرأة سنموت جميعًا»(٢).

وذكر حاخامٌ يهوديٌّ تسعَ لعناتٍ على المرأةِ بسبب إغوائها لآدم وسقوطها مِن الفردوسِ: «على المرأةِ تسعُ لعنات ثم الموت: الطمث، ودم العذرية، وتعب الحمل، والولادة وتربية الأطفال، وتغطية رأسِها كأنّها في حداد، وتُخرم أذنها مثل الجارية، ولا يُؤْخَذُ بشهادتها، وبعد كل هذا الموت»(٣).

(١) جامعة ٧: ٢٦-٢٨.

(2) Ecclesiasticus 25: 19،24.

(3) Leonard J. Swidler، Women in Judaism: the Status of Women in Formative Judaism (Metuchen، N.J: Scarecrow Press، 1976) p. 115.

وحتىٰ الآن نرىٰ اليهود الأرثوذكس يقولون في صلاتِهم: «نحمدُ الله أننا لم نُخلق نساءً»، والنساء يقلن: «نحمدُ الله علىٰ أنّه خلقنا كما يشاءُ»(١).

ومعلومٌ في العقيدة المسيحية أنَّ حوّاء هي المسئولة عن خطيئتها وخطيئة زوجها الذي أغوته والخطيئة الأولىٰ لكل البشر، ومسئولة أيضًا عن موت ابن الإله الذي ضحّىٰ بالمسيح مِن أجل أن يغفر للبشرية تلك المعصية التي ارتكبتها حواء.

أمَّا بنات حوّاء فكلهن في نظر العقيدة المسيحية يتحملن ذنب أمهن حوّاء، ويجب أنْ يعاملن علىٰ أنهنّ مذنبات. يقول بول في العهد الجديد: «لتتعلم المرأةُ بسكوتٍ في كلِّ خضوع. ولكن لستُ آذنُ للمرأةِ أنْ تُعلِّمَ ولا تتسلّط علىٰ الرجل، بل تكون في سكوت؛ لأنَّ آدم كون أولًا ثُمَّ حواء، وآدم لم يغو لكنّ المرأة أغويت فحصلت في التعدّي»(٢).

بل ذهب بعضهم وهو ترتوليان إلىٰ أشدّ مِن ذلك، فقال وهو يخاطب النساء: «هل تعلمن أنّ كل واحدة منكنّ حوّاء، فما كتبه اللهُ عليكنّ ما زال مستمرًّا إلىٰ عصرنا هذا، والخطيئة مستمرة أيضًا. وأنتنَّ الباب الذي يدخل منه الشيطان، وأنتنّ السبب في خطيئة الشجرة المحرّمة، وأنتنّ أول مَن ارتكب معصية، وأنتنّ اللاتي أغوين آدم الذي لم يستطع الشيطانُ أن يغويَه. فأنتنّ دمرتنّ العلاقة بين الإنسانِ والربِّ، وبسبب معصيتكن قُتِلَ ابنُ الإله»(٣).

ويرىٰ القديس توماس أكويناس أنَّ المرأةَ بلا فائدةٍ، فيقول: «إنَّ المرأةَ لا فائدةَ لها، أمَّا الرجل فيُولَدُ صالحًا ويورث هذا البني جنسه، لكنَّ المرأةَ مشوبةٌ بالخطأ منذ ميلادها».

---

(1))(Thena Kendath‹ «Memories of an Orthodox youth»in Susannah Heschel‹ ed. On4- being a Jewish Feminist (New York: Schocken Books‹ 1983)‹ pp. 96-97.

(٢) تيموثاوس، ٢: ١١- ١٤.

(3) Karen Armstrong‹ The Gospel According to Woman (London: Elm Tree Books‹ 1986) pp. 52-62. See also Nancy van Vuuren‹ The Subversion of Women as Practiced by Churches‹ Witch- Hunters‹ and Other Sexists (Philadelphia: Westminister Press) pp. 28-30

وأخيرًا يرىٰ المصلح المشهور مارتن لوثر أنه لا فائدةَ للمرأة سوىٰ إنجاب الأبناء، فيقول عنهنّ: «إذا تعبن أو متن الأمر لا يهم. فليمتن بعد الولادة فهذه هي وظيفتهن»[١].

تلك هي نظرة العقيدة اليهودية والمسيحية إلىٰ المرأة، فهي مِن وجهة نظرهم مذنبة منذ القدم، ولا ينبغي أنْ تعامل إلا مِن خلال هذه النظرة الدُّونية لها.

كذلك نرىٰ أنَّ المرأةَ في اليهودية والمسيحية مجلبةٌ للعار منذ مهدِها الأول، فالمرأة إذا ولدت ذكرًا تكونُ نجسةً سبعة أيام فقط، أمّا إذا ولدت أنثىٰ فتظل نجسةً ضعف تلك المدّة، أي: مدة أسبوعين. «وكلَّمَ الربُّ مُوسىٰ قائلًا: كَلِّمْ بني إسرائيل قائلًا: إذا حبلت امرأةٌ وولدتْ ذكرًا تكونُ نجسةً سبعة أيّام، كما في أيّام طمثِ علّتها تكونُ نجسةً... ثم تقيمُ ثلاثةً وثلاثين يومًا في دم تطهيرها... وإنْ ولدت أنثىٰ تكونُ نجسة أسبوعين كما في طمثها، ثم تقيم ستّةً وستين يومًا في دمِ تطهيرِهَا»[٢].

ويقول الإنجيل الكاثوليكي بكل وضوح: «إنَّ ميلادَ الفتاةِ خسارةٌ»[٣]، بينما يمدح الرجل الذي يلد ذكرًا، فيقول: «الرجلُ الذي يُعلِّم ابنه الذكر فيحسده أعداؤه»[٤].

فالأنثىٰ تمثّل عبئًا ثقيلًا للأهل، كما أنّها مصدرٌ للخزي والعار لوالديها: «إنْ كانت ابنتُكَ عنيدةً فاحذر أنْ تُضْحِكَ عليكَ أعداءكَ، وتصبح محورًا لحديث أهل المدينة والثرثرة، وتجلب لك العار»[٥].

«يجب أنْ تكونَ صارمًا مع الفتاة العنيدة وإلا ستستغل تدليلَك لها وتتمادىٰ في الخطأ. كن حازمًا ولا تتعجب إذا جلبت العارَ لك»[٦].

---

(١) انظر: المرأة في الإسلام والمرأة في العقيدة اليهودية والمسيحية بين الأسطورة والحقيقة: شريف عبد العظيم. جمعية تبليغ الإسلام. ص١٠.

(٢) لاويين، ١٢: ١-٥.

(3) Ecclesiasticus 22: 3

(4) Ecclesiasticus 30: 3

(5) Ecclesiasticus 42: 11

(6) ()Ecclesiasticus 26: 10-11

ويأمر حاخامٌ يهوديٌّ اليهودَ أنْ يتكاثروا ليزيدَ عددُهم، لكنهم في الوقت نفسِه يظهرون تفضيلَهم للمرأة: «إنه خيرًا أنْ تنجبوا ذكورًا، لكنّه شرًّا أن تنجبوا إناثًا»، «الجميع يسعدون بميلادِ الذكور لكنهم يحزنون لميلادِ الإناث»، «عندما يُولَدُ الذكر يحلُّ السلامُ على الأرضِ، لكن عندما تُولد الأنثى فلا يحلُّ شيءٌ»(١).

فبالتأمل في تلك النظرة نرى أنّه لا اختلاف بينها وما كان سائدًا عند العرب قبل ظهور الإسلام؛ فقد كانوا يئدون البنات خشية العار والإملاق. ولقد شنَّ القرآن عليهم وعلى أمثالهم في غير موضع حملةً شديدةَ الوطء.

والأمر يختلف تمامًا في الإسلام، فالمرأة في الإسلام هي صنوُ الرجل وشريكته في هذه الدنيا، ولكلٍّ منهما مهام في هذه الحياة بحيثُ لا يمكن الاستغناء عن أحدهما بالآخر. وكلاهما سواء، فلا تؤخذ إحداهن بجريرةِ الأخرى. جاء ذلك في غير آية قرآنية، منها:

قال الله تعالى: ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ﴾[آل عمران، الآية١٩٥].

ويقول تعالى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا﴾ [النساء، الآية ١٢٤].

ويقول تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل، الآية ٩٧].

ويقول تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [غافر،الآية٤٠].

---

(١) انظر: المرأة في الإسلام والمرأة في العقيدة اليهودية والمسيحية بين الأسطورة والحقيقة، تأليف شريف عبد المنعم، جمعية تبليغ الإسلام، ص١٣، نقلًا عن: Swidler، op. cit.، p. 140.

ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية ٣٥].

وها هو رسولُ الإنسانيةِ ﷺ يعلنها صريحةً مدوّية، فيقول في حديثه الشريف: «إنما النساءُ شقائقُ الرجال»(١). فهن شقائق الرجال لا يكرمهن إلا كريم ولا يهينهن إلا لئيم.

فالمرأةُ مُرَحَّبٌ بها في الإسلام منذ مولدِها، بل اعتبرها هبةً مِن الله تماثل هبة الذكر تمامًا، بل يجعلها القرآنُ في الترتيب سابقةً للذكر. فإنجاب الإناث والذكور، أو عدم الإنجاب، هي أمورٌ بيد الخلّاق العليم القدير: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى، الآيتان ٤٩ – ٥٠].

كما أنَّ هذه الهبة تتطلبُ الحمدَ والشُّكرَ، وهذا لن يتأتّى إلا برعايتها وحسن استخدامها ومعاملتها. والزوجات والأبناء (ذكورًا وإناثًا) والحفدة من نعم الله التي تستوجبُ الشُّكر: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ [النحل، الآية ٧٢].

بل وصل الأمرُ لأكثر مِن ذلك؛ فنجدُ القرآنَ يُسفِّهُ أعداء الأنثى في كل زمانٍ ومكانٍ: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل، الآيتان ٥٨ – ٥٩].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٤٣/ ٢٦٤، حديث رقم (٢٦١٩٥)؛ وأبو داود ١/ ٦١، حديث رقم (٢٣٦).

ثُمَّ يخزيهم يوم القيامة ويعاقبهم علىٰ قتلهم البنات بغير ذنب جنينَه: ﴿ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [التكوير، الآيتان ٨ – ٩].

ويقول: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ [الأنعام، الآية ١٤٠].

• يقرّرون أنّه لا حقّ للمرأةِ في التَّعْليم:

ليس للمرأةِ حقٌّ في أنْ تدرسَ التوراةَ، كذا رأت اليهودية. بل صرَّحَ أحدهم «أنّه من الأفضلِ أنْ يحترقَ كتابُ التوراةِ عن أنْ تقرأَهُ امرأةٌ»، و«أنّه لا يحقُّ للرجل أنْ يُعلِّمَ ابنتَه التوراة»(١).

وفي رسالة القديس بولس الرسول إلىٰ أهل كورنثوس: «لتصمتْ نساؤكُم في الكنائس؛ لأنّه ليس مأذونًا لهنَّ أنْ يتكلَّمْنَ، بل يخضعنَ كما يقولُ الناموسُ أيضًا. ولكن إنْ كُنَّ يُردنَ أنْ يتعلَّمنَ شيئًا فليسألنَ رجالهنَّ في البيتِ؛ لأنّه قبيحٌ بالنساءِ أنْ تتكلَّمَ في كنيسةٍ»(٢).

فهذا النصُّ والذي قبلَه يُقيِّدُ حريّةَ المرأةِ في التعليم؛ فليس لها حقٌّ في أن تتعلّمَ التوراةَ، كما أنّه ليس مِن حقِّها أنْ تتعلّمَ مِن خلال الكنيسة، فالسبيلُ الوحيدُ لتعليمها هو زوجها بالمنزل.

لكنَّ الإسلامَ حضَّ منذ بداية الدعوة علىٰ حسن التربيةِ وطلب العلم للرجال والنساء علىٰ السَّواء، بل وللإماء والعبيد مع الحرائر والسادة سواء بسواء. بل إنَّ رسول الله ﷺ خصَّ النساءَ وتعليمهن بنصوصٍ خاصّة، تنمُّ عن تشجيع الإسلام وحضّه علىٰ تثقيف المرأة المسلمة.

مِن ذلك: قوله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: الرَّجُلُ تَكُونُ لَهُ الْأَمَةُ فَيُعَلِّمُهَا

(١) انظر: المرأة في الإسلام، ص١٥ Denise L. Carmody، «Judaism»، in Arvind Sharma، ed.، op. cit،p. 197.

(٢) كورنثوس، ١٤: ٣٤-٣٥.

فَيُحْسِنُ تَعْلِيمَهَا وَيُؤَدِّبُهَا فَيُحْسِنُ أَدَبَهَا ثُمَّ يُعْتِقُهَا فَيَتَزَوَّجُهَا فَلَهُ أَجْرَانِ، وَمُؤْمِنُ أَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِي كَانَ مُؤْمِنًا ثُمَّ آمَنَ بِالنَّبِيِّ ﷺ فَلَهُ أَجْرَانِ وَالْعَبْدُ الَّذِي يُؤَدِّي حَقَّ اللهِ وَيَنْصَحُ لِسَيِّدِهِ»[1].

وكانت النساءُ يحتشدن لسماع النبيِّ ﷺ والصلاة الجامعة معه من أجل التعلُّم، حتى إنَّ النبي ﷺ خصّص لهنَّ بابًا في مسجده الشريف، يُسمّى (باب النساء)[2].

- **يقولون: إنَّ المرأةَ الحائضَ دنسٌ تُدَنِّسُ ما حولَها:**

تصوّر النصوصُ والأحكام اليهوديةُ المرأةَ التي يُصيبُها المحيض بأنّها مُدنّسةٌ طوالَ فترة حيضِها، بل إنها تدنّسُ أيضًا مَا حولَها من أشياء: «وإذا كانت امرأةٌ لها سيلٌ، وكان سيلُهَا دمًا في لحمِها، فسبعة أيّام تكونُ في طَمْثِهَا. وكلُّ مَنْ مسَّها يكونُ نجسًا إلى المساءِ، وكلُّ ما تضطجعُ عليه في طمثِها يكونُ نجسًا، وكلُّ مَا تجلسُ عليه يكون نجسًا، وكلُّ مَنْ مسَّ فراشَها يغسلُ ثيابَه ويستحمُّ بماءٍ ويكونُ نجسًا إلى المساءِ، وكلُّ مَنْ مسَّ متاعًا تجلسُ عليه يغسلُ ثيابَه ويستحمُّ بماءٍ، ويكونُ نجسًا إلى المساء. وإنْ كانَ على الفراشِ أو على المتاع الذي هي جالسة عليه عندما يمسّه يكون نجسًا إلى المساءِ، وإن اضطجع معها رجلٌ فكان طمثُها عليه يكون نجسًا سبعةَ أيّام، وكلّ فراشٍ يضطجع عليه يكونُ نجسًا»[3].

بل إنّه يذهب إلى أبعدِ من ذلك؛ فيجعل الحكم نفسَه على المرأة المريضة بالنزيف أو نحو ذلك مِن غير طمثٍ: «وإذا كانت امرأةٌ يسيلُ سيل دمها أيَّامًا كثيرةً في غير وقت طمثها، أو إذا سالَ بعد طمثِهَا، فتكونُ كلّ أيام سيلانِ نجاستها كما في أيّام طمثها. كلُّ فراشٍ تضطجع عليه كلَّ أيام سيلها يكون لها كفراشِ طمثِها...»[4].

(١) صحيح البخاري ٤/ ٦٠، حديث رقم (٣٠١١).
(٢) انظر: تعدد نساء الأنبياء، ص٢٧٢.
(٣) لاويين، ١٥: ١٩-٢٤.
(٤) المصدر السابق، ١٥: ٢٥-٢٦.

وبسبب تلك النظرة للمرأة الحائض كانت تُنْفَىٰ أحيانًا لتجنب أي تعاملٍ معها، فكانت تُرسَل إلىٰ بيتٍ يُسمّىٰ (بيت الدّنَاسة) طوال فترةِ حيضِها[١].

وكان زوجُ المرأة الحائض يُمْنَعُ مِن دخولِ الكنيس اليهوديّ، لأنّه تدنَّسَ حتىٰ مِن الترابِ الذي تسيرُ عليه زوجتُه. والقديسُ الذي تكونُ زوجتُه أو ابنته أو أمه حائضًا لا يُسمح له بإلقاءِ الخطبةِ في الكنيسِ اليهودي[٢]!!

أمَّا الإسلامُ فلم يحكم علىٰ المرأة المصابة بحيضٍ أو نحوه هذا الحكم القاسي؛ فهو دينُ الإنسانية والاحترام. صحيحٌ أنَّ هذا العَرَضَ الذي يصيب المرأة هو أذًىٰ في حدِّ ذاته، غير أنّه لا يُصيّرُ المرأةَ نجسةً في ذاتِها، أو نجسة لما يحيط بها مِن متاع. وتتجلىٰ هذه الحقيقة في قوله ﷺ: «إنَّ المُسلمَ لا ينجس»[٣].

ويُصوّرُ القرآنُ مَا يُصِيبُ المرأةَ مِن حيضٍ، فيقول: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة، آية ٢٢٢]. أي: فيه أذى، ينبغي فيه على الرجال عدم مباشرة النساء. وليس المعنى ـ كما قد يفهم البعض ـ الاجتنابُ الكلّي للنساء وهجر المضجع، كما كان يفعل العرب قبل الإسلام، بل تجنب المباشرة لهن فقط، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾، ثُمَّ قوله تعالى في الآيـة التالية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَـٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة، الآية ٢٢٣].

وخيرُ دليل علىٰ ذلك قول ميمونة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «كان رسول الله ﷺ يصلي وأنا حذاءه، وأنا حائض وربما أصابني ثوبه إذا سجد»[٤].

---

(١) المرأة في الإسلام، ص١٧، نقلًا عن: Swidler، op. cit.، p. 137.

(٢) المصدر نفسه، نقلًا عن: Ibid.، p. 138.

(٣) متفقٌ عليه: البخاري ١/ ٦٥، حديث رقم (٢٨٣)؛ ومسلم ١/ ٢٨٢، حديث رقم (٣٧٢).

(٤) متفقٌ عليه: البخاري ١/ ٨٥، حديث رقم (٣٧٩)؛ ومسلم ١/ ٣٦٧، حديث رقم (٥١٣).

فالمرأةُ الحائض في الإسلامِ ليست نجسة أو تنجس ما حولها، فهي تمارسُ حياتها بشكلٍ طبيعيٍّ غير أنَّها تتجنَّبُ ممارسة الجماع وبعض العبادات في أثناء فترة حيضِهَا، مثلًا: الصوم، والصلاة، ومس المصحف، والطواف.

هذا عرضٌ موجزٌ لصورة المرأة في غير الإسلام، صورةٌ قاتمةٌ وظالمة لتلك المخلوقة التي كرّمها الله تعالى وساواها بالرجل، وجعلها شريكته وأمَّه وابنته. فكيف للقانون والعقائد الوضعية أنْ تجعلَها في هذه المرتبة السُّفلىٰ وقد كرّمها خالقُها سبحانه!!

وفيما يلي مناقشة وتفنيدٌ لتلك الشُّبهات التي أثارها أعداء الإسلام حول المرأة ودورها في المجتمع المسلم:

الشُّبْهَةُ الأولى: لماذا سمحَ الإسلام للرجل بتعدد الزوجات؟

رغم أنّ هذا يضـرُّ بالمرأة؟ ولماذا لم يسمح للمرأة أيضًا بتعدد الأزواج؟ أليست هذه عنصرية ظالمة؟!

والجواب عن هذا يشتملُ على جانبين:

الجانب الأول: لم يكن الإسلامَ مبتدعًا فيما سنّه مِن تعدّد الزوجات؛ فلقد جاء الإسلامُ والتعددُ موجودٌ عند العرب، ولم يكن محددًا بعددٍ مُعيّنٍ مِن الزوجات أو النِّساء. لكن لم يلبث أنْ نزلت آية التعدّد التي حدّدت عدد النساء إلىٰ أربع، يقول تعالىٰ: ﴿بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنتُمْ أُولَاءِ﴾ [النساء، الآية ٣].

قال الضحاك والحسن وغيرهما: «إن الآيةَ ناسخةٌ لما كان في الجاهلية وفي أول الإسلام؛ مِن أنَّ للرجلِ أَنْ يتزوج مِن الحرائر ما شاء، فقصرتهن الآيةُ علىٰ أربع».

كما أنَّ ثمة نصوصًا في الكتابِ المقدّس تدلُّ دلالةً واضحةً علىٰ وجود التعدّد والاعتراف به قبل ظهور الإسلام:

- «إذا كانَ لِرجلٍ امرأتان: إحداهما محبوبةٌ والأخرىٰ مكروهة، فولدتا له بنين، المحبوبةٌ والمكروهة...»[(١)].
- «أخذ عيسو نساءَه مِن بنات كنعان: عَدا بنت إيلُون الحِثّي، وأُهُولِيبَامة بنت عَنَىٰ بنت صعبون الحويّ، وبسمة بنت إسماعيل أخت نبايوت. فولدت عَدَا لعيسو أَليفاز، وولدت بسمة رعُوئيل، وولدت أُهُوليبامة: يَعُوش ويَعْلام وقُورح. هؤلاء بنو عيسو الذين وُلدوا له في أرض كنعان»[(٢)].
- وورد في العهد القديم أنَّ لداود عليه السلام العديدَ مِن الزوجات والجواري[(٣)].
- كما أوضحَ كيف يتمُّ تقسيم تركة الأب بين أبنائه مِن الزوجات المتعددة عدا الأم[(٤)]، وكيف أنّه حرّمَ علىٰ الرجل أنْ يتزوّجَ أخت زوجتِه في حياة الزوجة[(٥)].
- كما أنَّ المسيح عليه السلام لم يُحرّم تعدّدَ الزوجات بالرغم من أنّه كانَ منتشـرًا في المجتمع اليهوديّ آنذاك. وقد أكّدَ الأب هيلمان حقيقة أنَّ الكنيسةَ في روما منعت تعدّدَ الزوجات لتتبعِ اليونانية الرومانية التي كانت تسمحُ بزوجة شرعية واحدة وتقبل الزنىٰ، ويستشهد بقول القديس أوجستين: «ولنتبعْ في وقتنَا الحالي العادات الرومانية، فلا يُسمَح بزواج امرأةٍ ثانية»[(٦)].

ليس التعدّدُ في الإسلام فرضًا علىٰ كلِّ زوجٍ، ولكنّه مباحٌ لَمَنْ تيسّـرَ له. كما أنّ له مِن الأسرار والحكم ما لا يُدْركها إلا كلُّ عاقل: فمن المعلوم أنَّ عددَ

---

(١) تثنية، ٢١: ١٥.
(٢) تكوين، ٣٦: ٢-٥.
(٣) صموئيل ٢، ٥: ١٣.
(٤) تثنية، ٢٢: ٧.
(٥) لاويين، ١٨: ١٨.
(٦) المرأةُ في الإسلام، ص٤٦-٤٧، نقلًا عن: Ibid.، p. 17.

النساء يتزايدُ كلّ يوم، بينما يتضاءل عدد الرجال أمامهنّ، وهذا أمرٌ شائعٌ في معظم مجتمعات العالم، حتىٰ إن بعض الإحصائيات السكانية الأمريكية ذكرت أنه يوجد في الولايات المتحدة ثمانية مليون امرأة زيادة عن عدد الرجال.

وهذا أمرٌ طبيعي إذا وضعنا في اعتبارنا أنَّ نسبة وفيات الرجال في العالم أكثر مِن نسبة النساء؛ وذلك لتعرضهم للأمراض والحوادث الناجمة عن الأعمال الشاقة التي يقومون بها دونَ النساء والحروب ومخاطر المعيشة.

ولا شكَّ أنَّ مشكلةَ زيادة عدد النساء علىٰ الرجال تتفاقم وتظهر جليًّا وقت الحروب، كما حدث ـ علىٰ سبيل المثال ـ بعد الحرب العالمية الثانية، عندما زاد عدد النساء زيادةً رهيبة؛ حتىٰ أصبح هناك ٧,٣٠٠,٠٠٠ امرأة زيادة عن عدد الرجال، منهن ٣,٣ مليون أرامل. فما كان من بعضهن إلا أنْ أشبعن رغباتهنّ في الدول المجاورة الأخرىٰ، أمَّا البعض الآخر فقد عرضن أنفسهنّ أمام جيوش جنود التحالف المنتصرة، فكنّ يقمن علاقات غير شرعية مع الجنود الأمريكيين والبريطانيين الذين كانوا يدفعون ثمن متعتهم سجائر وشيكولاتة وخبز. ثُمَّ لم يلبث أن اختلطت الأعراق والأنساب، وانتشر اللُّقطاء بصورة ملحوظة، حتىٰ إنهم قُدّروا بحوالي خمسين مليونًا في أنحاء أوروبا الشرقية والغربية(١).

وهنا سؤالٌ يطرح نفسه، وهو موجّه إلىٰ كل صاحب فطرة سليمة: أيهما أكرم وأشرف لتلك المخلوقة التي خلقها الله تعالىٰ وكرّمها مِن فوق سبع سماوات: أنْ تصبحَ سلعةً مستهلكةً لكلِّ مَنْ يقدّم لها بعضَ المال، فتمارس الزنىٰ مع هذا، ثم لا تلبث أن تفعله مع آخر، ثم سريعًا ما ترتكبه مع ثالث. أمْ أنْ تقبلَ أن تصبحَ زوجةً ثانيةً لرجل يستطيع جيّدًا تحمّل تلك المسؤولية الكاملة؟ أيهما يُعَدّ انتهاكًا صارخًا في حق المرأة: أن تقبلَ زوجةً ثانية لزوجِها، أم الزنىٰ وفقًا لتلك العقيدة الإمبراطورية الرومانية؟!

---

(١) انظر: ردود علماء المسلمين علىٰ شبهات الملحدين والمستشرقين: محمد ياسين. القاهرة: مكتبة الإيمان، ط٢. ٢٠٠٩م. ص ١٤١؛ والمرأة في الإسلام، ص٤٩.

إنَّ مشكلةَ زيادة أعداد النساء في معظم مجتمعات العالم واحدةٌ مِن تلك الحِكَم في الإقبال على أنْ يكونَ للرجل الواحد أكثر مِن زوجة، ومِن تلك الحِكَم ـ أيضًا ـ أنَّ ثمّةَ حالاتٍ مرضيّةً تمنعُ الرجلَ مِن حقوقِه الشرعية، كوجود عذرٍ يمنعُ المرأةَ مِن المعاشرةِ الزوجية لفترة طويلة لا يطيقها الرّجل، أو أنْ تكونَ المرأة عقيمًا لا تستطيع الإنجاب للرجل.

كما أنَّ هناكَ الأرامل اللائي توفي عنهن أزواجهن، وكذلك المطلقات اللائي ليس لهنّ عائلٌ يقومُ بأعبائهنّ، أو النساء اللائي بلغ بهنّ السنّ مبلغَه وقد تفرّقَ عنهنَّ مَن يشاركهن الحياة. فالمرأة في تلك الأحوال جميعها في حاجةٍ إلى مَنْ يقومُ بمساعدتها ماديًّا ومعنويًّا أيضًا. فتوافر المال ليس هو الحل في كثيرٍ مِن الأحيان، بل هي تحتاج ـ أيضًا ـ لِمَنْ يعفّها، لا سيما إذا طُلِّقت أو مات عنها زوجها وهي لم تتجاوز سنّ الشباب بعد. وكذلك تحتاجُ المرأةُ إلى مَنْ يتحمل معها مسؤولية تربية الأطفال والصغار.

الجانب الثاني: وهو يتمثّل في سؤال المغرضين عن: لماذا لم يسمح الإسلام مِن باب المساواة بتعدّد الأزواج بالنسبة للمرأة، كما سمح ذلك للرجل؟

والحقيقة إنَّ هذا الأمرَ أمرٌ فطريٌّ معروفٌ بالبديهة، وتأباهُ كل فطرةٍ سليمة (رجلًا كان أو أنثى)، فالمرأةُ لا تسمحُ فطرتُها التي جُبِلَت عليها أَنْ تُبَاشَر مِن أكثر مِن شخصٍ في وقتٍ واحدٍ، وحتى وإن قبلت ذلك فإنَّ ذلك يؤدي بطبيعة الحال إلى اختلاطِ في الأنساب، فلا يعرف أحدٌ مَنْ هم أبناؤه ومَنْ هم أبناء غيره، ولَتصارعَ كلُّ واحد مِن هؤلاء الرجال في إثبات مَا يناسبُه مِن الأطفال لنفسه وإنْ كانَ ليس له ونفي مَا لا يُناسبه مِن الأطفال عن نفسه وإن كانَ له. كأنْ يتمسك أحدهم ويخصُّ لنفسه الذكور دون الإناث، أو يتنازع أحدهم في محاولة التمسك بالأذكى والأقوى، والتبرؤ ممّن سوى ذلك.

لذا كان الإسلامُ حكيمًا في أن حدَّد للمرأة فتراتٍ زمنيةً واضحةً، ثُمّ تنكحُ بعدها مَا تريد؛ وذلك لضمان عدم الاختلاط بين الأنساب. فجعل على المرأةِ

المطلقة مدة ثلاث حيضاتٍ، فقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ﴾ [البقرة، من الآية ٢٢٨]. أمَّا المرأةُ التي تُوفِّي عنها زوجُها فقد جعل الله عليها مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، فقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ ﴾ [البقرة، من الآية ٢٣٤][١].

الشُّبْهَةُ الثانية: لماذا يعامل الإسلام المرأة كأنّها سلعة؟

فيسمح للزوجِ أنْ يُطلّقَها وقتما يشاء؟ أليس في ذلك تخريبٌ للبيوت وتشريد للأطفال وإهانة للمرأة؟ ولماذا لا يسمحُ الإسلامُ للمرأةِ أن تطلّقَ زوجها مِن باب المساواة كما أباح للرجل ذلك؟

والإجابة عن هذه الشبهة تشتمل أيضًا على جانبَيْنِ:

الجانب الأول: حدّدَ الإسلامُ أساس الزواج ودعائمه القائمة على المودّة والرَّحمةِ، فقال تعالى: ﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةًۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢١ ﴾ [الروم، الآية ٢١]. وأمرَ الإسلامُ مِن خلال قرآن ربِّ العالمين، وسُنّةِ نبيّه الكريم ـ بِحُسْنِ الصُّحبة والعشرة بين الطرفين الرجل والمرأة، فقال تعالى في حقِّ النساء: ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩ ﴾ [النساء، من الآية ١٩]. وأوصى النساء بأنْ يحفظن أزواجهن ويجنبن ما يكرهون، فقال تعالى: ﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ [النور، من الآية٣١]، وقال أيضًا: ﴿ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ قَالَ ﴾ [النساء، من الآية ٣٤].

---

(١) يعدُّ تحديد تلك الفترة الزمنية مِن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم؛ فلقد أثبت العلم الحديث أنَّ لمنيِّ الرجل بصمةً داخل الرحم لا تزول إلا بعد ثلاث حيضات. أمَّا المرأة المتوفى عنها زوجها فيقولون إن حالة الاكتئاب والحزن التي تمرُّ بها تجعل البصمة لا تمرُّ إلا بعد ١١٨ يومًا. انظر: ردود علماء المسلمين على شبهات الملحدين، ص١٤٢.

كما أنّ القرآنَ رغَّبَ الرجل في عدم الإقبال على الطلاق لأمرٍ كرهه في زوجتِه، فقال: ﴿ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [النساء، من الآية ١٩]. فضلًا عن تحديده خطواتٍ يشرعها الزوج مع زوجته في سبيل إصلاحِ البَيْنِ، فيقول: ﴿ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا ﴾ [النساء، من الآية ٣٤]. فالخطوةُ الأولى هي وعظُ الزوجِ لزوجتِه، فإنْ لم تنصلح حالُها لجأ الزوجُ إلى الخطوة الثانية، وهي الهجر في المَضجع. وليس المقصودُ بهجر المضجع هنا أنْ يهجر الزوجُ بيتَه وعياله، وإنما المقصود به عدم مباشرة الزوجة بغرض الإصلاح، وليس بغرض الإضرار بها. وقد قال رسول الله ﷺ وقد سئل: مَا حقُّ الزوجة على الزوج؟ فقال: «أَنْ يُطْعِمَهَا إِذَا طَعِمَ، وَيَكْسوهَا إِذَا اكْتَسَى، ولاَ يَهْجرَ إلا في الْبَيْتِ، وَلا يَضْرِبَ الْوَجْهَ وَلاَ يُقَبِّحَ»[(١)].

فإن استقامت وصَلُحَ حالُها وإلا فيلجأ الزوجُ إلى الخطوة الثالثة وهي الضربُ غير المبرّح، قال رسول الله ﷺ: «فَاتَّقُوا اللهَّ في النِّسَاءِ؛ فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهَّ، واسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهَّ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لاَ يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ. فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ»[(٢)].

كذلك لم يقل الإسلامُ بالطلاق والتفريق بين الزوج وزوجته بعد فشل هذه الخطوات الثلاث، بل أوجدَ طريقًا آخر للإصلاح ينبغي أنْ يُسلَكَ قبل السعي في الطلاق، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴾ [النساء، الآية ٣٥].

(١) السنن الكبرىٰ للبيهقي ٧ / ٤٨٢، حديث رقم (١٤٧٢٦).
(٢) صحيح مسلم، حديث رقم (٣٠٠٩).

ثم يأتي بعد ذلك كلّه الطلاق الذي يصوّره رسولُ الإنسانية ﷺ بأنه أبغض الحلال إلىٰ الله، فيقول ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر: «أبغضُ الحلالِ إلىٰ الله الطلاقُ»(١).

فالطلاق في الإسلام إذن ليس مجرد كلمة عابرة يلقيها الزوج ولا يُلقي لها بالًا، بل إنَّ قبلَه قيودًا وخطواتٍ ينبغي أنْ يسلكها أولًا، وبعده التزامات وواجبات تجاه زوجته المطلّقة. وقد يكونُ ـ أي: الطلاق ـ الحلَّ الوحيد لإنقاذ الطرفَيْنِ مِن مغبّة أمورٍ كثيرة، يقول الله تعالىٰ: ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا ﴾ [النساء، الآية ١٣٠].

فالإسلامُ يُبيحُ بل يحثُّ المرأةِ المُطلّقةِ أنْ تتزّوجَ بعد طلاقِها، وكذلك الزوج المطلّق يحثه الإسلام علىٰ الزواج بعد طلاقِه.

وأمَّا الكتابُ المُقدّس فيحكم عليهما بالزنىٰ، كما يحكم بالزنىٰ ـ أيضًا ـ علىٰ مَنْ تزوّجَ الزوجة المطلّقة:

- «وقيلَ: مَنْ طلَّقَ امرأتَهُ فَلْيُعطِهَا كتابَ طلاقٍ. وأمَّا أنا فأقولُ لكم: إنَّ مَنْ طَلَّقَ امرأته إلا لِعلّةِ الزّنىٰ يجعلُها تَزْني، ومَنْ يتزوّجُ مُطلقةً فإنّه يزني»(٢).
- "مَنْ طلّقَ امرأتَهُ وتزوّجَ بأخرىٰ يَزْنِي عَليها، وإنْ طلَّقَتِ امرأةٌ زوجَها وتزَوّجت بآخر تَزْني»(٣).
- «كلُّ مَنْ يُطلّق امرأتَه ويتزوّج بأخرىٰ يزني، وكلُّ مَنْ يتزوجُ بمطلقةٍ مِن رجلٍ يَزني»(٤).

فالمسيحيةُ تمنعُ الطلاقَ منعًا مُطلقًا بين الزوجين، بل ويحكم عليهما ـ كما أوضحنا ـ بالزنىٰ في حالة الزواج بعد ذلك. أمَّا اليهوديةُ فإنّها تبيحُ الطلاقَ بسهولةٍ

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، حديث رقم (٢١٧٨)؛ وابن ماجه في سننه، حديث رقم (٢٠١٨)، والحاكم في المستدرك وصحّحه، حديث رقم (٢٧٩٤).

(٢) متّىٰ، ٥: ٣١-٣٢.

(٣) مرقس، ١٠: ١١- ١٢.

(٤) لوقا، ١٦: ١٨.

ويسر، يقول العهد القديم: «إذا أخذ رجلٌ امرأةً وتزوّجَ بها، فإن لم تجد نعْمةً في عَيْنَيْه لأنّه وجدَ فيها عيبَ شيءٍ، وكتبَ لها كتابَ طلاقٍ ودفعَه إلى يدِهَا وأَطْلَقَها مِن بيتِه، ومتى خرجَت مِن بيتِه ذهبت وصَارَتْ لرجل آخر، فإنْ أبغضها الرجلُ الأخيرُ وكتبَ لها كتابَ طلاقٍ ودفعَه إلى يدِها وأطلقَهاً مِن بيتِه، أو إذا ماتَ الرجلُ الأخيرُ الذي اتخذها له زوجةً، لا يقدرُ زوجُها الأوّلُ الذي طلّقَها أنْ يعودَ يأخذها لتصير له زوجةً بعد أنْ تنجَّسَت»[(١)].

ويفصّل التلمود اختلافَ الطوائف اليهودية حول الطلاق؛ فترى طائفةَ (شاماي) أنّه لا يحقُّ للرجل أنْ يطلّقَ زوجتَه إلا إذا كانت فاسقةً. أمَّا طائفةُ (هليل) فالرجل عندهم يستطيعُ أَنْ يطلّقَ زوجتَه كما يشاء، حتى ولو لمجرد أنّها أفسدت وجبة طعام. ويقول الحاخامُ عقيبا: إنّ الرجل يمكنه أنْ يُطلّقَ زوجتَه لمجرد أنّه وجد امرأة أجمل منها[(٢)].

الجانب الثاني: وهو المتعلّق بالإجابة عن السؤال: لماذا لا يسمحُ الإسلامُ للمرأةِ أن تطلّقَ زوجها -مِن باب المساواة- كما أباح للرجل ذلك؟

وهذا أمرٌ أساسه الجهل وعدم المعرفة الكافية برحابة الإسلام؛ فالإسلامُ دينٌ رحبٌ جُعِلَ لسعادة البشرية لا لشقائها. فهو لم يحكم على المرأة المُطلّقة بالزنى إذا تزوجت بآخر بعد تطليقِها كما نصَّ عليه كتابهم المقدّس؛ الأمر الذي يجعلها متحرجةً في طلبها للطلاق مهما تعرضت من ظروف.

أمَّا الإسلام فقد أباحَ للمرأةِ أنْ تطلبَ الطلاقَ مِن زوجِهَا متى استحالت الحياةُ بينهما، بل إنَّ الآيةَ نفسها التي أباحت للرجل طلاق زوجته أباحت للمرأةِ أيضًا الخُلْعَ. قال تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة، من الآية ٢٢٩].

---

(١) تثنية، ٢٤: ١-٤.

(٢) انظر: المرأة في الإسلام، ص٣١، نقلًا عن: التلمود Gittin ٩٠ b -a.

والخلعُ كما يعرفه الفقهاء هو فُرْقةٌ تجري بين الزَّوْجين علىٰ عوضٍ تدفعُه المرأةُ لزوجِهَا، بألفاظٍ مخصوصةٍ[(١)].

وقد ذكرت كتب السُّنّة النبوية أنَّ جميلة بنت أُبيّ بن سلول، امرأةَ ثابت بن قيس بن شماس، أتت النبيَّ ﷺ فقالت: يا رسولَ الله، ثابت بن قيس مَا أعتبُ عليه في خُلقٍ ولا دينٍ، ولكني أكرهُ الكفرَ في الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: «أتردّين عليه حديقته؟» قالت: نعم. فقال له رسول الله ﷺ: «اقبلِ الحديقةَ، وطَلِّقْهَا تَطْلِيقةً»[(٢)].

فمِن خلال نصِّ الآية القرآنية الكريمة وما تبيحه مِن افتداء المرأة لنفسها مِن أجل الخُلْع والفراق، وكذلك مِن خلال حديث رسول الله ﷺ، يتضحُ أنَّ الإسلامَ لم يمنع المرأةَ مِن طلب الطلاقِ مِن زوجها إذا كانَ هذا هو الحلَّ الوحيد لها، لكنّه في الوقتِ ذاته لا يبيحُ لها أن تطلبَ التطليقَ مِن غيرِ سببٍ شرعيٍّ لا يمكن معالجته، كأنْ يكون زوجها غير قادرٍ علىٰ قضاء وطرها منه، أو ضرّابًا شتّامًا، أو لا يستطيعُ الإنفاقَ عليها... إلىٰ غير مِن أسباب لا يمكن معالجتها في الزوجِ.

لكن الإسلامَ يحذرُ في الوقت نفسه أنْ تطلبَ المرأةُ الطلاقَ مِن غير سبب شرعيٍّ، فيقول رسولُ الله ﷺ في حديثِه النبويِّ: «أيُّما امرأةٍ سألت زوجهَا طلاقًا في غير ما بأسٍ، فحرامٌ عليها رائحةُ الجنّةِ»[(٣)].

وخلاصةُ القول: إنَّ الإسلامَ قد أقرَّ تعدّد الزوجات لحِكَم كثيرةٍ علمها الشارعُ عَزَّ وَجَلَّ من خَلْقِه، ورفض في الوقت ذاته مَا يُسمّىٰ بـ(تعدّد الأزْواج)، حفاظًا علىٰ كرامةِ المرأةِ أولًا، وضمانًا لتجنّب الاختلاطِ بين الأنسابِ وبعضِها البعض. كما جعلَ أبغضَ الحلالِ إلىٰ الله الطلاقَ وافتراق الزوجين، غير أنّه أباحه للزوجين

---

(١) انظر: الفقه الميسّر، لنخبةٍ مِن العلماء. المدينة المنورة: مجمع الملك فهد، ١٤٢٤هـ. ص٣١٠.

(٢) صحيح البخاري، ٧/ ٤٦، رقم (٥٢٧٣). والمرادُ بقولها: «أكره الكفر»، أي: أنْ أقعَ في أسبابِ الكفرِ مِن سوء العشرة مع الزوجِ ونقصانه حقَّه ونحو ذلك.

(٣) السنن الكبرىٰ للبيهقي ٧/ ٥١٧، حديث رقم (١٥٢٥٨). وكذا أخرجه أحمد، وأبو داود، والترمذي، وابن ماجه، والدارمي، وابن الجارود، وأبو يعلىٰ... وغيرهم.

إذا لم يكن ثمّة حلٌّ غيره. ولم يضيّق الإسلام على الزوجين بعد طلاقهما بل أباح لكلٍّ منهما الزواج مرة ثانية: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ [النساء، الآية ١٣٠]. ولم يحكم عليهما أو على مَنْ تزوّج المطلقة كما في الكتاب المقدّس بالزّنى.

الشُّبَهَةُ الثالثة: لماذا فرّق الإسلامُ بين الرجل والمرأة في الميراث؟ ولم يسوِّ بينهما، فجعل للذكر مثل حظ الأنثيين؟

- والجواب عن ذلك: إنَّ الإسلامَ جاءَ مُعليًا لحقوقِ المرأة ومثبتًا لها استقلالها الماديّ. وهو بذلك يختلفُ عمّا قبلَه من شرائع وأعراف:

يوضح الحاخام (إبستاين) أحكام ميراث المرأة في الكتاب المقدّس، فيقول: «منذ أنْ نزلَ الكتاب المقدّس والمرأة ـ الزوجة أو الابنة ـ ليس لها حقٌّ في الميراث؛ فالمرأةُ تُعتبر جزءًا مِن هذا الميراث ولا يحقّ لها أنْ ترثَ، مثلها مثل العبد. بينما القانون الموسويّ يسمحُ للبنات أنْ يرثنَ إذا لم يكن هناك أولادٌ، لكنّ الزوجة لا ترث أيضًا في هذه الحالة»(١).

وكذلك كان حالُ المرأةِ في مرحلة ما قبل الإسلام؛ كانَت المرأةُ لا ترثُ، بل كانت تُورّثُ كأيِّ متاع، فكانت إذا ماتَ عنها زوجُها يأتي أحدُ أقربائه ممّن يرثون فيُلقي عليها ثوبَه فتكونُ ملكًا له بذلك. يقولُ ابن عبّاس: «كانَ الرجلُ إذا ماتَ وتركَ جاريةً ألقى عليها حميمُه ثوبَه فمنعَهَا مِن الناس، فإن كانت جميلةً تزوّجها، وإنْ كانت ذميمةً حبسها حتى تموتَ فيرثَها». وعنه أيضًا: «أنَّ رجالًا مِن أهل المدينةِ كان إذا مات حميمُ أحدهم ألقى ثوبَه على امرأته فورث نكاحَها، فلم ينكحها أحدٌ غيرَه، وحبسها عنده حتى تفتديَ منه بفدية»(٢).

(١) المرأة في الإسلام، ص٤١. نقلًا عن: Epstein، Op. cit.، p.175.

(٢) الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي. القاهرة - دار هجر، ط١. ٢٠٠٣. ج٤، ص٢٨٦ ـ ٢٨٧.

وجاءَ القرآنُ مبطلًا لهذا الأمر، ومحذرًا المؤمنين مِن تلك العادة السيئة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ﴾ [النساء، من الآية ١٩].

كما أقرَّ الإسلامُ حقَّ المرأةِ في الميراث في غير موضعٍ من القرآن الكريم؛ منها قـولـه تعالىٰ:

﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾ [النساء، الآية ٧]. قال سعيدُ بن جبير وقتادة: «كانَ المشـركون يجعلون المالَ للرجالِ الكبارِ، ولا يورثون النساء ولا الأطفال شيئًا، فأنزلَ اللهُ الآيةَ»(١).

فالأمُّ والزوجة والبنت والأخت حصلن جميعًا علىٰ حقوقهن الكاملة في الميراث، ولقد فصّل القرآن في مقـدار هـذا الميراث وقسّمه تقسيمًا عـادلًا في سورة النسـاء، وبـخاصة في الآيات (٧، ١١، ١٢، ١٧٦) من السورة المذكورة.

أمَّا مَا دارَ مِن شبهاتٍ ظالمة حول قوله تعالىٰ: ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَـٰدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ﴾ [النساء، من الآية ١١]، فإنَّ مَنْ يقرأ هذا الحكم دونَ أنْ يضعَ في ذهنه أمورًا والتزاماتٍ أخرىٰ منوطة بالرجل فإنه قد يبدو له أنّه حكمٌ ظالِم. وتعالىٰ الله وتنزَّهَ وتقدَّس مِن أنْ يظلمَ عبادَه الذين خلقهم بيده، وجعلهم خلفاء في الأرض.

فالمرأةُ لا تخرجُ عن كونِها أُمًّا، أو زوجةً، أو بنتًا، أو أختًا، وهي في جميع الحالات ليست عليها أي نفقات ولو علىٰ نفسها، وإنما ذلك لوليّها المسئول عنها؛ وهو لا يخرجُ عَنْ أن يكونَ الأب، أو الزوج، أو الأخ، أو الابن. وهو في ذلك كلّه مسئولٌ مسئولية شرعية علىٰ مَنْ يعولُ من النساءِ. فالرجلُ يمهرُ زوجتَهُ مهرًا واجبًا بطيبِ نفس، ويحقُّ للزوجةِ أنْ تفعلَ به مَا تشاءُ؛ فهو مِلْكٌ لها لا يحقُّ لوليّها أن يأخذه منها، ولا يحق لزوجِها أيضًا أنْ يستردّه منها، اللهمَّ إلَّا إذا أرادت الزوجة أنْ تتصدقَ علىٰ

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: مصطفىٰ السيد وآخرين. القاهرة ـ مؤسسة قرطبة، ط١. ٢٠٠٠م، ٣/ ٣٥٩.

زوجها ببعضه. قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ﴾ [النساء، الآية ٤].

ثُمَّ إذا طُلِّقت المرأةُ فلها مؤخّر الصداقِ (إن لم تأخذه)، ونفقة مطلقة، ونفقة متعة، بالإضافة إلى أحقيتها في أثاث بيت الزوجيّة.

وبجانب مسئولية الرجل الكاملة على الإنفاق فإنَّه أيضًا محطُّ التكليفِ في أمورٍ لم يلزمها الله تعالى على المرأة؛ فهو مُكلَّفٌ على سبيل المثال بالسعي والتجارة، وطلب العلم، والجهاد في سبيل الله. الأمر الذي يجعله في أشدّ الاحتياج للمال دون المرأةِ[١].

الشبهة الرابعة: لماذا تصرون على ارتداء المرأة للحجاب؟

مع أنّ هذا لا يعني تديّنها، ولا يضمن لها السلامةَ الخُلقية، وقد رأينا نماذج فاسدة ممّن يرتدين الحجاب؟

- يعتبر الحجابُ في الإسلام أحدَ التدابير الوقائية التي شُرِعت مِن أجل منع وقوعِ الفتنةِ بين الرجالِ والنساء مِن جهةِ الشَّهوة. وهو في اللغة: المنعُ من الوصول؛ يُقَالُ: حَجَبَه، أي: منعَه حجْبًا وحجابًا، وامرأة محجوبة: قد سُتِرت بسترٍ[٢]. وهو في الشرع: «ساترٌ يستُر الجسمَ فلا يشف، ولا يصف»، أو هو «حجبُ المرأةِ المسلمةِ مِن غير القواعدِ مِن النساءِ عن أنظارِ الرجال غير المحارم لها»[٣]. قال تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا

(١) انظر: ردود علماء المسلمين على شبهات الملحدين، ص١٤٧-١٤٨.

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م، مادة (ح.ج.ب).

(٣) أدلة الحجاب: محمد أحمد إسماعيل المقدم. القاهرة: دار الإيمان، ٢٠٠٢م. ص٧٦.

﴿عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [سورة النور، الآية ٣١].

ويعتقدُ الكثيرُ مِن العوامِّ والغربيين أنَّ حجاب المرأة هو نظامٌ ابتدعَه الإسلام، وأنّه لم يكن موجودًا قبل الإسلام في الجزيرة العربية، ولا في غيرها مِن الأماكن. وهذا مِن الخطأ بمكانٍ. فنظرةٌ إلى العهدين: القديم والحديث وأقوال الحاخامات اليهودية تنبئنا أنَّ الحجابَ كان معروفًا بين العبرانيين؛ من عهد إبراهيم الخليل ﷺ، إلى ما بعد ظهور النصرانية:

- «ورفعت (رِفْقة) عينيها فرأت إسحاق، فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد: مَنْ هذا الرجلُ الماشي في الحقلِ لِلقائنا؟ فقال العبد: هو سيّدي. فأخذت البُرقع وتغَطّت»(١).
- «فأُخبرت ثامار وقيل لها: هو ذا حمُوكِ صاعدٌ إلى تمنةَ ليَجُزَّ غنمَه. فخلعت عنها ثياب ترمُّلِها، وتغطَّتْ بِبُرْقعٍ»(٢).
- وورِدَ في سفر أشعياء أنَّ الله سيُعاقبُ بناتِ صهيون على تبرجهنّ والمباهاة برنين خلاخيلهنّ بأنْ ينزعَ عنهنّ زينةَ الخلاخيل والضفائر والأهلّة والحِلَق والأساور والبراقع والعصائب(٣).
- وورِدَ في رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس: «أريدُ أنْ تعلموا أنَّ رأسَ كلِّ رجلٍ هو المسيح، وأمَّا رأسُ المرأةِ فهو الرجلُ... وأمَّا كلُّ امرأة تُصلّي أو تتنبأُ ورأسُها غيرُ مُغطّى فتشينُ رأسَها؛ لأنّها والمحلوقة شيءٌ واحدٌ بعينه، إذ المرأةُ إنْ كانت لا تتغطى فليُقصّ شعرها. وإن كانَ قبيحًا بالمرأةِ أنْ تقصَّ أو تحلق فلتتغَطّ»(٤). ويقول في موضعٍ آخر:

---

(١) سفر التكوين، ٢٤: ٦٤-٦٥.
(٢) السابق، ٣٨: ١٣-١٤.
(٣) أشعياء، ٣: ١٦-٢٦.
(٤) كورنثوس: ١١: ٣-٦.

«احكموا في أنفسكم: هل يليقُ بالمرأةِ أنْ تُصليَ إلىٰ الله وهي غير مغطّاة؟»(١).

- ويقولُ الحاخام د.(ميناخيم إم برايرِ) أستاذ العلوم التوراتية في جامعة يشيـڤـا، في كتابه «المرأةُ اليهودية في العلوم الحاخامية»: «إنَّ المرأةَ اليهودية اعتادت أنْ تخرجَ واضعةً غطاء علىٰ رأسها، والذي كان أحيانًا يُغطّي الوجه بأكمله ما عدا عينًا واحدةً»(٢).

وقد عرفَ العربُ الحجابَ وسترَ الوجه قبل الإسلام وإنْ كانَ كشفُ القناعِ هو أغلب حالات فتيات العرب آنذاك وأدلة ذلك كثيرة؛ منها:

- أنّه في حرب الفِجَار الثانية نشبَ صراعٌ كان سببُه عبث بعض شباب من قريش وكنانة بامرأةٍ مِن بني عامر بن صعصعة كانت بسوق عكاظ، فأرادوا منها أنْ تكشفَ وجهها وتخلعَ برقعها، فثارت ونادت: (يا آل عامر)، ونادىٰ الشبابُ قومهم، فالتحموا في القتال(٣).

- ذُكر أنَّ النابغة الذبياني (أحد فحول الشعر الجاهلي) مرّت به امرأةُ النعمانِ المسماة بـ«المتجردة» في مجلسٍ، فسقط نَصِيفُها -أي: برقعها- الذي كانت قد تقنّعت به، فسترت وجهَها بذراعيها، وانحنت علىٰ الأرض ترفعُ النَّصيف بيدها الأخرىٰ، فطلبَ النعمانُ مِن النابغة أنْ يصف هذه الحادثة في قصيدةٍ، فعمل القصيدةَ التي مطلعها:

أَمِنْ آلِ ميّةَ رائحٌ أو مُغتدي ... عجـلانَ ذا زادٍ وغير مُزوّدِ

(١) السابق، ١١: ١٣.

(٢) المرأة في الإسلام، ص٥٤. نقلًا عن: Menachem M. Brayer، The Jewish Woman in Rabbinic Literature: A Psychosocial Perspective (Hoboken، N.J: KtavPublishing House،1986) p. 239.

(٣) انظر: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: جواد علي. بيروت: دار الفكر العربي. ط٢. ١٩٩٣م. ٥/ ٣٨١.

إلىٰ أن قال (وهو موضع الشاهد):

سَقطَ النَّصيفُ ولَمْ تُرِدْ إِسْقاطَهُ فَتَنَاولَتْهُ، واتَّقتنَا باليدِ[١]

إذن فحجابُ المرأةِ ليس بدعًا في الإسلام، بل هو موجودٌ في كتب أهل الكتاب، وكان موجودًا ـ أيضًا ـ عند العرب قبل الإسلام. لكنّ معناه في الإسلام والهدف منه يختلفُ اختلافًا جوهريًّا عمّا هو موجودٌ في اليهودية والمسيحية؛ فالحجابُ في الإسلام علىٰ غير رأي العقيدة المسيحية ليس دليلًا علىٰ سلطة الرجل علىٰ المرأة أو خضوعها له. وهو أيضًا علىٰ عكس العقيدة اليهودية ليسَ دليلًا علىٰ الانتماء لطبقةٍ معينة. بل هو دليلٌ علىٰ العفّةِ والكرامةِ لحماية كُلّ النساء المسلمات مِن كُلِّ سوءٍ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب، الآية ٥٩]. فالقرآنُ حريصٌ كلّ الحرصِ على حماية المرأةِ وحماية سمعتها، كما شدّدَ العقوبات على كل مَنْ ينالُ سمعة امرأةٍ فاضلة بسوءٍ أو مكروهٍ: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [النور، الآية ٤]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور، الآية ٢٣].

أمَّا مَا يتشدّقُ به أعداءُ الإسلامِ مِن أنَّ هناكَ مِن النساء ممن يرتدين الحجاب تصدر منهنّ أعمال تنافي الأخلاق فإنَّ هذا الأمرَ لا يشينُ الحجابَ أيضًا بل يشين تلك المرأة التي ادّعت التديّن والعفاف. فالإسلامُ «كما يأمر المرأةَ بالحجاب، يأمرها أنْ تكونَ ذات خلقٍ ودينٍ؛ فهو يُربّي مَنْ تحتَ الحجاب قبل أنْ يُسْدَلَ عليها الجلباب، ويقول لها: ﴿وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف، من الآية ٢٦]، حتىٰ تصلَ إلىٰ قمّة ويطيرُ بجناح واحد تكون كمَنْ يمشي علىٰ رِجْل واحدةٍ الطهر والعفاف، قبل أن تصل إلىٰ قمّةِ السترِ والحجاب، فإذا اقتصرت امرأةٌ علىٰ أحدهما دون الآخر تكون كمَنْ يمشي علىٰ رِجْلٍ واحدةٍ، أو يطيرُ بجناحٍ واحد»[٢].

---

(١) أدلة الحجاب، ص٨٨-٨٩.

(٢) أدلة الحجاب، ص٤٥٤-٤٥٥.

ومعلومٌ بالضرورةِ أنَّ الاستثناءَ والقليل يؤيّدان القاعدة والكثير، ولا ينفيانها.

أمَّا ما يدّعيه البعضُ مِن أنَّ عفّة الفتاة حقيقةٌ كامنةٌ في ذاتها، وليس غطاءً يُلقىٰ ويُسدل علىٰ جسمِها، وأنَّ كم مِن فتاةٍ متحجبة في ظاهرها وهي فاجرةٌ في سلوكِها، وكم مِن فتاةٍ حاسرة الرأس سافرة الوجه لا يعرفُ السوءُ سبيلًا إلىٰ نفسها أو سلوكها!!.

ففي هذه الشُّبهة بعضُ الصواب، إلا أنّ وراءها طويّة خبيثةٌ تهدفُ إلىٰ السفور والعري؛ فإنَّ الحجاب وحده لا يكفي كفاية كاملة لطهارة التي ترتديه، بل لا بدّ معه مِن طهارة النفس والجوارح أيضًا.

ويدفع الدكتور محمد سعيد البوطي هذه الشُّبهة فيقول: «إنَّ هذا صحيحٌ؛ فما كان للثياب أنْ تنسجَ لصاحبِها عفّةً مفقودة ولا أنْ تخلقَ له استقامةً معدومةً. ورُبَّ فاجرةٍ سترت فجورَهَا بمظهر سترها، ولكن مَنْ هذا الذي زعمَ أنَّ الله إنما شرعَ الحجابَ لجسم المرأةِ ليخلق الطهارة في نفسِها أو العفّةَ في أخلاقِهَا؟ ومَنْ هذا الذي زعمَ أنَّ الحجابَ إنما شرعَه الله ليكونَ إعلانًا بأنَّ كلَّ مَنْ لم تلتزمه فهي فاجرة تنحطّ في وادي الغواية مع الرجال؟

إنَّ الله ﷻ فرض الحجابَ علىٰ وجه المرأةِ محافظة علىٰ عفّةِ الرجال الذين قد تقعُ أبصارُهم عليها، لا حفظًا علىٰ عفّتها من الأعين التي تراها! ولئن كانت تشترك معهم هي الأخرىٰ في هذه الفائدة في كثيرٍ مِن الأحيان، فإنَّ فائدتهم مِن ذلك أعظم وأخطر. وإلا فهل يقول عاقلٌ تحت سلطان هذه الحجة المقلوبة إنّ للفتاة أنْ تبرزَ عاريةً أمام الرجال كلِّهم ما دامت ليست في شكٍّ مِن قوّةِ أخلاقِها وصدق استقامتها؟!»[1] فهل تصدق هذا القول الذي يقولونه.

(١) إلىٰ كل فتاةٍ تؤمن بالله: محمد سعيد البوطي. دمشق: مكتبة الفارابي، ط٤. ١٩٧٥. ص٩٧-٩٨.

• الشبهة الخامسة: لماذا تحجرون على المرأة وترغمونها على عدم العمل وتولّي المناصب المختلفة؟ ثم تدّعون بعد ذلك مساواتها بالرجل؟!

- ابتداءً ينبغي أنْ نوضّحَ جيدًا مَا هو المقصود بالعمل ولماذا يعملُ الإنسان؟ فالعمل هو كلُّ جهد يبذله الإنسان في هذه الحياة مِن أجل سدِّ ما يحتاجُ إليه مِن طعام وشراب ولباس ومسكن ونحو ذلك. وتعتبرُ الحكمَةُ في مشروعية العمل هي تحصيل مَا يحتاجُ إليه الإنسان مِن أسباب العيش، فإذا تـوافرَ للإنسانِ ذلك كله كـان العملُ في حقّه مباحًا، له أنْ يعملَ ليزدادَ كسبًا، وله أنْ لا يعملَ لأنّ عنده مَا يكفيه لسدِّ متطلبات ومقتضيات معيشته[1].

وكما ذكرنا - سابقًا - فإنَّ المرأةَ مكفولة ومكفيّة المؤونة في جميع الأحوال؛ فنفقتها وأولادها - إن كانت متزوجة - على زوجِها، سواءٌ كانت فقيرةً أم غنيّةً، فإن لم تكن متزوجةً فنفقتها على أبيها إن لم تكن ذات مالٍ، فإنْ لم يكن لها أبٌ فعلى أخيها أو مَنْ تلزمه نفقتها. فحينئذٍ يكونُ العملُ مباحًا في حقِّ المرأةِ إذا لم يكن لديها ما ذكرنا.

لكننا ينبغي أنْ نضعَ في أذهاننا أمرًا مهمًّا ولا نغفله، وهو أنَّ المباح لا ينبغي له أنْ يلغي الواجب. فإذا قلنا: إن العملَ مباحٌ في حقِّ المرأة التي تجدُ مَنْ يتكفلها مِن زوجٍ أو أب أو أخ أو نحو ذلك، فإنَّ ثمّةَ واجباتٍ لا ينبغي أنْ تُلْغَىٰ في خضمِّ هذا المباح. فمِن واجباتِ المرأة القيام بأعمالِ البيتِ ومَا تتطلبُه الحياة الزوجية مِن واجبات يجب الوفاء بها، وكذا القيام علىٰ شئونِ أولادها وخدمتهم وتربيتهم التربية المثلىٰ حتىٰ يكونوا أداةً فاعلة في بناء المجتمع. ولا شكَّ أنَّ كلّ هذه الواجبات - التي لا تحقّر ولا تقلل مِن قيمة المرأة ودورها في المجتمع - تحتاج إلىٰ جهد كبيرٍ ووقت كثيرٍ ربما لا تجدُ المرأةُ بعده وقتًا كافيًا للعمل في أشياء أخرىٰ.

---

(١) انظر: المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية: عبد الكريم زيدان. بيروت: مؤسسة الرسالة، ط١. ١٩٩٣م. ٤/ ٢٦٥.

فالإسلام لم يمنع المرأةُ مِن العمل خارجَ بيتِها، لكنه في الوقت نفسه يعقد لها مقارنةً بين أمرين: بين مَا هو مُباحٌ (وهو العمل)، وما هو واجب (وهو القيام بأعبائها تجاه زوجها وأولادها ونحوهم).

وعلىٰ جانبٍ آخر ينبغي أن نعترفَ بأنَّ طبيعة التكوين النفسي والفسيولوجي للمرأة يعيقها كثيرًا عن العمل خارج المنزل، فنظرةٌ إلىٰ ما يعتري المرأة مِن حيضٍ وحملٍ وولادة تبرهن لنا إلىٰ أنَّ عملَ المرأة خارجَ بيتِها يعتبر تعطيلًا لعملها الأصلي ذاته، كما يصطدمُ مع فطرتها وتكوينها الفسيولوجي:

- فخلال الحيض مثلًا تتعرض المرأة لآلام شديدة:

أ- فتصاب أكثر النساء بآلام وأوجاع في أسفل الظهر وأسفل البطن.

ب- ويصاب أكثرهن بحالة من الكآبة والضيق في أثناء الحيض، وتكون المرأة عادة متقلبة المزاج قليلة الاحتمال، كما أن حالتها العقلية والفكرية تكون في أدنىٰ مستوىٰ لها.

ج- وتصاب بعض النساء بالصداع النصفي قرب بداية الحيض، فتكون الآلام مبرحة، تصحبها زغللة في الرؤية.

د- ويميل كثيرٌ من النساء في فترة الحيض إلىٰ العزلة والسكينة؛ لأن هذه الفترة فترة نزيف دموي من قعر الرحم، كما أن المرأة تُصاب بفقر الدم الذي ينتج عن هذا النزيف.

هـ- وتصاب الغدد الصماء بالتغير، فتقل إفرازاتها الحيوية المهمة للجسم، وينخفض ضغط الدم ويبطؤ النبض، وتصاب كثير من النساء بالدوخة والكسل والفتور في أثناء فترة الحيض.

- وأما خلال فترة الحمل والنفاس والرضاع فتحتاج المرأة إلىٰ رعاية خاصة، حيث ينقلب كيانها خلال فترة الحمل فيبدأ الغثيان والقيء. وتعطي الأم جنينها كل ما يحتاج إليه من مواد غذائية مهضومة جاهزة، ويسحب كل ما يحتاج إليه من مواد

لبناء جسمه ونموه، حتىٰ ولو ترك الأم شبحًا هزيلًا يعاني من لين العظام ونقص الفيتامينات وفقر الدم.

وتضطرب نفسية الأم عادة، وتصاب في كثير من الأحيان بالقلق والكآبة؛ لذلك يجب أن تحاط بجو من الحنان والبعد عن الأسباب التي تؤدي إلىٰ تأثرها وانفعالها، وتنصح بعدم الإجهاد. ويحث الأطباء الأمهات علىٰ أن يرضعن أولادهن أطول مدة ممكنة، وفي أغلب الأحوال لا تزيد هذه المدة عن ستة أشهر نتيجة للحياة النكدة التي يعيشها الإنسان في هذا الزمان[1].

وكما قلت فإن كلامي هذا لا يعنىٰ ـ أبدًا ـ التقليل مِن قيمةِ المرأة ودورها في بناء الأسرة، فلو لم يكن لها دورٌ في الحياة غير توفير جو الزوجية النديّ بالمودّة والرحمة، المغلّف بحسن العشرة ودوام الألفة، وتحقيق هذا السَّكن الذي أشار إليه الله تعالىٰ في قولِه: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ [الروم، مِن الآية٢١]. أقول: لو لم يكن للمرأة دورٌ غير هذا لكفاها شرفًا وفخرًا. فهي السكنُ الذي يأوي إليه الزوج بعد كدّه ونَصَبه، وهي الملاذُ الذي يلجأ إليه إذا ناءَ كاهله بالأعمال، وهي الدافعُ له مِن أجل مواصلة العمل. والمرأةُ العاملة إن لم ينعدم منها هذا السّكن والهدوء النفسي فلا أقلَّ مِن أنّه يضعف كثيرًا.

ويُستثنىٰ مِن ذلك النساء اللاتي لا يجدنَ مَنْ يقوم بأعبائهنّ، كالأرملة التي لا تجد من يعيلها وأطفالها وأمثالها. فحينئذٍ يجوزُ لها الخروج إلىٰ العمل بضوابط وأصول، بقدر مَا يسدُّ ضرورتها مِن طعام وشراب ولباس ومسكن ونحو ذلك، وتنصُّ القاعدة الشرعية علىٰ أنَّ الضروراتِ تبيحُ المحظورات. ويعترفُ الغربُ بالسلبيات الناجمة عن عمل المرأة الغربية وهجرها لبيتها، بل ويتمنىٰ بعض مفكريهم أنْ لو عاش في مجتمع عربي مسلمٍ يقدّس الحياة الزوجية، ويضعُ المرأةَ موضِعَها اللائق بها:

(١) انظر: المرأة بين الجاهلية والإسلام: محمد الناصر، وخولة درويش، ص٢٢٥-٢٢٦.

- يقول الإنجليزي (ساموئيل سمايلس) وهو أحد أركان النهضة الإنجليزية: «إن النظام الذي يقضي بتشغيل المرأة في المعامل، مهما نشأ عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته كانت هادمة لبناء الحياة المنزلية؛ لأنه هاجم هيكل المنزل، وقوض أركان الأسرة، ومزق الروابط الاجتماعية، فإنه بسلبه الزوجة من زوجها والأولاد من أقاربهم صار ـ بنوع خاص ـ لا نتيجة له إلا تسفيل أخلاق المرأة، إذ وظيفة المرأة الحقيقية هي القيام بالواجبات المنزلية، مثل: ترتيب مسكنها، وتربية أولادها، والاقتصاد في وسائل معيشتها، مع القيام بالاحتياجات البيتية، ولكن المعامل تسلخها من كل هذه الواجبات بحيث أصبحت المنازل غير منازل، وأضحت الأولاد تَشِبُّ على عدم التربية وتلقى في زوايا الإهمال، وطفأت المحبة الزوجية، وخرجت المرأة عن كونها الزوجة الظريفة القرينة المحبة للرجل، وصارت زميلته في العمل والمشاقِّ، وباتت معرضة للتأثيرات التي تمحو غالبًا التواضع الفكري والأخلاقي الذي عليه مدار حفظ الفضيلة»[1].

- وتقول الكاتبة الشهيرة أنارورد: «لأن يشتغل بناتنا في البيوت خوادم أو كالخوادم خير وأخف بلاء من اشتغالهن في المعامل؛ حيث تصبح البنت ملوثة بأدران تذهب برونق حياتها إلى الأبد. ألا ليت بلادنا كبلاد المسلمين، فيها الحشمة والعفاف والطهارة رداء الخادمة والرقيق، يتنعمن بأرغد عيش، ويعاملن كما يعامل أولاد البيت، ولا تمس الأعراض بسوء. نعم، إنه لعار على بلاد الإنجليز أن تجعل بناتها مثلًا للرذائل بكثرة مخالطة الرجال، فما بالنا لا نسعى وراء ما يجعل البنت تعمل بما يوافق فطرتها الطبيعية من القيام في البيت وترك أعمال الرجال للرجال سلامة لشرفها؟!»[2].

فلقد وجدنا في أمريكا وأوروبا وبلاد الغرب أجسادًا بلا أرواح، رأينا الحياة المادية في أعلى صورها، رأينا أبناءً لا أب لهم، رأينا الفتاة تخرج من بيت أبيها تتسكع

(١) انظر: المرأة بين الفقه والقانون: دكتور مصطفى السباعي. بيروت: المكتب الإسلامي. ص٢٠٢.

(٢) المرجع السابق، ص١٧٨.

وليس لوالدها كلمة، رأينا الشذوذ والزواج بالحيوانات وبمباركة قانونية، رأينا من يأخذ والديه ويرميهما في ملجأ العجزة، رأينا مجتمعات لا يوجد بينهما روابط عاطفية أو رحمة إلا ما كان بقوة القانون، رأينا أسرًا مفككة واختلاطًا مقيتًا، رأينا من يتبرع لكلبه بماله بمباركة قانونية، رأينا في الغرب أنهم يعيشون علىٰ ما سلبوه من شعوب العالم المسكين وأولهم العرب، رأينا في الغرب أكثر نسب الانتحار والجريمة والاغتصاب، رأينا أسلحة مدمرة لم يستخدموها إلا علىٰ العرب والمسلمين، رأينا المثليين، رجل يتزوج برجل، رأينا التعديل الجيني الذي يتحول فيه رجل إلىٰ امرأة، وامرأة تتحول فيه إلىٰ رجل.

- ثم يأتي أحدهم ليقول: رأيت إسلامًا ولم أر مسلمين، فلا تنبهر بالتقنية المسلوبة من أدمغة العالم الفقير وبعقول المسلمين.
- فبأي عين ترىٰ؟؟!!
- كن منصفا.
- كفانا تقزمًا أمام عملاقٍ هشٍ آيلٍ للسقوط..................
- ويقول الفيلسوف براتراندرسل: «إن الأسرة انحلت باستخدام المرأة في الأعمال العامة، وأظهر الاختبار أن المرأة تتمرد علىٰ تقاليد الأخلاق المألوفة، وتأبىٰ أن تظل أمينة لرجل واحد إذا تحررت اقتصاديًّا»(١).

ورغم ذلك كلّه فإنَّ هذا لا يتنافىٰ مطلقًا مع وجود نماذج وشخصياتٍ نسائية مبرَّزة في مجال العلم والسياسة والحكم في مختلف العصور الإسلامية، قلّما يوجد مثلها في مجتمعات الغرب.

نماذج مشرقة مِن نساء الإسلام

فإن القارئ لكتب الطبقات وتراجم العلماء يجدُ أنَّ كثيرًا منهم قد أخذ العلم عن عالمات محدّثات كُنَّ يملأن طباق الأرض علمًا؛ أمثال:

---

(١) المرجع السابق، ص١٧٩.

- **فخر النساء شُهْدة بنت أحمد بن الفرج الدينورية (ت ٥٧٤هـ)**: عالمة فاضلة، وكاتبة مجيدة، ذات دينٍ وصلاح. وقد أخذت عن علماء عصرها ببغداد، وعنها أخذ ابن الجوزي، وعلي بن هبة الله الشافعي، وعبد اللطيف بن محمد سبط التعاويذي، وبهاء الدين عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسي.. وغيرهم[١].

- **حبيبة بن عبد الرحمن بن محمد المقدسية (ت ٧٣٣هـ)**: روت عن شيوخ عصرها وأخذت منهم الإجازة، وأخذ عنها الكثير من العلماء، منهم: الإمام الحافظ شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي وذكرها في معجمه «معجم الشيوخ الكبير»، كما أخذ عنها العلامة المؤرخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي وذكرها في معجمه «أعيان العصر». وهي مِن بيت علم؛ لم يأخذ الذهبي عنها وحدها، وإنما أخذ على أخواتها وكن عالماتٍ أيضًا خديجة وزينب، إذ يقول: «قرأتُ على حبيبة وخديجة وزينب بناتُ عبد الرحمن...»[٢].

- **عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعونية الدمشقية (ت ٩٢٢هـ)**: عالمةٌ جليلةٌ، وشاعرةٌ كبيرةٌ. أجيزت في القاهرةِ بالإفتاء والتدريس، ثُمَّ أخذت في التأليف حتى اجتمع لديها طائفة كبيرة مِن المؤلّفات والأشعار. مِن مؤلفاتها: «الدر الغائص في بحر المعجزات والخصائص»، و«الإشارات الخفية في المنازل العلية»، وهي أرجوزة اختصرت فيها «منازل السائرين» للهروي، وأرجوزة أخرى لخصت فيها «القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع» للسخاوي. وغير ذلك مِن مؤلفات وأشعار[٣].

وفي مجال السياسة والحكم وتولي المناصب الإدارية برز عددٌ غير قليل مِن الشخصيّات النسائية البارزة التي كان لها كبيرُ أثر في المجتمع الإسلاميّ آنذاك، مِن هؤلاء:

---

(١) أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام: عمر رضا كحالة. بيروت: مؤسسة الرسالة. ج٢، ص٣٠٩-٣١٢.

(٢) معجم الشيوخ الكبير للذهبي، تحقيق: محمد حبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٩٨٨، ١: ٢١٩؛ أعيان العصر ٢: ١٨٠ ـ ١٨١.

(٣) أعلام النساء، ٣/ ١٩٦-١٩٧.

- **الخيزُران بنت عطاء، زوجة الخليفة العباسي المهدي (ت ١٧٣ هـ)**: وهي تعدُّ من أوائل النساء اللاتي اتصلن بالحكم؛ فلقد استطاعت التأثير على زوجها وجعل ولديها موسى الهادي وهارون الرشيد وليين للعهد واحدًا تلو الآخر، الأول سنة ١٦٠ هـ، والثاني سنة ١٦٦ هـ. ولقد برز الدور الأكبر لها بعد وفاة زوجها (سنة ١٦٩ هـ)، وخاصة أن ولديها كانا بعيدين عن بغداد، فاجتمعت بالوزراء وأمرتهم ببذل الأموال في الجيش لضمان ولائه لحين عودة ولي العهد إلى عاصمة الخلافة(١).

- **ستُّ الملك بنت العزيز بالله الفاطمي (ت ٤١٥ هـ)**: وهي صاحبة النفوذ والسلطان والسياسة والرأي. استطاعت أن تدير شئون الإمبراطورية الفاطمية مدة أربعة أعوام (٤١١ ـ ٤١٥ هـ) باسم الظاهر ابن أخيها الحاكم بأمر الله، الذي اتهمت في قتله(٢).

- **ضيفة خاتون بنت الملك العادل (ت ٦٤٠ هـ)**: كانت من أصحاب الرأي والكمال، تزوجها الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين يوسف (صاحب حلب)، بعد وفاة أختها مَلَكة. ومات عنها الظاهر سنة ٦١٣ هـ، فملك حلب مكانه ابنها الملك العزيز محمد، ولمّا مات ابنُها سنة ٦٣٤ هـ ملكت ضيفة خاتون حلب إلى أنْ كبرَ الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد، بعد أنْ دبرت الحكم أحسن تدبير(٣).

- **بنت الشهاب أحمد بن سراج الدين، المعروف بابن الصائغ الحنفي الطبيب (ق١١ هـ)**: ذكرها المحبّي - ولم يصرح باسمها - عند الترجمة لأبيها ابن الصائغ الحنفي (ت١٠٣٦ هـ)، الذي مات عن مشيخة الطب بدار الشفاء المنصوري ورئاسة الأطباء، قال: «ولم يُعْقِبْ إلا بنتًا، وتولت مكانه مشيخة الطب»(٤).

---

(١) الكامل في التاريخ، لابن الأثير، ٥/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤، ٢٥٠، ٢٧٢ ـ ٢٧٣

(٢) أعلام النساء، ٢/ ١٦٦-١٧٠.

(٣) موسوعة شهيرات النساء: خليل البدوي. عمّان: دار أسامة للنشر، ط١. ١٩٩٨م. ص١٦٢.

(٤) خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: محمد أمين بن فضل الله المحبي. بيروت: دار صادر. ج١، ص٢٠٣.

وختامًا؛ فهذه طائفةٌ مِن أحوال المرأةِ في الإسلام بالمقارنة مع أحوالها في غير الإسلام، ودفعٌ لبعضِ الشُّبه التي أثارتها بعض النفوس المريضة بهدف زعزعة يقين الإنسان وفطرته التي خلقه الله عليها. ولا شكَّ أنَّ كلَّ عقلٍ منصفٍ يسعىٰ إلىٰ الحقيقة لا إلىٰ الجدل والارتياب يوقن جيدًا كيف أخرجَ الإسلامُ المرأةَ مِن ظلمات الشرك والجهل والعبودية، فكرّمها في كلِّ شيء، حتىٰ جعلها شريكة الرجل ونصف المجتمع. وأكبر مثل لنا لتعذيب المرأة في دينها هي آسية بنت مزاحم فقد تعذبت لأنها أسلمت لله وحده وهي زوجة فرعون الذي يدعي أنه الرب وهو فرعون وقد قال تعالىٰ: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر، الآية ٤٦].

وقد أغرقه الله في البحر وجعله آية. وآسية بنت مزاحم وهي التي قال عنها النبي ﷺ: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا ثلاث: آسية امرأة فرعون،



صور لرجل حاج يحمل والدته على ظهره لأداء مناسك الحج وذلك امتثالا لأوامر ديننا الحنيف.

ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام». كما جاء في الصحيحين من حديث أبي موسى ﵁، هذه المرأة التي قدر لها أن تنقذ موسى ﷺ من القتل دون كل أطفال بني إسرائيل في عصر فرعون وأن تصدقه رسولًا وتؤمن بالله الواحد وهي في بلاط فرعون الملك المتأله. وكانت آسية امرأة فرعون تعذب في الشمس، فإذا انصرف عنها أظلتها الملائكة بأجنحتها، وقد كان فرعون يعذبها عذابًا شديدًا وفي حال التعذيب عندما ألقى على صدرها صخرة عظيمة قد قالت: «رب ابن لي عندك بيتا في الجنة ونجني من فرعون وعمله



رجل يحمل والده على كتفه وهو يتوكأ على عصاه وحمله على ظهره لتخفيف التعب عليه امتثالًا لأوامر ديننا الإسلامي

ونجني من القوم الظالمين» فكشف لها هذا البيت في الجنة فسهل عليها التعذيب وقبض الله روحها – تفسير ابن كثير – وقد أنزل الله تعالىٰ في حقها قرآنًا يتلىٰ إلىٰ أن يرث الله الأرض ومن عليها، فقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم، الآية ١١].

هذه هي مكانة المرأة في الإسلام، هي الأم والأخت والابنة والزوجة، وهي التي أوجب الإسلام علىٰ الرجل أن يقدرها وأن يصونها، وخير مثال علىٰ ذلك ما نصت عليه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة من بر للوالدين، وهو ما يحرص عليه المسلمون حرصا عمليا تطبيقيا ملموسا في حياتنا اليومية.

والمرأة التي قد تكون أما أو أختًا أو زوجة أو ابنة، قال الله تعالىٰ في شأنها وفي شأن الأب بوصفهما الوالدين: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء، الآية ٢٣].

قال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾﴾ [الإسراء، الآية ٢٣].



المحور الرابع

مِن لسانك وليس لساني

قال تعالى: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللّهِ فَإِنَّ اللّهِ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ ﴾[آل عمران، الآية ١٩].

قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران، الآية ٨٥].

«لن يكونَ هُناكَ سَلامٌ بينَ الأُمم مَا لم يكن هُناكَ سَلامٌ بين الأديان. ولن يكون هُناكَ سلامٌ بين الأديان مَا لَم يكن هناك حوارٌ بين الأديان» عالم اللاهوت الألماني: هانز كونج(١)

---

(1) Hans Kung: Project Weltethos،p.171، Munchen 1990.
وبالطبع قوله مخالف، فالدين عند الله الإسلام، منذ آدم عليه السلام حتى آخر الأنبياء والرسل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم.

مِن لسانك وليس لساني

لايزال الغربيون القدامى والمحدثون يشهدون للإسلام شهادات عدل وإنصاف حتى ازدحمت بذلك صفحات الكتب، وليس هناك بد من أن نذكر نماذج منها:

١ـ حديث هرقل(١)

(١) (هرقل) هو ملك الروم، وهرقل: اسمه، وهو بكسر الهاء وفتح الراء وسكون القاف، ولقبه قيصر، كما يلقب ملك الفرس: كسرىٰ ونحوه في الحديث دلالة علىٰ أن هرقل كان يتحقق أنه لا يسلم من القتل إن هاجر إلىٰ النبيﷺ، واستفاد ذلك بالتجربة كما في قصة ضغاطر الذي أظهر لهم إسلامه فقتلوه. وللطبراني من طريق ضعيف عن عبد الله بن شداد عن دحية في هذه القصة مختصرًا، فقال قيصر: أعرف أنه كذلك، ولكن لا أستطيع أن أفعل، إن فعلت ذهب ملكي وقتلني الروم. وفي مرسل ابن إسحاق عن بعض أهل العلم أن هرقل قال: ويحك، والله إني لأعلم أنه نبي مرسل، ولكني أخاف الروم علىٰ نفسي، ولولا ذلك لاتبعته. لكن لو تفطن هرقل لقولهﷺ في الكتاب الذي أرسل إليه: «أسلم تسلم» وحمل الجزاء علىٰ عمومه في الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل ما يخافه. ولكن التوفيق بيد الله تعالىٰ. قوله «لغسلت عن قدميه» مبالغة في العبودية لطلب رضاء الرب وتصديق نبوته. زاد عبد الله بن شداد عن أبي سفيان: «لو علمت أنه هو لمشيت إليه حتىٰ أقبل رأسه وأغسل قدميه». وهي تدل علىٰ أنه كان بقي عنده بعض شك. وزاد فيها «ولقد رأيت جبهته تتحادر عرقًا من كرب الصحيفة» يعني لما قرئ عليه كتاب النبيﷺ. وفي اقتصاره علىٰ ذكر غسل القدمين إشارة منه إلىٰ أنه لا يطلب منه – إذا وصل إليه سالمًا – لا ولاية ولا منصبًا، وإنما يطلب ما تحصل له به البركة. وقوله: «وليبلغن ملكه ما تحت قدمي»، أي: بيت المقدس، وكنىٰ بذلك لأنه موضع استقراره. أو أراد الشام كله؛ لأن دار مملكته كانت حمص. ومما يقوي أن هرقل آثر ملكه علىٰ الإيمان واستمر علىٰ الضلال أنه حارب المسلمين في غزوة مؤتة سنة ثمان بعد هذه القصة بدون السنتين، ففي «مغازي ابن إسحاق»: «وبلغ المسلمين لما نزلوا معان من أرض الشام أن هرقل نزل في مائة ألف من المشركين»، فحكىٰ كيفية الوقعة. وكذا روىٰ ابن حبان في «صحيحه» عن أنس أن النبيﷺ كتب إليه أيضًا من تبوك يدعوه، وأنه قارب الإجابة، ولم يجب. فدل ظاهر ذلك علىٰ استمراره علىٰ الكفر، لكن يحتمل مع ذلك أنه كان يضمر الإيمان ويفعل هذه المعاصي مراعاة لملكه وخوفًا من أن يقتله قومه. إلا أن في مسند أحمد أنه كتب من تبوك إلىٰ النبيﷺ: إني مسلم. فقال النبيﷺ: «كذب، بل هو علىٰ نصرانيته». وفي كتاب «الأموال» لأبي عبيد بسند صحيح من مرسل بكر بن عبد الله المزني نحوه، ولفظه فقال: «كذب عدو الله، ليس بمسلم». فعلىٰ هذا =

حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع، قال: أخبرنا شعيب عن الزهري، قال: أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، أن عبد الله بن عباس أخبره، أن أبا سفيان بن حرب أخبره أنّ هرقلَ أرسل إليه في ركبٍ من قريش، وكانوا تجارًا بالشام، في المدة التي كان رسول الله ﷺ. مادَ فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيلياء بفلسطين، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه، فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال أبو سفيان: فقلت: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه مني، وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إني سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذبني فكذبوه؛ فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذبًا لكذبت عنه. ثم كان أول ما سألني عنه أنْ قال: كيف نسبُه فيكم؟ قلت: هو فينا ذو نسب. قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا. قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا. قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم. قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتدّ أحدٌ منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا. قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا. قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها. قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئا غير هذه الكلمة. قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم. قال: فكيف كانَ قتالُكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال مِنّا وننالُ منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا اللهَ وحدَه ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا مَا يقولُ

=إطلاق صاحب «الاستيعاب» أنه آمن -أي: أظهر التصديق -لكنه لم يستمر عليه ويعمل بمقتضاه، بل شح بملكه وآثر الفانية على الباقية. وقد دخل الإسلام ما تحت قدمي هرقل وهي الشام بأكملها وقد كذَّب النبيُ هرقلَ حينما قال كذب بإسلامه وهو على النصرانية، وصدق هرقل حينما قال: سوف يملك ما تحت قدمي وقد ملكها، وقد كانت في زمن النبيﷺ دولتان كبيرتان دولة الفرس ودولة الروم، فدولة الروم أرسل لهم النبيﷺ ما تم ذكره ودولة الفرس أرسل لهم كتابًا إلى ملكهم كسرى فمزق كتاب النبيﷺ، فدعا عليه النبي بأن يمزق الله ملكه فقالﷺ: «مزق الله ملكه كما مزق كتابي، أما إنه ستمزقون ملكه، وبعث إلي بتراب، أما إنكم ستملكون أرضه». فكان كما قال ﷺ. المناقب: ج١ ص٧٩، فصل استجابة دعواته ﷺ.

آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والزكاة، والصِّدْقِ، والعَفافِ، والصِّلَةِ. فقال للترجمان: قُلْ لَهُ: سألتُك عن نسبِه فذكرتَ أنه فيكم ذُو نسبٍ، فكذلك الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نسبِ قومِها. وسألتك: هَلْ قالَ أحدٌ منكم هذا القول؟ فذكرتَ أَنْ لا، فقلتُ: لو كان أحدٌ قال هذا القول قبله لقلتُ رجل يأتسي بقولٍ قِيلَ قَبْلَهُ. وسألتُكَ هَل كان مِن آبائه مَن مَلَكَ، فذكرتَ أَنْ لَا، قلتُ: فلو كان من آبائه مَنْ ملكَ قلتُ: رَجلٌ يطلبُ مُلْكَ أبيه. وسألتك: هَلْ كنتُم تتهمونه بالكذب قبل أَنْ يقول ما قال؟ فذكرتَ أَنْ لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذرَ الكذبَ على الناس ويكذب على الله. وسألتك أشرافُ النَّاسِ اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرتَ أَنَّ ضعفاءَهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل. وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمرُ الإيمانِ حتى يتمَّ. وسألتك: أيرتدُّ أحدٌ سخطةً لدينه بعد أنْ يدخل فيه؟ فذكرت أنْ لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشتَه القلوبُ. وسألتك: هل يغدر؟ فذكرتَ أَنْ لا، وكذلك الرسل لا تغدر. وسألتك: بمَا يأمركم؟ فذكرت أنّه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإنْ كانَ مَا تقول حقًّا فَسَيَملِكُ موضعَ قدميَّ هاتين. وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشّمت لقاءه، ولو كنتُ عنده لغسلتُ عن قدمه. ثم دعا بكتاب ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى، فدفعه إلى هرقل، فقرأه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم، سلام على مَن اتبع الهدى. أما بعد؛ فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك اللهُ أجرك مرتين، فإنْ توليتَ فإنَّ عليك إثم الأريسيين، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران، الآية ٦٤].

قال أبو سفيان: فلما قال ما قال، وفرغ من قراءة الكتاب كَثُرَ عنده الصّخبُ وارتفعت الأصواتُ وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا: لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة؛ إنه يخافه ملك بني الأصفر، فما زلت موقنًا أنه سيظهر حتىٰ أدخل الله علي الإسلام. قال: وكان ابن الناظور صاحب إيلياء وهرقل أسقفًا علىٰ نصارىٰ الشام يحدث أن هرقل حين قدم إيلياء أصبح يومًا خبيث النفس، فقال بعض بطارقته: قد استنكرنا هيئتك! قال ابن الناظور: وكان هرقل حزاء ينظر في النجوم، فقال لهم حين سألوه: إنّي رأيتُ الليلةَ حين نظرتُ في النجوم ملك الختان قد ظهر، فمَنْ يختتن من هذه الأمة؟ قالوا: ليس يختتن إلا اليهود فلا يهمنك شأنهم، واكتب إلىٰ مدائن ملكك فليقتلوا مَن فيهم مِن اليهود. فبينما هم علىٰ أمرهم أتىٰ هرقل برجل أرسل به ملك غسان يُخبر عن خبر رسول الله ﷺ، فلما استخبره هرقل قال: اذهبوا فانظروا: أمختتن هو أم لا؟ فنظروا إليه، فحدثوه أنه مختتن، وسأله عن العرب. فقال: هم يختتنون. فقال هرقل: هذا ملك هذه الأمة قد ظهر. ثم كتبَ هرقل إلىٰ صاحبٍ له برومية، وكان نظيره في العلم، وسار هرقل إلىٰ حمص، فلم يرم حمص حتىٰ أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل علىٰ خروج النبي ﷺ، وأنه نبي، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص، ثم أمر بأبوابها فغلقت، ثم اطّلع فقال: يا معشر الروم هل لكم في الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم؟ فتبايعوا هذا النبي، فحاصوا حيصة حمر الوحش إلىٰ الأبواب فوجدوها قد غلقت، فلما رأىٰ هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبرُ بها شدتكم علىٰ دينكم، فقد رأيت. فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل. رواه صالح بن كيسان، ويونس ومعمر عن الزهري[١].

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ١/ ٨، حديث رقم (٧).

٢ـ الشاعر الألماني جوتة والإسلام[1]:



«إذا كان الإسلام يعني الخضوع لله.... فإننا جميعًا نحيا ونموت في الإسلام»

اعتنق عددٌ كبير من الغربيين دينَ الإسلام في العقود الأخيرة؛ حيث اطمأنت نفوسهم إليه، وسكنت جوارحُهم فيه، ولا شكَّ أنَّ الأخلاق الحسنة التي يتحلّى بها خيارُ المسلمين الذين اتخذوا من الغرب مقرًّا لهم، إلى جانب الصحوة الإسلامية واستغلالها لوسائل الإعلام الحديثة، قد لعبا دورًا كبيرًا في نشر الإسلام.

وفي المقابل يواصلُ بعضُ المسلمين انبهارَهم بسلبيات المدنية الغربية دون إيجابياتها، فكلما أفرزت ضربًا من ضروبها ذلت أعناقهم له خاضعين؛ لذا رأيت لفت أنظارهم نحو موقفٍ وقفه أديب أوروبي من الإسلام في عصر غاصت بلدان

---

(١) مجلة الرابطة «مجلة شهرية تصدر عن رابطة العالم الإسلامي؛ العدد (٥٢٧) يونيو ٢٠١٠م.

المسلمين في مستنقعات الجهل والظلام، لكنَّ نورَ الشريعة المحمدية اخترقَ قلبَه فصدح بالحق.

لقد كان الشاعر الألماني العظيم جوته نموذجًا فريدًا لبعض مفكري أوروبا الغربية، الذين اتخذوا موقفًا راشدًا من الإسلام في القرن التاسع عشر. وسنبين في السطور التالية بعضًا من قناعاته وآرائه.

اهتم كثير من الأدباء العرب بالشاعر الألماني جوته في القرن العشرين؛ فقد قام جورج مطران بترجمة أحد أعماله، وهو رواية (آلام فيرتر) من النص الفرنسي إلىٰ اللغة العربية، ثم أعاد أحمد حسن الزيات ترجمتها مرة أخرىٰ. وقام محمد عوض بترجمة (فاوست) من الأصل الألماني إلىٰ اللغة العربية[1].

تسعىٰ جماعة في مدينة فايمار الألمانية إلىٰ إعادة تسليط الأضواء مجددًا علىٰ علاقة جوتة بالإسلام. وتتألف تلك الجماعة من بعض سكان فايمار الألمان الذين اعتنقوا الدين الإسلامي. وكانت تلك المدينة موطن جوتة الثاني بعد فرانكفورت. وقد أصدرت الجماعة فتوىٰ اعتبرت جوتة مسلمًا وأطلقت عليه اسم «محمد».

ولو صح ذلك فإنه لأمر جدير بالاهتمام حقًا، حيث إن جوتة يعد أعظم الشعراء الألمان بل الأوروبيين علىٰ الإطلاق، وهو رمز يفتخر به الشعب الألماني، لكن غالبية الأوروبيين لا يعرفون شيئًا عن موقفه من الإسلام، وربما يتحاشىٰ كثير منهم مجرد البحث في ذلك الموضوع.

إلَّا أن كونه مسلمًا أمر فيه نظر، حيث إنه لم يعلن ذلك بنص صريح، كما أنه لم يمارس شعائر الإسلام، ولا عذر له في ذلك. ونبدأ هذا البحث بعرض مجمل عن حياة الشاعر وموقفه من الأديان.

سيرة جوتة هو يوهان فولفغانغ فون جوتة Johann Wolfgang von Goethe (ت ١٨٣٢م). وهو أعظم الشعراء الألمان علىٰ حد تعبير الموسوعة البريطانية. ولد

(١) المصدر السابق.

في فرانكفورت الواقعة على نهر ماين عام (١٧٤٩). وفي عام (١٧٦٥) انتقل إلى لايبستغ Leipzig لدراسة الحقوق بأمر من والده. وخلال إقامته فيها اكتسب القدرة على كتابة قصائد غنائية تناسب أذواق علية القوم في لايبستغ آنذاك.

وفي عام (١٧٧٠) أصيب بمرض مفاجئ طرحه في الفراش، فعاد إلى فرانكفورت قبل أن يتم دراسته. وفي تلك الأثناء عكف على دراسة الفلسفة والكيمياء والفلك ومال إلى التصوف الديني. وسرعان ما أرسله والده في العام نفسه إلى مدينة ستراسبورغ الفرنسية ليتم دراسته، فتخرج عام (١٧٧١) في كلية الحقوق وعاد إلى بلده ومارس مهنة المحاماة(١).

وفي عام (١٧٧٥) انتقل إلى مدينة فايمار التي أصبحت مقر إقامته Weimar الجديد. وكان عمله الرسمي جانبيًّا بالنسبة إلى نشاطاته وأعماله الأدبية والفكرية. وقد زار روما في عام (١٧٨٦ و١٧٨٨) وبعد عودته إلى فايمار ارتبط بفتاة شابة تدعى كريستيانة فولبيوس (١٧٦٥: ١٨١٦) وأنجبت له ولدًا عام (١٧٨٩) سماه أوغوست، ولم يتزوجها إلا في عام (١٨٠٦) خلال الغزو الفرنسي.

وقد خلف جوتة وراءه عشرات من المؤلفات الأدبية، وأهم ما يعنينا منها الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي west oestliche divan الذي استوحاه من الترجمة الألمانية لديوان الشاعر الفارسي حافظ الشيرازي؟

موقفه من الأديان:

قد آثر جوتة أن يهجرَ الاضطرابات السياسية والفكرية في الغرب، فلجأ إلى الشرق وتراثه، ودرس الأدبين: العربي والفارسي، كما أعجب بشدة بالقرآن الكريم، وتأثر بسيرة الرسول محمد ﷺ، وهجرته من مكة إلى المدينة، وبقصة يوسف عليه السلام، وغير ذلك من التراث والثقافة الإسلامية.

وكان جوتة قد بعث وهو في الثانية والعشرين من عمره رسالةً إلى أحد

---

(١) المصدر السابق.

أصدقائه قال له فيها: «إنني أود أن أدعوَ الله كما دعاه موسىٰ في القرآن: رب اشرحْ لي صدري». كما أنه أبدىٰ إعجابه الشديد بالنبي إسماعيل عليه السلام، حيث رأىٰ في مولده «تدبيرًا من العلي القدير»، وأن ملائكة الرحمة أنقذته من الذبح؛ لكي تكون لإسماعيل ذرية عظيمة تحقق ما لا يمكن تصوره، وبحيث تصبح ذرية إبراهيم بعدد نجوم السماء.

ويشار إلىٰ الموسوعة البريطانية التي لم تتطرق إلىٰ موقف جوتة من الإسلام علىٰ الإطلاق، سوىٰ أنها ذكرت أن من أعماله التي لم يتمها (محمد) Mahomet. وكذلك فإن بعض الكُتّابِ العرب تناولوا جوتة لكنهم تجاهلوا علاقته بالإسلام، وإذا علمنا أن اهتمام جوتة بالإسلام لا يخفىٰ علىٰ أي باحث اطّلع علىٰ سيرة ذلك الشاعر الألماني، وأنه لعب دورًا حاسمًا في حياته وأدبه، فمن العجيب أن يصنِّفَ كاتبٌ عربيٌّ مصنفًا عن جوتة، ولا يتطرق إلىٰ علاقته بالإسلام.

لكن عبد الرحمن صدقي - مثلًا - جعل ذلك الأمر محور كتابه «الشرق والغرب في أدب جوتة»، ومما ذكره عن اهتمام جوتة بالأديان أنه تعلم اللغة العبرية في الفترة من (١٧٦٢ - ١٧٦٥م) بهدف دراسة التوراة المعاصرة. وفي عام (١٧٧٢) قرأ ترجمة ألمانية للقرآن ثم ترجمة لاتينية سابقة عليها[١].

ومن الأمثلة التي ذكرها صدقي علىٰ تأثر جوتة بالقرآن الكريم قوله في الديوان الشرقي: «لله المشرق ولله المغرب، وفي راحتيه الشمال والجنوب جميعًا. هو الحق، وما يشاء بعباده فهو الحق، سبحانه له الأسماء الحسنىٰ، وتبارك اسمه الحق، وتعالىٰ علوًّا كبيرًا». وقوله أيضًا: «لم لا أصنع من التشابه ما أشاء»، و«الله لا يستحي أن يضرب مثلًا ما بعوضة». وذكر صدقي أن جوتة بدأ في عام (١٧٧٣م) بتأليف تمثيلية عن محمد ﷺ كان عنوان الفصل الأول منها: (مناجاة محمد)؛ حيث صوّرَ النبي الكريم وهو فتىً خلا بنفسه بالليل، بعيدًا في البادية تحت سماء صافية. واعتمد جوتة في المناجاة علىٰ مضمون هذه الآيات من سورة

(١) المصدر السابق.

الأنعام: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ [الأنعام، الآيات ٧٤ - ٧٩]. وختم جوتة مناجاة النبي بقوله: فارتفعْ أيها القلبُ العامرُ بالحبِّ نحو الخالقِ، إنك وحدك مولاي، إنك الحب المحيط بكل شيء، خالق الشمس والقمر والكواكب، خالق السماوات والأرض.

وبعد ذلك أدار جوتة حوارًا بين محمد ﷺ ومرضعته حليمة.

محمد: (يرىٰ شبح حليمة مقبلة)... حليمة! أكان لا بد من قدومها في هذه الساعة العامرة بالسعادة! (مخاطبًا حليمة) ماذا تريدين مني يا حليمة؟

حليمة: لا تقلقني هكذا يا بني الحبيب، إني أبحث عنك منذ غروب الشمس. لا تعرض شبابك الغض لأهوال الليل ومخاطره.

محمد: سيان عند الأشرار ليل أو نهار؟

إن الرذيلة وحدها تجر إلىٰ التهلكة، كما يستجلب الضفدع سم الأفعىٰ. وقد يكون الصبا كالتعويذة النافعة تحت هذا السماء الرائعة.

حليمة: تظل وحدك هكذا طوال الليل، بعيدًا في هذه البادية التي يعبث بها الذؤبان وقطاع الطرق.

محمد: لست وحدي، إن الله ربي يؤنس وحدتي.

حليمة: أرأيته؟

محمد: ألا ترينه؟ عند كل عين جارية، وتحت كل شجرة مزهرة، أراه بعين البصيرة مقبلًا علي، وأحس حرارة عطفه وحبه، ما أعظم عرفاني لفضله وتسبيحي بحمده! لقد فتح صدري وانتزع عنه الشغف حتىٰ أحس قربه في الصميم من قلبي.

حليمة: إنك حالم واهم! فكيف يمكن أن تكون حيًّا بعد أن يفتح صدرك؟

محمد: سأدعو الله حتىٰ يلهمك أن تفهميني.

حليمة: ومن هو ربك؟ أهو هبل أم العزىٰ؟

محمد: يا للقوم المناكيد! إنك تتوجهين إلىٰ الحجر بحبك! إنك تطلبين من الصلصال أن يحميك! هذه الأرباب ليس لها أذن تسمع الدعاء، ولا قدرة علىٰ تلبية النداء.

حليمة: إن الحجر يعمره عامر، والصلصال يحوم حوله حائم، وإنه ليسمعني وهو قادر عظيم.

محمد: ماذا يمكن أن تكون قدرته وثمة ثلاثمائة مثله؟

حليمة: أليس مثل ربك أحد؟

محمد: إذا كان للرب كفوًا، أيكون بعدها ربًّا؟

حليمة: في أي مكان يحل؟

محمد: في كل مكان.

حليمة: سيان هذا، والقول إنه غير ذي مكان. فكيف إذن تدركه؟

محمد: اللهم أبتهل إليك أن تنقذ البشر من ضلالهم، فهم أجمعون إليك يا رب راغبون وإلىٰ وجهك الكريم متطلعون.(١)

---

(١) المصدر السابق.

ونقل عبد الرحمن صدقي عن جوته قوله في كتاب الخلد من الديوان الشرقي: «ليندب الأعداء قتلاهم فإنهم من الهالكين. أما الشهداء من إخواننا فلا تندبهم فإنهم أحياء في أعلى عليين...»

لقد فتحت السماوات السبع أبوابها لهم أجمعين. وهم أولًا يقرعون أبواب الجنة يدخلونها بسلام آمنين. وقد أخذ منهم العجب، وغلبت عليهم نشوة الطرب، إذ يجتلون من مجالي الجمال والجلال ومطالع السنا والبهاء ما اكتحلت به عين النبي ﷺ في ليلة الإسراء، إذ أقله البراق إلى السماء، وطاف به السبع الطباق في لحظة خاطفة... وهي في هذه الجنة جنة النعيم تقبل علي أجنحة النسيم أسراب الحور العين. فانعم أيها المجاهد الشهيد بالنظر إليهن... إن المال فانٍ والجاه زائل، ولا يبقى إلا طعنة كهذه لقيها المؤمن في سبيل الله... وتذهب بك الحور العين إلى خمائل بالكروم معروشة... وهن أبكار أتراب جميعهن، لا تفاضل في روعة الحسن ونضرة اللون بينهن... فانعم بهذا الصفو الذي لا كفاء له ولا عوض منه، بين أسراب من الحور العين لا يضجر معاشرها، وأكواب من الرحيق المختوم لا يسكر معاقرها.

ويبدو أن عبد الرحمن صدقي كان يميل إلى اعتبار جوته مسلمًا، لكنه تردد في التصريح بذلك. فقد اختتم كتابه بمقطوعة عبر فيها جوته عن أمله بدخول جنة المسلمين، وهي حوار دار بينه وبين حورية من الجنة: الحورية: اليوم أنا الموكلة بباب النعيم، ولا أدري ما العمل وأنت عندي ظنين، أتراك حقًّا من معشر المسلمين؟... وهل استحققت دخول الجنة على جهادك؟ أحقًّا أنت من المجاهدين؟ فاكشف إذن عن جراحك، لتشهد جراحك بما قدمت من المآثر إن كنت من الصادقين. فإني لأحب لك الدخول.

الشاعر: فيم هذه المراسم كلها؟ دعيني أدخل الجنة على كل حال. لقد عشت رجلًا، أي إنني كنت من المجاهدين. ألا حددي طرفك، وأمعني النظر في فؤادي، اشهدي ما به من جراح الحياة المؤلمة، اشهدي ما به من جراح الحب المستعذبة. ومع هذا فما برحت مؤمنًا أتغنى بوفاء حبيبتي الهاجرة، وبمودة الدنيا الدائرة وقضائها

في الآخرة حق المحسنين. لقد عملت مع صفوة العاملين، وجاهدت مع خيرة المجاهدين، وتألق اسمي بحروف مشبوبة الأنوار في قلوب الصالحين الأبرار.[١]

وكتب (مانفرد أوستن) مقالةً في صحيفة (نويه تسوريشر تسايتونغ) السويسرية، بعنوان: (هل كان جوتة مسلمًا؟). ولم يتمكن الكاتب من الإجابة عن هذا التساؤل، وعلقت الكاتبة (كاترينا مومزن) على ذلك قائلةً: «حقًّا هناك أكثر من دليل يشهد على أن جوتة لم يكن مسلمًا، إلا أننا مع ذلك نعثر لديه على عبارات وسلوكيات كثيرة تبين أن جوتة كثيرًا ما كان ينسب نفسه إلى دين الإسلام».

أنشودة محمد

تعد أنشودة محمد «Mahomets Gesang» من أهم الأدلة التي تشير إلى إيمان الشاعر جوتة بنبوة محمد ﷺ، حيث يُشبّه جوتة رسولنا الكريم بماء الغمام الذي ينزل من السماء ليتكون منه ينبوع يقود الينابيع الأخرى معه، كناية عن الأنبياء الذين سبقوه، نحو إحياء الأرض ونشر الإسلام فيها. وفيما يلي ترجمة هذه الأنشودة:

انظروا إلى النبع بين الصخور
ناصعًا مبتهجًا
كمنظر النجوم
فوق القيوم...
غذّت شبابه أرواح طيبة
بين الصخور في الغابة
بنضارة الشباب
يخرج راقصًا من السحابة
ويهطل على صخور المرمر
ويهتف مرة أخرى نحو السماء
وبين الممرات بين قمم الجبال

---
(١) المصدر السابق.

يطارد الحصىٰ الملونة
ومع خطوة القائد المبكرة
يجترف معه إخوته الينابيع
وفي الأسفل... في الوادي
تنمو الأزهار عند موطئ قدمه
والمرج يحيا بأنفاسه
ولكن لا شيء يمنعه من الجيران
لا الوادي الظليل
ولا الأزهار...
التي تعانق ركبته
وتغازله بعيون الحب،،،
فمجراه يؤدي إلىٰ السهل...
بطريق متعرجة
وتلتصق به الجداول وتتودد إليه
والآن يتقدم في السهل زاهيًا كالفضة
ويزهو السهل معه
والأنهار التي في السهل
والجداول التي في الجبال
تبتهج به وتنادي: أخانا... أخانا
خذ الإخوة معك، إلىٰ أبيك القديم
إلىٰ المحيط الخالد
الذي ينتظرنا بذراعين مفتوحتين...
لكنها تُفتح، آه، بلا جدوىٰ
لاستقبال المشتاقين إليه

إذ إن الرمل الشّره
في الصحراء القاحلة يلتهمنا
والشمس هناك تمتص دماءنا
وثمة تل يحول بيننا وبين المحيط
أخانا
خذ الإخوة من السهل
خذ الإخوة من الجبال
معك إلى أبيك
هلموا جميعًا...
والآن يتجلى في هيبته
قبيلة بأكملها ترفع الأمير في العلياء
ومن خلال النصر المبين
يمنح البلاد اسمًا
وتخضع المدن تحت قدميه
ويتواصل هديره بلا انقطاع
حتى يترك وراءه قممًا من اللهب على الأبراج
وبيوتًا من المرمر تنتج من غزارته
يحمل الأطلس على أكتافه الضخمة بيوتًا من الأرز
وفي الهواء يرفرف ألف علم ويُصفّر على رأسه
إنهم شهود على عظمته
وهكذا يحمل معه إخوته وكنوزه وأبناءه
بقلب يخفق فرحًا
إلى الأب المنتظر
ويثير في القلب بهجة

جوتة والمسيحية[١]:

لقد قال جوتة في أواخر حياته: «هناك الكثير من الهراء في تعاليم الكنيسة»، وذلك ضمن حوار دار بينه وبين إكرمان Eckermann في ١١/ ٣/ ١٨٣٢م. وفي الديوان الشرقي لمؤلفه الغربي West – Oestliche Divant يؤكد جوتة على قيمة اللحظات الحالية الثمينة بدلًا من موقف الكنيسة الداعي إلى انتظار الحياة الآخرة وبالتالي احتقار كل شيء يمنحه الله للإنسان في أية لحظة من عمره.

ويرفض جوتة صورة المسيح كما تعرضها النصرانية، ويؤكد على وحدانية الله في قصيدة من ديوان West – Oestliche Divant قال فيها:

شعر عيسى بالنقاء وتفكَّر بهدوء
في الإله الواحد
لقد جرح إرادته المقدسة كل من عمل منه إلهًا
كذلك لا بد من إظهار الحقيقة
وهذا ما أنجزه محمد
فقط بعبارة «الواحد»
اخضع العالم كله

وبالإضافة إلى عيسى ومحمد ﷺ يذكر جوتة في الأبيات التالية أن إبراهيم وموسى وداود عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كانوا أيضًا من الموحدين. ومن الحقائق الثابتة أن جوتة كان يبغض شعار الصليب بشده. وقد كتب يقول:

والآن تأتي ومعك شعار
ذلك الذي أبغضه أشد البغض من بين كل الشعارات
كل تلك الحماقة الحديثة
تريد أن ترسلها إلي في شيراز

---

(١) المصدر السابق.

هل ينبغي عليّ، رغم جموده، أن أتغنىٰ بعود يقاطع عودًا، بل وبعبارة أشد:
تريد أن تجعلها لي إلهًا تلك الصورة من البؤس علىٰ قطعة خشب

وصرح جوتة في كتاب Wilhelm Meisters Wanderjahre قائلًا إنها: «وقاحة ملعونة... أن يُلعب بتلك الأسرار العميقة التي يختبئ فيها عمق المعاناة الإلهية»، فبدلًا من ذلك ينبغي علىٰ المرء أن يسدل الستار علىٰ تلك المعاناة، وأخيرًا يصف جوتة: في قصيدة «النائمون السبعة» من ديوانه West – Oestliche Divan المسيح بأنه نبي: «منذ سنوات عديدة تحترم إيفيسوس تعاليم النبي عيسىٰ عليه السلام»[1].

حول الكلام عن إسلام جوتة:-

يذكر أن الشيخ عبد القادر المرابط أنه بتفويض من أمير جماعة المسلمين في فايمار، الحاج أبو بكر ريغر أصدر فتوىٰ بإسلام الشاعر الألماني جوتة، وذلك في ١٩ ديسمبر ١٩٩٥م.

وتضمنت الفتوىٰ الحيثيات الدالة علىٰ إسلامه من سيرته وشعره ومحاوراته، ومنها أنه عندما ألف ديوانه، تمرن علىٰ القراءة والكتابة بالعربية بمساعدة أساتذة الاستشراق. فبعد أن اطلع علىٰ مخطوطات عربية وعلم بوجود القرآن شعر بشوق كبير لتعلّم العربية. وقد قام بنسخ أدعية باللغة العربية بنفسه، وكتب يقول: «ربما لا توجد لغة أخرىٰ تتجسد فيها الروح والكلمة والخط بهذه الطريقة الابتدائية».

ومن ذلك أيضًا أنه في سن السبعين كتب يقول: إنه كان يعتزم «أن يحتفل بمنتهىٰ الرهبة بتلك الليلة التي اكتمل فيها نزول القرآن من الأعلىٰ إلىٰ الرسول صلى الله عليه وسلم». وكتب أيضًا: «لا يجوز لأي أحد أن يتعجب من قوة التأثير الكبرىٰ في الكتاب. ولهذا السبب أيضًا فإن العابدين حقًّا يصرحون بأنه غير مخلوق، وبأنه خالد مع الله.

---

(١) المصدر السابق.

وأضاف إلىٰ ذلك: «إن هذا الكتاب سيبقىٰ حقًا عظيم الأثر أبد الدهر».

وحتىٰ اليوم ما زالت لدينا المخطوطات التي كتبها بنفسه خلال دراساته القرآنية الأولىٰ المكثفة في عامي (١٧٧١ – ١٧٧٢)، إضافة إلىٰ دراسات أخرىٰ موجودة في أرشيف جوتة وشيلر Schiller في مدينة فايمار. وقد تلا جوتة الترجمة الألمانية للقرآن التي أعدها J. Hammer وربما أيضًا الترجمة الإنجليزية الأكثر واقعية والتي قام بها G. Sale علىٰ مسامع أعضاء عائلة دوق فايمار وضيوفهم. وقد تحدث وزوجته عن تلك التلاوات Schiller التي شهداها.

وقد كان جوتة يشعر دائمًا بوجود نقائض في ترجمات القرآن اللاتينية والإنجليزية والألمانية والفرنسية كافة. وكان يبحث باستمرار عن ترجمات أخرىٰ.

وقال في ديوانه:

عما إذا كان القرآن خالدًا، أنا لا أسأل عن ذلك!

أما أنه كتاب الكتب فإنني أؤمن بذلك كواجب علىٰ المسلم.

وقد قرأ كتبًا مرجعية وكتبًا حول رحلات، وأشعارًا، ومختارات، وكتبًا حول سيرة النبي ﷺ، وتناول تلك الموضوعات بتوسع مع مستشرقين من أرجاء ألمانيا كافة. وقد أعجب جوته بالترجمة الألمانية لديوان حافظ الشيرازي (في أيار ١٨١٤) ودرس الترجمات المختلفة للقرآن في عصره. وقد ألهم ذلك كله جوته لتأليف ديوانه الخاصwest- oestliche Divan، والذي يضم بدوره قصائد كثيرة مستوحاة بوضوح من القرآن، وتستند علي آيات مختلفة منه. وقد اشتري جوتة مخطوطات عربية قديمة للرومي وجامع وحافظ وسعدي والعطار وتفسير القرآن، وأدعية مختلفة، وقاموسًا عربيًّا – تركيًّا، ونصوصًا حول موضوعات تحرير الرقاب (العتق)، والشراء والبيع والفائدة والربا، ومخطوطات أصلية كتبت بيد السلطان سليم. وكان جوتة لا يعد من قبيل الصدفة المحضة، ولكنه عدها حوادث مهمة، بل جزءًا من قدرة الله تعالي وإشارات منه أن: أحضر له في خريف ١٨١٣ جندي عائد من إسبانيا مخطوطة عربية قديمة تحتوي علي السورة

الأخيرة من القران (سورة الناس). وحاول جوتة لاحقًا نسخها بيده بمساعدة أساتذة من jena، ساعدوه أيضًا في التعرف علي محتوي المخطوطة.

حضر في كانون الثاني ١٨١٤ صلاة جمعة أقامها مسلمون بشكيريون من جيش القيصر الروسي الإسكندر في المدرسة الثانوية البوتستانتية في فايمار. وكتب في رسالة بعثها إلى Trebra في ٥/ ١/ ١٨١٤م: بما أنني أتحدث عن النبوءات، يجب عليَّ أن أشير إلى أن هناك أشياء تحدث في أيامنا هذه، لم يكن ليؤذن لأي نبي أن ينطق بها. من كان سيسمح له قبل بضع سنين أن يقول إنه ستقام صلاة محمدية وسيتمتم بسور القرآن في قاعة التدريس في معهدنا البوتستاني؟ وقد حدث ذلك بالفعل وحضرنا صلاة البشكير وشاهدنا إمامهم ورحبنا بأميرهم في المسرح. ولمكانة رفيعة أُهدي إليقوس وسهام، سأقوم بتعليقها فوق مدفأتي كتذكار أبدي حالمًا يأذن الله لهؤلاء الضيوف الأعزاء بعودة سعيدة. وفي رسالة بعثها في ١٧/ ١/ ١٨١٤ إلى ولده August، أضاف: لقد طلب العديد من سيداتنا المتدينات ترجمة للقرآن.

ولقد تجاوز موقف جوتة الإيجابي من الإسلام الذين سبقوه كافة في ألمانيا: حيث أنه نشر في ٢٤/ ٢/ ١٨١٦م الجملة التالية: عن الشاعر (يقصد نفسه) لا يرفض الشبه بأنه هو نفسه مسلم(١).

وقال جوتة في قصيدة أخرى من ديوانه: «من الغباء أن كل شخص في دنياه يمتدح رأيه الخاص»!

«إذا كان الإسلام يعني الخضوع لله، فإننا جميعًا نحيا ونموت في الإسلام».
وقد تأثر جوتة بشدة بحقيقة أن الله يخاطب البشر من خلال الأنبياء. ولذلك اعترف بالنبي محمدﷺ: ففي رسالة بعث بها إلي بلومنتال في ٢٨-٥-١٨١٩ A.O.Blumenthal كتب جوتة (مشيرًا إلى الآية ٤ من سورة إبراهيم): فالحق إذن ما قاله الله تعالى في القرآن: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ

(١) المصدر السابق.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم، الآية ٤]. وبالإشارة إلى الآية ذاتها كرر جوتة في رسالة إلى كارليل Carlyle ذلك المعنى فقال: يقول القران: لقد أرسل الله إلى كل قوم رسولًا بلغتهم الخاصة، وكذلك فقد كرر جوتة ذلك مرة أخرى في مقالة كتبها في مجلد Ger، المجلد الرابع – أدنبرة man Romance ١٨٢٧م.

وهناك عنصر آخر في الإسلام وهو التأكيد على الأعمال الصالحة. وقد أعجب جوته بشكل خاص بالصدقة التي يعطيها المسلم. وفي قصائد عديدة من ديوانه كتاب الأمثال Buch der Sprueche يصف جوتة لذة الإعطاء ويقول: انظر إليها بشكل صحيح وستعطي دائمًا. وأعجب جوتة بأن هذا العمل لا يكافأ لاحقًا فحسب، بل إن بركاته تظهر في الدنيا أيضًا.

وقد عرف جوتة أيضًا برفضه القاطع لمفهوم (الصدفة): إن الذي لا يدركه ولا يستطيع أن يدركه الناس في أعمالهم والذي يتجلى في غاية الوضوح، وفي الحال الذي تظهر عظمته.

بأبهى ما تكون، فهو ذلك الذي يسمونه (الصدفة) فيما بعد، وأن ذلك هو (فعل) الله بالضبط، فهو الذي يتدخل هنا بقدرته مباشرة ويعظم ذاته من خلال أبسط الأمور.

إن إيمان جوته الواضح بقدر الله (انظر علي سبيل المثال محادثته مع المستشار Mueller في ١٢/٨/١٨٢٧م)، وبيت الشعر الشهير الذي قاله في ديوانه: لو شاء الله أن أكون دودة لخلقني دودة. وكذلك قوله: إن الرموز (الاستعارات المستخدمة في الديوان) تمثل الهداية والعناية الإلهية الرائعة النابعة من قدر الله الذي لا يمكن استكشافه أو تصوره، وهي تعلم وتؤكد علي الإسلام الحقيقي والخضوع المطلق لمشيئة الله، والاعتقاد بأنه لا يستطيع أي أحد أن يحيد عن المقدور له. كل ذلك أدى إلى موقفه الشخصي من الخضوع لمشيئة الله، أي أن جوتة اعتبرها أمرًا يجب أن يتقبله شاكرًا، لا أن يحتج عليه. وهناك أمثلة شهيرة على ذلك في أعماله الأدبية.

ومن الأمثلة المؤثرة جدًّا في حياته الخاصة، رد فعله إزاء رحلته الثالثة إلىٰ ماريان ويلمر Marianne van Willemer في تموز ١٨١٦م، التي كان يعتزم الزواج منها بعد وفاة زوجته المحبوبة كريستيان Christian، حيث أُصيب بحسرة شديدة بعد فقدانها، لكن الرحلة انقطعت فجأة بعد الانطلاق بسبب انكسار محور العربة. وقد اعتبر جوتة ذلك الحادث إشارة قدَرية صريحة، فتراجع فورًا عن نيته الأصلية وامتنع بالفعل نهائيًّا عن رؤية ماريان. وكتب جوته بعد ذلك: «ولذلك يجب علينا أن نستمسك بالإسلام (وهذا يعني: الخضوع التام لمشيئة الله)... وفي قول مشابه كتب في رسالة إلىٰ زيتلر Zelter في ٢٠/ ٩/ ١٨٢٠م: «لا أستطيع أن أقول شيئًا آخر سوىٰ أنني أحاول الاحتماء بالإسلام»[١].

وتذكر فتوىٰ فاليمار أنه عندما انتشرت الكوليرا عام ١٨٣١م وتوفي كثيرٌ من الناس عزّىٰ جوتة السيدة لويز آديله شوبنهاور في ١٨٣١م برسالة جاء فيها: «هنا لا يستطيع أحد تقديم النصح للآخر؛ فعلىٰ كل واحد أن يقرر بنفسه أننا جميعًا نعيش في الإسلام، بغض النظر عن الأسلوب الذي نختاره لتشجيع أنفسنا». وفي ١٨٢٠م كتب جوتة رسالة إلىٰ صديقه فيليمير Willemer يشكره فيها علىٰ كتاب حُكم قدمه له، وقال فيها: «صحيح... مع كل نظره دينية معقولة وإسلام يجب علينا أن نعترف به عاجلًا أم آجلًا». وكمشارك في الحرب ضد فرنسا، قال جوتة في ١٧٩٢م:»إن الإيمان بقضاء الله وقدره يجد أدق تعبير عنه في الإسلام إن الدين المحمدي يقدم أفضل دليل علىٰ ذلك».

وحسب التقرير الذي أورده إيكريمان Eckermann (١١/ ٤/ ١٨٢٧م) فإن الأخير قال: «إن أسلوب التربية عند المسلمين يدفعهم إلىٰ مواجهة التناقضات في الوجود، وبالتالي إلىٰ معرفة الشك، الذي يتحول بعد تفحص الأمر إلىٰ يقين في نهاية المطاف». واختتم جوتة الحديث بقوله: «انظر كيف أن هذه التعاليم لا ينقصها أي شيء، وكيف أننا مع كافة أنظمتنا لم نحرز تقدمًا، وأنه لن يفلح أي

(١) المصدر السابق.

أحد... إن ذلك النظام الفلسفي عند المحمديين يمثل مقياسًا رائعًا يستطيع المرء أن يطبقه علىٰ نفسه وعلىٰ غيره، وحتىٰ يعرف المرء مستواه الحقيقي من الفضيلة الروحانية»(١).

وحول أمور ينبغي علىٰ المرء أن يشغل نفسه بها، قال جوتة في كتابه Maximen Und Ref;exionen: «إن أعظم سعادة بالنسبة للإنسان المفكر هي قيامه باستكشاف ما يمكن استكشافه، وتبجيله لما لا يمكن استكشافه». وفي ذلك إشارة إلىٰ أن المسلم لا يسأل عن أشياء لا يستطيع البشر أن يعرفوها.

وحول وحدانية الله قال جوتة: «إن الإيمان بالله الواحد يؤدي دائمًا إلىٰ رفع الروحانيات؛ لأنه يرشد الإنسان إلىٰ الوحدة داخل نفسه».

ويتحدث جوتة عن الفرق بين النبي والشاعر، ويؤكد علىٰ نبوة محمد ﷺ: «إنه نبي وليس بشاعر ولذلك يجب أن يعتبر قرآنه قانونًا إلهيًّا وليس كتابًا بشريًّا وُضع للتعليم أو التسلية».

بعد فحص البراهين المبينة أعلاه والاطلاع علىٰ المراجع الأصلية في مصنفات صديقيه المقربين Thomas Carlyle وSchiller، بالإمكان التوصل إلىٰ نتيجة واضحة بدون أي لبس أو شك.

إن محتويات مصنفاته العلمية كافة، وخاصة Zur Morphologyie، تشير إلىٰ الدعوة مدىٰ حياته إلىٰ نظرة تقول: إن الكون مخلوق من لدن ذات إلهية، وإن الخالق لا يرتبط بأي وجه مع مخلوقاته.

ورغم أنه أمضىٰ عمره في بلاد غير مسلمة، إلا أنه تبنى وصرح من صميم قلبه عن التزامه بالشهادتين وأقر بأنه لا إله إلا الله الواحد وأن رسوله وخاتم المرسلين هو محمد ﷺ وبدون أن يتلقىٰ تعاليم حول الصلاة والزكاة والصوم والحج، فإنه اغتنم وباعتزاز الفرصة النادرة لحضور صلاة جمعة. وبهذا كله يتضح أنه اعتبر الإسلام دينه الخاص.

---

(١) المصدر السابق.

ومعلوم من الأحاديث الشهيرة والثابتة الكثيرة في «مسلم» و«البخاري» وكتب السنن، أن الإيمان بالله وبرسوله هو الباب المؤدي إلى الإسلام بلا ريب وهو مفتاح الجنة.

وعلى ذلك فبالإمكان الإقرار بوضوح بأنه أفضل شعراء أوروبا ومجد اللغة الألمانية وحياتها الفكرية، كان في الوقت ذاته أول مسلم في أوروبا الحديثة؛ حيث أيقظ في قلوب الناس الشوق نحو معرفة الله ورسوله، تلك المعرفة التي رقدت في سبات عميق منذ أن خيم الظلام على إسبانيا الإسلامية.

وفي ضوء إقراره الأكيد بالنبي ﷺ، ينبغي أن يُعرف بين المسلمين من الآن فصاعدًا بـ «محمد يوهان فولفغانغ فون جوتة Muhammad Johann Wolfgang Von Gothe».

تعليق بعض فقهاء بيت المقدس على الفتوى:(١)

للوقوف على ما يراه فقهاء بيت المقدس توجهت إلى ثلاثة منهم بالسؤال طالبًا تعليقهم على فتوى الشيخ عبد القادر المرابط المذكورة، وفيما يلي ردودهم:

الشيخ عكرمة صبري

كتب سماحة الشيخ عكرمة سعيد صبري مفتي القدس الشريف والديار الفلسطينية ردًّا على السؤال ما نصه:

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين؛ سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد: الأخ السائل الكريم بشير بركات – القدس، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. بالإشارة إلى سؤالك المثبت أعلاه والمؤرخ في ١/ ٦/ ١٩٩٨م، وبالإشارة إلى النشرة المرفقة والتي تعتبر جزءًا من السؤال أجيب بما هو آت:

---

(١) المصدر السابق.

إن مكمن الإيمان هو القلب. وإن اللسان والقلم يترجمان ما في القلب. وإن المتتبع لما كتبه الشاعر الألماني جوتة يلمس الأمور الآتية:

التركيز على توحيد الخالق، وعدم إقراره بالإشراك والشرك.

بغضه الشديد لموضوع صلب عيسى عليه السلام أي أنه لا يقر فكرة الصلب.

إقراره بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وإعجابه به وتقديره له.

إقراره بنبوة سائر الأنبياء والمرسلين كإبراهيم وداود وموسى وعيسى عليهم السلام.

إعجابه بالقرآن الكريم وتأثره به.

إقباله على دراسة اللغة العربية وحبه لها وافتتانه بها.

وبالرغم من أنه لم يعلن اعتناقه للإسلام بشكل علني ورسمي إلا أن تركيزه على هذه الأمور من خلال شعره وكتاباته تجعل منه مسلمًا مؤمنًا. وأثني على الفتوى الصادرة بتاريخ ١٩/ كانون الأول/ ١٩٩٥م، عن الشيخ عبد القادر المرابط والتي تتضمن حول الاعتراف بجوتة كمسلم، ولنا الظاهر والله ا يتولى السرائر وهو أعلم بالنيات والصواب. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

حرر بتاريخ ٢٧/ صفر ١٤١٩هـ،

الموافق ٢١/ حيزران/ ١٩٩٨م – القدس.

الشيخ حسام الدين عفانة:

وأجاب فضيلة الشيخ الدكتور حسام الدين موسى عفانة، المحاضر بجامعة القدس والمختص بالفقه الإسلامي، بما نصه:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فقد اطلعت على فتوى حول الاعتراف بالشاعر الألماني جوتة كمسلم كتبها الشيخ عبد القادر المرابط. وبعد التدقيق فيها وجدت أن الشيخ قد ذكر حسب المصادر التي رجع إليها أن الشاعر الألماني جوتة كان يعترف ويقر بالله الواحد الأحد ويقر بنبوة محمد ﷺ وبنبوة عيسى عليه السلام، وأنه كان يبغض الصليب ويؤمن بالقرآن الكريم، ويؤمن بالقضاء والقدر، ويقر ويعترف بأنه مسلم. وبناء على ذلك أرى أن ما توصل إليه الشيخ المذكور من اعتباره جوتة مسلمًا صحيح. وأنه مسلم إن كان واقعه مطابقًا لما ذكر، حيث أن إسلام المرء يثبت بالشهادتين وبقية أركان الإسلام، والله أعلم [1].

كتبه د/ حسام الدين موسى عفانة

٢٩/ ذو القعدة/ ١٤١٨هـ

الموافق ٢٧ / آذار / ١٩٩٨م.

(١) المصدر السابق.

المستشـرق الإنجليزي توماس وولكر أرنولد
Thomas Walker Arnold (ت١٩٣٠م)

هو كما وصفه ألفريد جيّوم مِن أعاظم المستشـرقين البريطانيين، وقد ذاع صيته بكتابه «الدعوة إلى الإسلام «لندن ١٨٩٦م، وكتابه «الخلافة» أكسفورد ١٩٢٤م، كما كتب دراسته الإجمالية بعنوان «العقيدة الإسلامية»، وكتابه الفخم «التصوير في الإسلام».

يقول هذا المستشرق المنصف في شأن رسول الله ﷺ، وكيف أنّه استطاع أن يؤسِّسَ بالمدينة المنورة دولةً سياسية منظَّمة: «وهكذا باشر محمّدٌ سلطةً زمنيّةً كالتي كان يمكن أنْ يباشرَها أيُّ زعيم آخر مستقل، مع فارق واحدٍ هو أنّ الرباط الديني بين المسلمين كان يقوم مقام رابطة الأسرة والدم. وعلى هذه الصورة أصبح الإسلام، ولو مِن الوجهة النظرية على الأقل، كما سنّ دائمًا نظامًا سياسيًّا بقدر ما هو نظام دينيٌّ. كانت رغبة محمّد ترمي إلى تأسيس دين جديدٍ، وقد نجحَ في هذا السبيل، ولكنه في الوقت نفسه أقام نظامًا سياسيًّا له صفة جديدة متميزة تميزًا تامًّا»[(١)].

ويحدثنا أيضًا عن قبول الإسلام لدى الآخرين، دينًا له ضوابط ونظم لا يخضعُ للأهواء، فيقول: «نرى من أسباب الترحيب الحار الذي لقيه محمد في المدينة أن الدخول في الإسلام، قد بدا للطبقة المستنيرة من أهالي المدينة علاجًا لهذه الفوضى التي كان المجتمع يقاسيها؛ وذلك لما وجدوه في الإسلام من تنظيم محكم للحياة، وإخضاع أهواء الناس الجامحة لقوانين منظمة قد شرعتها سلطةٌ تسمو على الأهواء الفردية[(٢)].

ويقول أرنولد أيضًا في الموقف الذي يقفه المسلم بين يدي ربه لأداء

(١) الدعوة إلى الإسلام، تأليف: توماس. وأرنولد، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصـرية، القاهرة، ١٩٧١م، ص٥٢.

(٢) السابق، ص٤٣.

الصلوات الخمس، وتأثيرها النفسي في قلوب غير المسلمين: «كذلك نجد أداء الصلوات الخمس كل يوم، علىٰ جانب عظيم من التأثير؛ سواء في جذب الناس، أو الاحتفاظ بالمسلمين منهم. وقد أحسن مونتسكيو في قوله: "إن المرء لأشد ارتباطًا بالدين الحافل بكثير من الشعائر، منه بأي دين آخر أقل منه احتفالًا بالشعائر؛ وذلك لأن المرء شديد التعلق بالأمور التي تسيطر دائمًا علىٰ تفكيره». إن دين المسلم يتمثل دائمًا في مخيلته، وفي الصلوات اليومية، يتجلىٰ هذا الدين في طريقة نُسكية خاشعة مؤثرة، لا تستطيع أن تترك العابد والمشاهد كليهما غير متأثرين فإذا استطاع رينان أن يقول: «ما دخلت مسجدًا قط، دون أن تهزني عاطفة حادة، أو بعبارة أخرىٰ: دون أن يصيبني أسف محقَّقٌ علىٰ أنني لم أكن مسلمًا»، كان من اليسير أن ندرك كيف أن منظر التاجر المسلم في صلاته، وسجداته الكثيرة، وعبادته للإله الذي لا يراه، في سكينة واستغراق، قد يؤثر في الإفريقي الوثني الذي وهب إدراكًا قويًّا للقوىٰ الخفية، كما يقترن هذا الإدراك عادة بدرجة منحطّة مِن المدنية، وقد يحفز حب الاستطلاع علىٰ البحث بطبيعة الحال»[1].

المستشرق ك. ك. بيرغ J. K. Birge

عمل أستاذًا بجامعة ليدن، وانصبّ اهتمامه علىٰ تاريخ الإسلام. يقول في شأنِ الإسلام وخصائصه، مع مقارنته بالهندوسية: «لا حاجة بي هنا إلىٰ الإطناب في بيان المميزات الخاصة بالإسلام، ولا في بيان اختلافه العظيم عن الهندوكية. يقابل أوهامَ الهندوكية وما فيها من غموض ومراوغة شريعةُ الإسلام وعقيدته المحسوستان اللتان يكاد لا يكون فيهما أثرٌ للخيال، واللتان بلغتا من النقاء ما بلغته التربة التي نشأتا فوقها علىٰ حد تعبير سنوك هورجروني... ونظام الطوائف الذي تحيا به الهندوكية أو تموت لا أثر له في الإسلام، دين الديمقراطية، وقد استمد قوته علىٰ الدوام من حبّ الجماهير له حبًّا حماسيًّا. إن

(١) الدعوة إلىٰ الإسلام، ص٤٥٨-٤٦٠.

الإسلام يعرف كيف يجعل له في قلوب الناس مكانًا، وإن معتنقيه ليفخرون به... وليس هناك كاهن يشرف على الحياة الدينية، وإن إجماع المسلمين على اختلاف الرأي رحمة من الله، هذا الإجماع الذي يستلفت النظر بلينه وتسامحه، ويبرهن لنا برهانًا جديرًا بالذكر على حاجة المسلمين السائدة إلى توحيد الكلمة، يؤيده عدم وجود سلطة معينة تُرغم الناس على رأيها»[(١)].

ويقول أيضًا مشيرًا إلى مزية كون الإسلام دينًا ودولة: «إن النزعة التي تصبغ كل شيء بصبغة الدين والتي امتاز بها الإسلام منذ أيامه الأولى، جعلته مدة تزيد على اثني عشر قرنًا، دينًا متمكنًا في إمبراطوريات انمحت فيها القوميات وكان هو فيها أكبر قوة تعمل على تماسكها... لقد حاز الإسلام فضلًا لا سبيل لإنكاره بأنه عمل على حل مشكلة التفاهم بين الأمم وهو فضل لا يجحده حتى غير المسلم ممن يتبع دينًا آخر ويعتنق فكرة أخرى في الحياة»[(٢)].

المستشرق الأمريكي ر. ف. بودلي:

كتابه: «الرسول... حياة محمد»، نراه يردُّ على أحد المستشرقين الإنجليز الذين تعرضوا لشخصيّة الرسول ﷺ بالانتقاص من قدره الشريف، فيقول: «وقرأتُ لمؤلِّف مَا كتبَه عن محمّد، فكان من الواضح أنّه لم يغادر نيو إنجلند أبدًا، حيث كان يعمل راعي كنيسة، فكانت آسيا وأفريقيا أبعد عنه مِن الجنة والنار، وبرغم ذلك فقد سوّد ثلاثمئة صفحة استعرض خلالها حياةَ الرسول استعراضًا وثيقًا. وعلى الرغم من الأسلوب المشرق، ومعرفة الكتب المقدسة معرفة رائعة... فقد كشف عن جهلٍ فاضح، فما كان يدري كيف كان محمّدٌ يعيش، ولا ما جاء به. وكان في خلال كتابه لا يدعو محمدًا إلا باسم (الدجال)، دونَ أنْ يوضّحَ لنا كيف أنَّ الدجّال المزعوم قد دفع أتباعه المباشرين لفتح

(١) وجهة الإسلام، نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي: هـ.ا.ر.جب وآخرين، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة، المطبعة الإسلامية. د.ت. ص١٦٠-١٦١

(٢) السابق، ص١٩٩-٢٠٠.

مساحة من الدنيا تبلغ رقعتها ثلاثة أمثال الولايات المتحدة، وكيف وهب للبشرية حضارةً لا زالت قائمة حتى اليوم!!»(١).

ويحدثنا في موضع آخر عن شخصية الرسول وأصحابه، فيقول: «وعلى ذلك فإن محاولتي هي عَرْض «محمد» كما كان... رجلٌ له رغباتٌ بسيطةٌ، ولكن له شخصيّة عظيمة، يحبّ قومه مِن كل قلبه، رجل يُوحَىٰ إليه، ولكنه كان يفكّر في كل ما يفعل تفكيرًا منطقيًّا، رجلٌ يصفح عن ضعف الرجال والنساء... ولم يستعمل محمّدٌ وأتباعه أبدًا عبارة «محمّدي» أو «المحمدية»، فعلى الرغم من توقيرهم لزعيمهم، فقد كان محمدٌ المخلص يعرض عن هذه التسمية دوامًا، وإنّ التعريف الوحيد الذي ينطبق على مَنْ يدين بالدين الذي أسّسه محمد هو: «المسلمُ مَنْ يُسلم نفسه لمشيئة ربّه»(٢).

دارسة الأديان ماري أوليفر Mary Oliver

وكانت قبل أنْ تُسلمَ معتنقةً للمسيحية، تحدثنا عن الإسلامِ فتقول: «بعد أنْ درستُ الأديانَ المختلفةَ في العالمِ توصلتُ إلى الاستنتاج بأنَّ الإسلام هو الدينُ الوحيد الذي يؤثّر في أولئك الذين يؤمنون به، وكذلك الذين لا يؤمنون به على حدٍّ سواءٍ. فأعظمُ فضيلةٍ للإسلام أنه يأسرُ قلوبَ البشر بصورةٍ تلقائية. ومِن أجل هذا تجدُ في الإسلامِ سحرًا غريبًا، وجاذبية عظيمة تجتذب إليها ذوي العقليات المتفتحة مِن غير المسلمين»(٣).

وتحدثنا أيضًا عن بعض خصائص الإسلام التي حدت بها نحو الإسلام، فتقول:»وهذه هي أهم الجوانب في الإسلام التي أثرت في نفسي»:

(١) الرسول. حياة محمد: ر. ف. بودلي، ترجمة: عبد الحميد جودة السحّار، ومحمد محمد فرج. القاهرة: مكتبة مصر. د. ت. ص١٥.

(٢) السابق، ص ١٨-١٩.

(٣) سلسلة: رجال ونساء أسلموا: إعداد: عرفات كامل العشّي. القاهرة: المكتب المصري الحديث. ط. ٢٠٠١. ٣/ ٣٧٩.

أولًا: بساطة تعاليمه وطريقة الحياة البسيطة المستقيمة التي يحياها المسلمون المتمسكون بتعاليم الإسلام.

ثانيًا: أنّ الإسلامَ لا يعتبر أحدًا خاطئًا منذ ولادته.

ثالثًا: إنَّ الإسلام هو ديـن السلام، فهو يدعو إلىٰ إشاعة السلام والانسجام بين المسلمين، وليس ذلك فحسب، بل يضع المسئولية علىٰ عاتق المسلمين لإقامة السلام في العالم كلِّه»[١].

وتحدثنا كذلك عن مزيّة أخرىٰ للإسلام لم توجد فيما دَرَسَتْه مِن أديان، تقول: «ومِن الأمور المهمة التي جذبتني نحو الإسلام في أثناء دراستي لهذا الدين أنه علىٰ عكس الهندوكية والنصرانية، فالإسلام لا يحتفظ بأي جزءٍ مِن تعاليمه ويجعله حكرًا لطبقةٍ معينةٍ خاصة مِن الناس، بمعنىٰ أنّه في الإسلام لا يوجد كهنوتٌ ولا رجال دين كطبقة منفصلة لها امتيازاتها مثلما هو الحال بين الرهبان النصارىٰ، ورجال الدين الهندوسي. فالتعاليم الإسلامية موجهة إلىٰ البشر كافة، وهي بسيطة سهلة يستطيعُ كلُّ إنسانٍ أنْ يفهمها بكلِّ يسرٍ»[٢].

القس الأمريكي السابق يوسف إستس:

هذا الرجل تربطني به رابطة إسلامية قوية؛ فهو يزورني في بيتي بمكة المكرمة كل سنة. ويأتي معه رجال أسلموا حديثًا ومشهورون في أمريكا وأوروبا، وقد طلبت منه العمل معي بالسعودية، وسافر متوجهًا إلىٰ السعودية ولكنه توقف في لندن واتصل بي، وكان ذلك في عام ١٩٩١م، وقال لي: هل آتيك للعمل في الدنيا أفضل أم أن يُسلم علىٰ يديَّ يوميا ٤-٥ أشخاص وتدعمني؟ فقلت له: عُد إلىٰ أمريكا، والدعوة إلىٰ الإسلام أفضل من الدنيا وسوف أدعمك.

هذا الرجل قد نشأ نشأة دينية متشددة؛ فأبوه كان قسيسًا، وتعلم هو

(١) رجال ونساء أسلموا، ٣/ ٣٧٩.

(٢) السابق، ٣/ ٣٨٠-٣٨١.



زيارة الأخ يوسف الأمريكي الداعية الكبير في بيتي عام ١٤٢٤هـ بمكة المكرمة



يوسف والإخوان حديثو الإسلام (صورة في بيتي بمكة المكرمة عام ١٤٢٤هـ)

اللاهوت حتىٰ صار هو الآخر رجل دين، كلاهما علىٰ المذهب البروتستانتي، وتزوج من امرأة ذات مذهب ديني متطرف. كل هؤلاء اجتمعوا في بيتٍ واحد.

وحدث أن استضافوا مسلمًا مصريًّا، ورجل دين كاثوليكي لمدة أشهر في بيتهم. ورغم سعيهم الحثيث إلىٰ تنصيره، إلا أن إرادة الله كانت فوق كل شيء، فالرجل تحول بهم إلىٰ الإسلام. لقد كانت أخلاقه السمحة ومناقشته الهادئة لهم، ودقة براهينه علىٰ ما طرحوه من قضايا ـ من العوامل التي دفعتهم إلىٰ دراسة هذا الدين الجديد دراسةً بعينٍ غير التي كانوا يدرسونه بها، والتي مكنتهم من رؤية الحقيقة الواضحة رؤية صحيحة، لا رؤية مغالطة كما كانوا يرونها من قبل.

وبعد مُضيّ ثلاثة أشهرٍ من الدراسة المتعمقة يُسلم صديقُه المتشدد، وفي الوقت نفسه الذي كان يفكر فيه يوسف في الدخول في الإسلام تسبقه زوجته إلىٰ الدخول فيه. وما يلبث أن يُسلم هو، ثم يقتنع أبوه بالدين الحقِّ ويُسلم هو. وهكذا ينتصر الحق وتسلم الأسرة كاملة علىٰ يد الوافد الجديد[1].

إسلام الدكتور ملير... أكبر داعية للنصرانية في كندا

هو الدكتور ميلر من كندا وهو أكبر داعية للنصرانية في كندا بل في العالم، هذا الرجل يحب الرياضيات بشكل كبير؛ لذلك فإنه كان يحب المنطق أو التسلسل المنطقي للأمور... وكان يقرأ الكتب الإسلامية والقرآن ليجد ثغرات ليجادل بها أهل الإسلام في دعوته للنصرانية، لأنه كان من المبشرين النشطين جدًّا في الدعوة إلىٰ النصرانية، وأيضًا هو من الذين لديهم علم غزير بالكتاب المقدس Bible.



الدكتور ملير

(١) راجع ذلك تفصيلًا في: نماذج حية للمهتدين إلىٰ الحقِّ، ١/ ٣١ ـ ٤٢.

أراد الدكتور ملير في أحد الأيام أن يقرأ القرآن بقصد أن يجد فيه بعض الأخطاء التي تعزز موقفه عند دعوته للمسلمين للدين النصراني.. كان يتوقع أن يجد القرآن كتابًا قديمًا مكتوبًا منذ ١٤ قرنًا يتكلم عن الصحراء وما إلى ذلك.. لكنه ذهل مما وجده فيه، بل واكتشف أن هذا الكتاب يحوي أشياء لا توجد في أي كتاب آخر في هذا العالم.

كان يتوقع أن يجد بعض الأحداث العصيبة التي مرت على النبي محمد ﷺ مثل وفاة زوجته خديجة رضي الله عنها، أو وفاة بناته وأولاده.. وكانت دهشته عندما لم يجد شيئًا من ذلك. بل الذي جعله في حيرة من أمره، أنه وجد أن هناك سورة كاملة في القرآن تسمى «سورة مريم»، وفيها تشريف لمريم عليها السلام لا يوجد مثيل له في كتب النصارى ولا في أناجيلهم، ولم يجد سورة باسم عائشة أو فاطمة رضي الله عنهما، دهشته أيضًا عندما وجد أن عيسى عليه السلام ذُكر بالاسم ٢٥ مرة في القرآن، في حين أن النبي محمد ﷺ لم يُذكر إلا ٥ مرات فقط، فزادت حيرة الرجل.

أخذ يقرأ القرآن بتمعن أكثر؛ لعله يجد مأخذًا عليه...ولكنه صُعق بآية عظيمة وعجيبة، ألا وهي الآية رقم ٨٢ في سورة النساء ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [النساء، الآية ٨٢]

يقول الدكتور ملير عن هذه الآية: «من المبادئ العلمية المعروفة في الوقت الحاضر هو مبدأ إيجاد الأخطاء أو تقصِّي الأخطاء في النظريات إلى أن تثبت صحتها ويسمى Falsification test والعجيب أن القرآن الكريم يدعو المسلمين وغير المسلمين إلى إيجاد الأخطاء فيه، ولن يجدوا، يقول أيضًا عن هذه الآية: "لا يوجد مؤلف في العالم يمتلك الجرأة ويؤلف كتابًا ثم يقول: هذا الكتاب خالٍ من الأخطاء، ولكن القرآن على العكس تمامًا يقول لك: لا يوجد أخطاء، بل ويعرض عليك أن تجد فيه أخطاء ولن تجد».

أيضًا من الآيات التي وقف الدكتور ملير عندها طويلًا الآية رقم ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنبياء، الآية ٣٠].

يقول: «إن هذه الآية هي بالضبط موضوع البحث العلمي الذي حصل على جائزة نوبل في عام ١٩٧٣م، وكان عن نظرية الانفجار الكبير، وهي تنص أن الكون الموجود هو نتيجة انفجار ضخم حدث منه الكون بما فيه من سماوات وكواكب، فالرتق هو الشيء المتماسك، في حين أن الفتق هو الشيء المتفكك، فسبحان الله!».

يقول الدكتور ملير: "الآن نأتي إلى الشيء المذهل في أمر النبي محمدﷺ والادعاء بأن الشياطين هي التي تعينه، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[الشعراء، الآيات ٢١٠-٢١٢]، ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل، الآية ٩٨].

أرأيتم؟! هل هذه طريقة الشيطان في كتابة أي كتاب؟ يؤلف كتابًا ثم يقول قبل أن تقرأ هذا الكتاب: يجب عليك أن تتعوذ مني، إن هذه الآيات من الأمور الإعجازية في هذا الكتاب المعجز! وفيها رد منطقي لكل من قال بهذه الشبهة.

ومن القصص التي أبهرت الدكتور ملير، ويعتبرها من المعجزات هي قصة النبي مع أبي لهب... يقول الدكتور ملير:

هذا الرجل أبو لهب كان يكره الإسلام كرهًا شديدًا، لدرجة أنه كان يتبع محمدًاﷺ أينما ذهب؛ ليقلل من قيمة ما يقوله الرسولﷺ. إذا رأى الرسول يتكلم لناس غرباء، فإنه ينتظر حتى ينتهي الرسول من كلامه، ليذهب إليهم ثم يسألهم: ماذا قال لكم محمد؟ لو قال لكم أبيض فهو أسود، ولو قال لكم ليلاً فهو نهار. المقصد أنه يخالف أي شيء يقوله الرسول الكريمﷺ، ويشكك الناس فيه.

قبل ١٠ سنوات من وفاة أبي لهب نزلت سورة في القرآن اسمها سورة المسد، هذه السورة تقرر أن أبا لهب سوف يذهب إلى النار، أي بعبارة أخرى أن أبا لهب لن يدخل الإسلام. خلال عشر سنوات كل ما كان على أبي لهب أن يفعله هو أن يأتي أمام الناس ويقول: «محمد يقول: إني لن أسلم وسوف أدخل النار، ولكني أعلن الآن أني أريد أن أدخل في الإسلام وأصبح مسلمًا!! الآن ما رأيكم هل محمد صادق فيما يقول أم لا؟ هل الوحي الذي يأتيه وحي إلهي، لكن "أبو لهب" لم يفعل ذلك تمامًا رغم أن كل أفعاله كانت هي مخالفة الرسول ﷺ، لكنه لم يخالفه في هذا الأمر؛ يعني القصة كأنها تقول: إن النبي ﷺ يقول لأبي لهب: أنت تكرهني وتريد أن تُنهيني، حسنًا لديك الفرصة أن تنقض كلامي، لكنه لم يفعل خلال عشر سنوات!! لم يسلم ولم يتظاهر حتى بالإسلام، عشر سنوات كانت لديه الفرصة أن يهدم الإسلام بدقيقة واحدة! ولكن لأن الكلام هذا ليس كلام محمد ﷺ، ولكنه وحي ممن يعلم الغيب، ويعلم أن أبا لهب لن يسلم. كيف لمحمد ﷺ أن يعلم أن أبا لهب سوف يثبت ما في السورة إن لم يكن هذا وحيًا من الله؟! كيف يكون واثقًا خلال عشر سنوات أن ما لديه حق لو لم يكن يعلم أنه وحي من الله.

لكي يضع شخص هذا التحدي الخطير ليس له إلا أمر واحد، هذا وحي من الله ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴿٥﴾﴾ **[المسد، الآيات ١ - ٥]**.

يقول الدكتور ملير عن آية أخرى أبهرته أيضًا لإعجازها الغيبي: «من المعجزات الغيبية القرآنية التحدي للمستقبل بأشياء لا يمكن أن يتنبأ بها الإنسان، وهي خاضعة لنفس الاختبار السابق ألا وهو falsification test، أو مبدأ إيجاد الأخطاء حتى تتبين صحة الشيء المراد اختباره. وهنا سوف نرى ماذا قال القرآن عن علاقة المسلمين مع اليهود والنصارى.

القرآن يقول: إن اليهود هم أشد الناس عداوة للمسلمين، وهذا مستمر إلىٰ وقتنا الحاضر؛ فأشد الناس عداوة للمسلمين هم اليهود، ويكمل الدكتور ملير:

«إن هذا يعتبر تحديًا عظيمًا، ذلك أن اليهود لديهم الفرصة لهدم الإسلام بأمر بسيط، ألا وهو أن يعاملوا المسلمين معاملة طيبة لبضع سنين، ويقولون عندها: ها نحن نعاملكم معاملة طيبة، والقرآن يقول: إننا أشد الناس عداوة لكم، إذن القرآن خطأ!! ولكن هذا لم يحدث خلال ١٤٠٠ سنة!! ولن يحدث؛ لأن هذا الكلام نزل من لدن الذي يعلم الغيب وليس من لدن إنسان».

يكمل الدكتور ملير: «هل رأيتم أن الآية التي تتكلم عن عداوة اليهود للمسلمين تعتبر تحديًا للعقول: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [المائدة، الآيات ٨٢-٨٤]».

وعمومًا هذه الآية تنطبق علىٰ الدكتور ملير؛ حيث إنه من النصارىٰ الذي عندما علم الحق آمن ودخل الإسلام، وأصبح داعية له. وفقه الله. يكمل الدكتور ملير عن أسلوب فريد في القرآن أذهله لإعجازه: بدون أدنىٰ شك يوجد في القرآن توجه فريد ومذهل لا يوجد في أي مكان آخر، وذلك أن القرآن يعطيك معلومات معينة ويقول لك: لم تكن تعلمها من قبل!! مثل: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران، الآية ٤٤]، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَٱصْبِرْۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [هود، الآية ٤٩]، ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓاْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف، الآية ١٠٢].

يكمل الدكتور ملير: لا يوجد كتاب مما يسمىٰ بالكتب الدينية المقدسة يتكلم بهذا الأسلوب، كل الكتب الأخرىٰ عبارة عن مجموعة من المعلومات التي تخبرك من أين أتت هذه المعلومات. علىٰ سبيل المثال، الكتاب المقدس (الإنجيل المحرف) عندما يناقش قصص القدماء فهو يقول لك: الملك فلان عاش هنا، وهذا القائد قاتل هنا في معركة معينة، وشخص آخر كان له عدد كذا من الأبناء، وأسماؤهم فلان وفلان... إلخ. ولكن هذا الكتاب (الإنجيل المحرف) دائمًا يخبرك إذا كنت تريد المزيد من المعلومات، يمكنك أن تقرأ الكتاب الفلاني أو الكتاب الفلاني؛ لأن هذه المعلومات أتت منه.

وقال أيضًا: بعكس القرآن الذي يمد القارئ بالمعلومة، ثم يقول لك: هذه معلومة جديدة!! بل ويطلب منك أن تتأكد منها إن كنت مترددًا في صحة القرآن بطريقة لا يمكن أن تكون من عقل بشر، والمذهل في الأمر هو أهل مكة في ذلك الوقت -أي وقت نزول هذه الآيات- ومرة بعد مرة كانوا يسمعونها ويسمعون التحدي بأن هذه معلومات جديدة لم يكن يعلمها محمد ﷺ ولا قومه، بالرغم من ذلك لم يقولوا: هذا ليس جديدًا بل نحن نعرفه... أبدًا لم يحدث أن قالوا مثل ذلك ولم يقولوا: نحن نعلم من أين جاء محمد بهذه المعلومات. أيضًا لم يحدث مثل هذا، ولكن الذي حدث أن أحدًا لم يجرؤ علىٰ تكذيبه أو الرد عليه؛ لأنها بالفعل معلومات جديدة كليًّا!! وليست من عقل بشر، ولكنها من عند الله الذي يعلم الغيب في الماضي والحاضر والمستقبل.

إسلام رئيس جمهورية جامبيا ديفيد كيربا David Kerba

حياته وتأثير الغرب عليه:

إنه رئيس جمهورية (جامبيا) ديفيد كيربا ولد مسلمًا مثله مثل كثير من أطفال المسلمين، وكان يدرس القرآن ويحافظ علىٰ الصلاة في صغره، ولما كبر رحل إلىٰ بلاد الغرب فعاش هناك فترة شبابه وتأثر بهذه البلاد وبعاداتها وأفكارها واندمج


ديفيد كيربا (رئيس جمهورية جامبيا)

في حياة الغرب بكل انحرافاتها الفكرية والعقائدية حتى تخلى عن أعظم أمر، وهو دين الإسلام، لقد تخلى ديفيد كيربا عن الإسلام، وذلك بمخالطته بلاد الغرب ومخالطة تقاليدهم وعاداتهم.

وهذه القصة حقيقية من قصص العودة إلى حظيرة الإسلام والإيمان، بطلها ليس فردًا عاديًّا أو شابًّا ليس له هدف في الحياة، بل كان له هدف نبيل وعظيم ألا وهو تحرير بلاده، والآن إنه يمثل أعلى سلطة في بلاده... ولا تكمن غرابة القصة في كونه وصل رئيسًا للجمهورية، ولا لأنه ولد مسلمًا وعاش حياته في الغرب فاتبع أفكارهم وانحرافاتهم وتخلى عن إسلامه، ولكن غرابة القصة أنه في قمة السلطة وزهوة الدنيا ووصوله لأعلى منصب يصل إليه إنسان لم ينس طفولته وإسلامه، وكان بداخله صراع لكي يرجع إلى دينه وإلى ربه سبحانه وتعالى.

عمله بالسياسة

دخل ديفيد كيربا عالم السياسة التي يحبها، فدانت له، واستهوته لعبة المناصب وشهوتها التي وصل إلى أقصاها، وهو منصب رئيس جمهورية جامبيا. كان سياسيًّا بارعًا يظن أن العمل السياسي من أجل تحرير بلاده الواقعة تحت الاحتلال هو عمل أسمى من دين الإسلام، وهو بذلك يظنُّ أنه يُحسن صنعًا، لقد حقق هذا الرجل من إنجازات سياسية لبلاده الكثير، فقد انتشل هذا الوطن من الاحتلال والتخلف والضياع الفكري والاقتصادي، حتى ظن أنه قد بلغ أعلى عليين في الدنيا عندما تمكن مع رفاقه من تحرير بلادهم جامبيا من الاحتلال البريطاني في ١٨ من فبراير ١٩٦٥م، وتم إعلان جامبيا جمهورية، واختياره رئيسًا للبلاد في ٢٤ من إبريل ١٩٧٠م فإنّه كان يشعر أنه كسب معركة

مع الحياة، أما نفسه فما زال يبحث عنها. وقد خدعته جهوده التي يبذلها من أجل بلاده ومضت رحلته بين السياسة وبين قلبه وعقله وكان يقول:»...وما بين القلبين مضت بي الرحلة الطويلة، استطعت معها ومن خلالها أن أحقق كل ما أصبو إليه، تحرير وطن إفريقي أسود، ووضعه على خريطة الدنيا كدولة ذات سيادة».

وكان يقول عن النصر السياسي الذي حققه هو ورفاقه: «وكان نصرًا امتنزعًا من فم الأسد، يكفي لأن يدير الرؤوس، ويصيب الشبان الحالمين من أمثالنا في هذا الوقت بدوار السلطة.. كانت تلك معركة كبرى سلخت من أعمارنا نصف قرن من الزمان مع الحرب والنضال، والمفاوضات وتكوين الأحزاب، وخسارة المعارك والفوز بها -أيضًا- وما كان أسعدنا حينئذٍ ونحن ننشل وطننا من وهدة الاحتلال والتخلف والضياع الفكري والاقتصادي».

قصة إسلام ديفيد كيربا:

كانت له مقولة يرددها بين نفسه وكانت هي الدافع إلى إعادته إلى إسلامه وهي: فيقول عن نفسه: «كنت أشعر دائمًا أن لي قلبين في جوفي: قلبًا لي وقلبًا عليَّ، أما القلب الذي لي فكان يدفعني إلى الدراسة والسياسة وخوض معركة الحياة، وأما القلب الذي عليَّ فكان ما يفتأ يُلقِي على عقلي وقلبي سؤالًا لم يبرحه قَطُّ، هو: مَنْ أنت؟». ورغم وضعه السياسي ومكانته كان يبحث بداخله عن طريق الحق والصواب، يبحث عن الحقيقة، ولكنه لا يعرف أين يجدها. وكان يقول في نفسه (لم يكن هذا الفوز سوى لإرضاء النفس وغرورها، أما فطرة النفس فأخذت تحضّني على خوض المعركة الكبرى...لقد كسبت معركتك مع الحياة فاكسب معركتك مع نفسك، عُدّ إلى ذاتك، اكتشف المعدن الثمين الذي بداخلك...أزح ما عليه من هذا الركام من التغريب والعلمانية والدراسة في مدارس اللاهوت. كان الصوت يخرج من داخلي يقول لي: عُدّ إلى الطفل البريء الذي كان يجلس بين أيدي شيوخه ومعلميه يتلو القرآن ويسعى للصلاة.

هذا الرجل وهو طفل كان يتردد علىٰ الصلاة وعلىٰ حلقات تحفيظ القرآن ولكن لما اختلط بعادات وتقاليد وأفكار الغرب فأصبح مثلهم، ولكن صوت الحق الذي يخرج من داخله كان دائمًا يوقظ نفسه من الكفر إلىٰ الإسلام.

لذلك قرَّر هذا الرجل أن يرجع إلىٰ فطرته السليمة، وأن يجد نفسه فيقول: «هنا أحسست أن قلبي يصدقني، وأن لا شيء في الدنيا يعدل أن يكسب الإنسان العالم ويخسر نفسه، وببساطة قررت أن أكسب نفسي، أن أعود إلىٰ إسلامي الذي ضاع، أو كاد يضيع مني وأنا في خضم الحياة ومشاغلها ومباهجها، أستشعر الآن أني قد كسبت نفسي، وربحت تجارتي مع الله، وتعلمت درسًا لا يتعلمه إلا من كان في قلبه حسٌّ نابض، وعقل واعٍ».

وبذلك عاد الرئيس الجامبي إلىٰ فطرته السليمة، متسمِّيًا باسم (داود جاوارا) أو الحاج داود، تاركًا اسمه القديم (ديفيد كيربا)

نشاطه وإسهاماته الدينية

دعا هذا الرئيس المسلمين في جميع أنحاء العالم إلىٰ الوَحْدة، فيقول لهم: «إن المسلمين في جميع أنحاء العالم يجمعهم شيء واحد هو الإسلام الذي ليس مجرَّد مفاهيم نظرية، إنه سلوك وحضارة، وما أحوجنا هذه الأيام لكي نطبق سلوكيات الإسلام، ونأخذ بحضارته! لقد أصبحنا الآن في مأزق خطير؛ إن العالم كله يتحد والشعوب الأخرىٰ تتحالف في كيانات يصنعونها بأيديهم. نحن نمتلك كل أسباب القوة والحضارة، ومع ذلك لم نتحد بعدُ! هذا من ناحية، ومن ناحية أخرىٰ فإن المجال الاقتصادي الذي هو أيسر المجالات للتضامن ما زال بحاجة إلىٰ جهود مخلصة، ولابد أن يكون التعاون شاملاً لكل من يجمعهم الإسلام، سواء أكانوا في إفريقيا أم في آسيا أم في أوروبا وأمريكا.

ثم يضيف: «إننا لو بدأنا بالمجال الاقتصادي فإن نجاحنا في المجال الاجتماعي سيكون مضمونًا، هذا هو التضامن الحق الذي تدفعنا التغييرات الدولية لأنْ نطالب به في كل مؤتمر، وفي كل مكان.

ويرىٰ رئيس جمهورية جامبيا أن الوحدة الإسلامية ليست وهمًا وخيالًا، خصوصًا بعد أن شاهدنا منظومة المجموعات الأوروبية؛ إن ما يجمعنا أكثر مما يجمعهم، فلنجعلهم نموذجًا لنا برغم أن تراثنا مملوء بالنماذج المشرفة، ولتكن (منظمة المؤتمر الإسلامي) هي الإطار الذي يجمعنا، والذي ننطلق منه في طريق الوحدة الإسلامية.

ونلاحظ هنا أن هذا الرجل ذو شخصية سياسية محنكة، استفادت من تجاربها في عالم السياسة للخوض في مجال الدعوة إلىٰ الوحدة الإسلامية.

الدكتور روبرت كرين مستشار الرئيس الأمريكي الأسبق نيكسون:

حصلَ علىٰ درجة الدكتوراه في القانون الدولي والمقارن عام ١٩٥٩م، وشغل عدّة مناصب، منها: رئاسة جمعية هارفارد للقانون الدولي، ونائب مدير الأمن القومي الأمريكي، وأحد مستشاري الرئيس الأمريكي الأسبق. هو الدكتور روبرت كَرين (أو: فاروق عبد الحق بعد إعلان إسلامه عام ١٩٨٠م).

يقول الدكتور روبرت كرين عن الأسباب التي أدّت به إلىٰ الإسلام: «كان والدي يعمل أستاذًا في جامعة هارفارد. وقد علّمني أنْ أهتمَّ وأدافع عمّا هو صواب، وأنْ أحاول تجنّب الخطأ. وقد قضيتُ معظم وقتي في التحرّي عن العدل والعدالة قبل أن أصبحَ مسلمًا. وفي الندوة التي جمعتني مع البروفسير (روجيه جارودي) في دمشق سمعتُه يتحدثُ ويهاجم الرأسمالية منذ كان شيوعيًّا، وكلانا كان لديه الهدف نفسه، وهو أنْ يدعمَ العدالةَ. وكلانا كان ضدّ التركيز علىٰ الثروة؛ لأن الاهتمام بجمع الثروة ليس بعدلٍ. لقد اتّبع جارودي المبدأ الماركسي الذي يسعىٰ لتحطيم المِلْكيّة، في حين أني كنتُ أعتبرُ المِلكية مفتاحًا للحرية. لكن كلانا كان يرىٰ أنّ المِلكية تؤدي في النهاية إلىٰ الظلم وعدم انتشار العدل، وكلانا كان يدعو إلىٰ نظام يدعو إلىٰ إنتاج وإعطاء العدالة للجميع.. لذلك وجدنا أنَّ الإسلامَ هو الحلُّ الوحيد؛ فهو الذي يحمل العدالة

في مقاصد الشريعة، وفي الكليّات والجزئيات والضروريات. وأنا كمحامٍ كنتُ أسعىٰ إلىٰ مبادئ ليست من وضع البشر»[١].

أمَّا عن كيفيّة اهتدائه إلىٰ الإسلام، فيقول: «في عام ١٩٨٠م، وعلىٰ أثر انتصار الثورة الإسلامية في إيران، ازداد اهتمام الناس في الغرب بالإسلام، ولم يكن اهتمامهم إعجابًا به، وإنما اعتبروه تهديدًا لهم؛ لذلك تنادىٰ العديدُ مِن صُنّاع الفكر إلىٰ عقد الندوات والمؤتمرات حول هذا الموضوع. وقد حضرتُ أحد المؤتمرات كي أرىٰ ماهيّة هذه الدراسات والأطروحات المقدمة في خريف ١٩٨٠م، وكان مشاركًا في المؤتمر الكثير مِن قادة الفكر الإسلامي، ومنهم أحد القادة المسلمين الذي تكلَّمَ عدّة مرات وشرح الإسلام تمامًا، كما كنتُ أبحث عنه. فأدركتُ أنّه متقدّمٌ في أفكاره. ثُمّ رأيتُه وهو يصلي ويسجد، وكنتُ ضدّ مسألة السجود؛ لأنّ الإنسان في نظري لا يجب أنْ يسجدَ لأحدٍ، ففي هذا إهانة له ولإنسانيته. ولكنني أدركتُ أنَّ الشيخَ حسن الترابي ينحني لله ويسجد له، فالأَوْلىٰ أن أنحنيَ وأسجدَ أيضًا، وهكذا فعلتُ ودخلت الإسلامَ مِن يومِها»[٢].

المفكر الفرنسي البروفسير روجيه جارودي:

وقد صرّح غير مرةٍ أنَّ إسلامَه الذي اعتنقه ١٩٨٢م لم يكن بمحض الصدفة، بل جاء إسلامه بعد بحثٍ طويل في حضارات وديانات العالم كلّه، يقول جارودي: «أحبُّ أنْ أقول: إنَّ انتمائي للإسلام لم يأتِ بمحضِ الصُّدفة، بل جاء بعد رحلة عناء وبحث، ورحلة طويلة تخللتها منعطفات كثيرة، حتىٰ وصلتُ إلىٰ مرحلة اليقين الكامل، والخلود إلىٰ العقيدة أو الديانة التي تمثّل الاستقرار، والإسلامُ في نظري هو الاستقرار»[٣].

(١) سلسلة: نماذج حية للمهتدين إلىٰ الحق (من مشاهير العالم الذين أسلموا): الحسيني الحسيني معدي. دمشق: دار الكتاب العربي، ط١. ٢٠٠٦م. ٣/ ٢٠.

(٢) نماذج حية للمهتدين إلىٰ الحق، ٣/ ١٩-٢٠.

(٣) لماذا أسلمت؟ نصف قرن من البحث عن الحقيقة: روجيه جارودي، إعداد: محمد عثمان الخشت. القاهرة: مكتبة القرآن. د.ت. ص٧٠. وسنذكره تفصيلًا في العنصر الثاني مِن هذا المحور: لماذا أسلم هؤلاء؟

شبَّ وهو في سنِّ الرابعة عشرة علىٰ اعتناق البروتستانتية، ثم انضمَّ إلىٰ صفوف الحزب الشيوعي الفرنسي. وقد عاشَ حياةً مليئة بالأحداث والإنجازات الوظيفية والعلمية؛ ففي عام ١٩٤٥م انتُخِبَ نائبًا في البرلمان، ثم حصلَ علىٰ الدكتوراه في الفلسفة مِن جامعة السوربون عام ١٩٥٣م. وفي عام ١٩٥٤م حصل علىٰ الدكتوراه في العلوم مِن موسكو. ثم انتُخِبَ عضوًا في مجلس الشيوخ، وفي عام ١٩٧٠م أسّس مركز الدراسات والبحوث الماركسية، وبقي مديرًا له لمدة عشر سنوات.

وقد أخذ يبحث عن الحقيقة طيلة نصف قرنٍ مِن الزمان، حتىٰ أصدر كتابه «وعود الإسلام»، أو: «مَا يعدُ به الإسلام»، الذي أبرزَ فيه العناصرَ الإيجابية في الإسلام التي تجعل منه الاختيار الوحيد أمام البشرية للخروج مِن المأزق، والنجاة مِن الهلاك المُحقَّق. وبإصدار هذا الكتاب كان البداية الحقيقية لإسلام روجيه جارودي (أو: رجاء جارودي)، الذي أعلن إسلامه في عام ١٩٨٢م بجنيف.

يحدثنا جارودي عن حيثيات دخوله في الإسلام، فيقول: «بدا لي الإسلام مثل حامل إجابة عن أسئلة حياتي، لا سيما عن ثلاث نقاطٍ أساسية بالنسبةِ للوعي النقدي لهذا العصر:

١- لم يزعم النبي محمّد ﷺ أبدًا أنّه اختلقَ ديانةً جديدةً، لكنه يدعونا إلىٰ العقيدة الجوهرية لإبراهيم عليه السلام، وفي القرآن موسىٰ والمسيح عليهما السلام نبيّان للإسلام.

٢- الإسلام لا يفصل بين علم الحكمة وعلم الوحي. العلم الإسلامي في ذروته - في جامعة قرطبة - لم يفصل البحث في الأسباب عن البحث في الغايات. بعبارة أخرىٰ: أنه يجيب علىٰ السؤال (كيف)، والسؤال (لماذا). بهذه الكيفية يصبح العلم والأسلوب في خدمة تألّق الإنسان، وليس تحطيمه بإثارة رغباته وإرادة تسلط مجموعات أو قوميات. وفيما يتعلق بالوحي، فإنّه لا يتعارض لا مع العلم ولا مع الحكمة،

لكنه يعينهما على الوعي بحدودهما وبمسلّماتهما. ويعبّر جارودي عن ذلك بكلمته البليغة: (الإيمان عقلٌ بلا حدود)، وبذلك يضع العلاقةَ بين العقل والدين في إطارهما الصحيح.

٣- يسمحُ الإسلام بوضع مشكلة العلاقات بين العقيدة والسياسة (علاقات بين بعدين للإنسان) دون أن يخلطَهما مع العلاقات بين الكنيسة والدولة (علاقات بين مؤسسين)، مثلما حدث كثيرًا في أوروبا وبخاصة في فرنسا.

ويختتم مقالَه لمجلة (لوموند) الفرنسية، قائلًا: «هذا هو معنى اختيار عقيدة التوحيد، وهي في الوقت نفسه علم أخلاق العمل؛ لأنَّ الإسلامَ لا يعني الطاعة بمعنى الاستسلام، والجبرية والخضوع، فهذا هو استسلام، لكنه الاستجابة لنداء الله سبحانه وتعالى استجابة نشطة، حرة، مسئولة.. وبعيدًا عن التهكّم والتهديدات الوصول، مثلما كتبت، إلى الفرح العظيم: أنْ أظلَّ بعد سبعين عامًا مخلصًا لحلم سنواتي العشرين»[1].

أم عبد الملك الأمريكية:

امرأةٌ أمريكيةٌ بسيطةٌ، لم تكن تعرف شيئًا عن الإسلام وتعاليمه. بل إنها سخرت وضحكت حينما سمعت كلمة (الإسلام) أول مرّة في أثناء مشاهدتها لبرنامج تليفزيوني.

ثم لم تلبث أنْ شاهدت بعينيها كيفَ حرص الإسلامُ على برِّ الوالدين، فأذهلها ذلك، وشرح الله صدرها للإسلام فأسلمت. وصدق الله العظيم حين قال في كتابه الكريم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ﴾ [**الأنعام، من الآية ١٢٥**].

تروي قصّة إسلامها، فتقول: «أول مرة سمعتُ فيها كلمة الإسلام كانت في أثناء متابعتي لبرنامج تليفزيوني، فضحكتُ مِن المعلومات التي سمعتها.

(١) لماذا أسلمتُ، ص٧٠-٧١.

بعد عام مِن سماعي كلمة (الإسلام) استمعتُ لها مرة أخرىٰ. ولكن أين؟ في المستشفىٰ الذي أعمل فيه؛ حيثُ أتىٰ زوجان وبصحبتهما امرأة مريضة وجميعهم مسلمون.

جلست الزوجةُ تنظرُ أمام المقعد الذي أجلس عليه لمتابعة عملي، وكنتُ ألاحظُ عليها علامات القلق، وكانت تمسحُ دموعها.

مِن باب الفضول سألتُها عن سبب ضيقها، فأخبرتني أنها أتت مِن بلدٍ آخر مع زوجها الذي أتىٰ بأمه باحثًا لها عن علاجٍ لمرضِها العضال.

كانت المرأةُ تتحدثُ معي وهي تبكي وتدعو لوالدة زوجها بالشفاء والعافية. فتعجبتُ لأمرها كثيرًا!! تأتي مِن بلدٍ بعيدٍ مع زوجها مِن أجل أن يعالجَ أُمَّه؟

تذكرتُ أمي وقلتُ في نفسي: أين أمي؟ قبل أربعة أشهر أهديتُها زجاجة عطرٍ بمناسبة (يوم الأم)، ولم أفكر منذ ذلك اليوم بزيارتها! هذه هي أمي، فكيف لو كانت لي أم زوج؟!

لقد أدهشني أمر هذين الزوجين، لا سيما أنَّ حالةَ الأم صعبة وهي أقرب إلىٰ الموت مِن الحياة.

أدهشني أمر الزوجة، مَا شأنها وأم زوجها؟! أتتعب نفسها وهي الشابة الجميلة مِن أجلها؟ لماذا؟

لم يعد يشغل بالي سوىٰ هذا الموضوع؟ تخيلتُ نفسي لو أني بدل هذه الأم. يا للسعادة التي سأشعرُ بها، يا لحظ هذه العجوز! إني أغبطها كثيرًا كثيرًا.

كان الزوجان يجلسان طيلة الوقت معها، وكانت مكالماتٌ هاتفية تصل إليه مِن الخارج، يسأل فيها أصحابها عن حال الأم وصحتها. دخلتُ يومًا غرفة الانتظار فإذا بها جالسةٌ، فاستغلتُها فرصةً لأسألها عما أريد. حدثتني كثيرًا عن حقوق الوالدين في الإسلام، وأذهلني ذلك القدر الكبير الذي يرفعهما الإسلام إليه، وكيفية التعامل معهما.

بعد أيّام تُوفيت العجوز، فبكىٰ ابنها وزوجته بكاءً حارًّا وكأنهما طفلان صغيران.

بقيتُ أفكّر في هذين الزوجَيْن وبما علمتُه عن حقوق الوالدين في الإسلام، وأرسلتُ إلىٰ أحد المراكز الإسلامية بطلب كتابٍ عن حقوق الوالدين.

ولما قرأتُه عشتُ بعده في أحلام يقظة أتخيل خلالها أني أمٌّ، ولي أبناء يحبونني ويسألون عني، ويحسنون إليّ حتىٰ آخر لحظةٍ مِن عمري ودون مقابل.

هذا الحلم الجميل جعلني أُعلن إسلامي دونَ أنْ أعرف عن الإسلام سوىٰ حقوق الوالدين فيه. وبعد ذلك عرفتُ أنّ كل أوامرِه تهدي إلىٰ الحق، وكل نواهيه تبعد عن الشرّ.

الحمد لله تزوجتُ مِن رجلٍ مسلمٍ، وأنجبتُ منه أبناء ما برحتُ أدعو لهم بالهداية والصلاح، وأنْ يرزقني الله برهم ونفعهم»(١).

المفكر الإنجليزي مارتن لنجز:

شابٌّ كان يدينُ بالمسيحية شأن أسرته التي لا تعرف شيئًا عن الدين إلا أنها مسيحية بالوراثة، فنشأ خالي النفس مِن أيّة عقيدةٍ يؤمن بها حقّ الإيمان.

لكنه بدأ في نضجه الفكريّ بعد أن حصل علىٰ شهادة الـ ﴿حَرْثَ﴾ ﴿أَصَابَتْ﴾ في الآداب الإنجليزية؛ حيث بدأ يُنقّب في كتب التراث عن الديانات المنتشرة في العالم ليقرأ عنها جميعًا، فاستوقفه دين الإسلام وشريعته ذات المنهاج الواضح الذي يتفق مع المنطق والعقل.

حينئذٍ استشعر أنّه قد وجد نفسَه مع هذا الدين الذي يتفق مع فطرة الإنسان التي جُبِلَ عليها، يقول: «لقد وجدتُ في الإسلامِ ذاتي التي افتقدتُها طوال حياتي، وأحسستُ وقتها أني إنسان لأوّل مرةٍ. فهو دينٌ يرجعُ بالإنسانِ إلىٰ طبيعتِه، حيث

(١) إظهار الحق، ص١٢-١٣.

يتفقُ مع فطرة الإنسانِ»، ثم يقولُ: «شاء الله لي أنْ أكونَ مسلمًا، وعندما يشاءُ الله فلا رادَّ لقضائه. وهذا هو سبب إسلامي أولًا وقبل كل شيءٍ».

ثم لم يلبث، بعد أنْ أسلم مارتن لنجز (أو: أبو بكر سراج الدين)، أنْ علا بإيمانه فزهد في الدنيا وزخرفها في مجتمعٍ يموج بالفتن والملذات المغرية. لكنّ مفهومه لهذا الزهد والتصوف لا يعني - مِن وجهة نظره - انعزال الدنيا، وإنما هو: «أخذٌ بأسباب الحياة في الظاهر، والإعراض عنها بالقلب»(١).

الكاتبة الأمريكية مريم جميلة

هي امرأة أمريكية مِن أصل يهوديٍّ، لم تمنعها عصبية أبناء دينها وكراهيتهم الشديدة للإسلام الذي يعتبرونه نسخةً مشوّهةً مِن دينهم نقلها بدويٌّ إلى قومِه من البحث عنِ الحقيقة ثم اعتناق الإسلام، والزواج من باكستاني والسفر معه لتقيم في باكستان. تقول: «إنني آمنتُ بالإسلام لأنّه الحقُّ، ولم أدخله لأنه يعطيني حقًّا كامرأةٍ افتقدتُه في بيئتي الغربية، أو يمنحني الملاذ مِن حضارةٍ لم أتكيّف معها»(٢).

أمَّا عن سبب إسلامها فهو جملةُ أسباب صادفتها أدت في النهاية إلى إسلامها، هي:

أ- استماعها بمحض الصدفة إلى آيات مِن القرآن الكريم: تقول: «بمصادفة محضةٍ استمعتُ ذات يوم إلى موسيقى عربية في المذياع فشَدَّتني، فذهبتُ لشراء بعض الأسطوانات العربية، وبمصادفةٍ أخرى كان بين هذه الأسطوانات تسجيلٌ لآيات سورة مريم، فانجذبت إلى القرآن».

(١) نماذج حية للمهتدين إلى الحق، ٢/ ٣٩-٤٠.

(٢) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ٣/ ١٦.

وتذكر كذلك أنَّ أقوىٰ مَا أثَّرَ فيها - أيضًا - تلاوةٌ استمعت إليها في مسجدٍ بنيويورك مِن طفلٍ قادمٍ من (زنزبار) أي زنجبار، وأنّ صوته وتجويده أفضل مِن كثيرٍ مِن المُقرئين المشهورين.

ب- صدق الإسلام وصحته في أسئلة طالما لم تجد عنها إجابة عند والديها: فتذكر مريم صراحةً أنَّ الذي أقنعها تمامًا بصدق الإسلام وصحته هو إجابته الشاملة والواضحة علىٰ مشاكل كانت تؤرقها طيلة فترة مراهقتها وشبابها.. تلك التي تتصل بالموت والخوف منه؛ فقد كانت لا تجد إجابة عند والديها عندما تسألهما عن المصير بعد الموت، إذ كان يعجبان مِن سؤالها ويقولان لها: إنَّ الحياة أمامها طويلة. فقد كانا لا يؤمنان بالآخرة وبالبعث والحساب والجنة والنار، ولم تسعفها التوراة والتلمود برأي، فالجزاء فيهما دنيوي محضٌ. أمّا الإنجيل فكانت صورة الآخرة فيه مبهمة غير مفصلةٍ. ولم يكن هناك غير القرآن يجيبُ عن هذا السؤال، فيريح العقل المعذب الحائر، الذي يجد فيه معنىٰ الحياة والمآل، والثواب والعقاب.

ج- تسامحُ الإسلام مع الآخرين: وتتجلىٰ صورة التسامح عندها في غير موطن، منها: أنها لم تتعرض قط خلال جولاتها في العالم الإسلامي، وفي أثناء إقامتها مع زوجها في باكستان إلىٰ أي طعنٍ أو تمييز بسبب كونها مِن أصل يهوديٍّ.

وتضيف قائلة: «إنَّ مِن التسامح الإسلامي أيضًا أنّ موسىٰ بن ميمون كانَ الطبيبَ الشخصيّ لصلاح الدين الأيوبي، فهو مثل غيره مِن اليهود لم يشعروا بغربةٍ وسط الحضارة الإسلامية، مثلما شعروا به في وسط الحضارة الغربية مثلًا».

ثم تقارن ذلك التسامح الإسلامي بالطابع العنصري لليهود بقولها: «ويتجلىٰ الطابع القومي العنصري لليهود في رفضهم للأفراد الداخلين في

اليهودية والتشكك في دوافعهم»، ثم تضرب أمثلتها مِن معارفها في نيويورك، فتحدثنا عن الفتاة الألمانية التي تزوجت مِن يهوديٍّ واعتنقت دينَه، ومع ذلك ظلت أسرته تقاطعها. كما تحدثنا عن الفتاة الأمريكية التي دخلت اليهودية عند زواجها من شاب يهودي لتُفاجأ بأنَّ مِن سلطة الحاخام عدم قبول هذا الاعتناق للدين[1].

الطبيب والجراح الفرنسي موريس بوكاي:

ولد موريس بوكاي من أبوين فرنسيين، وترعرع كما ترعرع أهله في الديانة النصرانية. ولما أنهى تعليمه الثانوي انخرط طالبًا في كلية الطب في جامعة فرنسا، فكان من الأوائل حتى نال شهادة الطب، وارتقى به الحال حتى أصبح أشهر وأمهر جراح عرفته فرنسا الحديثة.

فكان من مهارته في الجراحة قصة عجيبة قلبت له حياته وغيرت له كيانه، وشرحت له قلبه للإسلام:

لقد اشتهر عن فرنسا أنها من أكثر الدول اهتمامًا بالآثار والتراث، وعندما تسلم الرئيس الفرنسي الاشتراكي الراحل (فرانسوا ميتران) زمام الحكم في البلاد عام ١٩٨١م طلبت فرنسا من دولة (مصر) في نهاية الثمانينيات استضافة مومياء (فرعون مصر) إلى فرنسا؛ لإجراء اختبارات وفحوصات أثرية ومعالجة.

وحملت مومياء الطاغوت بموكب لا يقل حفاوة عن استقباله، وتم نقله إلى جناح خاص في مركز الآثار الفرنسي؛ ليبدأ بعدها أكبر علماء الآثار في فرنسا وأطباء الجراحة والتشريح دراسة تلك المومياء واكتشاف أسرارها. وكان رئيس الجراحين والمسئول الأول عن دراسة هذه المومياء الفرعونية هو البروفيسور موريس بوكاي.

كان المعالجون مهتمين بترميم المومياء، بينما كان اهتمام رئيسهم (موريس

---

(١) انظر: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ٣/ ١٦-١٨.

بوكاي) مختلفًا عنهم للغاية، كان يحاول أن يكتشف كيف مات هذا الملك الفرعوني؟

وفي ساعة متأخرة من الليل ظهرت نتائج تحليله النهائية.. لقد كانت بقايا الملح العالق في جسده أكبر دليل على أنه مات غريقًا..! وأن جثته استخرجت من البحر بعد غرقه فورًا، ثم أسرعوا بتحنيط جثته لينجو بدنه!

لكن ثمة أمرًا غريبًا مازال يحيره، وهو: كيف بقيت هذه الجثة دون باقي الجثث الفرعونية المحنطة أكثر سلامة من غيرها رغم أنها استخرجت من البحر؟!

كان موريس بوكاي يعد تقريرًا نهائيًّا عما كان يعتقده اكتشافًا جديدًا في انتشال جثة فرعون من البحر وتحنيطها بعد غرقه مباشرة، حتى همس أحدهم في أذنه قائلًا: لا تتعجل؛ فإن المسلمين يتحدثون عن غرق هذه المومياء.

ولكنه استنكر بشدة هذا الخبر واستغربه؛ فمثل هذا الاكتشاف لا يمكن معرفته إلا بتطور العلم الحديث، وعبر أجهزة حاسوبية حديثة بالغة الدقة. فقال له أحدهم: إن قرآنهم الذي يؤمنون به يروي قصة عن غرقه وعن سلامة جثته بعد الغرق.

فازداد ذهولًا وأخذ يتساءل: كيف يكون هذا وهذه المومياء لم تكتشف أصلًا إلا في عام ١٨٩٨ ميلادية، أي قبل مائتي عام تقريبًا، بينما قرآنهم موجود قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام؟! وكيف يستقيم في العقل هذا، والبشرية جمعاء وليس العرب فقط لم يكونوا يعلمون شيئًا عن قيام قدماء المصريين بتحنيط جثث فراعنتهم إلا قبل عقود قليلة من الزمان فقط؟

حينئذٍ جلس (موريس بوكاي) ليلته محدقًا بجثمان فرعون، يفكر بإمعان عما همس به صاحبه له من أن قرآن المسلمين يتحدث عن نجاة هذه الجثة بعد الغرق... بينما كتابهم المقدس (إنجيل متى ولوقا) يتحدث عن غرق فرعون في أثناء مطاردته لسيدنا موسى عليه السلام دون أن يتعرض لمصير جثمانه البتة.. وأخذ

يقول في نفسه: هل يعقل أن يكون هذا المحنَّط أمامي هو فرعون مصر الذي كان يطارد موسىٰ؟! وهل يعقل أن يعرف محمدهم هذا قبل أكثر من ألف عام وأنا للتو أعرفه؟!

لم يستطع (موريس) أن ينام، وطلب أن يأتوا له بالتوراة، فأخذ يقرأ في (سفر الخروج) من التوراة قوله: «فرجع الماء وغطىٰ مركبات وفرسان جميع جيش فرعون الذي دخل وراءهم في البحر، لم يبق منهم ولا واحد».

لم يهنأ لـه قرار، ولم يهدأ له بال، منذ أن هـزّه الخبر الذي يتناقـله المسلمون عن سلامة هذه الجثة! فحزم أمتعته وقرر أن يسافر إلىٰ المملكة العربية السعودية لحضور مؤتمر طبي يتواجد فيه جمع من علماء التشريح المسلمين.

وهناك كان أول حديث تحدثه معهم عما اكتشفه من نجاة جثة فرعون بعد الغرق، فقام أحدهم وفتح له المصحف، وأخذ يقرأ له قوله تعالىٰ: ﴿ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴾ [يونس، الآية ٩٢].

لقد كان وقْعُ الآية عليه شديدًا.. ورجَّته رجَّةً جعلته يقف أمام الحضور، وأخذ يصرخ بأعلىٰ صوته: «لقد دخلت الإسلام وآمنت بهذا القرآن»[(١)].

يقول في كتابه «القرآن الكريم والعلم العصـري»، الذي منحته الأكاديمية الفرنسية عام ١٩٨٨م جائزة في التاريخ: «إنَّ أول مَا يثير الدهشة في روح مَنْ يواجه نصوص القرآن لأول مرةٍ هو ثراء الموضوعات العلمية المعالَجة، وعلىٰ حين نجد في التوراة الحالية أخطاء علمية ضخمة، بينما لا نكتشف في القرآن أي خطأ. ولو كان قائل القرآن إنسانًا فكيف يستطيع في القرن السابع [يعني: الميلادي] أنْ يكتبَ حقائق لا تنتمي إلىٰ عصـره.. ليس هناك تفسيرٌ وضعيٌّ لمصدر القرآن»[(٢)].

---

(١) نماذج حية للمهتدين إلىٰ الحق، ٢/ ١٢-١٥.

(٢) السابق، ٢/ ١١.

ويقول في آخر جملة من كتابه «دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة»: «بالنظر إلى مستوى المعرفة في أيام محمد فإنه لا يمكن تصور الحقائق العلمية التي وردت في القرآن على أنها من تأليف بشر؛ لذا فمن الإنصاف تمامًا أن لا ينظر فقط إلى القرآن على أنه التنزيل الإلهي فحسب، بل يجب أن تُعطى له منزلة خاصة جدًّا للأصالة التي تقدمها المعطيات العلمية التي وردت فيه، والتي إذا ما درست اليوم تبدو وكأنها تتحدى تفسير البشر»[(١)].

ونستنتج من هذا أنّ مَنْ عصى الله دخل النار وله العذاب في الدنيا والآخرة إلا من تاب، وقد جعل الله فرعون آية؛ لأنه كان متكبرًا ظالمًا يدعي الألوهية فقد قال: ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٤ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلۡأٓخِرَةِ وَٱلۡأُولَىٰٓ ٢٥ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّمَن يَخۡشَىٰٓ ٢٦﴾ [النازعات، الآيات ٢٤ - ٢٦].

وكذلك جعل أبرهة وقومه حينما أراد هدم الكعبة، فأرسل عليه طيرًا أبابيل ونزلت فيهم السورة، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ [الفيل، الآية ١-٥].

وأعاد الله أبرهة إلى صنعاء لكي يجعله آية لمن خلفه، لأنه لم يؤمن بالله وأراد أن يهدم الكعبة.

هيرالال ابن الزعيم الهندي المهاتما غاندي

تربّى هيرالال في بيت أبيه الزعيم الهندي الكبير (المهاتما غاندي)، حيث كان يعتنق ديانة الهندوسية، وطائفته (البراهمية) التي تعدُّ مِن أرقى الطوائف في الهند. فلم يكن غريبًا أنْ يتعمق في دراسة الهندوسية، ودراسة آلهتها المتعددة وشرائعها وكتبها القديمة، مثل: (الفيدا)، و(البرهمانا)، و(اليجفادجيتا) وغيرها، وصراع هذه الديانة مع غيرها كـ(البوذية).

---

(١) دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ٢٢٢.

وقد أتاح له عمله بالمحاماة فرصة التعرف على الظروف الاجتماعية السيئة التي يحياها الناس في بلاده، ومدى الظلم الذي يمارسه الهندوس ضد غيرهم من الطوائف، بل مع بعض أبناء طائفتهم ذاتها ممّن يطلقون عليهم اسم (المنبوذين)، ويرون أنَّ على هؤلاء أنْ يقوموا بخدمة البراهمة، وبدون هذه الخدمة ليس لهم أجر أو ثواب.

الأمرَ الذي دعاه إلى التفكير حول مدى صحة هذه الديانة التي تفرق بين الناس، وآلمه ما يراه مِن مساواة بين المسلمين وبعضهم البعض، فلا فرق بين غني وفقير، ولا بين سليل عائلة وصعلوك. وخاصة بعد ما لاحظ أنَّ هناك كتبًا للهندوس تتحدث عن نبيّ له صفات النبيّ محمد ﷺ.

وكان هيرالال يعرف الكثير عن الإسلام نتيجةَ اطلاعه الدائم على مَا كُتِب عنه، وعلق بذهنه قوله تعالى: ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ **[النساء، الآيتان ١٦٤ – ١٦٥]**.

فأيقن حينئذ أنَّ شيئًا مِن الحق يسطعُ أمامه، وأنّه قد وجدَ بداية طريقه نحو الحقيقة التي يبحث عنها؛ ومِن ثم عزم على إشهار إسلامه بعد أنْ قرأ قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ **[آل عمران، الآية ٨٥]**.

فلم يكن منه بعد أنْ التقى ببعض الدعاة إلا أنْ توجّه يوم جمعة إلى الجامع الكبير في مدينة (بومباي)، وأمام أكثر من عشرين ألف مسلم حضروا للصلاة في الجامع أعلن هيرالال غاندي إسلامه، وتسمّى باسم: (عبد الله هيرالال غاندي)، وصعد على المنبر وألقى كلمة خالدة، من ضمن ما جاء فيها قوله: «كلكم يعلم بأني أنا هيرالال ابن الزعيم الوثني الكبير غاندي، فأنا أُعْلِنُ على رؤوس الأشهاد، وفي وسط هذا الجمع العظيم من المسلمين، بأني قد عشقتُ

الإسلام، وأحببتُ القرآن، وآمنتُ بالله وحده، وبالرسول الأطهر سيدنا محمد صلوات الله تعالىٰ عليه، وأنّه خاتم النبيين، وأنّه لا نبيَّ بعده، وأنّ ما جاء به القرآن حق، والكتب المنزلة كلها حق، وأنبياء الله ورسله حقٌّ، فللإسلام وللقرآن سأحيا وأموت، وسأدافع وسأناضل، وسأكون إحدىٰ دعاماته الكبرىٰ، وسأكون مبشـرًا به، وداعيًا له بين قومي وعشيرتي، لأنَّ هذا الدين الحنيف هو دين العلم والثقافة، والعدل والأمانة، والرحمة والمساواة»(١).

الإسبانية لورا رودريجيز

«لقد اخترت الإسلام؛ لأنه أعطاني الحقوق التي لم تمنحني إياها الكاثوليكية».

هكذا بدأت الإسبانية (لورا رودريجيز) قصة اعتناقها الإسلام، مركزة حديثها عن حقوق المرأة المهاجرة في إسبانيا. ولدت (لورا رودريجيز) لأبوين كاثوليكيين، وتلقت تعليمها في المدارس الكاثوليكية، وبعد أن اعتنقت الإسلام أعلنتها قوية: «لقد اخترت الإسلام لأنه أعطاني الحقوق التي لم تمنحني إياها الكاثوليكية، مثل: الحرية الفردية، والحقوق القانونية، وحق التعليم والعمل، حتىٰ الحق في المعاشرة الزوجية».

توضح رودريجيز (الرئيسة الحالية لاتحاد النساء المسلمات في إسبانيا) أكثر، فتقول: «لا يمكن للمرأة الكاثوليكية أن تتواصل مع الله بشكل مباشر، كما أنها ليس لها الحق بالطلاق، ومهمتها إنجاب الأطفال فحسب، وحتىٰ وقت قريب، تحتاج المرأة الإسبانية الحصول علىٰ موافقة رسمية من أزواجهن لفتح حساب مصرفي». هذا ما أشار له يوسف فرنانديز أوردونيز، أمين الاتحاد الإسلامي في إسبانيا، والذي تتبعه المنظمة التي تقودها رودريجيز.

---

(١) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، ١/ ٢٥-٢٧.

وعندما سئلت رودريجيز: لماذا نجد النساء في البلدان المسيحية أكثر حصولًا على التعليم وعلى الحقوق الشخصية، وأكثر تواجدًا في الحياة العامة الخاصة بالمقارنة مع نظيراتهم المسلمات؟ أجابت: لا يمكننا تقييم أوروبا من خلال منظور مسيحي، فربما يكون الأفراد مسيحيين، لكن الكنيسة فقدت قوتها للتأثير على المجتمع. على الرغم من ذلك تؤكد رودريجيز أنها حصلت على المزيد من الحقوق بعد اعتناقها الإسلام، لكنها في الوقت ذاته أقرّت بأنه لا يزال هناك عمل كثير ينبغي القيام به لتحسين أوضاع المرأة المسلمة والمهاجرين وخاصة في إسبانيا. وكانت رودريجيز قد عملت في قضايا الهجرة في السنوات السبع عشر الماضية؛ لذلك ترى أن المهاجرات يواجهن المزيد من الصعوبات بالمقارنة مع نظرائهم من الرجال.

التحيُّزُ ضدّ الإسلام.

وجهت رودريجيز انتقادها بشدة لوسائل الإعلام الإسبانية؛ حيث قالت: «إن وسائل الإعلام هناك لا تتحدث فقط عن الإسلام بدلالات سلبية، ولكنها تصور أيضًا المسلمين والمسلمات بشكل فيه تعريض، حيث يصف الرجال بالعنف والهيمنة والسيطرة، بينما تصور السيدات بالخانعات والضحايا. لقد قمنا بتنظيم معرض للمسلمين في إسبانيا، لكن الصحافة لم تظهر اهتمامًا به. أما إذا قلنا إننا سنعرض المرأة في العصور الوسطى بمدريد، كانت جميع أنواع وسائل الإعلام ستلاحقنا». وأضافت رودريجيز: «إن الإسلام يتم تعريفه بالتطرف والإرهاب، إلى جانب أنه يخص المهاجرين فحسب، بدلًا من أن ينظر إليه في إسبانيا على أنه جزء من الهوية الأوروبية: هذه هي مشكلة الهوية، لقد ولدنا أوربيين، ولكننا نعتنق الدين الإسلامي في الوقت الحالي؛ لذا فقد صار الإسلام هو أيضًا جزء من الهوية الأوروبية».

ويوضح أوردونيز أن المسلمين المهاجرين في إسبانيا يندمجون إلى حد ما في المجتمع بشكل جيد؛ فقد شدد هو ورودريجيز على أن البعد الاجتماعي

للمشاكل التي تواجه المسلمين في إسبانيا تتفاقم بسبب التحيز ضد الإسلام والمهاجرين، وكما تقول رودريجيز: «نحن علمانيون ولسنا متطرفين؛ لذا إذا ما حاولت أن أدخل إلى حزب سياسي سأقابل بالرفض بسبب حجابي».

دكتور مراد فيلفريد هوفمان Murad Wilfried Hofmann

حياته والتعريف به



هو مراد فيلفريد هوفمان المولود عام ١٩٣١م الألماني الجنسية وكان يعتنق المسيحية الكاثوليكية درس في ألمانيا حتى حصل على شهادة الدكتوراه في القانون من جامعة هارفارد، وعمل كخبير في مجال الدفاع النووي في وزارة الخارجية الألمانية، ثم مديرًا لقسم المعلومات في حلف الناتو في بروكسل من عام ١٩٨٣ حتى ١٩٨٧م، ثم سفيرًا لألمانيا في الجزائر من ١٩٨٧ حتى ١٩٩٠م، ثم سفيرًا في المغرب من ١٩٩٠ حتى ١٩٩٤م. وهو متزوج من سيدة تركية.

تعرض مراد هوفمان في مقتبل عمره لحادث مرور مروِّع وقليل ما ينجو منه أحد، حتى إن الطبيب الجرّاح الذي أشرف عليه، وبعد أن أنهى إسعافه قال له: «إن مثل هذا الحادث لا ينجو منه في الواقع أحد، وإن الله يدّخر لك يا عزيزي شيئًا خاصًّا جدًّا»

وصدّق القدر حَدْسَ الطبيب، إذ اعتنق د. هوفمان الإسلام عام ١٩٨٠م بعد دراسة عميقة له، وبعد معاشرته لأخلاق المسلمين الطيبة في المغرب، وكان إسلامه موضع نقاش بسبب منصبه الرفيع في الحكومة الألمانية.

ما الذي أوصل دكتور مراد هوفمان للإسلام:

إن الذي أوصل الدكتور مراد هوفمان لاعتناق الإسلام عدة أسباب،

منها (التعايش بين المسلمين – تحمل المسلمين الظروف الصعبة في سبيل حريتهم وعقيدتهم – أخلاق المسلمين ومعاملاتهم – مواقف حدثت في حياة دكتور هوفمان مع المسلمين) وهذا ما سيوضحه كلام هوفمان نفسه وهو يسرد أسباب إسلامه ونترك له الحديث.

قال هوفمان

في اختبار القبول بوزارة الخارجية الألمانية، كان على كل متقدم أن يلقي محاضرة لمدة لا تتجاوز خمس دقائق في موضوع يُحدَّد عشوائيًّا، ويُكلَّف به قبلها بعشر دقائق، ولكم كانت دهشتي عندما تبين لي أن موضوع محاضرتي هو «المسألة الجزائرية».

وكان مصدر دهشتي هو مدى علمي بهذا الموضوع، وليس جهلي به. وبعد شهور قليلة من الاختبار، وقبل أن أتوجه إلى جنيف بوقت قصير، أخبرني رئيس التدريب، عندما التقينا مصادفة في أثناء تناولنا للطعام، أن وجهتي قد تغيرت إلى الجزائر.

وفي أثناء عملي بالجزائر في عامي ١٩٦١/ ١٩٦٢م، عايشت فترة من حرب استمرت ثماني سنوات بين قوات الاحتلال الفرنسي وجبهة التحرير الوطني الجزائرية، وانضمَّ في أثناء فترة وجودي هناك طرف ثالث هو «منظمة الجيش السري»، وهي منظمة إرهابية فرنسية، تضم مستوطنين وجنودًا متمردين، ولم يكن يوم يمر دون أن يسقط عدد غير قليل من القتلى في شوارع الجزائر، وغالبًا ما كانوا يُقتَلون رميًا بالرَّصاص على مؤخرة الرأس من مسافة قريبة، ولم يكن لذلك من سبب إلا كونهم مسلمين.

شكَّلت هذه الوقائع الحزينة خلفية أول احتكاك لي عن قربٍ بالإسلام، ولقد لاحظت مدى تحمل الجزائريين لآلامهم، والتزامهم الشديد في شهر رمضان، ويقينهم بأنهم سينتصرون، وسلوكهم الإنساني وسط ما يعانون من آلام. وكنتُ أدرك أن لدينهم دورًا في كل هذا، ولقد أدركت إنسانيتهم في

أصدق صورها، حينما تعرضت زوجتي للإجهاض تحت تأثير «الأحداث» الجارية آنذاك. فلقد بدأت تنزف عند منتصف الليل، ولم يكن باستطاعة سيارة الإسعاف أن تحضر إلينا قبل الساعة السادسة صباحًا؛ بسبب فرض حظر التجول، وبسبب شعار «القتل دون سابق إنذار» المرفوع آنذاك. وحينما حانت الساعة السادسة، أدركت وأنا أُطِلُّ من نافذة مسكني في الطابق الرابع، أن سيارة الإسعاف لا تستطيع العثور علينا، بعد تأخير طال كثيرًا، كنَّا في طريقنا متجهين إلى عيادة الدكتور، وكانت زوجتي تعتقد - في تلك الأثناء - أنها ستفقد وعيها؛ ولذا - وتحسبًا للطوارئ - راحت تخبرني أن فصيلة دمها هي O ذات RH سالب، وكان السائق الجزائري يسمع حديثها، فعرض أن يتبرع لها ببعض من دمه الذي هو من نفس فصيلة دمها. ها هو ذا المسلم يتبرع بدمه، في أتون الحرب، لينقذ أجنبية على غير دينه، ولكي أعرف كيف يفكر ويتصرف هؤلاء السكان الأصليون المثيرون للدهشة، بدأت أقرأ «كتابهم» القرآن في ترجمته الفرنسية، ولم أتوقف عن قراءته منذ ذلك الحين حتى الآن، وحتى تلك اللحظة، لم أكن قد تعرفت على القرآن إلا من خلال النوافذ المفتوحة لكتاتيب تحفيظ القرآن في ميزاب جنوب الجزائر، حيث يحفظه أطفال البربر، ويتلونه في لغة غريبة عنهم، وهو ما دهشت له كثيرًا. وفيما بعد أدركت أن حفظ وتلاوة القرآن، باعتباره رسالة الله المباشرة، فرض تحت الظروف كافة، وبعد ٢٥ عامًا من عملي بالجزائر لأول مرة، عُدتُ إليها سفيرًا في عام ١٩٨٧م، ومنذ اعتُمِدتُ سفيرًا في المغرب، المجاور للجزائر، في عام ١٩٩٠م، يندر أن تفارق مخيلتي صورة الجزائر التي ما تزال تعاني آلامًا مأساوية، فهل يمكن أن يكون ذلك كله محض مصادفة.

ويتابع هوفمان حديثه عن جاذبية الإسلام: «إنني أدرك قوة جاذبية فن هذا الدين الآن أفضل من ذي قبل؛ إذ إنني محاط في المنزل الآن بفن تجريدي، ومن ثَمَّ بفن إسلامي فقط. وأدركها أيضًا عندما يستمر تاريخ الفن الغربي عاجزًا عن مجرد تعريف الفن الإسلامي. ويبدو أن سره يكمن في حضور الإسلام

في حميمية شديدة في كل مظاهر هذا الفن، كما في الخط، والأرابيسك، ونقوش السجاد، وعمارة المساجد والمنازل والمدن. إنني أفكر كثيرًا في أسرار إضاءة المساجد، وفي بناء القصور الإسلامية، الذي يُوحي بحركة متجهة إلى الداخل، بحدائقها الموحية بالجنة بظلالها الوارفة، وينابيعها ومجاريها المائية، وفي الهيكل الاجتماعي الوظيفي الباهر للمدن الإسلامية القديمة (المدينة) الذي يهتم بالمعيشة المتجاورة، تمامًا كما يهتم بإبراز موقع السوق، وبالمواءمة أو التكيف لدرجات الحرارة وللرياح، وبدمج المسجد والتكية والمدرسة والسبيل في منطقة السوق ومنطقة السكن. وإن من يعرف واحدًا من هذه الأسواق وليكن في دمشق، أو إسطنبول أو القاهرة أو تونس أو فاس - يعرف الجميع، فهي جميعًا، كبرت أم صغرت، منظمات إسلامية من ذات الطراز الوظيفي.

ويحكي الدكتور مراد هوفمان السفير الألماني السابق عن أبرز مظاهر تحوله إلى الإسلام، وهو رفضه لاحتساء الخمر واختفاء زجاجة النبيذ الأحمر من فوق مائدة طعامه، اهتداءً بتعاليم دينه الجديد الذي يحرِّم الخمر؛ يقول هوفمان: "لقد ظننت في بادئ الأمر أنني لن أستطيع النوم جيدًا دون جرعة من الخمر في دمي، بل إن النوم سيجافيني من البداية، ولكن ما حدث بالفعل كان عكس ما ظننت تمامًا، فنظرًا لأن جسمي لم يعد بحاجة إلى التخلص من الكحول، أصبح نبضي في أثناء نومي أهدأ من ذي قبل. صحيح أن الخمر مريح في هضم الشحوم والدهون، لكننا كنا قد نحَّينا لحم الخنزير عن مائدتنا إلى الأبد، بل إن رائحة هذا اللحم الضار (المحرم) أصبحت تسبب لي شعورًا بالغثيان.

وهكذا جعل الإسلام هوفمان يفيق من سكره لعبادة ربه؛ التزامًا بما حرَّمه الله عليه، وطاعةً يلتمس بها مرضاة الله تعالى.

كيفية تفكير د. هوفمان بعد إسلامه؟

لقد رسخ في قلب هذا الرجل الإيمان وبدأ يفكر في أمر الدنيا بالنسبة للآخرة حتى إنه كان يقول عَلَيمُّ: ما الآخرة إلَّا جزاء العمل في الدنيا، ومن هنا

جاء الاهتمام في الدنيا، فالقرآن يُلهِم المسلم الدعاء للدنيا، وليس الآخرة فقط ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً﴾، وحتى آداب الطعام والزيارة تجد لها نصيبًا في الشرع الإسلامي.

ثم بدأ ينظر إلى الإسلام نظرة تأمل ومعرفة وكان من أقواله أيضًا:

إن الانتشار العفوي للإسلام هو سمة من سماته على مرِّ التاريخ؛ وذلك لأنه دين الفطرة المنزّل على قلب المصطفى.

الإسلام دين شامل وقادر على المواجهة، وله تميزه في جعل التعليم فريضة، والعلم عبادة...، وإن صمود الإسلام ورفضه الانسحاب من مسرح الأحداث، عُدَّ في جانب كثير من الغربيين خروجًا عن سياق الزمن والتاريخ، بل عدّوه إهانة بالغة للغرب

إن الله سيُعِيننُا إذا غيَّرنا ما بأنفسنا، ليس بإصلاح الإسلام، ولكن بإصلاح موقفنا وأفعالنا تجاه الإسلام.

الإسلام هو الحياة البديلة بمشروع أبدي لا يبلَى ولا تنقضي صلاحيته، وإذا رآه البعض قديمًا فهو أيضًا حديث ومستقبليّ، لا يحدّه زمان ولا مكان، فالإسلام ليس موجة فكرية ولا موضة، ويمكنه الاستمرار.

مؤلفاته بعد إسلامه

بعد إسلامه ابتدأ د. هوفمان مسيرة التأليف، ومن مؤلفاته: كتاب «يوميات مسلم ألماني»، و»الإسلام عام ألفين»، و»الطريق إلى مكة»، وكتاب «الإسلام كبديل» الذي أحدث ضجة كبيرة في ألمانيا.

إسلام حكيم منصور- إيليس جاك إيليس (سابقًا):

حياته قبل إسلامه والتعرف عليه

هو جاك إيليس عمدة مدينة ماكون بولاية جورجيا الأمريكية وهو أول عمدة ببشرة سمراء في أمريكا ولد في ٦ من يناير ١٩٤٦م، وحصل على ليسانس في الآداب


جاك إيليس

من كلية سانت ليو في ولاية فلوريدا، التحق بالجيش الأمريكي وشارك في حرب فيتنام، وحصل على وسام لشجاعته هو ضابط متقاعد من الجيش الأمريكي.

بعد تقاعده من الجيش الأمريكي ترشح عمدة لمدينة ماكون بولاية جورجيا الأمريكية وحقق ما كان يصبو إليه وقد أدّى إيليس اليمين كعمدة لمدينة في ١٤-١٢-١٩٩٩م، ليصبح بذلك أول عمدة ببشرة سمراء في البلدة التي يعود تاريخها لـ١٧٦ عامًا مضت، وهو العمدة رقم ٤٠ لهذه البلدة.

وكلنا نعلم ما يتعرض له الإسلام في الغرب من محاولات تشويه لصورة المسلم إلا أن الإقبال على اعتناق لإسلام في تزايد مستمر، فقد يستمر الإنسان في ضلاله ولكن إذا جاء الحق وجد الإنسان نفسه يميل إلى الحق وإلى طريق الإسلام، وهذا ما حدث جاك إيليس في اعتناقه الإسلام، حيث أكد أنه بذلك عاد لجذوره بعد سنوات من البحث عن الذات.

أسباب اعتناقه الإسلام:

درس القرآن الكريم لسنوات، وعثر على ملاذه في الإسلام، ثم سافر إلى موطنه الأصلي فهو من أصل إفريقي وبالتحديد من السنغال وكان ذلك سببًا رئيسيًّا في إسلامه حيث قال: «إن أسلافه مارسوا شعائر ديانته الجديدة في هذه الدولة الإفريقية قبل أن يتم ترحيلهم كعبيد إلى أمريكا الشمالي».

وقد نقلت محطة تليفزيون «دبليو. إم. إيه. زد. في» المحلية في مدينة كولومبيا جنوبي كاليفورنيا، عن إيليس عمدة ماكون تصريحه باعتناقه الإسلام في ديسمبر ٢٠٠٦م، واختياره لنفسه اسم «حكيم منصور إيليس».

واتخذ حكيم هذا القرار في أثناء زيارته لدولة السنغال، وأعرب عن شعوره التام بالراحة بعد اعتناقه الإسلام الذي وصفه بأنه عودة إلى الجذور، وقد فهم حكيم منصور إيليس مزايا الدين الإسلامي عن غيره حيث قال: "إنَّ المسلمين يؤمنون بأن النبي محمدًا ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين إلى البشرية، غير أنهم أيضًا يؤمنون بأن موسى وعيسى كانا نبيين، بعكس اليهود والنصارى الذين لا يؤمنون بالنبي محمدﷺ.

التزام حكيم إيليس بالعبادات

وأصبح حكيم إيليس يتردد بانتظام حاليًّا على المركز الإسلامي في «بلومفيلد رود»، وأصبح يحافظ على الصلوات الخمس في جماعة بحسب صحيفة (بوسطن هيرالد) الأمريكية.

ماذا فعل بعد إسلامه.

مهد اعتناق إيليس للإسلام الطريق أمام المزيد من حالات إشهار الإسلام في البلدة، فقد أسلم كثير من الناس في البلدة، وهو ما أوضحه قائلًا: «إن من حق سكان البلدة أن يعلموا بإسلامه»، وأضاف: «نظرًا لكوني عمدة البلدة أعتقد أنه من حق الناس التعرف على معتقداتي، وأني رجل مؤمن، وأن الدين الذي أنتمي إليه الآن هو الإسلام». وبهذا يصبح حكيم ايليس سببًا رئيسًا في دخول بعض أهل البلدة في الإسلام، ويحظى إيليس بمكانة طيبة لدى أهالي البلدة التي أسهم في تحويلها لتكون واحدة من أكثر البلدات الأمريكية التي تزدهر فيها المجالات كافة؛ حيث استخدم صلاحياته الرسمية لمساعدة الشباب في التدريب على الوظائف، والتعليم الخاص، والدروس الخصوصية، وبرامج ما بعد المدرسة، وبرامج لمكافحة الجريمة، كما قام ببناء ما يزيد على ٤٠ منزلًا بأسعار معقولة لاقت رواجًا لدى الساعين لشراء مسكنهم الأول، ويقوم حاليًّا ببناء مئات من المنازل ذات الأسعار المعقولة التي تتناسب مع السوق في منطقة (بيلز هيل).

وإيليس البالغ من العمر ٦١ عامًا، أبٌ لخمسة من الأولاد، ويرأس حاليًّا بلدة ماكون بولاية جورجيا الأمريكية للمرة الرابعة على التوالي. وجدير بالذكر أن الترشح مسموح به لأربع مرات متتالية فقط، وهو ما يعني أنه لن يترشح مرةً أخرى، لكنه قال: «إنه يعتزم خوض السباق الانتخابي في ٢٠٠٨م على مقعد بالبرلمان عن دائرته».

إسلام توركواتو كارديللي

الباحث عن الحقيقة



توركواتو كارديللي

هو توركواتو كارديللي الإيطالي الجنسية وهو شخصية دبلوماسية فقد عمل سفيرًا في سوريا والسودان وليبيا ثم سفيرًا بالسعودية، وهو متزوج وله ولدان. ظل عشر سنوات يبحث عن الحقيقة منذ عام ١٩٩٠م حتى أسلم عام ٢٠٠٠م وفي ١٣ من نوفمبر ٢٠٠١م أعلنت وزارة الخارجية الإيطالية أنَّ السفير الإيطالي لدى السعودية توركواتو كارديللي قد اعتنق العقيدة الإسلامية منذ عام ٢٠٠٠م، وأنَّ قراره تمَّ عن اقتناع وتفكير استغرق سنوات عديدة، ويختص السفير بشؤون الشرق الأوسط والمنطقة العربية، وقد درس اللغة العربية وأتقنها منذ أيام دراسته الجامعية، وكان كارديللي في وقت نشر هذا الخبر يبلغ من العمر ٥٩ عامًا.

توقيت إسلامه

لقد اختار توركواتو كارديللي عام ٢٠٠١ لإعلان إسلامه، وخاصة في شهر نوفمبر وهذا بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ حيث إنَّ هذا التوقيت تزامن مع ذروة الهجوم على الإسلام عقب أحداث سبتمبر ٢٠٠١م في نيويورك، وفي خضم الاستعدادات الغربية: الأمريكية والأوروبية لاجتياح أفغانستان (طالبان

وابن لادن)، وحشد الرأي العالمي لتأديب الإرهاب (أي الإسلام)، فُوجئ الغرب العلماني بالسفير الإيطالي «توركواتو كارديللي» يعلن اعتناقه للإسلام، وأنَّ اهتداءه للإسلام لم يكن فيض الخاطر، أو لفتة ناظر، وإنما استغرق ذلك عشر سنوات كاملة، تم خلالها دراسته للإسلام ومبادئه وحضارته دراسة واعية متأنِّية ومتعمقة من كل جوانبه، ولأن «كارديللي» لم يكن مجرد شخصية دبلوماسية تعتنق الإسلام، فلم يكن إسلامه في هذا الوقت حدثًا عاديًّا تناولته الصحف الإيطالية خاصةً، والصحف العالمية بصفة عامة. وقد علَّقت الصحف الإيطالية علىٰ ذلك بقولها: «لقد اختار (كارديللي) الإسلام في وقت احتدم فيه الصراع بين الحضارات والديانات... وأن اختياره للإسلام يثير كثيرًا من الجدل والبلبلة، رغم أنه ليس أول سفير إيطالي يعتنق الإسلام، فقد سبقه للإسلام سفراء آخرون لدىٰ المملكة العربية السعودية لمدة عشر سنوات، وليصبح بعد إسلامه رئيسًا للمجلس الإسلامي الإيطالي، ونائبًا لرئيس رابطة العالم الإسلامي في مكة، والتي لها فروع في العاصمة الإيطالية روما».

كيف أسلم (كارديللي) الباحث عن الحقيقة.

يروي (كارديللي) قصة إسلامه فيقول: «لقد ظللت أكثر من عشر سنوات متصلة في بحث عن الحقيقة، دون أن ينشغل ذهني وعقلي بالأكاذيب والمفتريات التي تمَّ تلفيقها وإلصاقها بالإسلام والمسلمين ونبي الإسلام؛ فأقبلت علىٰ دراسة هذا الدين المنبوذ في الغرب للتأكد مما قيل لنا عنه، وأنه دين يقوم علىٰ الإرهاب والقتل وسفك الدماء، وأنه دين وثني يعبد ثلاثة آلهة، وأنه دين لفَّقَه محمد الذي كان كاردينالا فاسدًا محاربًا للكنيسة، وأنه دين يقوم علىٰ الشهوات وتعدد الزوجات، وأنه يُكرِه الناس علىٰ اعتناقه.

تساؤلات كثيرة، كان لا بد أن أتيقن من مصادرها الإسلامية، ووجدت إجاباتها واضحة جَلِيَّة في مبادئ هذا الدين.

لقد تأكدت أنَّ هذا الدين لا يدعو إلىٰ الإرهاب ولا القتل ولا سفك الدماء، وإنما يدعو إلىٰ السلام العالمي، والقرآن يقول: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال، الآية٦١]، ويأمر المسلمين بأن يَبَرُّوا أعداءهم، ويطعموا أسراهم، ولا يقتلوهم، وأنَّ هذا الدين يقوم علىٰ الإيمان بالله واحدًا لا شريك له، والإيمان بالملائكة ورسالات السماء وكل الأنبياء، لا يفرِّق بين الأنبياء، ويُكرِّم رسول الله عيسىٰ غاية التكريم.

وأن هذا الدين لا يدعو إلىٰ تعدد الزوجات، وإنما يبيح ذلك بقيود وشروط، فينهي عن التعدد إذا لم يستطع الرجل أن يعدل بينهنَّ. وأن هذا الدين لا يجبر الآخرين علىٰ اعتناقه، والقرآن يقول: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، **وأن الإيمان والكفر تبعًا لرغبة الإنسان** ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾ **[الكهف، الآية ٢٩].**

ولو أنصف عقلاء الغرب ومفكروهم، ودرسوا الإسلام دون أفكار مسبقة عنه لوجدوا أنه دين الإنسانية كلها؛ يدعو إلىٰ مكارم الأخلاق، ويحث علىٰ كل الفضائل، فلا خمور تُذهِب العقل، ولا خليلات، ولا رذائل وإباحية وفجور، بل أمر بالمعروف (يحقق الخير)، ونهي عن منكر (لا ينتج إلا الشرور)، وتراحم، وتسامح، وعدل، وأُخوَّة، وإنسانية. هذا هو جوهر الإسلام الذي جذبتني مبادِئُه، وهو منهج ربّاني أوحاه الله إلىٰ رسوله محمد ﷺ، ولم يتطرق إليه التحريف، ومشكلة الشعوب الإسلامية أنها لا تقدر قيمة هذا المنهج الإلهي، الذي بين أيديهم، ولو أنهم طبَّقوه كما طبَّقه أسلافهم لاستعادوا حضارتهم، ورجعت إليهم شوكتهم، ولاستردوا ماضيهم الذي سادوا به العالم كله.

لقد عاش «كارديللي»فترة طويلة من حياته ينشد الوصول إلىٰ الحقيقة بعد أن طرح جانبًا كل الأفكار والأكاذيب والمفتريات التي عَلِقت بذهنه عن الإسلام؛ فأقبل علىٰ دراسة الإسلام من مصادره الإسلامية، بعد أن تعلم اللغة العربية وأجادها. وبوعيٍ كامل، وتأمل عاقل، وفكر ثاقب قرأ كل جوانب

الإسلام، والقرآن ومعانيه والمبادئ التي يقوم عليها، وسيرة النبي ﷺ، والمجتمع الإسلامي، والحضارة الإسلامية، وقارَنَ بين ما هو من مبادئ الإسلام: المساواة، الإخاء الإنساني، العدالة، التراحم، الصدق في القول، الوفاء بالعهود والوعود، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ وبين ما هو من مبادئ العلمانية: الغاية تسوغ الوسيلة، المنفعة والمصلحة لذاتها، والادعاء بأن الغرب وجد للسيادة والتفوق، والشعوب الأخرىٰ وجدت لتخضع للغرب، واغتصاب حقوق الأمم غير الأوروبية، والعدوان، والنفاق، والكذب، والخداع...، واكتشف (كارديللي) أين توجد الحقيقة.

وتأكد أن الثقافة الغربية تقوم علىٰ اختلاق الأكاذيب واصطناع المفتريات، واستمرار ترديدها حتىٰ يصدقها الغربيون، وأن مناهج التعليم وأجهزة الإعلام لا غاية لها إلا ترسيخ الأكاذيب، وإشاعة المفتريات، ونشر الأوهام، والخرافات عن الإسلام وحده من بين أديان السماء حتىٰ لا تقوم له قائمة، وحتىٰ لا يفكر أي إنسان غربي في البحث عن ماهية هذا الدين، بعد طوفان الأكاذيب والافتراءات التي تصدّ عن الإسلام وتنفّر منه، وتبشّع صورته باعتباره أعدىٰ أعداء الغرب.

لقد درس (كارديللي) الشرق الإسلامي من كل جوانبه لأكثر من عشر سنوات متصلة حتىٰ يكون حكمه هو عين الصواب. ومنذ عام ١٩٩٨ حتىٰ عام ٢٠٠٠م تولَّىٰ منصب (الأمين العام لمجلس شئون الإيطاليين بالخارج)، ثم سفيرًا في السعودية، وفي كل مناصبه التي تولاها اتَّصف دائمًا بالنزاهة والإنصاف والحكمة والتعقل والرؤية الثاقبة، ووزن الأمور بميزان الإنصاف والعدل متسلحًا بعقلية متزنة، متزودًا بكل ثقافات عصره، مقتنعًا بل متيقنًا بسمو مبادئ الإسلام وسماحته.

قصة إسلام «مالك شباز» أو الزعيم الأمريكي (مالكوم إكس) زعيم من الملوّنين الأمريكيين

تعريفه وحياته الصعبة



هو مالكوم إكس الداعية الإسلامي المشهور أو «مالك شباز» الأمريكي الأصل والجنسية، وُلِد مالكوم إكس بمدينة ديترويت في ٦ من ذي القعدة ١٣٤٣هـ/ ٢٩ من مايو ١٩٢٥م في أسرة فقيرة قُتِلَ عائلُها في حادث عنصري، وكانت هذه الفترة في أمريكا شديدة الاضطراب بالتمييز العنصري البغيض بين البِيض والسُّود، فنشأ مالكوم مشحونًا بالكراهية والبغض ضد البيض، وطرد من المدرسة رغم حِدَّة ذكائه، فانتقل إلى مدينة نيويورك حيث عاش حياة اللهو والعبث، والتي انتهت به إلى السجن وهو في العشرين من عمره.

تغيير حياته وإسلامه

دخل مالكوم السجن وكان السجن بالنسبة له هو أول منازل التغيير في حياته؛ إذ اعتنق الإسلام وأقبل على قراءة الكتب الإسلامية، واستفاد من فترة سجنه استفادة كبيرة؛ حيث أتى على كتب كبار لم يتوفر لغيره قراءتها، وفي السجن تعلم مالكوم فن المحاورة والمناظرة وأخذ يناظر ويتحاور مع قساوسة السجن لإقناعهم بالإسلام، ومكث مالكوم في السجن قرابة الثلاثين عاما خرج بعدها من السجن سنة ١٩٥٢م وقرَّر «مالكوم إكس» أن يُعمِّق معرفته بتعاليم إليجا محمد زعيم حركة أمة الإسلام، فذهب إلى أخيه في ديترويت، وهناك تعلم الفاتحة وذهب إلى المسجد، وتأثر بأخلاق المسلمين. وفي المسجد استرعت انتباهه عبارتان: الأولى تقول: «إسلام: حرية، عدالة، مساواة»، والأخرى مكتوبة على العلم الأمريكي، وهي: «عبودية: ألم، موت».

وتقابل «مالكوم إكس» إليجا محمد زعيم حركة أمة الإسلام التي انضم إليها بعد ذلك، والتي حفِلت بالانحرافات العقائدية التي انتهت بإعلان إليجا محمد النبوة. ولكن مالكوم أسرع إلىٰ تصحَّيح مسيرة الحركة الإسلامية التي انحرفت بقوَّة عن الحق في أمريكا، ودعا للعقيدة الصحيحة، وصبر علىٰ ذلك حتىٰ راح شهيدًا لدعوته ودفاعه عن الحق.

ماذا بعد إسلامه

عمل «مالكوم إكس» في شركة «فورد» للسيارات فترة ثم تركها، وأصبح رجل دين، وامتاز بأنه يخاطب الناس باللغة التي يفهمونها؛ فاهتدىٰ علىٰ يديه كثير من السود، وزار عددًا من المدن الكبرىٰ، وكان همُّه الأول هو «أمة الإسلام»، فكان لا يقوم بعمل حتىٰ يقدِّر عواقبه علىٰ هذه الحركة، وقد تزوج في عام ١٩٥٨م ورُزق بثلاث بنات، سمَّىٰ الأولىٰ عتيلة، علىٰ اسم القائد الذي نهب روما، وفي نهاية عام ١٩٥٩م بدأ ظهور مالكوم في وسائل الإعلام الأمريكية كمتحدث باسم حركة أمة الإسلام، فظهر في برنامج بعنوان: «الكراهية التي ولدتها الكراهية»، وأصبح نجمًا إعلاميًّا انهالت عليه المكالمات التليفونية، وكتبت عنه الصحافة، وشارك في كثير من المناظرات التليفزيونية والإذاعية والصحفية؛ فبدأت السلطات الأمنية تراقبه، خاصةً بعد عام ١٩٦١م، وبدأت في تلك الفترة موجة تعلُّم اللغة العربية بين أمة الإسلام؛ لأنها اللغة الأصلية للرجل الأسود.

توسَّم إليجا محمد في مالكوم إكس النباهة والثورية والقدرة الإقناعية؛ فضمَّه لمجلس إدارة الحركة، وجعله إمامًا لمعبد رقم ٧ بنيويورك. أبدىٰ مالكوم كفاءة دعوية فائقة وزار الجامعات والحدائق والسجون وأماكن تجمُّع الناس، وأسلم علىٰ يديه الكثيرون، منهم الملاكم العالمي «كلاي»، وفتحت له قنوات التلفاز أبوابها، وعقد المناظرات علىٰ الهواء، وذاع صيته بقوَّة.

ذهابه إلى الحج ونقطة تحول:

ثمَّ حدث تحول جذري في حياة مالكوم إكس، عندما ذهب للحج سنة

١٩٦٠م/ ١٣٧٩هـ، وهناك التقىٰ مع العلماء والمشايخ، وقابل الملك فيصل الذي قال له: «إن حركة أمة الإسلام خارجة عن الإسلام بما تعتقده من ضلالات». فطاف مالكوم بلاد الإسلام للاستزادة من العلم، فزار مصر والسودان والحجاز، والتقىٰ مع شيخ الأزهر ومع الشيخ حسنين مخلوف مفتي مصر، ثم عاد لأمريكا وأعلن إسلامه من جديد، وبدأ مرحلة جديدة وخطيرة وأخيرة من حياته.

عاد «مالك شباز» لأمريكا سنة ١٩٦١م/ ١٣٨٠هـ، وأخذ في الدعوة للعقيدة الصحيحة، وحاول إقناع إليجا محمد بالحق والذهاب للحج، ولكن إليجا رفض بشدة وطرده من الحركة، فشكَّل «مالك» جماعة جديدة سماها «جماعة أهل السنة»، وأخذ في الدعوة للدين الصحيح، فانضم إليه الكثيرون، وأوَّلهم: والاس بن إليجا محمد نفسه، وأخذ إليجا محمد في تهديد «مالك» بالقتل، لكنه لم يَخَفْ أو يتوقف؛ فشنَّ عليه إليجا حملة دعائية إعلامية شرسة لصرف الناس عنه، فلم تزد هذه التهديدات مالكًا إلا إصرارًا، واشتركت الصحف الأمريكية في التضييق علىٰ مالك، مع أنها كانت من قبل تفتح له أبوابها عندما كان يدعو للدين الباطل والعقيدة الفاسدة.

وكان من أقواله

علىٰ الوطنية أن لا تعمي أعيننا عن رؤية الحقيقة، فالخطأ خطأ بغضِّ النظر عمّن صنعه أو فعله، لا أحد يمكن أن يعطيك الحرية، ولا أحد يمكن أن يعطيك المساواة والعدل، إذا كنت رجلاً فقم بتحقيق ذلك لنفسك، لا تستطيع فصل السلام عن الحرية، فلا يمكن لأحدٍ أن ينعم بالسلام ما لم يكن حرًّا.

كيف كانت موتته واغتياله:

ظل مالك شباز يدعو للعقيدة الصحيحة غير عابئٍ بتهديدات إليجا محمد، حتىٰ كان يوم ١٨ شوال سنة ١٣٨١هـ/ ٢١ فبراير ١٩٦٥م، وهو اليوم الذي أطلق فيه ثلاثة من الشبان السود النار علىٰ مالك شباز في أثناء إلقائه لمحاضرة في

جامعة نيويورك، فمات على الفور، وكان في الأربعين من عمره، وكانت عملية اغتياله نقطة تحوُّل فاصلة في سير حركة أمة الإسلام، حيث تركها الكثير من أتباعها والتحقوا بجماعة أهل السنة، وعرفوا الدين الحق.

إسلام الحاج محمد الألماني أو جوزيف كليمنس (سابقًا):

التعرف على حياته:

هو جوزيف كليمنس Joseph Clemens ألماني الجنسية ولد في عام ١٩١٢م وظل بألمانيا حتى صار شابًّا ثم رحل من موطنه (دوسلدرف) إلى المغرب هربًا من زيف الحضارة الأوروبية الحديثة التي تتسم -كما وصفها- بالخداع والتضليل. وقد التحق جوزيف كليمنس بالجيش الألماني قبل رحيله إلى المغرب؛ لأنه كان شغوفًا بالحياة العسكرية، وحب المغامرة، ومواجهة الأخطار؛ فقد انخرط في سلك الفرقة الفرنسية التي كانت تعمل على تدعيم الاحتلال الفرنسي، وقمع الثورات المحلية، غير أنه كان يشعر بالضيق وعدم الرضا عن نفسه، وعن الجريمة الإنسانية التي يشارك في أدائها في تلك البلاد؛ حيث يساعد في إحكام قبضة المحتلين على رقاب أصحاب البلاد الشرعيين. ولذلك قرر الرحيل.

الحاج محمد الألماني (جوزيف كليمنس)

أسباب إسلام جوزيف كليمنس:

إن من أهم الأسباب التي جعلت جوزيف كليمنس يدخل في الإسلام عدة أسباب منها ما هو داخل نفسه مثل:

أنه كان في صراع بينه وبين نفسه من كرهه للظلم الموجود في الحضارة الأوربية وأنه كان دائمًا يبحث عن العدل والدين الحق.

أما الأسباب الأخرى فهي:

إعجابه الشديد بالمجاهدين المسلمين وصفاتهم، وقد بهره بصفة خاصة استبسالهم في الدفاع عن وطنهم، وتهافتهم علىٰ الظفر بالشهادة، ومواجهة الموت بكل شجاعة وثبات، مع التمسك بكل صلابة بالقيم الأخلاقية والمثل العليا حتىٰ في أحرج الظروف.

كان ذلك دافعًا إلىٰ انضمام جوزيف كليمنس لمعسكر إحدىٰ القبائل الثائرة في جبال أطلس، وأعلن رغبته في إشهار إسلامه، وتسمَّىٰ باسم محمد ويُطلق عليه «الحاج محمد الألماني»، وارتدىٰ الزِّيَّ العربي، وتشبه بالعرب في كل عاداتهم وسلوكياتهم

ماذا فعل بعد إسلامه؟

لقد استفاد هذا الرجل من خبرته العسكرية قبل الإسلام ليوظِّفها في خدمة الإسلام والمسلمين؛ فاتجه للعمل تحت لواء الأمير عبد الكريم الخطابي في منطقة الريف، والمشاركة العسكرية معه، حيث قام برسم الخرائط وترجمة الرسائل التي كانت ترد من أوروبا، بعد ذلك وقع جوزيف كليمنس في أسر القوات الفرنسية، وكان ذلك بعد سقوط عبد الكريم الخطابي في نضاله مع القوات الفرنسية، وقُدِّم كليمنس للمحاكمة العسكرية باعتباره هاربًا من الجندية، فحُكِم عليه بالإعدام الذي تخفف إلىٰ الأشغال الشاقة المؤبدة، والغريب -ولكنه ليس بغريب- أن أحد الصحفيين الأوروبيين قد التقىٰ به قبل ترحيله، فوجده رابط الجأش، قويَّ الإيمان، غير آبهٍ بالمصير الذي ينتظره. نَعَمْ إنه الثبات علىٰ الحق بعد أن علم أن الدين الإسلامي هو الدين الحق، وهو الأمل المنشود، وأمضىٰ جوزيف كليمنس سنوات طويلة قاسية في معسكرات التعذيب في صبر وأمل وشجاعة، حتىٰ توفِّي عام ١٩٦٣م.

وطويت بذلك صفحة حافلة بأروع مواقف البطولة والشجاعة والكفاح لبطلٍ آمن بالإسلام، فاعتنقه وناضل من أجله حتى الموت

إسلام هانز كونج عالم اللاهوت السويسري:



الدكتور هانز كونج Hans Küng

التعرف عليه:

هو الدكتور هانز كونج Hans Küng نصراني الديانة، وهو عالم اللاهوت السويسري أحد أكبر علماء اللاهوت الكاثوليكي، وأحد رواد البحث عن الحقيقة، فهو ينشد الحق أينما كان، وبعد دراسات عديدة ومقارنات دقيقة في العقائد أصبح في عام ١٩٨٦م مديرًا لمعهد الأبحاث المسكوفية في (توبنجن) بألمانيا.

كيف كان إسلامه؟

بعد الدراسات التي أجراها، والبحوث التي أعدها، والمقارنات التي فرَّق خلالها بين حق جليٍّ وباطل خفيٍّ، توصَّل إلى أن الإسلام هو دين سماوي حقيقي، وأن محمدًا رسول الله قد تلقى وحي الله، وبلغه كما أمره الله.

ولم يجد أشهر علماء اللاهوت في ألمانيا بُدًّا من إعلان الحقائق التي توصل إليها، فالحقيقة يتحتم إظهارها؛ إنصافًا للحق.

لقد شَجَر خلاف عنيف، وبدأ صراع بين حقٍّ يريد أن يعلنه أكبر علماء اللاهوت الدكتور هانز كونج، وبين رجال الأصولية الكاثوليكية الذين فوجئوا بعالم له مكانته العلمية الهائلة يدعو إلى الإسلام، ويصدِّق برسول الله ويؤمن به. ثم وصل الخلاف منتهاه مع بابا الفاتيكان بعد أن نشر كتابه الخطير المفصح عن الحقائق بأدلة وبراهين لا تقبل الشك، ذلك الكتاب هو «المسيحية والأديان الأخرى».

لقد كان من المثير حقًّا تأكيد (هانز كونج) تسليمًا ويقينًا جازمًا بأن محمدًا الحاج محمد الألماني (جوزيف كليمنس) هو رسول حقيقي بمعنى الكلمة، وأن القول بغير ذلك زعم كاذب، ووهم باطل يفتقر للبرهان.

ماذا فعل بعد إسلامه

استطاع هانز كونج الدفاع عن الإسلام ومواجهة أفكار الكنيسة، وأن الكنيسة لا يمكنها أن تستمر بعد ذلك في إنكار نبوة محمدﷺ، وأنه رسول الله تلقَّى وحي السماء، وهو رسول حقيقي بكل معاني الكلمة، لقد استطاع هانز كونج أن يُقيم الحجج الدامغة والبراهين الساطعة التي لا يتطرق إليها أدنى شك على تفنيد حجج خصومه الواهية عن دين الإسلام ونبي الإسلام، بل إنه -حبًّا في الإسلام واستمساكًا بمبادئه- طلب من خصومه الساخطين عليه في الكنيسة الكاثوليكية أن يحاولوا فهم الإسلام، وأن يراعوا ضمائرهم، ويؤدوا واجبهم ولو لمرة واحدة في حياتهم تجاه هذه الديانة العالمية التي طال تجاهلها. ويبدو أن القساوسة الكاثوليك قد استجابوا لهذه الدعوة بدراسة القرآن وفَهْم مبادئ الإسلام وعقائده، فلما تبيَّن لهم أنه الحق اعتنق الإسلام اثنان من القساوسة تابعين (لأبرشية باريس) بعد اقتناعهما وتصديقهما بما جاء في القرآن.

ومن أقوال هانز كونج: «محمد نبي حقيقي بمعنى الكلمة، ولا يمكننا بعد إنكار أن محمدًا هو المرشد القائد على طريق النجاة».

من ملوك المسلمين في بريطانيا الملك أوفاريكس

الذي كان ملكا على مارسيا التي تعرف اليوم باسم إنجلترا الوسطى عام ٧٥٧ م ثم توسع حكمه إلى غالبية أجزاء إنجلترا، واستطاع أن يوحد غالبية المقاطعات الإنجليزية تحكم حكم واحد، ولكن الغريب في هذا الأمر أن أوفاريكس لا توجد له مراجع وافية عن فترة حكمه التي امتدت لتسعة وثلاثين عاما، ولا حتى

عن إنجازاته العظيمة، كونه أعظم حكام أوربا في العصور الوسطى، وخصوصا مساهمته الكبيرة في توحيد الممالك الأنجلو ساكسونية السبعة، كما أن الغموض يزيداد عندما نجد أن فترة حكم أوفاريكس اختفت تقريبا من الكتب الدراسية البريطانية والمصادر التاريخية، فما هو السبب وراء حذف المؤرخين لعهد هذا الملك؟ وهل هناك سر خلف كل ذلك؟

عام ١٨٤١ ميلادية حمل معه مفاجأة كبيرة للمؤرخين، قلبت موازين التاريخ البريطاني، عندما تم العثور على قطعة نقود ذهبية غريبة، تعود لعهد هذا الملك الإنجليزي، أما المفاجأة فهي أن القطعة الذهبية المحفوظة الآن في المتحف البريطاني تحمل في وسطها كلمة(لا إله إلا الله وحده لا شريك له) وفي الحافة كتبت عبارة(محمد رسول الله) ثم الآية الكريمة ﴿أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ أما في وسط الوجه الثاني فنجد كتابة عربية أخرى، وهي (محمد رسول الله) وفي وسط هذه الجملة سجل اسم الملك أوفا باللغة الإنجليزية، أم في الحافة فقد كتب باللغة العربية: بسم الله، ضرب هذا الدينار سبعا وخمسين ومائة) وهذا ما جعل بعض الخبراء يعترفون بحكم ملك مسلم لبريطانيا في ذلك الوقت.

إسلام مصطفى عبد الرؤوف أحمد (جرجس بشاي جرجس) (سابقا):

التعريف به:

هو الراهب جرجس بشاي أستاذ اللاهوت بالإكليركية، اعتنق الإسلام بعد دراسة عميقة وبعد ما كان يدعو إلى التثليث في المسيحية ندم على ذلك أشد الندم واعتنق الإسلام في عام ١٩٩٣، وتم اعتماده رسميًّا «كمسلم» في ٢٠٠٢م، رافضًا الحديث عن رحلته نحو الإسلام. وكان يجب أن ينادى بالاسم المركب الذي اختاره لنفسه وهو (مصطفى عبد الرؤوف أحمد جرجس بشاي جرجس)، هكذا اسمه بعد إشهار إسلامه.


مصطفى عبد الرؤوف أحمد جرجس بشاي جرجس

ولما سئل عن إصراره على نطق اسمه بهذه الكيفية أجاب:

الغرض من نطق اسمي المركب (مصطفى عبد الرؤوف أحمد جرجس بشاي جرجس)، أن رسول الله ﷺ يقول: «زيد مني وأنا منه، له ما لي وعليه ما علي». وكان الصحابة رضي الله عنهم يقولون: «زيد بن محمد»؛ لذلك نزلت الآية الكريمة: ﴿ ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [الأحزاب، الآية ٥] فلا تبني في الإسلام؛ لذلك فاسمي المركب بعد إشهار إسلامي هو مصطفى عبد الرؤوف أحمد، وباقي الاسم لأبي وجدي

أول حواراته

قال في أول حواراته الإعلامية التي أكد أنه يفتح بمقتضاها النار على نفسه لتطرقه لعقيدة التثليث والصلب في «المسيحية»، روى رحلة اعتناقه للإسلام، وكيف درسه للتشكيك فيه، فغلبه ليعلن إسلامه، ويتنازل عن مستحقاته لإخوته، وكيف زوجه شخص ما التقاه بمسجد الحسين لابنته... سألناه:

- **لماذا خرجت عن صمتك الآن؟**

يقول سيدنا عيسى عليه السلام: ماذا يكسب الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. وقد أعزني الله بنعمة الإسلام.

كنت أتمنى أن أعلن إسلامي قبل ذلك، فـ«لأنْ يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النَّعم» فربما هذا الحوار يكون سببًا في أن يهدي الله من هم في ضلال، وينير بصيرة غير المسلمين.

- هل حدث وأسلم أحدهم على يدك كما تقول؟

حدث بالفعل، ولديَّ نسخة من صورة إشهار إسلامه وبطاقته الشخصية.

- ماذا عن رحلتك من المسيحية إلى الإسلام؟

نشأت في أسرة مسيحية، وأقول مسيحية رغم أن النصارىٰ يحبون إطلاق لفظة أقباط علىٰ أنفسهم، وهي كلمة تعني كل المصريين وليس المسيحيين، وبعد أن أنهيت الشهادة الإعدادية التحقت بالمدرسة الإلكليركية وأصبحت أحد الركائز في الكنيسة وأستاذًا دكتورًا فيها، وبدأت أدرس الدين والعقيدة الإسلامية ليس حبًّا في الإسلام بالمرة بل لإيجاد ثغرات للتشكيك فيها، ولتشكيك المسلمين أنفسهم، وكان التكليف داخليًّا ونابعًا من إيماني بالمسيحية، فإن كنت لا تعلم فتلك مصيبة، وإن كنت تعلم فالمصيبة أفظع، والساكت عن الحق شيطان أخرس، والإنسان غير مسئول عن بدايته أو اختيار دينه أو اسمه.

- تتردد دائمًا ألفاظ اللاهوت والناسوت، فما المقصود بذلك؟

الأمور الكنسية مقسمة لجزأين: لاهوت وناسوت، اللاهوت هو كل ما يخص ألوهية السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وهي أمور غير قابلة للمناقشة، أما الناسوت فهو ما يخص حياة المسيحي. وما استفزني في الإسلام وقتها هو أنه يشكك في صلب المسيح، لذلك بدأت دراستي بتوسع، وتساءلت: لماذا يقول الإسلام إن المسيح ليس إلهًا؟ فاعتراني الشك فمن هو الله ومن أنا؟!! يقول الإنجيل: إن الله أرسل ابنه الوحيد حتىٰ لا يهلك كل من يؤمن به، فكيف ترك الله ابنه لليهود حتىٰ يقتلوه؟! فمثلًا لو ضرب شخص ابني فأضعف الإيمان أن أدافع عنه، وإذا افترضنا أن الله هو الذي نزل الأرض في صورة المسيح ومات، أيًّا كانت صورته، سواء هو الأب أو الابن أو الروح القدس، وظل ميتًا ثلاثة أيام ثم قام في اليوم الثالث وهو «عيد القيامة»، فمن أدار الكون خلال هذه الأيام الثلاثة في أثناء موت الله، فهل الكون أدار نفسه بنفسه أم هناك قوة أدارته؟ وإذا كان هذا الكون قد أدار نفسه بنفسه وللحظة قوة إدارته، فسوف يستغني عن الخالق ووجوده،

أما إذا كان هناك من أدار الكون بدلًا من الله الحي الميت فهو من يستحق العبادة -يضحك- «الحي أبقى من الميت». والله الذي مات أضعف من الله الموجود، لو افترضنا أن المسيح هو الله. إذن فهو الخالق والصانع فمن أقوى الصانع أم المصنوع. بالطبع الصانع. فكيف يتغلب المصنوع على الصانع، فالله خلق آدم وآدم عصى الله؛ ولذلك أهبط الله آدم إلى الأرض وكان يستطيع أن يرجع آدم إلى الجنة مرة أخرى، إذن فربنا ليس في احتياج كي يهبط إلى الأرض بنفسه؛ كي يكفر عن خطية آدم، وإذا افترضنا جدلاً أن اليهود هم قتلة المسيح واليهود من ذرية آدم، فكيف للمخلوق أن يقتل الخالق.

- لماذا بدأت تشك في عقيدة التثليث؟ ولماذا رفضتها؟

عقيدة التثليث مكملة للألوهية والصلب وعقيدة التثليث تقول: «باسم الأب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين». مما يعني أن الله هو الثلاثة، وإذا استخدمنا المعادلات الرياضية نصل إلى أن «واحدًا في ثلاثة بثلاثة» وليس واحدًا، فكيف يكون الأب والابن والروح القدس واحدًا وتقول الآية في الإنجيل: «لاهوته لا يفارق ناسوته طرفة عين»؟! فاللاهوت هو الله وهو الأب لا يفارق الابن طرفة عين، بل فارقه عندما مات الابن وصلب الصليب، وأنا أشبه نفسي بمن كان أعمى وذهب إلى طبيب جعله يبصر ويرى النور، فهل يستطيع هذا الإنسان أن يغمض عينيه مرة أخرى؟ محال، كذلك نعمة الإسلام.

- وماذا عن بقية نقدك للديانة المسيحية وقولك في قضية صلب المسيح؟

إذا افترضنا أن هناك إنسانًا يحمل كرباجًا وكلما رأى شخصًا ينهال عليه ضربًا، فهل سيحب هذا الشخص الكرباج؟ محال، كذلك الصليب وهو أداة تعذيب كان يعاقب بها المجرمون والنصارى أنفسهم يقولون عن السيد المسيح إنه حمل صليب العار، فكيف يقدسون العار؟ وكيف يحبون الكرباج «الصليب»؟ والأب لن ينزل الأرض لأجل غلطة ارتكبها المخلوق، والابن يعني الإنسان والإنسان يأكل ويشرب ويخرج، فهل من المعقول أن الله القدوس الطاهر

يحمل «نجاسة»؟ وإذا كان القرآن يقول: ﴿ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤ ﴾[مريم، الآيتان ٣٣، ٣٤]، ويقول ﴿ فَنَفَخۡنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا ﴾[التحريم، الآية ١٢]. فإذا كان عيسىٰ ابن مريم من روح الله، وروح الله سوف تعطي له الحق في الألوهية، فيكون كائنًا حيًّا إلهًا؛ لأن كل كائن حي يحمل روحًا، والروح من عند الله.

- يرى البعض أن المسيح تعرض للصلب حتى يكفر عن خطيئة آدم... فما ردك؟

لم نتحدث بما فيه الكفاية في قضية صلب المسيح، حيث يؤكد المسيحيون أن ما جاء في القرآن بعدم صلب المسيح مجرد خُزَعْبَلات؛ لأن الله ﷻ يقول في كتابه الكريم: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ ﴾ [النساء، الآية ١٥٧]. والصلب -كما قلنا- كان عقوبة المجرم شديد الإجرام، وهي أقسىٰ أنواع العقوبة بمثابة الإعدام الآن، فأي جرم ارتكبه الله حتىٰ يصلب! والقول بتكفير خطيئة آدم باطل، فإذا كان من يتحدث مجنونًا فإن المستمع عاقل -يضحك- فما أهمية الإنسان حتىٰ ينزل الله من عرشه إلىٰ الأرض! يقول رب العزة في حديث قدسي عن نفسه: «يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا علىٰ أتقىٰ قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في مُلْكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجِنَّكم كانوا علىٰ أفجر قلب رجل واحد، ما نقص ذلك من مُلْكي شيئًا».

- في أي الكنائس خدمت؟ وما الفرق بين الكاهن والراهب؟

تربيت في كنيسة العذراء بشبرا، وخدمت في كنائس الإسكندرية وأسيوط. الرُّتب الكنسية أنواع، منها الراهب. والثاني القس وهو من يقوم بعمل القُدَّاسات في الأديرة، وهناك القمص والكاهن والأنبا، ومن شروط الرهبنة عدم الزواج، كما يجب علىٰ القس أن يتزوج، وأنا حصلت علىٰ درجة أستاذ دكتور راهب في الكنيسة الأرثوذكسية، والحقيقة أن الرهبنة بدعة، «وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، ولم تكن الرهبنة علىٰ أيام السيد المسيح عليه السلام.

- **ماذا عن أسرتك المسيحية قبل الإسلام؟**

أبي المعلم جرجس بشاي جرجس كان تاجرًا كبيرًا بروض الفرج، ولا أحب الحديث عن عائلتي ولن أتطرق إلى أمور شخصية، يقول سلمان الفارسي رضي الله عنه: «أما أنا فابن الإسلام". وعندما قال هذا، قال رسول الله ﷺ عنه: «سلمان منا آل البيت». وأنا أستشهد بقول الرسول: ﷺ «واشوقاه، واشوقاه». فقال له الفاروق عمر بن الخطاب: «إلى من». فقال الرسول ﷺ: «إلى أحبابي». فقال الفاروق: "ألسنا أحبابك يا رسول الله؟» فقال الرسول: «أنتم أصحابي، أما أحبابي الذين يأتون بعدي ولم يروني». فكيف أبحث عن عزٍّ أكبر من عزة الإسلام!!

- **هل حدثت عمليات تبشير بالمسيحية في أثناء وجودك بالكنيسة؟**

أرفض الحديث عن التبشير في الكنيسة، وإن كنت أتمنى أن أكون ممن قال عنهم رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» فأنا أتمنى أن أكون سببًا في دخول غير المسلمين الإسلام، وإذا لم نعترف بسيدنا عيسى يكون إسلامنا منقوصًا؛ لذلك أرفض الخوض فيما كان يجري في الكنيسة، وحتى لا يقال: إنني أنشر لهم الغسيل «الوسخ»؛ فدين الإسلام حثنا على احترام اليهودية والمسيحية، يقول الله عز وجل: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ ﴾ [البقرة، الآية ٢٨٥].

هل أنت مقتنع بالإسلام أم من الممكن أن ترتد عنه؟

يقول رسول الله ﷺ: «تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا، كتاب الله وسنتي»، وقال: «من أعرض عن سنتي فليس مني». ويقول ﷺ: «ستتكالب عليكم الأمم كما تتكالب الأكلة إلى قصعتها". قالوا: أوَمن قلة نحن يا رسول الله؟ قال: «بل أنتم حينئذ كثر ولكنكم كغثاء السيل، وليقذفن الله في قلوبكم الوهَن». والمقصود بالوهَن حب الدنيا وكراهية الموت. وقد نسي المسلمون الله، فأنساهم أنفسهم.

- هل حفظت القرآن الكريم؟ وما رأيك في أحوال المسلمين الآن؟

حفظت ٤ أجزاء من القرآن الكريم، وأستعد لإنهاء جزأين آخرين، وكل هذا بفضل الله؛ فـ "لأنْ يهدي الله رجلًا بك خير لك من أن يكون لك حُمر النَّعم». وعندما أسلم أحد الأشخاص على يديّ تيقنت من مصداقيته أولًا بأن جلست معه، وعندما تأكدت من استعداده بعد أن قلت له: "إذا كان على المسلمين فلن تجد أفقر منهم، ولا أضعف منهم؛ لأنهم استضعفوا فاستضعفهم الله، فإذا كنت تريد اعتناق الإسلام لنواحٍ مادية، فالأفضل لك أن تظل في مكانك". وبعد تيقني من قناعته بالإسلام، هداه الله إلى دينه الحنيف.

- كنت راهبًا ممنوعًا من الزواج، فهل ما زلت دون زواج؟

تزوجت بنت الرجل الذي آواني بعد إسلامي، وهو حبيبي وليس نسيبي، وربنا يبارك فيه وفي أسرته ويشفيه من أمراضه، وهو الحاج محمد محمد عباس رجب الذي كان يعمل بالمطاحن وحاليًّا بالمعاش، كنت التقيت به بمحض الصدفة في رحاب سيدنا الحسين رضي الله عنه وأقول هذا الكلام رغم كونه سرًّا حتى لا نضيع أجر المحسنين، وأخبرني الرجل أن الله رزقه بثلاثة أبناء وثلاث بنات، وبأنني سأكون كابن رابع له، وقال: «زوَّجتك من ابنتي». ووعدني أنه سيساعدني رغم أنه إنسان بسيط الحال، ومكثت معه في بلدته بالزقازيق لحين الانتهاء من إجراء إشهار الإسلام، وكان يقول لمن يراني في منزله: إنني قريب أسرته، وحضرت لزيارتهم من القاهرة حتى لا يعرضني للحرج، وبعد الانتهاء من الإجراءات أقام لي حفلة بالزقازيق وبعدها زوجني ابنته ووفّر لي سكنًا في منطقة القناطر، وظللت أعمل في المصانع حارس أمن، وللآسف واجهت بعض المضايقات من المسيحيين الذين عرفوا بقصتي، فقد كنت أعمل براتب جيد في أحد المصانع، وكان مديره مسيحيًّا فأجبرني على ترك العمل لأعمل في معرض حلويات بمنطقة باب البحر.

- **هل كنت تملك أموالاً قبل اعتناقك الإسلام؟ وأين ذهبت هذه الأموال؟**

أملك نصيبًا في محل بسوق العبور استولىٰ عليه أشقائي، ومنذ أن أسلمت وحتىٰ الآن لم أحصل علىٰ نصيبي في هذا المحل، سواء عائد الأرباح عن هذه الفترة أو رأس المال، ولا أطلب سوىٰ استرداد حقي.

- **ألا تشعر بالخوف وأنت تهدم أركان المسيحية بهذا الشكل؟**

أعلم علم اليقين أن هذا الكلام سوف يفتح عليَّ نيران جهنم، ورغم ذلك أقول لإخوتي غير المسلمين: إن الدين عند الله هو الإسلام، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران، الآية ٨٥]، ولو لم أتيقن مما أقوله، أقسم بالله ما كنت أعلنت إسلامي.

- **ماذا عن عمل الكلية الإكليركية؟ وأي الأبحاث تجريها؟**

إكليركية اللاهوت تساوي كلية أصول الدين في الأزهر، ولا أريد الخوض فيما تدرسه وندرسه؛ حتىٰ لا يقال إنني أشهّر بالكنيسة.

ثانيًا: لماذا أسلم هؤلاء؟

لعلّه ليس مِن الغريب أنْ نقولَ: إنَّ تميُّزَ الإسلام وخصائصه التي أودعها الله فيه مِن تسامحٍ، ومحبّة، وسلام، وقبولٍ للآخر مهما اختلفت عقيدته، يعدُّ عنصرَ جذبٍ للآخر الذي يحضُّه علَىٰ اعتناقِ هذا الدين الحنيف، والاستظلال بظلاله الرحبة.

وإنَّ نظرةً واحدةً إلىٰ ما يقومُ به الغربُ مِن إحصائيات لانتشارِ الإسلام في أوروبا لدليلٌ علىٰ مَا نقولُه مِن إيمان الآخرين بهذا الدين الإسلامي واعتناقه. مِن ذلك:

١- عدد المسلمين في أمريكا ٨ ملايين، والنسبة تتزايد بدرجة كبيرة.

٢- عدد المسلمين في قارة أوروبا ٣٠ مليون مسلم، في فرنسا فقط ٥

مليون ويتوقع أن يتزايد العدد في فرنسا فيصبح ٢٠ مليون بحلول عام ٢٠٢٠.

٣- قال الباحث الروسي د.(بيلو): إنه يتوقع أن عدد المسلمين في بلدان أوروبا الغربية والولايات المتحدة سيتزايد بشكل كبير جدًّا.

٤- عدد المسلمين في روسيا ١٣ مليون شخص في عام ٢٠٠٢ أي بنسبة ٩٪ من السكان، وهناك دراسة أكدت أنه في عام ٢٠٥٠ احتمال أن تصل نسبة المسلمين ٥٠٪ !!

٥- في ألمانيا عدد المسلمين ١,٧ مليون مسلم، واحتمال أن يصل العدد إلىٰ ٥ مليون خلال العشر السنوات القادمة[١].

وهكذا لا يوجد دولة في العالم بأكمله إلا وفيها مسلمون. قال رسول الله ﷺ: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل عزًّا يعز الله به الإسلام وذلًّا يذل الله به الكفر»[٢]. فثمّة مفكرون منصفون، وعلماء بارزون، بل وعوام متأملون أخذوا يدرسون الإسلام دراسةً متأنيةً عميقة، فجرىٰ إعجابهم به في نفوسهم مجرىٰ الدم، ولم يملكوا إلا مدحه، واعتناقه عن إيمان ويقينٍ شديدين.

فالإسلامُ دينٌ وقوةٌ عالمية «يدعو الناسَ كافةً إلىٰ عبادةِ إلهٍ واحدٍ، هو الله الواحد الأحدُ.. وهذا ما دفعَ اللورد (هدلي) أنْ يبديَ دهشتَه مِن عالمية الإسلام، فيعتنق الإسلامَ ويقول عنه: «إنّه دينٌ يُمكِّن العالم الإنساني مِن أنْ يجمعَ أمره علىٰ عبادة الله الواحد الحقيقي الذي هو فوق الجميع، وأمام الجميع، بطريقة سهلة خالية من الحشو والتبلبل».

---

(١) نقلًا عن الموقع الإلكتروني: صيد الفوائد
http://www.saaid.net/aldawah/393.htm.

(٢) مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، ط١، ٢٨/ ١٥٤، رقم الحديث ١٦٩٥٧.

ويُعبِّر عن ذلك الكونت (هنري كاستري) في كتابه «الإسلام.. خواطر وسوانح بقوله: «وهكذا جذب الإسلامُ قسمًا عظيمًا مِن العالم بما أُودع فيه مِن إعلاء شأن النفس».

ومن عالمية الإسلام كما يقول الباحث الكبير (سنكس): «أنَّ المسلمين يزدادون كل يوم عددًا، وذلك دليل علىٰ حيوية الإسلام وعظمته».

ومصداقًا لذلك فقد جاء في مجلة (التليجراف البريطانية): «إنَّ الإسلام سيصبح القوة المؤثرة في الأحداث خلال القرون القادمة بفعل انتشاره بين شعوب العالم، فضلًا عن تزايد عدد المسلمين أنفسهم بنسبة خمسين مليون نسمة سنويًّا. وممّا ساعد علىٰ عالمية الإسلام، وبالتالي علىٰ انتشاره واعتناقه، أنّ تعاليمَه سهلةٌ ميسورةٌ، تنسجم مع العقل والمنطق، وتتفق مع فطرة معتنقيه وميولهم، كما عبّر عن ذلك المفكر الفرنسي (إتيين دينيه) بقوله: الحق يُقال، إنّ الإسلام يلائمُ جميع ميول معتنقيه علىٰ اختلاف مشاربهم، فهو ببساطته المتناهية يهدي إلىٰ الطريق المستقيم»(١).

وقبل أنْ أدعَ الحديثَ لهؤلاء المهتدين إلىٰ الإسلام؛ ليحدثونا: كيف كانَ إسلامهم، ولماذا أسلموا؟ وماذا كان تصورهم للإسلام قبل أن يُسلموا؟ ـ بقي أنْ أنبّهَ إلىٰ أنّكَ أيها القارئ العزيز ستلحظُ أنَّ من هؤلاء المهتدين مَنْ هو مفكّر وفيلسوف، ومَنْ هو عالمٌ وطبيب، ومَنْ له صِيتٌ مشهورٌ، ومَنْ هـو شخصٌ عاديٌّ هـزّته أريحـيّة الإسلام ويسره، فانشرحت صدروهم جميعًا إلىٰ كلمة واحدةٍ خفقت بها قلوبهم وأفئدتهم قبل أن تتلفظَ بها أفواههم، ألا وهي:

(لا إله إلا الله، محمّدٌ رسول الله).

---

(١) الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء: محمد كامل عبد الصمد. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ط١. ١٩٩٥م. ص١٠-١١.

التقدم العلمي في عصور المسلمين الأوائل

لقد كان العالم الإسلامي في الزمن الأول أفضل منه في ذلك الزمان لما يتمتع به رجال ذلك الزمن القديم من العلم ومن التقدم الحضاري والاختراعات، وكان المسلمون يتفوقون على غيرهم من غير المسلمين في كل نواحي الحياة، لدرجة أن بلاد الغرب كانوا يلتمسون العلم والتقدم عند المسلمين ويرسلون الوفود للتعلم، وانظروا إلى رسالة الملك جورج الثاني ملك إنكلترا إلى هشام الثالث (الخليفة الأموي في الأندلس ٤٢٢هـ-١٠٣١م)

من جورج الثاني ملك إنكلترا والبرتغال والسويد والنرويج، إلى خليفة المسلمين في الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام. بعد التعظيم والتوقير، فقد سمعنا عن الرقيّ العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل، لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم، ولنشر أنوار العلم في بلادنا التي يحيط بها الجهل من أربعة أركانها، وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة ديونابت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنكليز، لتتشرّف بلثم أهداب العرش، والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم، وفي حماية الحاشية الكريمة والحدب من قبل اللواتي سيقمن على تعليمهن، وقد أرفقتُ الأميرة الصغيرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها، مع التعظيم والحب الخالص من خادمكم المطيع. «جورج أ.م.

أما رد خليفة المسلمين فكان موجزًا يظهر كيف كان تعامل المسلمين مع غير المسلم وكيف أنهم لم يكونوا يحجبون العلم عن أي فرد مهما كان دينه، ويظهر أين كانت خلافة المسلمين وفي أي بقعة كان يحكم المسلمين، إنها في بلاد الأندلس يا سادة التي هي إسبانيا الآن. وإليكم رسالة خليفة المسلمين -رحمه الله تعالى- من بلاد الأندلس إلى ملك إنجلترا.

من جورج الثاني ملك انجلترا والغال والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين في مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقي العظيم الذي تتمتع بفيضه الصافي معاهد العلم والصناعات في بلادكم العامرة فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة في اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم في بلادنا التي يسودها الجهل من أربعة أركان ولقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة دوبانت على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز تتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة وحدب من لدن اللواتي سيتوفرن على تعليمهن ولقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص

من خادمكم المطيع جورج الثاني ملك انجلترا
سنة ١٠٢٨ من ميلاد المسيح

إلى ملك انجلترا وايكوسيا واسكندنافيا الأجل
اطلعت على التماسكم فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن وعليه نعلمكم أنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي
أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية وهي من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا ومحبتنا والسلام

خليفة رسول الله في ديار الأندلس
سنة ٤١٩ من هجرة أشرف المرسلين

نص المخطوطة التي أرسلت من ملك انجلترا والسويد والنرويج إلى الخليفة هشام الثالث عام ٤١٩هـ - ١٠٢٨م ورد الخليفة عليها

بسم الله الرحمن الرحيم

«الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين، وبعد... إلى ملك إنكلترا وإيكوسية وإسكندنافية الأجلّ، اطلعت على التماسكم، فوافقت على طلبكم بعد استشارة من يعنيهم الأمر من أرباب الشأن، وعليه فإننا نعلمكم بأنه سوف ينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودّتنا لشخصكم الملكي. أما هديتكم فقد تلقّيتها بسرور زائد، وبالمقابل أبعث إليكم بغالي الطنافس الأندلسية، وهي من صنع أبنائنا، هدية لحضرتكم، وفيها المغزى الكافي للتدليل على التفاتتنا ومحبتنا، والسلام.

خليفة رسول الله في ديار الأندلس: هشام الثالث».

ثالثًا: آراء المستشرقين المنصفين في حقِّ الإسلام:

ممَّا لا شكَّ فيه أنّه مِن الظُّلم بمكانٍ أنَّ نصدرَ حكمًا عامًّا علىٰ ظاهرةِ الاستشـراقِ، سواءٌ كان لصالحه أو ضدّه؛ فالاستشراق له توجهاتٌ عديدة، منه: التوجُّه الاستعماري الذي يهدفُ أساسًا إلىٰ فهم الشرق مِن أجل السيطرة عليه، ومحاولة إعادة تنظيمه وتوجيهه والتحكّم فيه، والتوجُّه التبشيري الذي يحاول نشر الأفكار الخبيثة داخل البلاد الإسلامية، والتوجُّه الموضوعي الذي يحاول الوصولَ إلىٰ الحقيقةِ أيًّا كان مردودها لدىٰ هذا المستشـرق، وسواءٌ كانت موافقة لعقيدة هذا المستشـرق أم لا. وهذا ممّا يقفُ مانعًا أمام إصدار حكمٍ عام تجاه الاستشراق.

إلا أنَّ هذا التصنيف التوجّهي للاستشراق قد يرفضه الآخرون؛ فيرىٰ (إدوارد سعيد) أنّ الاستشراق ينبغي أنْ يُقسّم إلىٰ:

أ- الاستشراق الجامعي.

ب- الاستشراق المسيحي الغربي أو الديني.

ج- الاستشراق المعلمن المبطن.

د- الاستشراق السياسي.

بينما يرىٰ (رودستون) أنّه يمكن تقسيم الاستشراق إلىٰ ثلاثة تيارات، هي:

أ- تيار نقص: يقوم علىٰ الشعور بتفوق الغرب، واحتقار جميع الحضارات الأخرىٰ.

ب- تيار رومانسي تغريبي: يستنشق متعة الشرق وعبقه، ويزيد هذه المتعة فقر الشرق المتزايد.

ج- تيار علمي تخصصي: اهتمامه الأساسي هو ماضي الشرق[1].

---

(١) راجع تفصيل ذلك في: الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي: محمد إبراهيم الفيومي. القاهرة: المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية. ١٩٩٤م. ص٢٤-٢٥.

وهناك تقسيمات عدّة وكثيرة لظاهرة الاستشراق لا يخرج معظمها عن هذه التوجّهات التي ذكرناها أولًا.

والذي يهمّنا في هذا الصدد هو الاستشراق صاحب التوجّه الموضوعي الذي يبحثُ عن الحقيقةِ فحسب أيًّا كان مصدرها؛ فإننا قد رأينا نماذج مشرفة في تاريخ الاستشراق قد تحدثوا بصورةٍ موضوعية عن الإسلام ونبيّ الإسلام وما جاء به، رغم مخالفتهم العقدية لهما. وهذا ممّا يحسبُ للإسلامِ ولهؤلاء المستشرقين المنصفين أيضًا.

وسأحاول فيما يلي عرضَ بعضِ هذه النماذج ليتيقن مَنْ كان في قلبه شكٌّ أنَّ هذا الدين هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله للبشـرية حتىٰ تقوم الساعة، قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴿١٩﴾ ﴾ [آل عمران، الآية ١٩].

وإننا إذ نُورد آراء هؤلاء المستشرقين في الإسلام فإنَّ هذا لا يعني موافقتنا لهم في كل ما يقولونه مِن آراء حول الإسلام؛ فإنَّ فيها مَا نوافقُ عليه ونعتبره إنصافًا، وفيها - أيضًا - ما نعتبره رأيًا فرديًّا شاذًّا لا نقبله ألبتّةَ، لا سيما إذا كان يتعارضُ مع أدلّة شرعية مقرّرة في الإسلام.

كما أنَّ دينَنا لا يحتاجُ إلىٰ شهادةِ شاهدٍ بأنّه هو الدين الخالد، وإنّما نسوقُ ذلك لإقامةِ الحُجّةِ عليهم، لِمَ لا وقد شهد بذلك هرقل عظيم الروم؟ شهد بأنَّ النبي ﷺ بُعث وظهر الإسلام، وسوف يملك ما تحت قدميه، وهرقل في الشام والرسول ﷺ في المدينة. وسوف أعرض عليك ما حدث لكتاب النبي ﷺ وهرقل.

من شهادات العلماء والمفكرين في حق الإسلام

ليوتولستوي:

الإسلام سيحكم العالم في يوم ما، لأن فيه مزيجًا من المعرفة والحكمة.

هربرت ويلز:

حتىٰ يعود الإسلام مرة أخرىٰ كم من الأجيال سوف تعاني الفظائع، ثم في يوم ما سوف ينجذب العالم كله للإسلام، ثم يحل السلام، وسوف يسكن العالم مرة أخرىٰ.

ألبرت أينشتاين:

أنا أفهم أن المسلمين فعلوا ذلك من خلال ذكائهم ووعيهم الذي لا يمكن لليهود القيام به، وفي الإسلام القوة والحكمة التي يمكن أن تؤدي إلىٰ السلام.

هوستن سميث:

الإيمان الذي نحن عليه الآن هناك ما هو أفضل منه، إنه الإسلام، وإذا فتحنا قلوبنا، وعقولنا لذلك فإنه سيكون جيدا بالنسبة لنا.

مايكل نوسترادموس:

الإسلام سيكون الدين الحاكم في أوربا، و ستصبح مدينة أوربا الشهيرة عاصمة الدولة الإسلامية.

بيرتراند راسل:

قرأت دين الإسلام، وأدركتُ أنه سيكون العالم كله، والبشرية جمعاء، وسوف ينتشر الإسلام في جميع أنحاء أوربا، وسف يأتي يوم يكون الإسلام الحافز الحقيقي للعالم.

جوستاف لوبون:

الإسلام هو الدين الوحيد الذي يتحدث فقط عن السلام والمصالحة، ودعوة المسيحيين إلى تقدير إيمان المصالحة.

برنارد شو:

في يوم ما العالم كله سيقبل الإسلام دينًا واحدا، وإن كان حتى لا يمكن قبوله باسمه الحقيقي، ولكن سوف يقبله باسمه على سبيل الاستعارة، وسيتقبل الغرب الإسلام في يومٍ ما، وسيكون الدين الوحيد الذي يقود العالم.

يوهان جيت:

علينا جميعا أن نقبل الإسلام دينًا عاجلا أو آجلا، وإنه هو الدين الحقيقي، وإذا دعيتُ إلى الإسلام فلن أشعر بالسوء، وأنا أقبل هذا كشيء واقع.

بالحوار يتحقق السلام

وبعدُ أيها القارئ العزيز؛ بعدَ أنْ طوّفتُ بكَ في محاور هذا العمل الذي أرجو به وجهَ الله تعالىٰ، لم يتبق إلا أنْ أنوّهَ إلىٰ بعضِ النقاطِ المتعلقة بما هَدَفْنَا إليه في هذا الكتاب:

لقد تكالب الشرق والغرب علىٰ أمة محمدﷺ -الإسلام السني الحنيف- ومنذ فجر الإسلام وحتىٰ تقوم الساعة يقوم الفجار وأعداء الله ورسوله وأعداء المسلمين السنة بالخطط الهدامة، لكن ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [سورة الأنفال: الآية ٣٠].

إنَّ الله حافظ كتابه - القرآن الكريم - وناصرٌ أمته وعباده المؤمنين، فقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: الآية ١٤١].

قد تكالبت المخالب السيئة تريد أن تظفر وأن تنتصر علىٰ الإسلام، والحق إن الإسلام يلين ولا ينكسر حتىٰ قيام الساعة، وما يقوم به الرافضة والشيعة والحوثيون واليهود والنصارىٰ وغيرهم من الملل التي ذكرها الله سبحانه في القرآن الكريم ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية ١٢٠] فهم من غواة الشيطان ومتبعي النفس والهوىٰ، لقد منعونا فرصة الحوار مع أنفسنا والآخر، ودفعونا إلىٰ التشرذم والاقتتال دفعًا، ولعل هذا بالضبط ما قصده لورنس العرب في برقيته إلىٰ لندن حين قال: (إن هدفنا هو إرغام العرب علىٰ محاربة بعضهم بعضا من أجل مصالحنا، ويتم تنفيذ هذا الهدف الآن) أما بنجوريون الزعيم اليهودي فقد سار علىٰ الدرب نفسه متبعًا المنهجية ذاتها قائلا: (ليس السلاح النووي ما سينقذنا بل الصراعات العربية)

وحيث إنَّ ما يقوم به الغرب من السعي لجعل دولة واحدة، ونظام مالي واحد، و تقليص عدد السكان في الكرة الأرضية دليل لما قاله الله سبحانه

وتعالىٰ في كتابه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٢٤﴾ [يونس: ٢٤].

١- وبالرغم من ذلك كله، يبيّنُ لنا التاريخ الإسلامي أنَّ النبيَّ ﷺ هو أوّلُ مَنْ أجرىٰ حوارًا دينيًّا في الإسلام مع وفد نصارىٰ نجران، وذلك في مسجدِه الشريف بالمدينة المنوّرة. بل إنّه ﷺ أقامَ مجتمع المدينة المنوّرة علىٰ تلك التعددية الدينية والثقافية، مع كفالة الحق للجميع، بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية أو العرقية وقد جدد هذا الأمر وسار علىٰ نفس المنهج ملكنا الملك/ عبد الله بن عبد العزيز- رحمه الله - في مطلع هذا القرن.

فنظرةٌ واحدةٌ إلىٰ أول وثيقة وضعها النبي ﷺ لتنظيم مجتمع المدينة ـ والتي تعدُّ أول دستور إسلامي، كفيلةٌ بأنْ نعرفَ كيفَ حقّق الإسلامُ بقيادة نبيّه ﷺ تلك المنظومة الفريدة لقبول الآخر، وامتزاجه بالمجتمع المسلم، مع كفالة جميع الحقوق المادية والمعنوية له. يقول رسول الله ﷺ في أثناء ما يقول: «... وأنّكم مهما اختلفتم فيه مِن شيءٍ فإنّ مَرَدَّهُ إلىٰ الله وإلىٰ محمّد ﷺ، وأنَّ اليهودَ ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين. وأنّ يهودَ بني عوفٍ أُمّةٌ مع المؤمنين. لليهود دينهم، وللمسلمين دينُهم ومواليهم وأنفسهم، إلا مَنْ ظلمَ أو أَثِمَ فإنّه لا يُوتِغُ [أي: يُهلك ويفسد] إلا نفسَه وأهلَ بيتِه. وأنّ ليهود بني النجّار ويهود بني الحارث ويهود بني ساعدة ويهود بني جُشم ويهود بني الأوس ويهود بني ثعلبة، ولجَفْنَةَ ولبني الشطيبة مثل ما ليهودِ بني عوفٍ. وأنَّ موالي ثعلبةَ كأنفسِهم، وأنّ بطانةَ يهود كأنفسهم... وأنّ علىٰ اليهود نفقتهم وعلىٰ المسلمين نفقتهم، وأنّ بينهم النصر علىٰ مَنْ حاربَ أهل هذه الصحيفة، وأنَّ بينهم النصح والنصيحة والبرَّ دون الإثم. وأنّه لم يأثم امرؤٌ بحليفِه...»(١).

(١) حياة محمد، لهيكل، ص٢٤٠-٢٤١.

٢- يجنحُ الإسلامُ إلى إلقاء عبء الحوار والدعوة إلى الله على كلِّ مسلم مُكلّف عاقل يمتلكُ نواصيَ الدعوة ومبادئها الصحيحة دون إفراط أو تفريط، منطلقًا مِن أُسسٍ قرآنية لم توجّه فقط - كما يظنُّ البعض - إلى رسول الله ﷺ، بل هي في الحقيقة مخاطَبٌ بها كل مسلم ومسلمة.

يخاطبهم القرآنُ جميعًا بآيات، نحو قوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل، الآية ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [يوسف، الآية ١٠٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران، الآية ١٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴾ [الجن: الآية ٢٠].

وكأني أشعرُ أنَّ مخاطبَة إبراهيم عليه السلام لأبيه وهو يعظه، بقوله: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ ﴾ [مريم، الآيات ٤٣ - ٤٥]. هي في الحقيقة موجهةٌ إلى كلِّ مسلم هداه الله تعالى إلى الإسلام والإيمان به، وعليه بموجب تلك الهداية نصح أخيه في الإنسانية أيًّا كانت عقيدته، وأيًّا كان جنسه ولونه. فالإسلامُ نعمةٌ كبرىٰ وعلى المسلم شكر تلك النعمة التي أنعم الله بها عليه. ولعل دعوة غير المسلمين إلى الإسلام مِن آكد شكر هذه النعمة.

٣- يميلُ الإسلامُ دائمًا إلى فتح باب الحوار مع أصحاب الشرائع السماوية الأخرىٰ، اليهودية والمسيحية، فهم في الأصل ينبعون مِن مشكاةٍ ربانية واحدةٍ، وفيما بينهم أوجه اتفاقٍ يمكنُ أنْ ينطلقَ منها المتحاورون.

فلقد «شعرَ المسلمون منذ البداية بالتضامن مع المسيحيين الذين ينتمون مثلهم إلىٰ دينٍ سماويٍّ. وفي هذا الصَّدَدِ يخبرنا القرآنُ الكريمُ بأنَّ المسلمين قد أصابهم الحزنُ عندما وقعت معركةٌ بين الفرس والرُّوم الشرقيين انهزم فيها الروم المسيحيون علىٰ يدِ الفرس الوثنيين. وعندئذٍ أخبرهم القرآنُ الكريمُ بما يحصل عليهم مستقبلًا وأنهم سوف ينتصـرون في المرّةِ القادمةِ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤﴾ **[الروم، الآيات ٢ - ٤]، وقد حدث ذلك النصرُ الموعود كما أخبر القرآن. وفضلًا عن ذلك فإنَّ القرآنَ يُبَيِّنُ لنا أنَّ المسيحيين هم أقرب الناس مودّةً للمسلمين:** ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ **[المائدة، من الآية٨٢]**»[(١)].

وأيضًا تشتركُ الحضارات ومعتقداتها في تأكيدِها علىٰ الرحمة الإلهيةِ التي تعلو كل القوانين والتشريعات، كما أنها جميعًا تؤكّدُ مسئولية الإنسان عن هذا العالمِ باعتباره خليفةَ الله في أرضِه، كما تحضُّ علىٰ حسن الخلق الذي يتمثل في الاستقامة والسلوك القويم.

٤- أرسىٰ الإسلامُ ركائز وأسسَ ثابتة لأدب الحوارِ مع الآخر، ينبغي أنْ تُوضَعُ نصبَ الأعينَ عند فتح بابِ الحوارِ، وهي:

أ- احترامُ شخصيّة المحاور: ومِن مظاهر هذا الاحترام اهتمام المحاور بالمحاور الآخر اهتمامًا ودّيًّا؛ سواء بالانتباه لكلامه والإصغاء إليه أو البقاء ناظرًا إليه وعدم اللجوء إلىٰ تجاهله أو الشرود أو الانشغال بشخصٍ آخر.

ولقد عاتبَ اللهُ رسولَ الرحمةِ والإنسانيةِ حينما أعرضَ بوجهِه عن

---

(١) الإسلام وقضايا الحوار، د. محمود حمدي زقزوق، القاهرة، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية ٢٠٠٢، ص٣٨.

الصحابيّ الجليل عبد الله بن أم مكتوم، حينَ جاءه ﷺ قومٌ مِن أشرافِ قريش وكان يرجو إسلامَهم، فأقبلَ عبدُ الله بن أم مكتوم، فكره رسول الله ﷺ أنْ يقطعَ عبدُ الله عليه كلامَه، فأعرضَ عنه، فنزلَ فيه هذا العتاب الربّاني، وهو قرآنٌ يُتلىٰ إلىٰ أنْ تقومَ الساعةُ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ أَمَّا مَنِ ٱسۡتَغۡنَىٰ ٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ٦ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ٧ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ٨ وَهُوَ يَخۡشَىٰ ٩ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ١٠ ﴾ **[عبس، الآيات ١ - ١٠]**.

كذلك كانَ رسولُ الله ﷺ مثالًا يُحْتَذىٰ في احترام الآخر؛ فكان ﷺ «إِذَا صَافَحَ أَوْ صَافَحَهُ الرَّجُلُ لاَ يَنْزِعُ يَدَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ يَنْزِعُ، فَإِنِ اسْتَقْبَلَهُ بِوَجْهِهِ لاَ يَصْرِفُهُ عَنْهُ حَتَّىٰ يَكُونَ الرَّجُلُ يَنْصَرِفُ، ولَمْ يُرَ مُقَدِّمًا رُكْبَتَيْهِ بَيْنَ يَدَيْ جَلِيسٍ لَهُ»[1].

ب- المرونة والتسامح شريان الحوار الديمقراطي: لا شكَّ أنّ توافر المرونة والتسامح في الحوار يُضْفي ارتياحًا وقبولًا لكلامِ الآخرِ؛ الأمر الذي قد يؤدي إلىٰ نجاح الغرضِ مِن الحوارِ.

ولقد أَمر الله تعالىٰ أنبياءَه ورسله باللين والرحمةِ في الحوار حتىٰ مع أعدائهم؛ أمرَ موسىٰ وهارون أنْ يذهبَا إلىٰ فرعون ويحاورانه بكلِّ لينٍ، فقال تعالىٰ: ﴿ ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ ٤٤ ﴾ **[طه، الآيتان ٤٣ - ٤٤]**.

وخاطبَ نبيَّه وحبيبَه محمّدًا ﷺ بقوله تعالىٰ: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴾ **[آل عمران، الآية ١٥٩]**.

كما أنّ ثمّة اعتباراتٍ تسوغ المرونةَ والتسامحَ في الحوار، وهي تتمثل في تلك الرغبة الأكيدة لاستمرار الحوار في نطاق الموضوع ذاتِه أو

---

(١) السنن الكبرىٰ للبيهقي، ١٠/ ٣٢٤، حديث رقم (٢٠٧٩٠).

في موضوعاتٍ مستقبلية أخرىٰ تفرضها طبيعة الوجودِ الإنساني وحاجاته المتجددة(١).

جـ- حسنُ الكلام والاستماع والإصغاء إلىٰ الطرف الآخر: هذا يقتضي بطبيعةِ الحال أمورًا عدّة؛ منها: ألّا يستبدَّ بالحوارِ ويستأثر بالحديث وحدَه، فينفرد به ولا يتركُ مجالًا لغيرِه، ولا يدعُ مقالًا ولا فرصةً لقائل، وإنما يستأثر بذلك وحدَهُ. وأنْ يكونَ حسنَ الاستماع لأقوال الآخرين، ويتفهمها فهمًا صحيحًا لا مِرْيةَ فيه، ولا يقاطع المتكلم أو يعترض عليه في أثناء التحدث بنِيّةِ إرباكِه أو إحراجِه. وألا يعتقد أو يعلنَ أنّ الحقَّ حكرٌ عليه وحدَه، وأنّ غيرَه بعيدٌ عن الحقِّ؛ وبالتالي يبعد عن ظنِّه أنّ أقوالَه جميعها هي الصواب لا تحتملُ الخطأ، وأقوال غيره عكس ذلك. وأنْ تكونَ غايته الوصول إلىٰ الحقِّ، والاعتراف به والخضوع له. وأنْ يكونَ كلامُه في حدود الموضوع المطروح بحثه، وألا يخرجَ إلىٰ موضوعٍ آخر لا علاقةَ له بالأوّلِ. وأخيرًا أنْ يبتعدَ عن اللجاجِ وهذَر الكلامِ، وأنْ يكونَ كلامُه واضحًا بينًا مؤيَّدًا بالحجج، بعيدًا عن التنطّعِ أو التكلّف في الكلام(٢).

٥- عاشَ غيرُ المسلمين في ظلِّ الحضارة الإسلامية قرونًا طويلة لم يشعروا فيها بأيِّ حرجٍ في ممارسة حرياتهم ومعتقداتهم، وقد ذكرنا في المحور الأوّل كيف كانت مساهماتُ هؤلاء غير المسلمين في ظلِّ الحضارة الإسلامية، وكيف كان إخلاصُهم وتفانيهم للدولة الإسلامية نتيجةً لهذا التّسامحِ الذي وجدوه لدىٰ الحكام المسلمين والرعيّة علىٰ حدٍّ سواء. لذا ليس غريبًا أنْ نجدَ مؤرِّخَ العلم في العصر الحديث جورج سارتون يُصـرِّحُ بتلك الحقيقة، معلنًا أنَّ تلك العلاقة

---

(١) لمزيدٍ مِن التفصيل يُنظر: أخلاقيات الحوار: عبد القادر الشيخلي. الأردن: دار الشروق، ط١. ١٩٩٣. ص٦٧ – ٧٣.

(٢) انظر: أدب الحوار في الإسلام: سيف الدين شاهين. الرياض: دار الأفاق. ط١. ١٩٩٣م. ص٩٣-٩٥.

بين المسلمين وغيرهم مِن أصحاب الديانات الأخرىٰ «كانت علاقةً وديّةً، أو علىٰ الأقلّ لا عدوانَ فيها؛ لأنَّ المسلمين عاملوا رعاياهم بكلِّ رحمةٍ وسماحة، وبعنايتِهم وتشجيعِهم نُشِرَت بحوثٌ كثيرةٌ وأعمال علمية باللغةِ العربية ألَّفها غير مسلمين، منهم: صابئة ونصارىٰ ويهود وسامريون... وحتىٰ نهاية القرن الثاني عشر كانت العربيةُ لغةَ اليهودِ الفلسفية والعلمية»(١).

٦- يرىٰ الإسلام أنَّ اختلافَ الأجناسِ والألوان، وتباين الطبائع والأفهام، وتعدّدَ المواهب والقدرات مِن مقتضىٰ حكمة الله ﷻ: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة، من الآية ٤٨]. فلعلَّ هذا الاختلاف يحقق للبشـريةِ قدرًا مِن طموحها وتطلعاتها إلىٰ التنمية الحضارية مِن خلال التعاون والتفاعل الإيجابي فيما بين يدي بني الإنسان مِن معطيات السماء المادية والروحية.

فالحوارُ مِن ثَمَّ كانَ ضرورةً بشـريةً، بحكم طبيعةِ تلك المعطيات، وفضلًا عمّا ينبغي الائتلاف عليه مِن أمورٍ ترجح في الحقيقةِ ما قد يُختَلفُ بصدده. فعلىٰ الناس جميعًا أنْ يستشعروا الرابطة الأسرية الكبرىٰ التي بينهم؛ فأبوهم آدم وأمهم حواء. وبهذه الرابطة ذكّرَ القرآنُ الناسَ وكثيرًا ما ناداهم: (يا بني آدم)، فلِمَ لا يعيشون عيشةَ الأسرةِ الواحدة، ويُرجئون كلمةَ الفصلِ بينهم إلىٰ مَن إليه مصيرهم؟!(٢)

٧- تُستَمَدُّ رسالة الإسلام وحقيقة مبادئه العامة في عالمِ اليوم مِن جوهره وحقيقتِه الأساسية، والتي يمكنُ إجمالها فيما يلي:

أ- نشر الروحية في عالم اليوم الذي تغلبت عليه المادية، وحَكَمَتْه فلسفاتها الجائرة.

---

(١) تاريخ العلم والإنسية الجديدة، ترجمة: إسماعيل مظهر، ص١٦١.

(٢) الحوار في الإسلام: عبد الله بن حسين الموجان. السعودية: مركز الكون، ط١. ٢٠٠٦م. ص٢٤٥-٢٤٦.

ب- الدعوة إلىٰ الأخوة الإنسانية في عالم اليوم المليء بالأحقاد وبالأسباب التي تُهدّدُ السلامَ العالميَّ في كل لحظة.

جـ-الدعوة إلىٰ تحرير العناصر والشعوب المستعبدة؛ لأن ذلك مِن جوهر الإسلام وطبيعتِه.

د - العمل مِن أجل ثقافة جديدةٍ مثالية.

هـ -نشر أعمال المفكرين المسلمين ومبادئ الإسلام وبطولات أبطاله وقواده ومواقف قادته بكل لغةٍ؛ لتكونَ تراثًا للناس يستهدون به ويسترشدون بسموها وإخلاصها.

و- الكشف عن أصول الحضارة الإسلامية وأعمالها في خدمة العالم، ونشر ملخصات عنها بكل لغةٍ.

ز- إنشاء معاهد ثقافية وإسلامية في جميع أنحاء العالم لنشر الثقافة العربية الإسلامية.

ح- كتابة التاريخ الإسلامي في موسوعةٍ عربية بأسلوب جديد يتفق مع تطور الحياة والفكر العالمي المعاصر.

ط- نشر مفاخر الإسلام في خدمة الشعوب التي استظلت بظلاله وفي النهوض بها، وكل ما أسداه إليها الحكم الإسلامي من نهضةٍ وتقدم وحضارة ورُقيٍّ.

ي- الدعوة ـ دومًا ـ إلىٰ مبادئ الإسلام السياسية في: الحرية، والشُّورىٰ، والمساواة، والتكافل الاجتماعي، والإخاء، والعدالة.. وغير ذلك[1].

٨- يؤكّدُ الإسلامُ منذ انتشاره وحتىٰ يومنا هذا ـ علىٰ حقيقةٍ مؤكّدة، مفادها أنَّ التعايشَ الإيجابي بين الحضارات والشعوب والأديان، وكذلك التنافس فيما

(١) الإسلام والحضارة الإنسانية: محمد عبد المنعم خفاجي. بيروت: دار الكتاب اللبناني، ١٩٨٢م. ص٥١-٥٢.

بينها في الخيرات يُعَدُّ شرطًا مبدئيًّا لقيامِ مجتمعٍ عادلٍ تُصَانُ فيه حقوقُ الإنسان وتُحْتَرَمُ كرامتُه. كما يؤكّدُ أيضًا على أنَّ تعدديَّةَ الشعوبِ والحضاراتِ وتفرد كلٍّ منها بخصوصياتها الدينية والحضارية لا يُشكّلُ عقبةً في طريق خير الإنسانيةِ وتوحُّد جهودها، بل يمثل إثراءً للتجربةِ الإنسانية. ولكن العقبةَ الحقيقية تتمثل في سيطرة حضارة منفردة وتسلطها على مقدرات العالم؛ الأمر الذي مِن شأنِه أنْ يؤدي إلى انعدام السلام والأمنِ وإلى محاولاتِ التوحُّدِ التعسُّفي الذي لا حياةَ فيه ولا روح، ويؤدي في النهايةِ إلى المجتمع الشمولي الذي لا يريده أحد في حقيقة الأمر؛ لما يعنيه ذلك مِن ضياعٍ لحقوق الإنسان وامتهان لكرامته[1].

٩- إنَّ الإسلامَ حينما يدعو إلى ضرورةِ فتح باب الحوار مع الآخر فإنّه يدعو في الوقتِ نفسِه إلى التضامن العالمي بين كلِّ شعوب العالم؛ وذلك مِن أجل تحمُّلِ المسئولية عن هذا العالم، وتجنيب شعوب العالم تلك الصراعات التي قد تؤدي في أغلب الأحيان إلى الدخول في الحروب.

فالحوار هو السبيل الأمثل للبشرية كي تؤمّن نفسها من أي هجوم مُنتظر على حضارتِها وإرثها؛ لأنَّ بقاء الحضارة هو الفرصة السانحة للتوصل بالحوار إلى حَلٍّ سلميٍّ لأي نزاعٍ.

١٠- انتبه المسلمون الأوائل إلى ضرورة فتحِ باب الحوار مع مَنْ يعيشون معهم مِن أصحاب الديانات الأخرى؛ كما انتبهوا إلى تلك المسئولية التي وضعها الإسلامُ في أعناقهم تجاه إخوانهم في البشرية، فوجهوا إلى إخوانِهم في البشرية كلَّ نصحٍ ومحبّةٍ للدخول في الإسلامِ.

وقد حفظت لنا كتب التاريخ وثائق عدّة لهذه الدعوات السِّلمية، ولهذه المناظرات التي ما كانت لتهدف إلا إلى إسعادِ البشرية وإرشادِها إلى الطريق المستقيم. من ذلك مَا أشارَ إليه أبو الريحان البِيروني في كتابه «الآثار الباقية عن

---

(١) الإسلام وقضايا الحوار، ص٤٧.

القرون الخالية»(١)، من مراسلة واضحة للدعوة إلىٰ الإسلام بالحوار، ترجعُ إلىٰ عهدِ المأمون في القرنِ الثالث الهجريّ، وهي في صورة رسالة كتبها ابنُ عمّ الخليفة عبد الله بن إسماعيل الهاشميّ إلىٰ عربيٍّ مسيحيٍّ كريم المحتد، عظيم المنزلة في بلاط الخلافة، وكان المأمون يحلُّه مِن نفسه محلَّ الاحترام والتقدير. وفي هذه الرسالة يرجو لصديقِه الدخول في الإسلام، في صورةٍ تصوِّرُ بوضوحٍ مسلك المسلمين السَّمح تجاه الكنيسة المسيحية في ذلك العصر. يقول فيها:

«بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعدُ؛ فقد افتتحتُ كتابي إليك بالسلام عليك والرحمة تشبّهًا بسيدي وسيد الأنبياء محمد رسول الله ﷺ، فإنَّ ثقاتنا ذوي العدالة عندنا. الصادقين الناطقين بالحقِّ، الناقلين إلينا أخبار نبينا عليه السلام، قد رووا لنا عنه أنّ هذه كانت عادته، وأنّه كان ﷺ إذا افتتحَ كلامَه مع النَّاسِ يبادئهم بالسلام والرحمة في مخاطبته إيّاهم، ولا يُفرِّق بين الذمّي منهم والأُمّيّ، ولا بين المؤمن والمشرك، وكان يقولُ: إني بُعِثْتُ بحُسنِ الخُلقِ إلىٰ النَّاس كافةً، ولم أُبعَثْ بالغِلْظةِ والفظاظةِ. ويستشهدُ الله علىٰ ذلك، إذ يقولُ: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة، من الآية ١٢٨]. وكذلك رأيتُ مَنْ حضرتُه من أئمتنا الخلفاء رضي الله عنهم أجمعين، أنهم كانوا الفضل أدبهم وشرف حسبهم ونُبل همّتِهم وكرم أخلاقِهم، يتتبعون أثرَ نبيِّهم ﷺ، ولا يفرقون في ذلك ولا يفضلون فيه أحدًا، فسلكتُ ذلك المنهج، واحتذيتُ تلك السُّبل، وأخذتُ ذلك الأدبَ المحمود، فابتدأتُكَ في كتابي هذا بالسّلام والرحمةِ؛ لئلا ينكر عليّ منكر يقع إليه كتابي هذا».

«والذي حملني إليكَ وحثَّني علىٰ ذلك؛ إذ كان سيدي ونبيي محمد ﷺ يقولُ: محبّةُ القريبِ ديانةٌ وإيمان. علىٰ أني كتبتُ طاعةً لرسولِ الله ﷺ، ولِمَا أوجبَه لك عندنَا حقّ خدمتك لنا ونصحك إيانا، وما أنتَ عليه مِن محبّتنا وتظهره مِن

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية: أبو الريحان محمد بن أحمد البيروني. ليبزج، ١٨٧٨م. ص٢٠٥.

مودّتنا، والميل إلينا. وما أرىٰ ـ أيضًا ـ مِن إكرام سيدي وابن عمّي أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ لك، وتقريبه إيّاك، وثقته بك، وحسن قوله فيك. **فرأيتُ أنْ أرضى لك مَا قد رضيتُه لنفسي وأهلي وولدي، مخلصًا لكَ النصيحة ومبذلها، كاشفًا عمّا نحن عليه مِن ديانتنا هذه التي ارتضاها الله لنا ولجميع خلقه**، ووعدنا عليها حسن الثواب في المعاد، والأمن من العقاب في المآب... **فرغبتُ لكَ فيما رغبتُ فيه لنفسي، وشفقتُ عليكَ لما ظهر لي مِن كثرة أدبك وبارع علمك وحسن تهذيبك وجميل مذهبك وشرف حسبك وتقدمك على الكثير مِن أهل ملّتِك، أنْ تكونَ مقيمًا على ما أنتَ عليه مِن ديانتِك هذه. فقلتُ: أكشفُ له عمّا مَنَّ الله به علينا**، وأعرِّفه مَا نحنُ عليه بألين القول وأحسنه، متبعًا في ذلك ما أذن الله به؛ إذ يأمرني ويقول تعالىٰ: ﴿ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ **[العنكبوت: من الآية ٤٦]،-فلستُ أجادلُكَ إلا بالجميل مِن الكلام، والحسن مِن القولِ، واللين مِن اللفظ؛ لعلك تنتهي وترجع إلى الحق، وترغبُ فيما أتلوه عليكَ مِن كلام الله ﷻ، الذي أنزلَه على خاتم أنبيائه وسيد ولد آدم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. ولم أيأس مِن ذلك، بل رجوتُه لك مِن الله الذي يهدي مَنْ يشاءُ، وسألتُه أنْ يجعلني سببًا في ذلك، ووجدتُ الله ﷻ يقولُ في محكمِ كتابِه:** ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَـٰمُ ﴾ **[آل عمران، الآية ١٩]، ويقول الله أيضًا مؤكدًا لقولِه الأوّل:** ﴿ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَـٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَـٰسِرِينَ ﴾ **[آل عمران، الآية ٨٥]، ثُمّ أكّدَ ذلك ﷻ أمرًا قاطعًا؛ إذ يقول:** ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ **[آل عمران، الآية ١٠٢]».**

«وأنتَ الرَّجُلُ - عافاك اللهُ مِن جهل الكفرِ، وفتحَ قلبكَ لنور الإيمان ـ تعلمُ أنّي رجلٌ أتت عليَّ سنون كثيرة، وقد تبحرتُ في عامة الأديان وامتحنتُها، وقرأتُ كثيرًا مِن كتب أهلِها، وخاصة كتبكم معشر النصارىٰ... ولقيتُ جماعةً مِن الرُّهبان المعروفين بشدّةِ الزهد وكثرة العلم، ودخلتُ عِمارًا وديارات وبِيعًا كثيرة، وحضرتُ صلواتهم... ورأيتُ ذلك الاجتهاد العجيب، والركوع

والسجود بإلصاق الخدود بالأرض، وضرب الجبهة، والتكيف إلىٰ انقضاء صلواتهم خاصةً في ليالي الآحاد وليالي الجمع وليالي الأعياد...

فأنا الآن ـ متَّعَ اللهُ بك ـ أدعوكَ بهذه المعرفة كلها مني بدينِك الذي أنتَ عليه، وبطولِ المحبّةِ إلىٰ هذا الدين الذي ارتضاهُ الله لي ولك وقد ارتضيتُه لنفسي، وهو أنْ تعبدَ الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد، ولم يتخذ له صاحبةً ولا ولدًا ولم يكن له كفوًا أحد... وهي الصفة التي وصف نفسه عَزَّ وَجَلَّ بها؛ إذ كانَ ليس أحدٌ مِن خلقه أعلم به مِن نفسِه. فدعوته إلىٰ عبادةِ الإله الواحد الذي هي صفته، ولم أزد في كتابي هذا علىٰ ما وصف به نفسه، جلَّ اسمُه وتعالىٰ ذكرُه، علوًّا كبيرًا عمّا يُشركون. فهذه مِلّةُ أبيكَ إبراهيم صلوات الله عليه؛ فإنّه كانَ حنيفًا مُسلمًا.

ثُمَّ أدعوكَ - حفظك الله- إلىٰ الشهادةِ والإقرارِ بنبوةِ سيدي وسيد ولدِ آدم، وصفيّ رب العالمين وخاتم الأنبياء محمّد... الذي أرسلَه الله بشيرًا ونذيرًا إلىٰ الناس كافةً ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة، من الآية ٣٣]. فدعا الناسَ أجمعين، أهل الشرق والغرب، وأهل البر والبحر، والجبل والسهل، بالرحمةِ والرأفةِ وطيب القول وحسن الخلق واللين. فاستجاب هذا الخلق كلهم إلىٰ دعوتِه بالشهادةِ له أنّه رسول رب العالمين إلىٰ مَنْ يريد انتصاحًا، وأقرَّ الأنامَ كلهم طائعينَ مذعنين لما عرفوا مِن الحق والصدق مِن قولِه وصحّة أمره، ومَا جاءَ به مِن البرهان الصريح والدليل الواضح، وهو هذا الكتاب المنزّل عليه مِن عند الله، والذي لا يقدرُ أحدٌ مِن الإنس والجنّ أنْ يأتيَ بمثلِه، وكفىٰ به دليلًا علىٰ دعوتِه، وأنّه دعا إلىٰ عبادة إله واحدٍ فردٍ صمد، فدخلوا في دينِه، وصاروا تحت يدِه غير مكرهين ولا مجبرين، بل خاضعين معترفين مستنيرين بنور هدايتِه، متطاولين باسمه علىٰ غيرِهم ممّن جحد نبوّته وأنكر رسالته، وردّ أمره مقاومًا ومتعاليًا. فمكّنَ الله لهم في البلادِ، وأذلَّ لهم رقاب الأُممِ مِن العبادِ، إلا مَنْ قال بقولِهم وتديّنَ بدينهم،

وشهد على شهادتهم. فحقن بذلك دمه وماله، وحرمته أنْ يؤديَ الجزية عَنْ يدٍ وهو صاغرٌ.... فأمّا نحنُ فقد ذكرناكَ، فإنْ أنتَ آمنتَ وقبلتَ مَا يُتلىٰ عليك مِن كتابِ الله المنزل انتفعتَ بما ذكّرناكَ وكتبنا به إليكَ، وإنْ أبيتَ إلا المقامَ علىٰ كفرك وضلالك وعنادك للحق كنّا نحن قد أُجِرْنَا؛ إذ عملنا بما أُمِرْنَا به، وكان الحقُّ هو المنتصف منك إن شاء الله...

فدعْ مَا أنتَ عليه مِن الكفرِ والضلالِ والشقاوة والبلاء، وقولك بذلك التخليط الذي تعرفه ولا تنكرُه، وهو قولكم بالأب والابن والروح القدس وعبادة الصليب التي لا تضرّ ولا تنفعُ، فإني أربأ بكَ عنه، وأُجِلُّ فيه علمك وشرف حسبك. فإني وجدتُ الله تباركَ وتعالىٰ يقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء، من الآية ٤٨، ١١٦]، وقال ﷻ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [المائدة، الآيات ٧٢ - ٧٥].

فدعْ مَا أنتَ فيه مِن تلك الضلالة، وتلك الحمية الشديدة الطويلة المتعبة، وجهد ذلك الصوم الآزم الصعب والشقاء الدائم، والبلاء الطويل الذي أنتَ منغمسٌ فيه، الذي لا ينفعُ ولا يجدي عليك إلا إتعابك بذلك وتعذيبك نفسك، وأقبلْ داخلًا في هذا الدين القيِّم، السهل المنهج، الصحيح الاعتقاد، الحسن الشرائع، الواسع السبيل، ارتضاهُ الله لأوليائه مِن عبادِه، ودعا جميع خلقه إليه مِن بين الأديان كلّها، تفضلًا منه عليهم به، وإحسانًا إليهم بهدايتِه إياهم؛ ليتمّ بذلك نعماهُ عندهم.

فقد نصحتُ لك يا هذا، وأدّيتُ إليكَ حقّ المودّةِ وخالص المحبّة؛ إذْ أحببتُ أنْ أخلطكَ بنفسي، وأنْ أكونَ أنا وأنت على رأي واحدٍ وديانةٍ واحدةٍ. فإني سمعتُ ربي يقول في محكم كتابه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ شَرُّ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٦ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ خَيۡرُ ٱلۡبَرِيَّةِ ۝٧ جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ۝٨ ﴾ [البينة، الآيات ٦ – ٨]، وقالَ اللهُ في محكم كتابه في موضعٍ آخر: ﴿ كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ ﴾ [آل عمران: مِن الآية ١١٠]. وأشفقتُ عليكَ – أبقاكَ الله – أنْ تكونَ مِن أهل النّار، الذين هم شرُّ البريّة، ورجوتُ أنْ تكونَ – بتوفيق الله إياك – مِن المؤمنين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، هم خير البريّة. ورجوتُ أنْ تكونَ مِن هذه الأمةِ التي هي خير أُمّةٍ أُخرجت للناسِ. فإنْ أبيتَ إلا إلظاظًا ولجاجًا وجهلًا وتماديًا في كفرِك وطغيانِك الذي أنتَ فيه، ورددتَ علينا قولَنا، ولم تقبلْ مَا بذلناهُ لكَ مِن نصيحتِنا، حيثُ لم نُردْ منك على ذلك جزاءً ولا شكرًا.

فاكتبْ بما عندكَ مِن أمرِ دينِكَ، والذي صحّ في يدكَ منه، ومَا قامت به الحجةُ عندكَ، منا مطمئنًّا، غير مقصّرٍ في حُجَّتِك، ولا مكاتمٍ لما أنتَ معتقده، ولا فرَقَ ولا وجَلَ، فليس عندي إلا الاستماع للحجّةِ منك، والصبر والإقرار بما يلزمني منه طائعًا غير منكرٍ، ولا جاحدٍ ولا هائبٍ، حتى نقيس مَا تأتينا به وتتلوه علينا، وتجمعُه إلى مَا في أيدينا، ثُمّ نخبرك بعد ذلك. على أنْ تشرحَ لنا عِلّتَهُ، وتدع الاعتلال علينا بقولك: إنّ الفزعَ حجبَك وقطعك عن بلوغ الحُجّةِ، واحتجتَ أنْ تقبضَ لسانَكَ، ولا تبسطَه لنا ببيان الحجّة، فقد أطلقناكَ وحُجّتِك؛ لئلا تنسبنا إلى الكبرياءِ، وتدَّعي علينا الجور والحيف، فإن ذلك غير شبيهٍ بنا.

فاحتجَّ – عافاك الله – بما شئتَ، وتكلَّمْ بما أحببتَ، وانبسط في كلِّ مَا تظنُّ أنّه يؤديك إلى وثيقِ حجتك، فإنّكَ في أوسعِ الأمان، ولنا عليكَ – أصلحكَ

الله – إذ أطلقناك هذا الإطلاق، وبسطنا لسانَك هذا البسط، أنْ تجعل بيننا وبينك حَكَمًا عادلًا لا يجورُ، ولا يَحيفُ في حكمِه وقضائه، ولا يميلُ إلىٰ غير الحقّ إذا ما تجنّب دولة الهواء، وهو العقل الذي يأخذ به الله ـ عزّ وجلّ ـ ويُعْطِي، فإننا قد أنصفناكَ في القولِ وأوسعناكَ في الأمان، ونحن راضونَ بما حكم به العقل لنا وعلينا؛ إذ كان ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة، من الآية ٢٥٦]، وما دعوناكَ إلا طوعًا وترغيبًا فيما عندنا، وعرّفناكَ شناعةَ مَا أنتَ عليه، والسلام عليكَ ورحمة الله وبركاته»(١).

لعلَّ هذه الرسالة توضِّحُ لنا كيف شعرَ أوائل المسلمين بضرورةِ الحوار مع غيرهم، وكيف كان حوارهم متّسمًا بالهدوء والحب والشَّفقة والمودّة، وكيف كانت أخلاقهم معهم، وكيف كانت حججهم وأدلتهم الناصعة تبرهنُ علىٰ صدقِ ما ذهبوا إليه. والرسالة في حقيقتِها موجّهةً إلىٰ كلِّ عقلٍ مسلم مستنير يدعو إلىٰ الله علىٰ بصيرةٍ وهدًىٰ منه، غير فظٍّ ولا غليظٍ، وإنما هي الرحمةُ التي أنعمَ الله بها علىٰ أتباع هذا الدين.. رحمة بين الكبير والصغير، والقوي والضعيف، والشيخ والغلام، والأب وبنيه، والابن وأُمّه. فديننا دينُ الرحمة، ونبينا نبيُّ الرحمة، وصدق الله تعالىٰ حينما خاطبَ نبيّه ورسوله: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء، الآية ١٠٧].

عن أنس بن مالك ﵁ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله ﷻ: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك، يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقِراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا، لأتيتك بقرابها مغفرة)(٢).

إن هذه المعلومة الرائعة عن ديننا الإسلامي أغلبنا يجهلها فتعرفوا عليها وعرفوا الآخرين بها

(١) انظر: الدعوة إلىٰ الإسلام، ص ٤٧٠ – ٤٧٥.

(٢) سنن الترمذي، تحقيق بشار عواد، ٥/ ٤٤٠، حديث رقم (٣٥٤٠).

الأديان السماوية الربعة (التوراة والانجيل والزبور والقرآن) قد نزلت جميعها في أرض العرب، فنزلت التوراة على موسى والانجيل على عيسى والزبور على داوود والقرآن آخر الكتب السماوية نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والرسل لجميع الخلق.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران: ١٩].

إذاً ماهي اليهودية والنصرانية؟ هي شعوب توجد في العالم سموا أنفسهم بذلك أما الكتب السماوية التوارة والانجيل هي «شرائع وكتب سماوية وليس ديانات والدين واحد فقط وهو الإسلام»

قال الله تعالى: ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

فالشرائع تختلف حيث إن كل شريعة تختلف عن الأخرى في الحرام والحلال ولكن الدين واحد فكل الأنبياء والرسل دينهم واحد وهو الإسلام أما الادعاء بأن اليهودية والنصرانية ديانة فاليهود والنصارى هم الذين سموا أنفسهم بذلك ولم يسمهم الله سبحانه وتعالى نصارى أو يهودًا

قال الله تعالى﴿ وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ ﴾ [المائدة: ١٤].

﴿ وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْ ﴾ [البقرة: ١٣٥].

فهم الذين قالوا على أنفسهم ولكن كل الأنبياء والرسل قالوا إنا مسلمون حتى فرعون قال حين أدركه الغرق: ﴿ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٩٠].

فلماذا لم يقل وأنا من اليهود؟

وهذه الآيات التي تدل على أن الدين واحد وهو الإسلام وليس ثلاث ديانات

قال نبي الله نوح عليه السلام: ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٧٢].

وقال نبي الله إبراهيم عليه السلام لبنيه: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

وقال نبي الله يوسُف عليه السلام: ﴿ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وقال نبي الله موسىٰ عليه السلام: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوۡمِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيۡهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ٨٤ ﴾ [يونس: ٨٤].

وقال نبي الله عيسىٰ عليه السلام: ﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٥٢ ﴾ [آل عمران: ٥٢].

وتأتي الآية الجامعة لكل الأنبياء وهم يقرّون بأنهم مسلمون: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وجاء خاتم النبيين والمرسلين سيدنا محمد صل الله عليه وسلم يحمل الشريعة الإسلامية التي تدعوا لدين الإسلام أيضا ولكن بمنهج مكمل لكل الشرائع فكل من آمن بالله وبكل نبي بعث فهو مسلم ويشهد أن لا إله إلا الله أي أنَّه مستسلم وخاضع لله وحده إلها واحدًا لا شريك له.

المفاجأة الكبرى

اللهم رب آدم، ورب نوح، ورب إبراهيم، ورب يعقوب، ورب موسىٰ وهارون، ورب عيسىٰ، ورب محمد، اللهم إن هؤلاء الأنبياء والرسل هم رسلك إلىٰ عبادك ونحن نؤمن بهم جميعًا من آدم عليه السلام وحتىٰ محمد ﷺ آخر الأنبياء والرسل، الذي بعث للثقلين الإنس والجن وجميع من هو علىٰ الكرة الأرضية، وذلك من بعثته حتىٰ قيام الساعة والذي أعطيته سبحانك جلّ شأنك خمسًا، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا، وَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الغَنَائِمُ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَىٰ قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كَافَّةً، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ»(١)

وأن عدد الأنبياء والرسل مائة وأربعة وعشرون ألف نبي قد أرسلتهم إلىٰ خلقك، منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رسولًا، جميعهم عاشوا في الجزيرة العربية وفي العراق وفي مصر والأرض المباركة، ومنها بعثوا وفيها أرسلوا وفيها دفنوا إلَّا عيسىٰ عليه السلام رفع إلىٰ السماء ومنها يعود إلىٰ الأرض ويدفن فيها، وقد ذُكر في الإنجيل بأنه سوف يأتي نبيٌّ من بعده اسمه أحمد وهو محمد ﷺ.

وقد ذكر نبينا محمد ﷺ في أحاديث عدة ما يؤكد طلوع الشمس من مغربها، وحيث إنه لا ينطق عن الهوىٰ، قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣-٤]، وحيث إن الله سبحانه وتعالي يرسل عليه جبريل ويخبره بما سوف يحدث في الكون مستقبلًا، فقد ذكر وأكد بأن الشمس في آخر الزمن سوف تطلع من المغرب، وهذا قبل ألف وأربعمائة وسبعة وثلاثون عام، وسوف نورد الأحاديث الواردة في ذلك.

(١) صحيح البخاري ١/ ٩٥، رقم الحديث (٤٣٨).

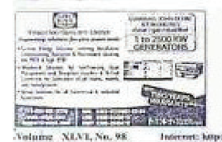
وقد أكدت وكالة ناسا – المحطة الفضائية الأمريكية المشهورة – باقتراب طلوع الشمس من المغرب، وعدة "وكالات ذكرت ذلك، حيث نشرت العديد من المواقع العالمية المهتمة بشؤون الفلك والعلوم المختلفة بالإضافة إلى مواقع إخبارية كبرى مثل «ديلي ميل» و«هافينتجون بوست» خبرًا ينقلون من خلاله تحذيرًا خطيرًا من وكالة الفضاء الأوروبية لسكان كوكب الأرض من اقتراب انقلاب الحقل المغناطيسي الأرضي، وأكد الموقع العلمي «ليف ساينس» أن المجال المغناطيسي للأرض لم يعد قويًا مثلما كان في السابق بعد ما تزايدت نسبة ضعفه ١٠ مرات عما كان عليه من قبل خلال السنوات الماضية، وذلك خلال الـ٦ شهور الماضية فقط. ومن المعروف أن المجال المغناطيسي للأرض يشكل غلافًا دائريًا لحماية الكرة الأرضية من العواصف الشمسية والأشعة الكونية الضارة، وتوقفه عن دوره في حماية الأرض يودي إلى انقلاب في الحقل المغناطيسي الأرضي، وهو ما يعتبر كارثة بكل المقاييس. كما أكدت الوكالة الأوروبية أنها تراقب وتتابع عن كثب التغيرات منذ شهر نوفمبر من العام ٢٠٠٢م.

Pages 22 – Price Rs 12 Registration No. SC-27

BUSINESS RECORDER

Simultaneously published from Karachi, Lahore & Islamabad

Volume XLVI, No. 98 Internet: http://www.brecorder.com Editor-in-chief: M.A. Zuberi Karachi, Friday 9 April 2010, 23 Rabi-us-Sani 1431



Signs of the Day of Judgment

NASA confirms possibility of sun rising from the West

The science of astronomy states that the speed of planet Mars has been decreasing in its course toward the eastern direction in the past few weeks to the level we notice the "waver" between the east and the west..and on Wednesday the 30th of July the planet movement stopped going toward the eastern direction.

Then in the months of August and September...Mars changed its course in the opposite direction to the West- and that until the end of September..which means the sun will rise now from the west on Mars!! And this weird phenomena of the opposite movement is called "Retrograde Motion" Most scientist state that all the planets will go through the same once at least and our planet Earth is one of them. Planet Earth will move in the opposite direction some day and the sun will rise from the west!!

This might occur soon and we are unaware! The rise of the sun from the west is mentioned in the hadith and this is the major sign of the day of judgment, most if not all, the minor signs have occurred. Wake up.

Our beloved messenger Mohamed (Peace Be Upon Him) said: "One of the signs of the hour..the sun will rise from the west, where no longer tauba (forgiveness) will be granted" !!And the strange thing..most of our Shariah scholars mentioned that the rise of the sun from the west occurs only once..on that day..the sun will rise from the west..then again from the east..and continues until Allah wishes..and this is similar to what is happening to Mars..it stops, then it changes its course of direction for a short period of time..then returns to way once it was.

And Abdullah Bin Amro (R.A.) said: (I memorized from the messenger (SAW) a hadith I will never forget..I heard the messenger of Allah (SAW) say: The first aya to come the rise of the sun from the west) [Ahmad]. And the messenger SAW "Allah places HIS hand at night to forgive his morning sinners, and places in the morning to forgive his night sinners until the sun rises from the west" [Muslim].

This piece of news is very important as it brings with it a great sign of warning and remembrance of the coming of a new WORLD - the world of he Hereafter When we show this hadith that was told 1400 years ago about this miracle..you will see InshaALLAH, a lot will revert to right path...And the Muslims if they see this phenomena happening in Mars..who knows maybe it would bring them closer to our CREATOR.

May Allah keep all of us in the right path and provide us with success in this world as well as in the hereafter.

وكالة ناسا تؤكد اقتراب طلوع الشمس من مغربها

وهذا ليس بجديد علينا فقد ورد عن النبي ﷺ الأحاديث التالية:

الحديث الأول:

إِنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «إِنَّ الْهِجْرَةَ خَصْلَتَانِ: إِحْدَاهُمَا أَنْ تَهْجُرَ السَّيِّئَاتِ، وَالْأُخْرَىٰ أَنْ تُهَاجِرَ إِلَىٰ اللهِ وَرَسُولِهِ. وَلا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ مَا تُقُبِّلَتِ التَّوْبَةُ، وَلا تَزَالُ التَّوْبَةُ مَقْبُولَةً حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ الْمَغْرِبِ، فَإِذَا طَلَعَتْ طُبِعَ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ الْعَمَلَ»(١).

الحديث الثاني:

عن أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَإِذَا رَآهَا النَّاسُ آمَنَ مَنْ عَلَيْهَا، فَذَاكَ حِينَ: ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ١٥٨﴾ [الأنعام: ١٥٨](٢)

الحديث الثالث:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ تَابَ قَبْلَ أَنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا، تَابَ اللهُ عَلَيْهِ»(٣).

الحديث الرابع:

عَنْ مُعَاوِيَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ يَقُولُ: «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّىٰ تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلَا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّىٰ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»(٤).

فيا أيها الناس سارعوا إلىٰ التوبة والعبادة وتوحيد الله سبحانه وتعالي في ربوبيته وإلوهيته وأسمائه وصفاته ودخولكم إلىٰ الدين الإسلامي الحنيف السني وقد كان العرب في الجاهلية قبل ظهور الرسول محمد ﷺ يعبدون الأصنام

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرنؤوط ٣/ ٢٠٦.
(٢) صحيح البخاري (٦/ ٥٨)، رقم الحديث (٤٦٣٥).
(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٧٦)، حديث رقم (٢٧٠٣).
(٤) سنن أبي داود (٣/ ٣)، رقم الحديث ٢٤٧٩.

ويأكلون الحرام ويقتلون ويزنون ويشربون الخمر ويلعبون الميسر، وكان عندهم شركيات وبدع وكانوا يقطعون الأرحام ويعملون الكثير والكثير من المحرمات، ولكن بعد ظهور محمد ﷺ حرَّم الله تعالىٰ جميع ما ذُكر، ودخل الناس أفواجًا أفواجًا في الإسلام والآن تعدادهم يزيد عن المليار ونصف المليار مسلم.

فإنني أدعو ما تبقىٰ للدخول في دين الإسلام، وهو الدين الحقيقي لأهل الدنيا وأهل الآخرة أهل الجنة، اللهم قد بلغت فأشهد.

وقد عشت في القرن الواحد والعشرين ووجب عليّ أن أُبلغ ولو كلمة عن الإسلام وقد أحضرت أكبر الحجج وأكبر البراهين، وهي أحاديث عن النبيﷺ التي تؤكد طلوع الشمس من المغرب ثم أكدت وكالة ناسا الفضائية الأمريكية ذلك، وهي لا تعلم بوجود أحاديث النبيﷺ.

وظهور الشمس من مغربها هو من العلامات الكبرىٰ لقيام الساعة، فسارعوا إلىٰ التوبة قبل قيام الساعة، فإنها علىٰ الأبواب، وقد ذكرها النبيﷺ حينها أشار بسبابته والوسطي، بأن قيام الساعة اقترب، وقال: «بعثت أنا والساعة كهاتين».

والحديث التالي يؤكد انشقاق القمر، فقد طلبت قريش آيةً من الرسول ﷺ تؤكد نبوته، فأظهر الله القمر وانشق نصفين، نصف في المشرق والنصف الآخر قريب الظهر، ثم التمت واجتمعت.

- حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ ابْنِ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ أَبِي مَعْمَرٍ، عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ، انْشَقَّ الْقَمَرُ عَلَىٰ عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شِقَّتَيْنِ، حَتَّىٰ نَظَرُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اشْهَدُوا»(١). وقد ذكر الله سبحانه وتعالىٰ في القرآن الكريم في سورة القمر (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ)، فهاتان آيتان موجودتان لدينا الآن وهذه صورة من القمر منشق، وهذا كلامنا عن الشمس. ولا حول ولا قوة إلا بالله وإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون.

---

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل، (٦/ ٦٠) حديث رقم ٣٥٨٣.

ومن لا يؤمن بالله الخالق الرازق المحيي المميت، فلا يعيش على أرضه ولا تحت سمائه ولا يأكل من خيراته، ولا يشرب من أنهاره ولا يستنشق هواءه، ولا يطلب النجاة من الله في المصائب. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.





مخطوطة تدل على أقدم شكل للكتابة العربية

عثر عليها فريق من الخبراء الأثريين السعوديين والفرنسيين في عام ٢٠١٤ بجنوب السعودية على بعد ١٠٠ كيلومتر شمال نجران وهي مؤرخة وتعود إلى العامين ٤٦٩ و٤٧٠ ميلادية" أي قبل البعثة النبوية بنحو قرنين. وهذا هو أقدم شكل للكتابة العربية معروف حتى الآن نستدل بها على وجود حضارة عربية قديمة في الجزيرة العربية قام الإسلام بنقلها إلى العالم.

الخاتمة

بها تم كتابنا هذا وأشكر الله سبحانه وتعالى ثم أشكر كل من أسهم أو شارك معي ولو بالجهد القليل أو بالتوجيه، وأشكر كل من كتب عن محاورة أهل الذمام واستفدنا منه في كتابنا هذا، كما اشكر كل من بحث أو راجع أو ساعد في إخراج هذا الكتاب، سواء من داخل البلاد أو خارجها من الوطن العربي أو الدول الأجنبية، وكذلك الشكر موصول لكل من أسهم بإرسال قصاصات أو مواضيع عبر الإنترنت أو الفاكس.

فالشكر لله ثم لجميع من أسهم، نسأل الله ألَّا يحرم كل من تعاون معنا أو أرشد لقراءة هذا الكتاب أو تقديمه أو إهدائه، أو توصيله إلى أي جنسية أو ديانة أخرى، ونسأل الله العلي القدير ألَّا يحرم الجميع الأجر والثواب وأنْ يجعلنا من المقبولين يوم العرض والحساب، وأن يهدي كل خلقه من إنس وجان إلى الإسلام، وأن يعودوا إليه تائبين عابدين شاكرين لنعمه.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادروالمراجع

أ ـ المصادر العربية:

١ ــ القرآن الكريم.
٢ ــ ابن حجر العسقلاني: إطراف المسْنِد المعتلي بأطراف المسْنَد الحنبلي، تحقيق: زهير بن ناصر الناصر، دار ابن كثير ـ دار الكلم الطيب، دمشق ـ بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٣ ــ ابن ماجه: سنن ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية.
٤ ــ ابن هشام عبد الملك بن هشام بن ايوب الحميري: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ الشلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٥
٥ ــ أبو الأعلى المودودي: حقوق أهل الذمة في الدولة الإسلامية، دار الأنصار، مصر، ١٩٧٨م.
٦ ــ أبو داود (الإمام): سنن أبي داود، تحقيق: عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٩٩٧م.
٧ ــ أبو الريحان محمد أحمد البيروني: الآثار الباقية عن القرون الخالية، ليبزج، ١٨٧٨م.
٨ ــ أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم: كتاب الخراج، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩م.
٩ ــ أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري: تفسير القرآن العظيم، تحقيق سامي محمد سلامة، دار طيبة للنشر، ط٢، ١٩٩٩م.
١٠ ــ أحمد بن أبي بكر البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، تحقيق: عادل سعد والسيد محمود، مكتبة الرشد، الرياض، ط١، ١٩٩٨م.

١١ــ أحمد بن إدريس القرافي: الفروق (أنوار البروق في أنواء الفروق)، تحقيق ودراسة: محمد أحمد سراج وعلي جمعة، دار السلام للطباعة والنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

١٢ــ أحمد بن الحسين البيهقي: السنن الكبرىٰ: تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، ٢٠٠٣م.

١٣ــ أحمد بن حنبل الشيباني (الإمام): مسند الإمام أحمد تحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.

١٤ــ أحمد بن شعيب النسائي: السنن الكبرىٰ، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

١٥ــ أحمد بن القاسم المعروف بابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، د. ت.

١٦ــ أحمد بن علي المقريزي: المواعظ والاعتبار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن، ٢٠٠٢م.

١٧ــ أحمد بن علي المقريزي: اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا، تحقيق: جمال الدين الشيال، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٦م.

١٨ــ أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي: الإعلام بما في دين النصارىٰ من الفساد والأوهام، تحقيق: أحمد بن حجازي أحمد، دار التراث العربي، القاهرة، ١٩٨٠م.

١٩ــ أحمد بن يحيىٰ البلاذري فتوح البلدان، تحقيق: عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٠ــ إسماعيل بن كثير الدمشقي: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: مصطفىٰ السيد وآخرون، مؤسسة قرطبة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٠م.

٢١ــ عبد الله بن أحمد بن قدامة: المغني، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي وعبد الفتاح الحلو، دار عالم الكتب، الرياض، ط٣، ١٩٩٧م.

٢٢ــ علاء الدين ابن التركماني: الجوهر النقي مع السنن الكبرىٰ، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٤٦هـ.
٢٣ــ علي بن محمد بن الأثير: الكامل في التاريخ، تحقيق: مجموعة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٧م.
٢٤ـ العهد الجديد، مكتبة السائح، طرابلس لبنان، ١٩٩٥م.
٢٥ــ مبارك بن محمد بن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلوني، ط١، ١٩٦٩م.
٢٦ــ محمد أمين بن فضل الله المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي العشر، دار صادر، بيروت، د. ت.
٢٧ــ محمد بن إسماعيل البخاري(الإمام): صحيح البخاري، تحقيق: محب الدين الخطيب وآخرون، المكتبة السلفية، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ.
٢٨ــ محمد بن جرير الطبري: تاريخ الطبري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة.
٢٩ــ محمد بن حبان بن أحمد بن حبان: صحيح ابن حبان ترتيب الأمير علاء الدين علي بن بَلبان الفارسي المسمَّىٰ (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، دار باوزير، جدة، ط١، ٢٠٠٣م.
٣٠ــ محمد بن عيسىٰ الترمذي(الإمام): سنن الترمذي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.
٣١ــ مسلم بن الحجاج القشيري (الإمام): صحيح الإمام مسلم، تحقيق: نظر محمد الفارابي، دار طيبة، الرياض، ط١، ٢٠٠٦م.
٣٢ــ محمد بن علي الشوكاني: نيل الأوطار من أسرار منتقىٰ الأخبار، تحقيق: طارق عوض الله، دار ابن القيم ودار ابن عفان، الرياض ـ القاهرة، ط١، ٢٠٠٥م.
٣٣ــ محمد بن عيسىٰ بن سَوْرة بن موسىٰ بن الضحاك السلمي الترمذي (الإمام): سنن الترمذي، تحقيق أحمد محمد شاكر وآخرون، مطبعة مصطفىٰ البابلي، مصر ١٩٧٥

٣٤ـ محمد بن يوسف الصالحي: سبل الهدىٰ والرشاد، تحقيق: مجموعة من العلماء، المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، القاهرة، ط١، ١٩٩٧م.
٣٥ـ يوسف بن تغرىٰ بردي: المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي، تحقيق: محمد محمد أمين، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة.

ب ـ المصادر الأجنبية المترجمة

٣٦ـ كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية نقله إلىٰ العربية: نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨م.

ج ـ المراجع العربية:

٣٧ـ أبوبكر جابر الجزائري: عقيدة المسلم، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٧٨م
ـ أبو الحسن الندوي: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، مكتبة الإيمان، المنصورة، ٢٠١٢م
٣٨ـ أحمد أمين: ضحىٰ الإسلام، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، القاهرة، ٢٠٠٦
٣٩ـ أحمد عبد الوهاب: تعدد نساء الأنبياء ومكانة المرأة في اليهودية والمسيحية والإسلام، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٩٨٩م.
٤٠ـ إسرائيل ولفنسون: تاريخ اليهود في بلاد العرب، مطبعة الاعتماد، القاهرة، ١٩٣٤م
٤١ـ توفيق محمد سبع: قيم حضارية في القرآن الكريم، دار المنار، القاهرة، د. ت.
٤٢ـ جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار الفكر العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م.
٤٣ـ حربي عباس عطيتو، وحسان حلاق، العلوم عند العرب؛ أصولها وملامحها الحضارية، دار النهضة العربية، ١٩٩٥م

٤٤ــ حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، القاهرة،٢٠١٨م
٤٥ــ الحسيني الحسيني معدي: نماذج حية للمهتدين إلي الحق (من مشاهير العالم الذين أسلموا)، دار الكتاب العربي، دمشق، ط١، ٢٠٠٦م.
٤٦ــ حسن الشرقاوي: المسلمون علماء وحكماء، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٨م
٤٧ــ حكمت نجيب عبد الرحمن: دراسات في تاريخ العلوم عند العرب، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الموصل، العراق، ١٩٧٧.
٤٨ــ خليل البدوي: موسوعة شهيرات الإسلام، دار أسامة للنشر، عمان، ١٩٩٨م.
٤٩ــ السيد محمد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلىٰ الحوار، دار الأمين، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.
٥٠ــ سيف الدين شاهين: أدب الحوار في الإسلام، دار الأفاق، الرياض، ط١، ١٩٩٣م.
٥١ــ سعيد حوىٰ: الرسول صلىٰ الله عليه وسلم، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٨م
٥٢ــ طارق البشري: في المسألة الإسلامية المعاصرة، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٦م.
٥٣ـ عبد العظيم الديب: الاستشراق في الميزان، دار دون للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٤م مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.
٥٤ــ عبد الكريم زيدان: أحكام الذميين والمستأمنين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٨م
: المفصل في أحكام المرأة والبيت المسلم في الشريعة الإسلامية،

٥٥ــ عبد اللطيف محمد العبد: ردمزاعم المبطلين عن أصول الدين، دار الثقافة العربية، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ.
٥٦ــ عبد الله حسين الموجان: الحوار في الإسلام، مركز الكون، السعودية، ط١، ٢٠٠٦م.
٥٧ــ عبد السلام ياسين: الإسلام والحداثة، دار الأفاق، ط١، ٢٠٠٠م.
٥٨ــ عبد القادر الشيخلي : أخلاقيات الحوار، دار الشروق، الأردن، ط١، ١٩٩٣م.
٥٩ــ عبد النبي اصطيف: نحن والغرب؛ من صدام الحضارات إلىٰ الشراكة المعرفية، دار الآداب، دمشق، ٢٠٠١م.
٦٠ــ عبد الله ناصح علوان: معالم الحضارة في الإسلام وأثرها في النهضة الأوربية، دار السلام، القاهرة، ط٢، ١٩٨٤م.
٦١ــ عدنان علي رضا: حوار الأديان دعوة أم تقارب أتقارب أو تنازل، مطبوعات التضامن، القاهرة، ١٩٩٧م.
٦٢ــ عرفات كامل العش: رجال ونساء أسلموا، المكتب المصري الحديث، القاهرة، ٢٠٠١م.
٦٣ــ عصمت عبد المجيد: مواقف وتحديات في العالم العربي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.
٦٤ــ علي حسني الخربوطلي: الإسلام وأهل الذمة، المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، مصر، ١٩٦٩
ــ المستشرقون والتاريخ الإسلامي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٨م.
٦٥ــ علي نايف الشحود: المفصل في الرد علىٰ شبهات أعداء الإسلام، د.د.ن.
: موسوعة الرد علىٰ المذاهب الفكرية المعاصرة، د.د.ن، ٢٠٠٦.
٦٦ــ عمر رضا كحالة: أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام، مؤسسة الرسالة، بيروت، د. ت.

٦٧ــ فخري لبيب: صراع الحضارات أم حوار الثقافات، منظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية، مصر، ١٩٩٧م.
٦٨ ــ فهمي هويدي: مواطنون لا ذميون؛ موقع غير المسلمين في مجتمع المسلمين، دار الشروق، القاهرة، ط٢، ١٩٩٠م.
٦٩ــ قدري حافظ طوقان: الخالدون العرب دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٥٤م
٧٠ــ محمد أحمد إسماعيل: أدلة الحجاب، دار الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٢م.
٧١ــ محمد بهجت القيسي: فقه اللهجات العربيات، دار شمال، سوريا، ط١.
٧٢ــ محمد حميد الله: الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، (جمع)، دار النفائس، بيروت، ط٥، ١٩٨٥م.
٧٣ــ محمد البهي: الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٨، ١٩٨٥م.
٧٤ــ محمد السعيد عبد المؤمن: مدخل إسلامي لحوار الحضارات، بحث مقدم لندوة الإسلام وحوار الحضارات، مكتبة الملك عبد العزيز، الرياض، ١٤٢٣هـ.
٧٥ــ محمد عمارة: الصحوة الإسلامية والتحدي الحضاري دار الشروق، القاهرة، ط١، د. ت.
ـــ العرب والتحدي، دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٩٩١م.
ـــ حضارة أم حضارات، مجلة المسلم المعاصر.
ـــ هذا هو الإسلام، دار النهضة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٩٨م.
٧٦ــ محمد ياسين: ردود علماء المسلمين على شبهات الملحدين والمستشرقين، مكتبة الإيمان، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٩م.
٧٧ــ محمد حسين هيكل: حياة محمد، دار المعارف، القاهرة، ط١٤، د. ت.
٧٨ــ محمد عبد الرحمن مرحبا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الإسلامية، منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٠م.

٧٩ــ محمد عبد المنعم خفاجي: الإسلام والحضارة الإنسانية، دار الكتاب اللبناني،بيروت،١٩٨٢م.
٨٠ــ محمد كامل عبد الصمد: الجانب الخفي وراء إسلام هؤلاء، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م.
٨١ــ محمد سعيد البوطي: إلى كل فتاة تؤمن بالله، مكتبة الفارابي، دمشق، ط٤، ١٩٧٥م.
٨٢ــ محمد فهمي عبد الوهاب: محمد رسول الإسلام في نظر فلاسفة الغرب ومشاهير كتابه، تونس.
٨٣ــ محمد عبد الحليم عبد الفتاح: إظهار الحق... قساوسة وعلماء ومستشرقون أشهروا إسلامهم، دار الكتاب العربي، دمشق، د. ت.
٨٤ــ محمد إبراهيم الفيومي: الاستشراق في ميزان الفكر الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٩٤م.
٨٥ــ محمد عبد السلام كفافي: الحضارة العربية، طابعها، ومقوماتها العامة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٠م
٨٦ــ محمد الناصر وخولة درويش: المرأة بين الجاهلية والإسلام، دار الرسالة للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، ١٩٩٥م
٨٧ــ محمد فتحي عثمان: من أصول الفكر السياسي؛ دراسة لحقوق الإنسان مؤسسة الرسالة، القاهرة، ٢٠١٤م
٨٨ــ محمود حمدي زقزوق: الإسلام وقضايا الحوار، القاهرة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، ٢٠٠٢م.
٨٩ــ مصطفى السباعي: المرأة بين الفقه والقانون، المكتب الإسلامي، بيروت.
٩٠ــ مصطفى لبيب عبد الغني: الكيمياء عند العرب، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٥م
٩١ــ نادية محمود مصطفى مصر ومشروعات النظام الإقليمي الجديد في

المنطقة، مركز البحوث والدراسات السياسية، كلية الاقتصاد ـ جامعة القاهرة، ١٩٩٧م.
٩٢ـ ناريمان عبد الكريم: معاملة غير المسلمين، سلسلة تاريخ المصريين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦م.
٩٣ـ نبيل لوقا بباوي: انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء، دار البباوي للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م

د ـ المراجع الأجنبية المترجمة:

٩٤ـ آدم ميتز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة.
٩٥ـ توماس. و. أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧١م.
٩٦ـ جورج سارتون: تاريخ العلم والإنسية الجديدة ترجمة إسماعيل مظهر، دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة ـ ٢٠١٤م.
٩٧ـ جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سلسلة مكتبة الأسرة.
٩٨ـ زيغريد مونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة: فاروق بيضون وكمال دسوقي، دار الجيل، بيروت، ط٨، ١٩٩٣م.
٩٩ـ صامويل هنتنجتون: صدام الحضارات، ترجمة: طلعت الشايب، سطور، القاهرة، ١٩٩٨م.
١٠٠ـ فرانسيس فوكو ياما: نهاية التاريخ، ترجمة: حسين الشيخ، دار العلوم العربية، بيروت.
١٠١ـ موريس بوكاي: دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦م

هـ ـ المعاجم والقواميس والموسوعات:

١٠٢ ـ ابن منظور: لسان العرب، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٣، ١٩٩٩م
١٠٣ ـ الإمام الذهبي: معجم الشيوخ الكبير، تحقيق: محمد الحبيب الهيلة، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٩٨٨م.
١٠٤ ـ سليمان بن أحمد الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، د. ت.
١٠٥ ـ عبد الله بن محمد الطيار وآخرون: موسوعة الفقه الميسر، دار مدار الوطن للنشر، الرياض، ٢٠١١م

و ـ الدوريات العربية:

١٠٦ ـ فهمي هويدي: المسلمون وسيناريو الصراع بين الحضارات، مقالة، مجلة المسلم المعاصر، السنة ١٧، العددان ٦٧ ـ ٦٨، ١٩٩٣م.
١٠٧ ـ كمال السعيد حبيب: البعد العقدي في العلاقة بين الإسلام والغرب، صحيفة البيان الإماراتية، العدد (١٨٥) مارس ٢٠٠٣.
١٠٨ ـ محمود الشرقاوي: الإسلام وأثره في الثقافة العالمية، دورية دعوة الحق، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، عدد ١٦٠ ربيع الآخر ١٤١٦ هجرية.

ز ـ المخطوطات العربية:

١٠٩ ـ جابر بن حيان: كتاب الخواص الكبرىٰ، مخطوطات جامعة الملك سعود رقم ٥٤٠ ك.ع

د. علي بن سعد آل زحيفة الشهراني
a-s-z70@hotmail.com
مدينة خميس شهران
ص.ب ٧٧٦ – الرمز البريدي ٦١٩٦١

د. علي بن سعد آل زحيفة الشهراني

ولد سنة ١٣٧٩هـ في خميس شهران - المملكة العربية السعودية.

أ ـ الشهادات العلمية:

- درجة البكالوريوس في الشريعة والقانون عام ١٤٣٠هـ.
- درجة الدبلوم العالي في التحكيم الدولي، جامعة عين شمس، ١٤٣٠هـ.
- درجة الماجستير في الشريعة الإسلامية عام ٢٠١٣م.
- درجة الدكتوراه العلمية في الحضارة الإسلامية عام ٢٠١٦م.
- درجة الدكتوراه الفخرية من منظمة حركة السلام في القارة الإفريقية ٢٠٢١م.

ب ـ المؤلفات العلمية (الكتب):

١ - الدعوة إلىٰ الله العلام لانتشار دين السلام.
٢ - الإسلام والسلام وحوار الحضارات، ٢٠٠٩م.
٣ - الصبر علىٰ المصيبة فالأجر عليهما بلا ريبة. ٢٠٠٨م.
٤ - ديوان ابن الدمينة؛ صنعة أبي العباس ثعلب وابن حبيب، برواية الزبير بن بكار، (تحقيق ودراسة)، ٢٠٠٨م.
٥ - حكم وحضارة الملكين شهران بن نهفان وشهران بن بينون، ٢٠٠٩م.
٦ - عسير قبل الحرب العالمية الأولىٰ؛ تاريخها، قبائلها، شيوخها وأعيانها للكابتن (كيناهان كورنسواليس) تحقيق ودراسة، سنة ٢٠٠٧م.
٧ - موسوعة شهران العريضة (عشرة أجزاء).

وقد ترجمت بعض هذه المؤلفات إلىٰ اللغات العالمية كالإنجليزية والفرنسية والأوردية.

جـ- المقالات والأبحاث العلمية المنشورة:

١- حقيقة انتشار الإسلام؛ الشبهات والردود: المجلة الثقافية الجزائرية، عدد ٩/ ٩/ ٢٠٢١م.

٢- اللغة العربية، واليوم العالمي للاحتفال بها، المجلة الثقافية، ٢٠/ ١٢/ ٢٠٢١م.

د - العضويات والوظائف والمناصب:

١- عضو في مبادرة ولي العهد الأمير محمد بن سلمان للسلام والصلح.

٢- سفير السلام وحوار الحضارات، بالاتحاد الفيدرالي العالمي للسلام التابع لهيئة الأمم المتحدة.

٣- محكم في وزارة العدل السعودية.

٤- عضو في مركز صوت الوطن للدراسات والإعلام.

٥- عضو بقائمة الخبراء بمركز حقوق عين شمس للتحكيم (خبير في التحكيم الدولي).

٦- عضو لدى مؤسسة اليتيم التنموية المدعومة من حكام دول الخليج ومواطنيها.

٧- عضو المركز العربي الأوربي لحقوق الإنسان والقانون الدولي- النرويج.

٨- عضو الاتحاد العربي للقانونيين.

٩- عضو غرفة الدلتا للتحكيم الدولي والاستشارات التحكيمية.

١٠- عضو مركز (حماية) لدعم المدافعين عن حقوق الإنسان - مملكة النرويج.

هـ - الجوائز والتكريمات:

١ - جائزة التسامح الدولية لعام ٢٠١٦م من المركز العربي الأوربي لحقوق الإنسان والقانون الدولي.

٢ - خطاب شكر من الاتحاد الفيدرالي العالمي للسلام.

٣- خطابات شكر من مؤسسات اجتماعية عاملة في القطاع الإنساني.

٤- خطابات شكر من وزارة الدفاع السعودية على النشاط الوطني.

٥ - خطابات شكر متعددة من الحكومة الأمريكية.

٦- خطابات شكر متعددة من الحكومة السعودية لعدة تبرعات في العمل الخيري والإنساني والاجتماعي.

٧- خطابات شكر وتقدير من مؤسسة اليتيم باليمن .

مُحتويات الكِتاب

المحور الثاني

المحور الثالث

المحور الرابع